

# سارود

العدد 5 شتاء 2020

مجلة النقد الأدبي

سارود

تمثيلات التنكر

سارود

**SOROUD**

**سرود**

REVUE DE LA CRITIQUE LITTÉRAIRE  
NUMÉRO 5, HIVER 2020

مجلة النقد الأدبي  
العدد الخامس، شتاء 2020

**تمثيلات التنكر**

**REPRÉSENTATIONS DE DÉGUISEMENT**

سرود، مجلة النقد الأدبي، مُحكَّمة، بإشراف مختبر السرديات بالدار البيضاء  
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسك الدار البيضاء  
تصدر عن منشورات القلم المغربي. تنشر دراسات  
باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية والإسبانية. وتتبع  
التحكيم التخصصي المتعارف عليه في الدورات العالمية الأكاديمية.

#### الهيئة العلمية الاستشارية

أحمد بوحسن (جامعة محمد الخامس - الرباط)  
تشي شيوه بي (جامعة شمال غربي الصين للمعلمين)  
حميد لحداني (جامعة سيدي محمد بن عبد الله - فاس)  
كانز الو فرنانديز باربلا (جامعة أوتونوما بمدريد)  
عبد الواحد أكميز (جامعة محمد الخامس - الرباط)  
كريستيان عاشور شولي (جامعة سيرجي بوانتاس - فرنسا)  
عبد الله علوي المدغري (جامعة محمد الخامس - الرباط)  
نيبيس باراديلو ألونسو (جامعة أوتونوما بمدريد)  
مراديلس (المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية بباريس)  
كارميلو بيريس بيلتران (جامعة غرناطة)  
دان باراكا (جامعة كينيسيو - جورجيا)  
نينا مورغان (جامعة كينيسيو - جورجيا)  
جاكلين جانانو (جامعة ميري - تولوز)  
محمد عبيد (جامعة الدوحة - قطر)  
عبد القادر سبيل (جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء)

#### رئيس التحرير: شعيب حليفي

سكرتير التحرير: بوشعيب الساوري

هيئة التحرير:

عبد الفتاح الحمجوري (معهد تنسيق التعريب بالرباط)  
إدريس قصوري (جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء)  
الميلود عثمانبي (جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء)  
أحمد جيلالي (جامعة الحسن الأول - سطات)  
حسن المودن (جامعة القاضي عياض)  
عبد الواحد المرابط (جامعة القاضي عياض بمراكش)  
جمال بندحمان (جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء)  
سمير الأزهر (جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء)

مساعدو هيئة التحرير: إبراهيم أزوغ، سالم الفائدة،  
الحسين سيمور، عائشة المعطي، محمد محي الدين،  
عبد الحق ناجح، شريشي لمعاشي، سعيد غصان.

يتجدد ثلث هيئة التحرير والفريق المساعد كل ثلاث سنوات  
أعضاء هيئة التحرير والفريق المساعد لا ينشرون في المجلة

المساهمون في إخراج هذا العدد: عبد المجيد بوزيان (المغرب)، فرانسيسكو موسكو كارسيا  
(إسبانيا)، صالح هويدي (العراق)، وحيد بن بوعزيز (الجزائر)، محمد تنفو (المغرب)، عبد الله  
صديق (المغرب)، ديزيري لوبيز برنال (إسبانيا)، سعاد العنزي (الكويت)، محمد المسعودي  
(المغرب)، ماريا دولوريس رودريغس كوميز (إسبانيا)، نزار التجديتي (المغرب)، الميلود  
غرافي (فرنسا)، نورة بوقفطان (المغرب)، دانيال جيل بنوميا قلوبريس (إسبانيا).

المستشار القانوني: الأستاذ جلال الطاهر، المحامي بهيئة الدار البيضاء

التصميمات الفنية: الفنان التشكيلي ب. خلدون

الناشر: القلم المغربي الدار البيضاء

المطبعة: دار القرويين - الدار البيضاء

سرود، العدد 5 - 2020 - 300 صفحة

ملف الصحافة: عدد 06/2018 ص

رقم الإيداع القانوني: 2018 PE 0027

الرقم الدولي الموحد للدوريات (ردمد): 2605 - 6771

بريد المراسلة الإلكتروني: soroudmaroc@gmail.com

الموقع الإلكتروني: www.soroud.ma

العنوان: 18, Rue 14, Riad El Ali - Casablanca 20550 Maroc

الثمن: 50 درهما / 10 €

## المحتويات

5	..... تقديم
	دراسات بالعربية
7	عائشة المعطي: استكشافات سرية في إفريقيا: مستكشفون، جواسيس ورحالة في مناطق محرمة...
35	عبد الواحد أكميز: العدو يأتي دائما من الجنوب .....
45	عادل جاهل: بين المعرفة والتكر الصحراء الأطلنتية بعيون إسبانية .....
71	عبد المنعم بونو: ثلاثة جواسيس إسبان في مغرب القرن التاسع عشر.....
79	الزهرة إبراهيم: الرؤية السردية المستعارة في الطاهر لجان واليس بادوفاني .....
101	فيلامونا إيوس: الهويات المستعارة عند فرناندو بيسوا ترجمة فريدة الصمدي .....
	أنطوان إيشي: المسافر وأقنعتة: حالة السويديين عند جون بيير كروسلي
123	..... ترجمة محمد العافية العروسي
145	شعيب حليفي: الأقنعة المدهشة لعلي باي! .....
	علي باي في المغرب مسرحية تراجيدية من خمسة فصول (خريف 1815)، لعلي باي
165	العباسي (ضمونكو باضيا) ترجمة: عبد المنعم بونو وأحمد بن رمضان. ....
	دراسات باللغات الأجنبية
	أحمد عزيز حودزي: كشف القناع عن الخداع الاستعماري أو قيام مردوشي
47	..... بهجمات مضادة بالكتابة لمحكي شارل دي فوكو
	أحمد بلغزال: أقنعة شفافة ووجوه بليغة: أدريان باتروني
29	..... المستشرق المناهض للاستشراق في المغرب
19	نادية بالين: المغرب بعيون المحتل: من خلال رحلة خوليو ثيريرا باييرا .....
	محمد جليد: من هم أنداد بيسوا في كتاباته بالإنجليزية؟ قراءة في أطروحة ماري كولوم خيمينيز
7	..... عن الشخصيات الأدبية الإنجليزية عند فرناندو بيسوا

”سرود“، مجلة النقد الأدبي، تنشر مقالات باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية والإسبانية، وتخضع للتحكيم التخصصي المتعارف عليه في الدورات الأكاديمية.

تنشر الدراسات النقدية الأصيلة المهمة بمجال من مجالات النقد الأدبي، تنظيراً وتطبيقاً. مع التزام أن يكون البحث جديداً، لم يتم نشره في أي منشور ورقي أو إلكتروني؛ وموثقاً توثيقاً علمياً، وخاضعاً للمنهجية العلمية المتعارف عليها في كتابة المقالات.

– إعداد ملخص بأهم القضايا والمحاور التي تعالجها الدراسة (200 كلمة)، والكلمات المفتاح (باللغة العربية ولغة أجنبية، فرنسية أو إنجليزية). وكذا سيرة موجزة للكاتب تشير إلى اسمه الكامل وتخصصه وعمله وبلده، وآخر إنتاجه العلمي (100 كلمة).

– كل دراسة تتبع نظام العناوين الفرعية.

– يرسل البحث بالبريد الإلكتروني: soroudmaroc@gmail.com

#### الأعداد السابقة:

سرود 1- ربيع 2018: السرديات المعاصرة

سرود 2- ربيع 2019: ثقافة نص الرحلة

سرود 3- شتاء 2019: المقصدية في العلوم الإنسانية

سرود 4- ربيع 2020: سرد الأهواء

سرود 5- شتاء 2020: تمثيلات التنكر

#### الأعداد المقبلة:

سرود 6: البيوغرافيا التخيلية واللاتخيلية

سرود 7: البحث العلمي في الآداب واللغات والإنسانيات

سرود 8: النقد البيئي

## تقديم

تقوم فكرة العدد الخامس من مجلة سرود، على تفكيك الأقنعة التي كتبَ بها عدد من الأوربيين، من فرنسا إسبانيا وألمانيا وإنجلترا وإيطاليا وغيرها من البلدان، نصوصا عن الآخر بهويات مزيفة اتخذوا لها أسماء مستعارة من أسماء البلد المرتحل إليه، متنكرين في جنسيات أخرى. زاروا جل البلدان العربية وإفريقيا وآسيا، كما دونوا مشاهداتهم في نصوص متفاوتة القيمة، الأمر الذي تحول إلى ظاهرة أرست أنساقا ثقافية ورمزية مرتبطة بما هو تاريخي وثقافي وسياسي، وأنتجت خطابات الغيرية في مستويات ومقاصد ذات قواسم مشتركة.

إن التمثلات التي حفلت بها هذه النصوص "المتنكرة"، غنية من حيث أشكال الوعي وطبقات الصورة في سياق مشبع معرفة أوروبية تمتد من القرن السادس عشر إلى الآن، نظرا لما تحمله من آثار الوعي الجمعي المترتب في تراكم تاريخي، والوعي الفردي "الطارئ" والمتشكل، فجاءت مليئة بتمثلات متنوعة، ظاهرة وخفية، وأحيانا متصادمة وملتبسة بين الأصل والقناع، أو بين الأنا والآخر، وقضايا كثيرة، تتفاوت في النصوص بتفاوت ثقافات أصحابها والسياقات الخاصة والعامّة.

تقاطع، في هذا العدد، المغامرات الفردية والمشاريع الاستعمارية الأوروبية لتتشكل ضمن رحلات ومذكرات وتقارير ومراسلات ودراسات وكتابات صحفية ومسرحيات وأشعار، تؤرخ للأنا الكولونيالي الأوروبي وهو يبحث في الآخر وبيئته وكل رموزه الثقافية، وهو شكل لوجه أوروبا المتعطش للاستحواذ على قارة كاملة، عبر المعرفة وعمليات التجسس، فتضاعفت الكتابات الوثائقية في وقت مبكر. وبعد اكتشاف العالم الجديد، انتبه العقل السياسي والاقتصادي الأوروبي إلى ضرورة العودة إلى العالم القديم، في الجزء الجنوبي الذي يمثل الغير، بقوته البشرية وثوراته الطبيعية والمعدنية، فتأسس إطار قانوني. مرجعيات دينية وسياسية وإيديولوجية مفتاحه الاستكشافات التي تشرف عليها، ظاهرا، جمعيات جغرافية أو بعثات علمية، تسيورها وتمولها أعلى السلط والأجهزة في الدول الأوروبية وهي تنسق في ما بينها، فجهزت لهذه الاستكشافات رجالا من العسكر والجغرافيين وعلماء النباتات والأطباء ورجال الدين والرسمين والمثقفين، مهمتهم التجسس عبر التسلل والتنكر قصد جمع المعلومات عن الأرض والإنسان والذهنيات

والثقافات واللغة وطبيعة الحكم ووضعيته ، فكانت مهمتهم مغامرة محفوفة بمخاطر افتضاح هوياتهم الأصلية، لذلك كان هؤلاء المستكشفون يخضعون للتدريب على مجموعة من الأساليب وقراءة تقارير من سبقهم واكتسابها، ثم الاستعداد لترتيبات إحداث شخصية جديدة مقبولة في العالم المرتحل إليه ، حتى يصبح المتنكر مؤهلاً لممارسة الكذب والحيلة والدهاء بالإضافة إلى المعارف الحديثة في توظيف بعض علوم الطبيعة والنجوم والطب والهندسة والأسلحة والتنظيم العسكري لإقناع الغير والتسلل إلى أماكن صنع القرار.

شهد خطاب المتنكر تنوعاً لافتاً من حيث أشكال التعبير التي هي أيضاً أقنعة تعبيرية، والتي حققت في بعض منها جمالياتها المتفردة، شأن بعض الرحلات والمذكرات، أو في اتخاذ قناع الشكل المسرحي مع ضومينكو باديا (علي باي العباسي) من خلال نص يعبر فيه عن كل تلك الهواجس التي يلتقي فيها شغف المغامر بطموحات الاستعمار الأوروبي، وقد أدرجنا النص تمثيلاً لهذا النوع الذي اختاره علي باي؛ وفي مقابل كل هذا، وعلى المستوى الإبداعي والفكري، وفي سياق ثقافي آخر سيجد بعض الأدباء والنقاد والمفكرين في التنكر بأسماء مختلفة وسيلة لإخفاء هوياتهم الحقيقية عن قمع الحاكم ، مثلما اشتهر في ذلك ميخائيل باختين، أو وسيلة للعب الشعري والثقافي والتأسيس لهويات متعددة من داخل هوية واحدة، كما اشتهر بذلك الشاعر البرتغالي فيرناندو بيسوا وأقنعتة المتعددة وما تحتمله من إشكالات ثقافية وفلسفية.

# استكشافات سرّية في إفريقيا مستكشفون، جواسيس ورحالة متنكرون في أماكن محرّمة لفرناندو بيّانو غونثالو

عائشة المعطي<sup>1</sup>

ملخص:

يقدم هذا المقال ملخصاً لكتاب استكشافات سرّية في إفريقيا والذي جمع فيه فرناندو بيّانو غونثالو عُصارة أبحاثه حول الرحالة المتنكرين من مختلف الجنسيات والذين كان حبّهم للمغامرة والترحال أكبر من مخاوفهم. هؤلاء الرحالة الذين دخلوا إلى أماكن ممنوعة في إفريقيا خدمة لحكومات بلدانهم أو تلبية لرغبة وفضول شخصي لاكتشاف الآخر، ثم عادوا حاملين معلومات قيّمة عن الأماكن التي زاروها أو أنهم حملوا معهم سرّهم إلى الأبد، كانت لهم قدرة خارقة على العيش تلقائياً بقناع أو أقنعة يصعب على الآخر أن يزيلها عنهم، بل أحياناً يجدون أنفسهم غير قادرين على الانسلاخ عن ذلك القناع الذي أصبح جزءاً منهم ومن شخصيتهم.

يقتفي هذا الكتاب أثر هؤلاء المغامرين إنطلاقاً من مذكراتهم وكذا من مختلف التقارير والمراسلات والدراسات التي أُجزّت حولهم ليكون بذلك موسوعة شاملة متخصصة في الرحلة التنكرية خصوصاً أن الكاتب خصّص كتاباً آخر للرحالة المتنكرين الذين دخلوا إلى آسيا.

الكلمات المفاتيح: الرحلة، إفريقيا، التنكر، المغرب، تمبوكتو، الصحراء، الخوف، القناع.

1 - عائشة المعطي أستاذة باحثة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسك، الدار البيضاء. مترجمة ومتخصصة في الأدب الإسباني واللاتيني-الأمريكي ومهتمة بأدب الرحلة والعلاقات الثقافية المغربية-الإسبانية-الأمريكو لاتينية.



## Abstract:

*This article provides a succinct reading of «Secret explorations in Africa» in which Fernando Ballano Gonzalo collected the result of his research on the disguised travellers from different nationalities, whose passion for adventure and travel was greater than their fears. These travellers had the extraordinary ability to live spontaneously with a mask or masks that the others could not remove from them, and sometimes they found themselves unable to escape from that mask that became part of them and part of their personality.*

*Gonzalo's book traces these adventurers from their memoirs as well as from the various reports, correspondences and studies that have been completed around them. Thus making it a comprehensive encyclopedia specializing in disguised journeys, especially since the writer devoted another book to the masked travellers who entered Asia.*

**Key words:** Journey - Africa - Masquerade - Morocco - Timbuktu - Sahara - Fear - Mask - Travel

## 1 – توطئة

يُعدّ كتاب استكشافات سرية في إفريقيا وتوأمة استكشافات سرية في آسيا من أبرز الكتب التي تناولت الاستكشافات والرحلات التنكرية نظراً لعدد الكبير من الرحالة المتكرين الذين تناولهم الكتاب، ودقة المعلومات التي تم تدوينها بخصوص كل واحد منهم، انطلاقاً من مذكراتهم ومن العديد من الوثائق والمراجع التي اعتمد عليها فرناندو بيانو لتأليف كتابه هذا. وتعود ميزة هذا الكتاب إلى تخصص مؤلفه فرناندو بيانو غونزالو<sup>2</sup> الذي يجمع بين اهتمام ودقة معلومات المؤرخ وبين شغف وحب الاستكشاف لدى الرحالة.

ويقع كتاب استكشافات سرية في إفريقيا الذي صدر سنة 2013 عن دار النشر نوتيلوس Nowlilus في 304 صفحة من الحجم المتوسط، ويجمع بين دفتيه سير أكثر من عشرين رحالة متنكر، المعروفين منهم والمغمورين. وينقسم الكتاب إلى ثلاثة فصول، يتناول الفصل الأول الرحلات التنكرية إلى المغرب وقد اختار له الكاتب عنوان المغرب: الجار الذي يتعذر الوصول إليه؛ فيما يتطرق الثاني إلى الرحالة الذين تجرؤوا على التوغل بعيداً في إفريقيا ودخلوا تمبوكتو، المدينة المحرمة وسط الصحراء القاتلة. فيما ينفرد الفصل الثالث والأخير بالتعريف

2 – فرناندو بيانو غونزالو Fernando Ballano Gonzalo رحالة وأستاذ التاريخ، ولد في صوريا Soria باسبانيا سنة 1956، اشتغل في العديد من الدول (السويد، النرويج، بريطانيا، فرنسا، الولايات المتحدة). كما اشتغل واستكشف العديد من الدول الإفريقية من بينها المغرب.

بالمستكشفين المتكبرين الذين زاروا إفريقيا جنوب الصحراء، عالم صعب الاختراق، كما استهل الكاتب غوثالو بيانو كتابه هذا بنبذة موجزة عن تاريخ علم الخرائط.

## 2 - مقدمة

إذا كان عالم الاستكشاف عالما مثيرا وحياة المستكشفين أكثر إثارة، فدعونا نتصور كيف يمكن أن يكون سفرهم إلى أماكن محظورة. فخلال رحلة هؤلاء المستكشفين، الرحالة والجواسيس، نحو المجهول، كان يرافقهم دائما، وفي كل لحظة، خطر اكتشاف هويتهم الحقيقية، مما سيرفضهم للموت في أغلب الأحيان. فالإنسان، بطبعه، يحب استكشاف عوالم جديدة ليعرف ما وراء الأفق. وكانت وراء الاستكشافات الجغرافية، الرغبة في الاكتشاف في حد ذاته، ولكن الأهداف التجارية وعامل الربح كانت أكبر، سواء من جانب الدول أو الشركات التجارية أو الأفراد أنفسهم. ولكن المستكشف غالبا ما استعمل وعدّ مجرد أداة بسيطة من أجل تحقيق هذه الأهداف. أما الرحالة عموما - كفرد - فغالبا ما يسعى إلى الاستكشاف الجغرافي في حد ذاته. فكان العديد منهم يترك وراءه بلده وعائلته وممتلكاته من أجل البحث عن شيء مجهول، ربما يكون هو البحث عن ذواتهم... من يدري؟ فالإنسان كائن معقد جدا.

يتميز كل الرحالة في هذا الكتاب بكونهم عبيدين، مهوسين بالسفر والمغامرة ويتحدون كل المخاوف، مما يجعلهم ويجعل سيرتهم استثنائية، فهم أوفياء لمهمتهم، أذكاء ودعاة، يتقنون لغات متعددة، مرنون في تعاملهم، ولديهم قدرة عالية على التكيف والتأقلم مع الأوضاع وفي مختلف المواقف والسياقات والأمكنة التي يضطرون للوجود فيها. وكان أغلب هؤلاء الرحالة، خلال تنقلاتهم، وحيدين، غريبين الأطوار، قابلين لأن يُشتبه في أمرهم. ومن الواضح، من خلال مذكراتهم، أنهم عانوا داخليا من الخوف والإجهاد الجسدي والنفسي. ورغم كونهم يتمتعون بقدرة هائلة على ضبط النفس في المواقف الصعبة والاندماج بل والانصهار في محيطهم الجديد، (رغم ذلك كله) فقد أثرت هذه الأحاسيس المتناقضة على صحتهم الجسدية والنفسية، سواء على المدى القريب أو المتوسط أو البعيد.

لقد تمّت جميع الاستكشافات السرية في إفريقيا في أراضي المسلمين، في الوقت الذي كان فيه دخول غير المسلمين إليها أمرا محظورا، وهذا المنع كان أمرا مستجدا فقط مع بداية القرن السادس عشر، إذ أن قبل هذه الفترة

كان المسيحيون يدخلون إلى الأراضي الإسلامية دون أن يشكل ذلك خطرا على حياتهم، فقد ذكر ابن بطوطة، مثلا، خلال رحلته إلى النيجر أنه التقى بمسيحيين هناك، كما ذكر الإيطالي أنطونيو ملفانطي Antonio Malfante وهو مَصْرْفِي، أنه أرسل إلى إفريقيا وجال في بعض مناطقها ليعرف مصدر حصول العرب على الذهب، ومن جهة أخرى ذكر الطيب الفرنسي أونسلم دو إيسالغبي Onselm de Isalguier أنه قام بجولة في الصحراء بين 1402م و1403م، ويذكر التاجر الإيطالي بندتّي دي Benedetti Dei أنه كان في تمبوكتو سنة 1470م حيث كان يبيع بعض الأقمشة الحريرية. وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر سيختفي أثر المسيحيين في هذه الأراضي إلا من أثر بعض الأسرى مثل ثربانطس<sup>3</sup> Cervantes ومارمول<sup>4</sup> Marmol .

مع نهاية القرن الثامن عشر، سيعود اهتمام الأوروبيين باستكشاف البلدان الإفريقية والعربية الإسلامية. وفي هذه الفترة، كان هناك من استطاع زيارة المغرب بطريقة هادئة كما هو الشأن بالنسبة للطبيب الإنجليزي وليام لومبزيير William Lampriere الذي تم استدعاؤه لعلاج ابن السلطان سنة 1789م، وتنقل في العديد من المدن المغربية رفقة مرشد حكومي حتى وصل إلى مراكش، الشيء الذي أتاح له الفرصة ليستكشف هذه المناطق وينشر كتابه رحلة إلى المغرب سنة 1791.

لقد أراد المؤلف من خلال هذا الكتاب تقديم تحية خاصة لمجموعة من المستكشفين المنسيين في بلدانهم. فالكل يعرف ليفنستون Livingstone وستانلي Stanley وبورتون Burton، ولكن القليلين جدا هم من يعرفون ضومنغو باديا Domingo Badía أو خوصي دي مورغا José de Murga أو إيميليو يونلي Emilio Bonelli أو خواكين غاتيل Joaquín Gatell وغيرهم. ومن جهة أخرى، يظهر كأنما إسبانيا لم تستكشف إلا أمريكا في حين أن الواقع غير ذلك، وهذا ما أظهره المؤلف في هذا الكتاب.

### 3 - المغرب جار يتعذر الوصول إليه

رغم موقعه القريب جدا من أوروبا ومن إسبانيا خصوصا، فالمغرب كان دائما جارا يصعب الوصول إليه. فبعد الغزو الإسلامي السريع لشبه الجزيرة

3 - لويس دل مارمول كربينال Luis delMarmolCarvajal تم أسره بالجزائر لمدة ثماني سنوات، تنقل في كل بلدان شمال إفريقيا. ألف كتاب وصف عام لإفريقيا الذي اعتبره النقاد تمة لكتاب وصف إفريقيا لحسن الوزان.

4 - ميغل دي ثربانطس Miguel de Cervantes الكاتب والروائي الإسباني مبدع رواية دون كيشوت. أمضى خمس سنوات أسيرا بالجزائر وكتب عن هذه المرحلة من حياته.

الإيبيرية في 711م ، بدأت حملات استرداد بطيئة ومتقطعة من قبل مختلف الممالك الإيبيرية. وفي 1246م احتلت مملكة قشتالة مدينة مورثيا Murcia، الشيء الذي جعل مملكة أراغون Aragón غير قادرة على السير نحو الجنوب. ثم استمرت في الاستيلاء على مناطق الجنوب سيرا نحو الأبيض المتوسط حتى احتلت سيسيليا Sicilia سنة 1282م. وقد كان هدف كل من القشتاليين والأراغونيين هو التحكم في شمال إفريقيا، ولتفادي الصراع بينهما، وقعا اتفاقية سنة 1291م تقضي بأن يكون نهر ملوية بمثابة الحدود بين الطرفين بحيث يكون الغرب للقشتاليين والشرق للأراغونيين.

لكن، مع اكتشاف أمريكا، تمّ نسيان إفريقيا، باستثناء القرصنة التي استمرت خلال القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، وبعد سقوط غرناطة وخاصة بعد طرد المورسكيين، أصبحت العلاقات الإسبانية المغربية أكثر صعوبة، وتوترا، إذ بدأ القراصنة المحتمون بموانئ شمال إفريقيا يختطفون النصارى من البحر أو من داخل الأراضي الأوروبية. ولمنع هذه القرصنة، احتلت إسبانيا بعض الثغور على ساحل الشمال الإفريقي مثل مليلية، القصر الكبير، طرابلس ووهران... لكن هذه التخوم كانت مشكلا في حد ذاته نظرا للبعد بينها وبين المركز الشيء الذي يطرح مشكل الإمدادات، فبدأت إسبانيا تفقدتها تدريجيا.

أما البرتغال التي أنهت حروب الاسترداد في 1249م، فقد كرّست كل الجهود لاستكشاف الجنوب في بداية القرن الخامس عشر، هكذا استولت على طنجة وسبتة، مدينتين استراتيجيتين لهما أهمية كبرى في مراقبة جبل طارق والتحكم فيه، ثم توالى استكشافاتها نحو الجنوب لتستولي على جزر ماديرا Madeira والرأس الأخضر Cabo Verde، وفي 1494م بعد اكتشاف أمريكا، توصلت إسبانيا والبرتغال، بتدخل من البابا، إلى حل لتقسيم العالم غير المسيحي، فاحتفظت إسبانيا بكل من أمريكا وإفريقيا واحتفظت البرتغال بآسيا. وخلال القرن السادس عشر، ترددت البرتغال بين غزو الهند أو الاستيلاء على المغرب والذي كان آنذاك يسمى بلاد البرابرة ويشمل الساحل الجزائري، تونس، المغرب وليبيا. حاولت البرتغال استغلال الحروب والصراعات بين سلاطين وملوك مراكش وفاس للتسلل إلى المغرب لكنها فشلت. وفي بداية سنة 1574م، اجتمع الملك سباستيان Sebastian مع الملك فيليب الثاني Felipe II وأقنعه هذا الأخير بإرسال بعثة لتستطلع الشأن العسكري في المغرب، هكذا تم إرسال فرانسيسكو دي ألدانا Francisco de Aldana إلى شمال المغرب ليتفقد

الأمر. ومع هذا الرحالة ستبدأ سلسلة من الرحلات التنكرية لمعرفة المغرب بأهداف استعمارية واضحة.

3-1 - فرنستطو دي ألدانا (1577) وذيغوي دي طورس (1577): شاعر جال المغرب متنكرا في زي يهودي وفكاك الأسرى وجواسيس فليب الثاني

لقد حكم فيليب الثاني إسبانيا ما بين 1556م و1598م في مملكة وصفت بأن الشمس لا تغرب عنها، وقد أنشأ شبكة من الجواسيس الذين كانوا يخبرونه بمخططات العدو، وتسمى بالمجلس السري يرأسه الملك وكانت لكل واحد داخل المجلس مهام معينة حيث نجد مثلاً رئيس الجواسيس والجاسوس الأكبر، إلى غيرها من الرتب والمسؤوليات، وقد عدّه العديد من المتخصصين (أي المجلس) كمؤسسة ضرورية إذا أخذنا بعين الاعتبار الظرفية التاريخية التي كانت تمر منها إسبانيا آنذاك في حروبها المستمرة مع كل من فرنسا وإنجلترا والأتراك.

وقد اعتمدت إسبانيا السجناء الذين ارتدوا عن المسيحية (وأسلموا) لتجنس على الأتراك، كما كان الشأن مثلاً مع سيمون ماسا Simon Massa أو غريغوريو براغانطي Gregorio Bragante اللذين كانت لهما علاقات مع المبعوثين لافتداء الأسرى أو مع بعض التجار الإسبان. وبعض هذه التفاصيل يرويها الكاتب خيسوس سانتشيت أداليد Jesus Sanchez Adalid في كتابه الباب العالي إذ يحكي مغامرات سجين قبض عليه في إسطنبول وتم الاتصال به من قبل شبكة جواسيس فيليب الثاني. تظاهر باعتناقه للإسلام ودخل في خدمة السلطان وتوصل إلى معلومات قيمة ساعدت إسبانيا على هزم الأتراك في مالطا سنة 1565م. كما كانت إسبانيا تستغل اليونانيين عبر التنكر في زي تجار خلال ذهابهم وإيابهم بين جزر المتوسط للحصول على معلومات حول تحركات الأسطول التركي. وكان رجال الدين الذين يتفاوضون لفك الأسرى يقومون بدور الجواسيس حيث يستغلون الأشهر التي تستغرقها المفاوضات للحصول على أكبر قدر من المعلومات.

أما الجاسوس الأكثر شهرة في عهد فيليب الثاني فهو فرنسكو دي ألدانا (Francisco de Aldana<sup>5</sup> 1578-1537)، وكان عسكرياً قام بمهمة سرية في المغرب متنكراً في زي تاجر يهودي.

5 - يشير الكاتب هنا إلى تاريخ دخول الرحالة إلى البلد الذي يزوره، فيما تشير التواريخ الأخرى إلى سنة ميلاد ووفاة الرحالة.

ولد فرانتيسكو دي ألدانا سنة 1537م، حسب بعض الوثائق في نابولي، حيث كان أبوه يشتغل كجندي هناك، ولكن حسب وثائق أخرى فهو ولد في بلنسية Valencia. إلا أن كل هذه الوثائق تتفق على كونه أمضى طفولته وشبابه بإيطاليا، ودرس اللغات القديمة ليلتحق فيما بعد بالجيش ويحارب ببسالة لافته في معركة سان كونتان San Quintin ضد الفرنسيين لِيتمَّ تقديمه إلى الملك كارلوس الأول الذي هناه على شجاعته. طلب منه الملك فليب الثاني (وكان مستشارا وصديقا له) أن يساعد ملك البرتغال في مخططاته للاستيلاء على المغرب. كان خلال مرحلة من الرحلة، مرفوقا بدييغو دي طورس (1580- Diego de Torres) الذي كان على دراية كبيرة بالمغرب إذ سبق وأن اشتغل كرجل دين وفكاك للأسرى، وقد أمضى أربع سنوات متنقلا في كل أرجاء البلاد، الأمر الذي ساعده على تعلم اللغة ومعرفة التقاليد والعادات. ألف كتابا قيما يجمع فيه رحلاته وهو بعنوان: عرض لأصل وأحداث الشرفاء وممالك مراكش، فاس وتارودانت.

وكان دييغو دي طورس الذي قدّم تقريرا تجسّسيا مفصّلا عن المغرب يودّ أن يُصبح هذا البلد جزءا من البرتغال (كان في خدمة ملك البرتغال خوان الثالث Juan III). وفي 1577م، رافق فرانتيسكو دي ألدانا ليتفقدا الموانئ ويقفا على نقط الضعف والقوة في المغرب. تنكّر الاثنان في زي تاجرين يهوديين لأن هؤلاء يشتهرون بالتجوال في كل المناطق المغربية لبيع سلعهم. عاد طورس إلى إسبانيا مريضا وأمره الملك فيليب الثاني أن يخبر ملك البرتغال سباستيان Sebastian بأن رحلته كانت سلبية كي لا يقوم هذا الأخير بغزو المغرب حاليا. لكن الملك سباستيان أقنع الرحالة بضرورة القيام بذلك واقترح عليه مرافقته. وأرسل ملك البرتغال إلى ملك إسبانيا يطلب منه تعزيز جيشه بجنود إسبان؛ الأمر الذي لم يفعله فليب الثاني إلا متأخرا لأنه لم يكن موافقا على الغزو في التوقيت الذي قرره ملك البرتغال. وعندما دخل الجيش البرتغالي إلى أصيلا منح الملك القيادة لألدانا Aldana إلا أن الجيش البرتغالي كانت تنقصه التجربة إضافة إلى كونه وُجد محاصرا بجيوش السلطان. انهزم الجيش البرتغالي وقتل الملك سباستيان والسلطانان المغربيان (لهذا سميت بمعركة الملوك الثلاثة) وتوفي شاعر النهضة وقائد جيش سباستيان والرحالة الإسباني فرنسيسكو دي ألدانا Francisco de Aldana في 04 غشت 1578م في معركة القصر الكبير. أما طورس فقد استطاع العودة إلى إسبانيا وأكد للملك فيليب الثاني أن هزيمة البرتغال مردّها إلى عدم

إرساله للجيش والبطون في الوقت المناسب وأن ملك البرتغال لم يُسلم قيادة الجيش لألدانا قبل مغادرة الأراضي البرتغالية ليتسنى له تنظيمه.

وقد عاد طورس إلى المغرب في مناسبات أخرى كفكاك للأسرى. وبعد عودته من آخر رحلة سنة 1586م، استقر بمدريد حيث توفي بعدها بقليل. تكلفت زوجته إيسابيل دي كينخادا Isabel de Qujada بنشر كتاب رحلاته في نفس السنة.

2-3 - ضومينغو باديا ليليش (1767-1818): الرجل الذي أراد أن يصبح

### سلطان المغرب<sup>6</sup>

لقد استولت إسبانيا على كل من الحسيمة (1663م) وسبتة (1668م) بعد أن كانتا في حوزة البرتغال. وفي المغرب، وبعد وفاة السلطان سنة 1789م، بدأت مرحلة من عدم الاستقرار في البلد الجار نظرا للصراعات حول الحكم داخل البلاط الشريفي.

وفي سنة 1779م، حرق سلطان المغرب الاتفاق المبرم بين البلدين محاولا استرجاع مدينتي سبتة ومليلية، مما أسفر عن إعلان الحرب بين البلدين، لكن قبل أن تتمكن إسبانيا من إعداد الجيش وإرسال المساعدات إلى المنطقة، رفع السلطان الحصار في 30 ماي 1780م وتم توقيع اتفاق آخر. غير أن وصول السلطان مولاي سليمان، المتشدد دينيا، ساهم في تأزم العلاقات أكثر مما كانت عليه. وفي هذا السياق سيظهر على باي العباسي أو ضومينغو باديا.

ولد ضومينغو باديا سنة 1767م برشلونة، من أب عمل سكرتيرا لحاكم منطقة برشلونة، رافق والده في كل تنقلاته وخاصة إلى غرناطة حيث تم تكليف أبيه بتعزيز نظام الدفاع في الأبراج ومراقبة الشواطئ، الشيء الذي زاد من اهتمام ضومينغو بالسفر وبالرغبة في معرفة الآخر على الضفة المقابلة، ورغم أن والده كان يشجعه على الاهتمام بدراسة علم الإدارة، إلا أن ميوله إلى الجغرافيا والفلك والفيزياء وعلم النبات جعله ينضم إلى إحدى الجمعيات المهمة بالدراسات العلمية والتطور الاقتصادي وهو في سن التاسعة عشرة.

وكان أبوه قد أدخله إلى مدرسة فيون الرسم في 1780م، الشيء الذي سيساعده كثيرا خلال رحلاته حيث سيوثق بالرسمات كل الأماكن التي يمرُّ منها أو الأشياء التي سيراهها. كان يُسخر كل أوقات فراغه لدراسة مختلف العلوم

6 - يتناول الكاتب سيرة هذا الرحالة في كل من كتاب استكشافات سرية إلى إفريقيا وإلى آسيا نظرا لأهمية رحلاته.

من جغرافيا وفلك وفيزياء ورياضيات وعلم الأرصاد والنباتات. وتميز بكونه سريع الحفظ والاستيعاب ودقيق الملاحظة، يحرص على تدوين كل أفكاره عن طريق الكتابة والرسم معا. في 1795م، حاول إطلاق منطاد صنعه بنفسه لكن عاصفة حالت دون ذلك، وفي محاولة ثانية، أصيب فيها بحروق. إلا أن هذا لم يُحبطه بل استمر في التعمق في دراسة شتى العلوم. وفي سن الثامنة والعشرين من عمره، قرر الاستقرار بمديرية حيث جهز خطة للاستيلاء على البرتغال، لكن لم يُعزّه الحكام أي اهتمام، رغم أنه في 1800م أعلنت إسبانيا الحرب على البرتغال تحت ضغوطات فرنسية.

في سنة 1800م، نشرت له المطبعة الملكية ترجمة كتاب معجم روائع الطبيعية الذي أنجزها عن اللغة الفرنسية. تأثر ضومينغو باديا كثيرا برحلات مونغو بارك Mungo Park الذي خرج للبحث عن منبع نهر النيجر بتكليف من الجمعية الإفريقية بلندن، لكنه لم يتوفق في مهمته وقتل في نيجيريا (حاليا) بعد أن هاجم المحليون مركبه، وبعد أن فقد أربعة وأربعين من مرافقيه الأوروبين.

أما في المغرب، فبعد أن تولى مولاي سليمان الحكم سنة 1795م، رفض كل أنواع المبادلات التجارية مع النصارى. بما في ذلك تصدير القمح إلى إسبانيا. ورغم التوصل إلى اتفاق جديد سنة 1799م إلا أن السلطان لم يُنفذ بنوده. وكانت الحاجة إلى قمح المغرب جد كبيرة لدرجة أنه أعطيت الأوامر للسفير الإسباني أن يُبادل القمح بسبته ومليية إلا أن طلبه قوبل بالرفض. فتوقفت العلاقات بين الجارين. وفي هذه الظرفية ذاتها، قدم ضومينغو باديا للوزير الأول الإسباني مانويل غودوي Manuel Godoy مشروعا أسماه خطة الرحلة إلى إفريقيا لأهداف سياسية وعلمية يشرح فيها خطته للدخول إلى المغرب بزى إسلامي، وكان هدفه استكشاف المغرب وموريتانيا وصولا إلى مالي والمدينة المحرمة تومبوكتو وكذا الدخول إلى بلدان إفريقيا جنوب الصحراء بالإضافة إلى تتبع مسار نهري النيل والنيجر.

ونظرا للمشاكل الكثيرة الموجودة بين إسبانيا والمغرب، فقد وافق غودوي Godoy، سريعا، على مشروع باديا الذي اقترح في خطته أن يكون مرفوقا بسيمون دي روخاس كلميتي Simón de Rojas Clemente وهو عالم نباتات ولغوي علم علي باي اللغة العربية في مدريد.

عُرِضَت الخطة على الأكاديمية الملكية للتاريخ التي رفضت هذا المشروع. إلا أنه رغم القرار السلبي للجنة، فقد قرر غودوي Godoy إعطاء الإذن لباديا



على أساس أن يجعل الرحلة سياسية تحت غطاء ذي طابع علمي. وهكذا خرج من مدريد متوجها إلى فرنسا في 12 ماي 1802م حيث اشترى معدات خاصة بالقياس وعلم الفلك والأرصاء وتدريب على استعمالها، ليتوجه بعد ذلك إلى لندن مستكملا شراء المعدات كما خضع لعملية الختان، وهي فكرته حتى لا يتم اكتشافه بأي شكل من الأشكال. هناك أيضا طلب أن يجهزوا له ثيابا إسلامية على الطراز العثماني له ومرافقه سيمون، وأطلق على نفسه علي باي بن عثمان، خرج مع مرافقه من لندن في 23 أبريل 1803م بزيه الإسلامي وباسمه العربي وأبحر نحو قادس Cadiz وهو يدعو ويصلي أمام الملاء. في إسبانيا سيلتقي بمبعوث غودوي الكولونيل أموروس Amoros الذي سيتواصل معه دائما من خلال نائب القنصل بموغادور (الصويرة) وهو أنطونيو رودريغث سانتشيث Antonio Rodriguez Sánchez.

بلغ الكولونيل أموروس Amoros تعليمات غودوي Godoy إلى الرحالة باديا لتكون الرحلة ذات طابع سياسي (وليس علميا كما اتفق) الهدف منها إخضاع المغرب لسيطرة إسبانيا. كما أمره بأن يتخلى عن مرافقه دون إخباره. أرسل باديا كلمنتي Clemente في مهمة خارج المدينة ليتسنى له الإبحار بمفرده. دخل باديا Badia إلى طنجة في 29 من يونيو 1803م بصفة مسلم سوري من حلب، أمضى حياته بأوروبا لطلب العلم لكنه حافظ على هويته العربية ودينه الإسلامي.

عندما زار السلطان مدينة طنجة في 5 أكتوبر 1803م، قدم إليه دومينغو باديا مجموعة قيمة من الهدايا من بينها بندق من صنع إنجليزي ومسدسات وأتواب حريرية وغيرها. أعجب السلطان بشخصية باديا خاصة بعد أن أظهر درايته بشتى العلوم وتنبأ بالخسوف وشرح طريقة وقوعه وطمأن السلطان بأن وقوعه لا يؤثر سلبا على أحداث السنة.

طلب السلطان من باديا أن يلحق به إلى فاس ومكناس. ولكن باديا قبل مغادرته لطنجة، التقى بأموروس واتفق معه على التحريض على انتفاضة ضد السلطان لينصب نفسه على حكم المغرب. التحق علي باي بالسلطان في فاس وأصبح صديقا حميما له حسب ما ذكره في كتابه وكذلك نقلنا عن القنصل الفرنسي والانجليزي. بعد استقراره بمراكش حيث أهداه السلطان قصر الشمالية، بدأ في التخطيط لثورة ضد السلطان باتفاق مع بعض شيوخ القبائل، كما صاغ وطالب (كتب نموذجاً) بضرورة وجود دستور مغربي يضمن

الحريات وبرلمانا بغرقتين. وكان علي باي أو الشيطان كما يسمّى في الوثائق الاستخباراتية، قد اقترح على السلطان أن يطلب مساعدة وتدخل إسبانيا لإنهاء ثورات القبائل، إلا أن السلطان مولاي سليمان، نظرا لكرهه للنصارى عموما، طلب منه أن يجد خطة لاسترجاع إسبانيا إلى سيطرة المسلمين.

والمثير للانتباه أن ملك إسبانيا لم يوافق على مخططات علي باي ورئيس الحكومة مانويل غودوي، وانتهى به الأمر أن يعطي أوامره لوقف تحركات الرحالة. وحسب ما جاء في مذكراته وفي بعض الوثائق الاستخباراتية، فإن علي باي الذي كان يرى أنه أصبح قريبا من هدفه، لم يمثل لأوامر الملك واستمر في التخطيط لإزاحة الملك عن العرش.

ولكن لأسباب مجهولة، سيستأذن علي باي من السلطان لاستكمال رحلته نحو مكة، رغم أن صحته تدهورت شيئا فشيئا منذ دخوله إلى المغرب. لكن حسب سلبادور بربيرا<sup>7</sup> Salvador Barbera، فالسلطان كان يراقب كل تحركات ضومينغو باديا وكان على علم بعلاقته بالثوار، لذا بعث إليه برسالة يأمره بمغادرة البلاد. وحسب بربيرا فالرسالة موجودة بأرشفيف بلدية برشلونة وقد أدرج مقتطفها منها في تقديمه للكتاب. وعندما توجه ضومينغو باديا نحو الحدود مع الجزائر، فوجئ برجال السلطان الذين أرغموه على التوجه إلى ميناء العرائش ليُنحَر في اتجاه ليبيا في 13 من أكتوبر 1805م، كان رئيس الحكومة الإسبانية غودوي قد جهز فرق الجيش لتتوجه نحو المغرب، إلا أن علي باي في آخر رسالة له من المغرب أكد على ضرورة إلغاء العملية، ورغم عدم اكتمال مخطط الرحالة ورئيس الحكومة، فإن رحلة علي باي تعتبر ناجحة بكل المقاييس لأن هذا الأخير استطاع أن يوفر للحكومة الإسبانية معلومات جد دقيقة حول الوضعية الاقتصادية، والسياسية والاجتماعية للمغرب. وتناول الجزء الثاني من كتاب رحلات علي باي رحلته إلى ليبيا وقبرص والجزء الثالث خصصه لرحلته إلى مصر ثم إلى مكة حيث سيقم شعائر الحج ليكون أول إسباني يدخل مكة المحرمة وينال شرف غسل الكعبة الشريفة وتغيير غطائها.

يعتبر ضومينغو باديا دومينغو باديا رائدا من رواد الاستخبارات الحديثة إلا أنه لم ينل حقه من الاهتمام.

7 - سلبا دور بربيرا (Salvador Barbera). أكاديمي إسباني، قام بإعادة نشر كتاب علي باي مع تقديم له يعتبر من أهم الدراسات حول علي باي.

3-3 - خواكين كاتيل إي فلوش (1861): المحامي الذي مل فأصبح مستكشفا

وعميلا سريًا

كما رأينا مع ضومينغو باديا، فإسبانيا أظهرت اهتماما كبيرا بجيرانها على الضفة الأخرى إلا أنها لم تكن تملك سياسة خارجية واضحة. ففي النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت قد فقدت كل مستعمراتها في أمريكا (باستثناء كوبا وبويرتوريكو) بالإضافة إلى أن مشاكلها الداخلية أخذت تتفاقم باستمرار.

ولد خواكين غاتيل Joaquín Gatell في 3 يناير 1826 بطراغونا Tarragona . نال إجازة في الحقوق سنة 1850م ومارس المحاماة، لكنه أحسّ بملل كبير في هذه المهنة فشرع في دراسة اللغة العربية. وكانت قراءته لكتاب جان بوتوكي Jan Potocki رحلة إلى امبراطورية المغرب، قد فتح شهيته للاستكشاف. انتقل سنة 1858م إلى لندن ليلتقي تكويننا حول الاستكشاف. ثم انتقل في السنة الموالية إلى باريس ليعرف أن الجمعية الجغرافية الفرنسية تمنح جائزة لمن يصل إلى السنيغال شريطة المرور بتمبوكتو. وعبر الجزائر بدأ رحلته ليصل إلى طنجة في 12 مارس 1861م بعد أن تلقى تعليمات لدراسة كل الساحل الغربي للمغرب. كانت خطة غاتيل أن يتوغل داخل الجيش، خاصة أن سلاطين المغرب يرغبون في تكوين جيش على الطراز الأوروبي الحديث، وكان الرحالة قد ألف كتابا حول الفن العسكري، التقى خلال مقامه بطنجة بأخ السلطان وقدم له نفسه، وهو بالزي المغربي، على أنه القايد إسماعيل العارف بفنون الحرب. ذهب رفقة أخ السلطان إلى فاس مروراً بمنطقة الغرب، عُيّن قائدا لفرقة عسكرية نظرا لمعرفته استعمال المدفعية حيث ترجم كتيبا من الفرنسية حول هذا الموضوع وكان جيش السلطان غير منظم ويتكون من عدد كبير من الإسبان الذين أسلموا. استطاع غاتيل أن ينجز دراسة معمقة ودقيقة حول وضعية الجيش المغربي خاصة أنه تنقل بين الرباط وسلا ومراكش وفاس ومكناس وغيرها من المدن حيث كان يشارك في إخماد الثورات ضد السلطان. كما أنه أنجز تقريرا مفصلا حول مدينة مراكش التي قضى فيها سنة كاملة. وفي نهاية سنة 1863م التقى خواكين غاتيل بالقنصل الإسباني بطنجة مري دلبال Merrydel Val واقترح عليه أن يستكشف جنوب المغرب وهو الأمر الذي ناقشه القنصل مع الحكومة الإسبانية وتمت الموافقة عليه.

طلب غاتيل من السلطان إعفائه من الجيش وتوجّه نحو الدار البيضاء ومرورا بالجديدة والصويرة ثم أكادير، وكان يدون كل تفاصيل المناطق التي يمرُّ منها (القبائل، السكان، المعمار، التضاريس وحتى الطرقات). لكنه لم يستطع مواصلة رحلته نحو الجنوب كونه منطقة حرب دائمة بين القبائل.

عاد إلى الصويرة ومنها وصل إلى مراکش ثم إلى تارودانت. كان غاتيل يغيّر خادمه من منطقة إلى أخرى. اتخذ له خادما جديدا عندما توجه نحو الصحراء لكن هذا الأخير أخبر سكان القرية التي كانوا يمرّون بها أن سيده غير مسلم (نصراني) وكان من أخلاق الضيافة أن يتركوه حتى يخرج من القبيلة لئتم قتله، غير أن الخادم ندم وأخبر سيده ليخرجا ليلا ويفلت غاتيل من القتل... وصل الرحالة في 23 فبراير 1865م إلى طرفاية، وعندما عاد إلى طنجة، قدّم إلى القنصل مسودة من مذكراته قبل أن يدخل إلى إسبانيا في شتنبر 1865م. وفي سنة 1866، افتتح غاتيل أكاديمية اللغة العربية برشلونة التي انخرط فيها عدد كبير من الطلبة، غير أنه سرعان ما اشتاق إلى حياة الاستكشاف والترحال ليبدأ في سنة 1868م، رحلة إلى الجزائر وتونس، لكنه اضطر إلى الذهاب إلى باريس للعلاج بعد أن أصيب بالتيفويد. نشرت الجمعية الجغرافية بمدريد مذكراته بعنوان: رحلات عبر المغرب: سوس، وادنون وتاكنة في 1879م. وكان على وشك الإبحار مجددا نحو المغرب للقيام برحلة استكشافية أخرى عبر الريف حين وافته المنية في 13 ماي 1879.

### 3-4 - فريديك جوهارد غولفس (1862): نداء الصحراء للطفل العليل

ولد في 14 أبريل 1831م (وقيل 1834م) في مدينة بريمن Bremen الألمانية. انخرط في الجيش الألماني ثم في الجيش الهولندي ليهرب منه ويلتحق بالجيش الفرنسي الذي أنشئ في سنة 1831م للاستيلاء على الجزائر، حيث اشتغل هناك كمرض وصيدي لمدة ست سنوات (1855م-1861م). تعلم اللغة العربية وحفظ القرآن كاملا، وهو أمر في غاية الأهمية لمستكشف سيبدأ رحلته كطبيب. هكذا دخل إلى طنجة في 20 يوليوز 1862م بزّي مغربي ليحاول في كل من أصيلا، الرباط، أكادير ثم تافيلالت. وعند وصوله إلى الحدود الجزائرية تم الاعتداء عليه ولم يُترك إلا وقد ظنّ أنه ميت إلا أن بعض طلبة العلم أنقذوه. أمضى أكثر من سنة متنقلا بين المغرب، الجزائر وليبيا في محاولة للوصول إلى تمبوكتو لكنه لم ينجح، خاصة أنه في كل مرة كان على وشك أن تُكتشف هويته، عاد إلى ألمانيا لينشر مذكراته، لكنه سرعان ما قرر العودة إلى إفريقيا ليحقق هدفه في الوصول

إلى تمبوكتو عبر نهر تشاد. لكن السكان قرب النيجر منعه من ذلك، مما جعله يقرر استكشاف مصب نهر النيجر ليكون أول أوروبي يصل إليه في 3 يوليوز 1867م.

يشير غولفس في مذكراته أنه التقى في ليبيا بالكسندرين تين Alexandrine Tinne وهي هولندية غنية كانت تجول صحراء ليبيا قبل أن يتم اغتيالها من قبل المرشدين الذين كانوا يرافقونها.

أما غولفس فرغم أنه لم يصل أبدا إلى تمبوكتو، فقد استطاع بعد محاولات كثيرة استكشاف مناطق عدة في الصحراء مثل منطقة كوفرا Kufra في الجنوب الشرقي لليبيا وهي منطقة خطيرة جدا يصعب الدخول إليها.

3-5 - خوصي دي مورغا مورغاتيغي (1863): مورو بشكايا الغني الذي جال

المغرب متسولا

ولد خوصي دي مورغا في 20 يونيو 1827م بمدينة بلباؤ الإسبانية. درس بالأكاديمية العسكرية بمدريد وارتقى إلى درجة قائد. زار العديد من الدول كعسكري وبإذن رسمي ليكتشف، ولعنه بالرحلات. ترك الجيش ليكرس وقته للتجول ودراسة اللغات، بما فيها العربية ودراسة الطب، أغرم بالمغرب وبدأ يجمع كل المعلومات حوله في انتظار أن تُتاح الفرصة لإسبانيا للاستيلاء عليه، ولأن هذه الفرصة تأخرت، فقد قرر زيارة المغرب بمفرده حيث دخل طنجة في 27 فبراير 1863م، ثم تنقل مباشرة بين العرائش، القصر الكبير، تطوان، مكناس، فاس، سلا، الرباط والدار البيضاء كبائع متجول باسمه الجديد الحاج محمد البغدادي واكتسب شهرة كبيرة في كل المناطق التي مر منها، خاصة، لكونه يمارس التمريض ويعالج كل من كان في حاجة إلى ذلك. جال في العديد من المدن والقرى المغربية، وقد شكلت هذه الفترة أهم مرحلة في حياته كما يعترف بذلك في مذكراته: "أستمتع هنا كما لم أفعل أبدا في حياتي. لو كنت عرفت هذه البلاد من قبل لما احتجت لزيارة أماكن أخرى غيرها... أصبحت مورو... حتى أنني أفكر مثلهم". (ذكريات مغربية للمورو من بشكايا خوصي دي مورغا والحاج محمد البغدادي).

يقدم الرحالة في كتابه تفاصيل دقيقة حول الإسبان المرتدين ويفصل في شجرة العائلة للشرفاء في المغرب. كما يوثق للفئات الاجتماعية والأعراق في البلاد. عاد إلى مدينته سنة 1866م ليكتب مذكراته. لكن سرعان ما عاد ثانية

إلى المغرب سنة 1873م. ورغم تدهور صحته منذ وصوله إلى طنجة، فقد واصل رحلته كبائع متجول بثياب رثة وحافي الرجلين في أغلب الأوقات. زار الدار البيضاء، الجديدة، مراكش، والصويرة ثم عاد إلى الرباط نحو طنجة، حيث سيعتني به الطبيب العسكري للمفوضية الإسبانية. بعد أن أمضى سنة في بلاده حيث درس علم الجغرافيا، قرر العودة للمرة الثالثة إلى المغرب وكان يعتزم إنجاز وثائقي حوله لكنه توفي في قادس في انتظار السفينة التي ستقله إلى طنجة.

وقد اعتبر ثساريو فرناندو دورو (Césareo Fernandez Duro) وهو قبطان ورئيس الجمعية الجغرافية الإسبانية) أن رحلات خوصي دي مورغا هي بمثابة تكملة لرحلات علي باي العباسي رغم أن شخصيتي الرحالين مختلفتان.

3-6 - إيميليو بونيلي إرناندو (1882): الرجل الذي حصل على الصحراء ب

45 أورو

يعدّ إيميليو بونيلي (Emilio Bonelli Hernando 1826-1955) من العسكريين الذين يؤيدون فكرة ضم المغرب إلى إسبانيا، رافق أباه، مهندس زراعي، وهو طفل صغير، إلى تونس ثم طنجة حيث دخل إلى المدرسة ودرس اللغة العربية، كان يلبس الجلباب والنعال المغربية وعندما توفي أبوه، اشتغل إيميليو - وهو في الرابعة عشر من عمره - بالقتضية الإسبانية بالرباط مترجما، أمضى ست سنوات قبل أن يدخل المدرسة العسكرية بمدينة طولدو. تخرج منها برتبة فارس لينتقل، فيما بعد، إلى مدريد التي اشتغل بها مترجما.

طلب إيميليو سنة 1882م إذنا بالذهاب إلى إفريقيا، وحصل عليه شريطة ألا يقحم الدولة إذا تمّ القبض عليه (ولا توجد أية معلومات عما إذا كانت رحلته قرارا شخصيا أو تكليفا من الحكومة الإسبانية). دخل إلى المغرب وأمضى ثلاثة أشهر مستكشفا منطقة الغرب ومدينتي فاس ومكناس. عاد بعدها مباشرة إلى مدريد ليُلقي محاضرة في الجمعية الجغرافية الإسبانية، اقترح خلالها استيلاء إسبانيا على منطقة وادي الذهب، وقد تكلفت هيئة أركان الجيش بنشر كتابه: إمبراطورية المغرب ومكوناتها. الشيء الذي يبيّن بطريقة غير مباشرة، أن رحلاته كانت تحت إشراف الحكومة.

في سنة 1883م، انعقد المؤتمر الإسباني للجغرافية الاستعمارية والتجارية، تمّت خلاله مناقشة فكرة بونيلي حول المغرب، وطلب موافقة وزارة الدفاع (وزارة الحرب سابقا) للاستيلاء على كل الساحل وهو الأمر الذي قوبل بالرفض إلا أن بونيلي التقى، بشكل انفرادي، مع رئيس الحكومة كانوباس

ديبل كستيو Canovasdel Castillo واتفقا على إنجاز خطة سلمية دون إغضاب السلطان ولا شيخ القبيلة حاكم المنطقة بيروك. ذهب بونبلي إلى تريفني Tenerife (جزر الكناري) بعد أن استلم المال لمهمته من رئيس الحكومة. دَخَلَ إلى منطقة الداخلة (حاليا) كرجل أعمال في الشركة التجارية الإسبانية- الإفريقية، استغل مركزا خاصا بالصيادين الذي يتاجرون مع السكان المحليين ليبنى بناية من خشب ويرفع العلم الإسباني عليها في 4 نونبر 1884م. وفي 28 منه كان قد وقع اتفاقية مع شيوخ كل القبائل المجاورة. ثم أنشأ مركزين، أُسْمِيَ الأول بميناء باديا، والثاني وهو أقرب إلى نواديو بموريطانيا، بميناء غاتيل تكريما لمن سبقاه إلى المغرب واعترافا بوطنيتهما وخدماتهما. ابنتى هناك حصنا وبدأ التجارة مع المحليين. وعندما انعقد مؤتمر برلين لتقسيم إفريقيا، ثم الإعلان عن كون تلك المنطقة تحت نفوذ إسبانيا التي أصبح لها الحق في التوغل نحو الداخل لتشكل بعد ذلك القوة الاستعمارية الأوروبية في جنوب المغرب. ولم تكلفه الرحلة ومجموع الهدايا لشيوخ القبائل إلا 7500 بسيطة.

3-7 - خوليو ثرييرا بانيرا (1884): العبقري، المهتمس والنسي، ظلما

بدأت العلاقات المغربية-الإسبانية تتحسن حيث أنشئت قنصليات في مجموع مدن المغرب، بل إن السلطان أرسل ثلاثة مواطنين ليدرسوا بالأكاديمية العسكرية للمهندسين، وهي نفس الأكاديمية التي تخرّج منها خوليو ثرييرا (Julio Cervera Baviera 1927-1894) ليتم تكليفه بمهمة سرية في فاس والعرائش سنة 1877م. وكانت ثمرة هذه المهمة السرية كتابه: الجغرافيا العسكرية للمغرب (1884م). سيعود للمرة الثانية إلى المغرب ليستكشف سبتة، تطوان، القصر الكبير، فاس، العرائش، وأصيلا، ليعود بعدها إلى سبتة. خلال تجواله بالمغرب كان مرفوقا بخادم ومرشد وكان أحيانا يظهر بلباسه الأوروبي فيقدمه مرشده على أنه من الجنود الإسبان الذين دخلوا في خدمة السلطان أحيانا، وكان أحيانا أخرى يتنكر في لباس مغربي ويحمل اسم عمر، خاصة عندما دخل إلى فاس التي كانت ممنوعة على الأجانب. في هذه المدينة، زار صديقه أحمد بنشقرون الذي تخرج من نفس الأكاديمية العسكرية. وقد تم استدعاء هذا الأخير للاستجواب بعد أن تم استجواب المرشد الذي كان برفقة الرحالة.

في تقاريره الرسمية، صحح ثرييرا بعض المعلومات الجغرافية التي كانت قد توصلت بها الحكومة الإسبانية، كما أعطى تقارير دقيقة حول مدينتي الرباط وسلا كمنطقة استراتيجية مهمة، بالإضافة إلى أنه اعتبر أن عدد أفراد الجيش

المغربي قليل وستكون عملية السيطرة عليه سهلة وبالتالي الاستيلاء على المغرب بأكمله في مدة وجيزة. وأكد على أن الظروف ملائمة وإن لم تبادر إسبانيا بهذه العملية، فهي حتما ستترك الفرصة لفرنسا، ولم يكن مخطئا في تخوفه لأن فرنسا وإيطاليا وقعا اتفاقية في سنة 1888 لفرض الحماية على المغرب.

في 1886م، أرسلته الجمعية الجغرافية الإسبانية لاستكشاف أقصى الصحراء. انطلق ثرييرا من لاس بالماس في جزر الكناري نحو الداخلة، وكان الهدف هو الوصول إلى منطقة أدرار. هناك استطاع أن يوقع اتفاقية الحماية<sup>9</sup> مع أهم شيوخ المناطق الصحراوية في 12 يوليوز 1886.

كان ثرييرا بابييرا شخصية مهمة وعالمًا لم ينل حظّه من الاعتراف بخدماته بل تم سجنه عندما كتب مقالا في إحدى الجرائد ينتقد فيه سياسة إسبانيا في المغرب.

### 3-8 - شارل دو فوكو (1883): من ماجن غير نائب إلى مستكشف قديس

وُلد شارل دو فوكو في مدينة سترامبورغ الفرنسية في 15 شتنبر 1858م. توفي والده وهو في السادسة من عمره، فورث عنهما ثروة طائلة، مما جعله يعيش حياة باذخة، انضم إلى الأكاديمية العسكرية في 1876م ثم إلى مدرسة الفرسان. تم إرساله إلى الجزائر لكن لعدم انضباطه، طرد من الجيش، كما قامت أسرته، عن طريق القضاء، بمنعه في التصرف في باقي ثروته. عندما علم شارل دو فوكو أن أغلب زملائه في الفرقة العسكرية قد قتلوا إثر هجوم عليهم (في الجزائر) طلب إعادته إلى الجيش واعدًا بالتزامه بالتعليمات والقوانين العسكرية. التحق بفرقة بالجزائر وحارب بشراسة انتقامًا لزملائه. تعلم اللغة العربية ودرس القرآن والإنجيل. وعندما تعلم العبرية، قرر الدخول إلى المغرب متنكرا في زي يهودي، كما حظي بموافقة الحاخام أبي السرور<sup>10</sup> الذي رافقه لجمع الهبات من أجل يهود القدس.

9 - الرحلة التي قام بها ثرييرا والتي تم على إثرها توقيع معاهدة الحماية الإسبانية على المناطق الصحراوية كان مرفوقا بكل من فرانسيسكو كيروغا Francisco Quiroga (عالم الآثار) وفليبي زيثو Filipe Rizzo وهو مترجم وقنصل إسبانيا في طنجة سابقا.

10 - موردخاي أبي السرور، يهودي ازداد في واحة آفا في 1826م. استطاع أن يحفظ التلمود بعد أن سافر لوحده إلى مراكش. ونظرا لذكائه، أرسل إلى القدس في سن الثالثة عشر ليكمل دراسته ويُعيّن، بعد أربع سنوات، حاخاما في حلب بسوريا، ثم في الجزائر، قرر أن يسافر مشيا على الأقدام برفقة أخيه إلى تمبوكتو، بعد عودته طلب منه قنصل فرنسا في موغادور أن يروي له تفاصيل رحلته والتي نشرتها الجمعية الجغرافية في باريس. سيستقر في وهران إلى أن طلبت منه الجمعية الجغرافية مرافقة ش. فوكو في رحلته إلى المغرب.



دخل شارك دوفوكو إلى المغرب باسم جوزيف ألمان Josef Aleman من اليهود السفرديين. تنقل بين تطوان، شفشاون، فاس، مكناس، تادلة وبني ملال... وقد وصل إلى تارودانت والراشيدية ثم إلى وجدة قبل أن يعود إلى الجزائر. وكان خلال رحلته يدوّن كل التفاصيل عن القرى والمدن والسكان والتي سينشرها في كتابه التعرف على المغرب سنة 1888م. حصل فوكو على الميدالية الذهبية من الجمعية الجغرافية في باريس عن المعلومات الدقيقة والمهمة التي عاد بها عن المغرب. ومن المثير للانتباه أنه عندما عاد إلى باريس وبدأ بتأليف كتابه، اختار أن يعيش كمسلم (متأثراً بالمسلمين الأمازيغ المغاربة) ويمضي وقتاً كبيراً في قراءة القرآن. مما جعل عائلته تستدعي راهباً لمرافقته في الرجوع على الصواب. فيكون بذلك قد جرب الديانات الثلاث. زار فوكو كلا من سوريا وفلسطين بين 1888م-1889م. قبل أن يستقرّ في الجزائر بمنطقة أسكّرم حيث سيعيش كناسك ويسخر نفسه ومنزله لخدمة المحتاجين حتى اغتيل في دجنبر 1916م.

### 3-9- والتر بورتن هاريس (1903): صحفي تنكّر ليعيش كل أنواع المغامرات

والتر هاريس (1866-1933) (Walter Burton Harris) ابن رجل أعمال إنجليزي، بعد أن أنهى دراسته، قرر السفر إلى تركيا، مصر، اليمن، والهند... قبل أن يستقرّ بطنججة كمراسل لجريدة تايمز لأكثر من أربعين سنة، هناك اشتغل لصالح الاستخبارات الإنجليزية. وكانت بريطانيا تحظى بعلاقات جيدة مع المغرب خاصة أن هذا الأخير منحها صلاحيات كثيرة مقابل الوقوف ضد أطماع فرنسا وإسبانيا. زار هاريس تافيلالت وكتب عنها، كما دخل إلى مدينة شفشاون، التي كانت محظورة على غير المسلمين، متنكراً في زي مغربي ريفي سنة 1903م، ولكن الريسوني سيلقي القبض عليه ليستعمله رهينة أمام السلطان (الذي كان في حرب ضده) ليطلق سراح ستة عشر من رجاله. لكن بعض التقارير تؤكد أن هاريس تعمّد ان يُكتشف أمره أو أنه متواطئ مع الريسوني كي يجعل مقالاته ومراسلاته أكثر إثارة. توفي ودُفن بطنججة.

### 4- تمبوكتو: المدينة المحرمة وسط الصحراء القاتلة

كانت تمبوكتو مدينة إسلامية محرمة على غير المسلمين، وقد تحولت منذ القرن الثاني عشر إلى منطقة استراتيجية للتبادل التجاري (الذهب، الملح، العاج والعبيد) وبعد أن أغلقت في وجه غير المسلمين، نُسجت حولها أساطير كثيرة، الأمر الذي جعلها محط اهتمام متزايد لكل الأجانب خاصة أنها لا تبعد

إلا بخمسة عشر كيلومترا عن نهر النيجر الذي كان يشكل لغزا آخر بالنسبة لهم. هذه المدينة أصبحت، منذ 1591م، تحت سيطرة المغرب الذي سرعان ما فقد اهتمامه بها لأن الذهب الذي كان يُتاجر به لم يكن فيها بل يأتي من خليج غينيا. وفي القرن الثامن عشر، ستصبح تمبوكتو تحت سيطرة قبائل مسلمة، متشددة منعت دخولها على الكفار، وبما أن كل ممنوع مرغوب، فإن الجمعيات الجغرافية (البريطانية والفرنسية مثلا) اقترحت منح جائزة قيمة لمن يستطيع الدخول إليها والعودة بمعلومات عنها. فقد باءت محاولات كل من أوغطون Houghton وألكسندر كوردن لاين Alexander Gordon Laing بالفشل إذ لم يخرجوا من تمبوكتو أبدا. كما حاولت فرنسا استكشاف المنطقة، انطلاقا من المغرب أو من السنغال.

1-4 - فريدريش كونراد هورنمان (1779): الطفل المريض السبّاق إلى السفر

في الصحراء

أمضى فريدريش كونراد (1801 Friedrich Conrad Hornmann م1772م-م) غالبية طفولته بين المرض وقراءة الكتب التي كان يسافر من خلالها إلى عوالم عجيبة. وفي سن الثانية عشرة، حصل على هدية لم تفارقه حتى مماته وهي عبارة عن كتاب: الوصف والظرفية الحقيقية لإفريقيا وبلدانها (الصادر سنة 1670م). منذ ذلك الوقت، أذهل أساتذته بالمعلومات الجغرافية التي امتلكها بعد قراءة هذا الكتاب. تحسّنت صحته فدخل الجامعة لدراسة علم اللاهوت، وبعد أربع سنوات بدأ بدراسة العلوم الإنسانية واللغة العربية. كان مشروعه هو أن يستكشف عددا من دول إفريقيا. فانطلق فريدريش كونراد من لندن في يوليو 1797م نحو القاهرة ليحدد مجرى ومصب نهر النيجر. انتحل شخصية تاجر عربي باسم موسى بن يوسف، الشيء الذي مكّنه من التنقل بحرية والحصول على كل المعلومات حول مصر. عاد إلى ليبيا ليسلم للقنصل البريطاني الوثائق (المذكرات والرسومات). تزعم بعض المراجع أنه وصل إلى النيجر وأنه دخل إلى تمبوكتو وأنه توفي قرب نهر النيجر سنة 1801م، لكن كل هذه المعلومات تبقى دون تأكيد.

2-4 - روني كايي (1827): أول رحالة يعود حيا من تمبوكتو

كان روني كايي (1838-1799 René Caillié) مولعا بالقراءة، خاصة كتب المغامرات والرحلات، وبمجرد أن قرأ كتاب علي باي العباسي حتى ذهب للقاءه. شجّعه هذا الأخير على مواصلة المشوار وتحقيق حلمه في الوصول إلى

تمبوكتو. فأبحر كايّي في 27 أبريل 1816م نحو السينغال حيث كان الإنجليز ينظمون رحلات نحو داخل البلاد لكنها كانت كلها فاشلة. وصل إلى دكار في محاولة لمرافقة الإنجليز الذين رفضوا مرافقته. عاد إلى فرنسا ثم أبحر ثانية سنة 1818م. اضطره المرض للرجوع إلى فرنسا من جديد ولكن الحلم لم يفارقه فعاد في سنة 1824م متنكرا في زي مسلم زاعما أنه من مصر وأن جيش نابليون حمله إلى فرنسا وهو صغير وأنه يريد العودة إلى أرضه والذهاب إلى الحج، عاش في إحدى القبائل الموريتانية حيث تعلم اللغة العربية وحفظ جزءا من القرآن وكان يكتب خلسة كل تفاصيل القبائل من عادات وعلاقات وطرق عيشهم.

عانى الكثير من الأمراض في طريقه إلى تمبوكتو خاصة من مرض الاسقربوط الذي شوّه وجهه وأفقده أسنانه. فكان محط سخرية سكان المناطق التي يمر منها. استطاع الدخول إلى المدينة المحظورة يوم 20 ابريل 1828م لتبتدأ أحلامه وأحلام كل الأوروبيين إذ وجد أن لا كنوز في تمبوكتو كما تحكي الأسطورة. ولكن فرحته كانت كبيرة لكونه أول من يدخل هذه العاصمة التي ذهبت بأرواح العديد من الرحالة قبل أن يصلوا إليها. استقبل كايّي من قبل الأمير أو شيخ المدينة سيدي عبد الله الذي رحب بمقامه للمدة التي شاء، فاستغلها الرحالة لتدوين كل المعلومات عن هذه المدينة. دخل إلى المغرب، وفي الرباط أخبره مساعد القنصل الإنجليزي أن الجمعية الجغرافية البريطانية ستمنحه جائزة أكبر إن قبل بتقديم نتائج رحلته أمامها. لكن كايّي رفض وتوجّه نحو طنجة حيث تكلف القنصل الفرنسي بإرساله إلى فرنسا متنكرا في زي بحار في 5 دجنبر 1828م. حصل على مكافأته من الجمعية الجغرافية في باريس بالإضافة إلى وسام الشرف ومعاش مدى الحياة.

#### 4-3 - هنريش بارث (1853م): الرجل الذي يكون سعيدا وسط الصحراء

كان هنريش (Heinrich Barth) (1821-1865م) عبقريا منذ صغره، وكانت القراءة بالنسبة إليه شيئا أساسيا رافقها بالتعلم حيث دخل الجامعة لدراسة الجغرافيا والأركيولوجيا. وعندما حصل على الدكتوراه قرر أن يسافر في البداية بين لندن وباريس ومدريد ولكنه سيبحر فيما بعد إلى طنجة ليصل إلى مصر، فلسطين، سوريا، إسطنبول ثم اليونان.

في سنة 1849م، أصدر كتاب رحلات عبر ساحل الأبيض المتوسط ليطم اقتراحه لمرافقة جيمس ريشاردسون James Richardson في رحلته الاستكشافية الثانية إلى إفريقيا من أجل الوصول إلى نهر تشاد. وصلا إلى طرابلس في دجنبر

1849م. جهزا القوافل وتنكرا في زيّ عربي فحمل بارث اسم عبد الكريم بعد أن وصلا إلى أكدر، أخذ كل منهما طريقا مختلفا واتفقا على اللقاء قرب نهر تشاد. وصل بارث سريعا إلى مدينة كانو ليكون أول أوروبي يدخلها. وتوجّه بعد ذلك إلى كوكا قبل أن يصله خبر وفاة جيمس ريشردسون. أمضى بارث سنتين هناك ثم توجّه نحو تمبوكتو (بطلب من الحكومة البريطانية) سالكا الطريق التي يتفادها الجميع لكون قطاع الطريق ينشطون فيها. كان، في طريقه، يقدم نفسه كشيخ تركي يحمل بعض الكتب إلى باشا تمبوكتو، الشيء الذي كان يسهل مروره. دخل تمبوكتو في 07 من شتنبر 1853م. لكن التجار القوافل التي كانت تجول في كل تلك الأراضي اكتشفوا أمره وتأكدوا أنه جاسوس أوروبي يستطلع الشأن التجاري هناك، لكنهم لم يستطيعوا أذيتّه لأنه كان في حماية الباشا (أو حاكم المدينة) عاد عن طريق تشاد ثم ليبيا واعتبر مروره بالصحاري من أهم لحظات رحلته. وصل إلى لندن في 6 شتنبر 1855م حيث استقبلته الملكة ومنحته كل من الجمعية الجغرافية بلندن ومثيلتها بباريس ميدالية الاستحقاق.

4-4 - كريستبال بنيتث وأوسكار لينز (1879) : الخادم وعالم الجيولوجيا

اللدان وصلا إلى تمبوكتو

ولد كريستبال بنيتث (Cristobal Benitez 1856-1925). مالغا وسافر مع أوبويه، في سن مبكرة، إلى تطوان خلال حرب 1859-1960. دخل مدرسة الأب لرشوندي Lerchundi حيث كانت تدرّس الإسبانية والعربية.

أما أوسكار لينز (Oscar Lenz 1848-1925) فقد حصل على الدكتوراه من جامعة ليبزيغ بألمانيا في الجيولوجيا وعلم المعادن. في 1879م أرسلته الجمعية الإفريقية الألمانية لينجز دراسة معمّقة حول المغرب وخاصة جبال الأطلس وأن يبحث عن مناجم الحديد. قبل لينز المهمة ولكنّه كان ينوي الوصول إلى تمبوكتو. في طنجة اتفق مع كريستبال بنيتث الذي يكتب ويتحدث العربية والأمازيغية أن يرشده إلى داخل الصحراء.

لكن بنيتث لم يكن مجرد مرافق بل إنه رحالة أيضا، وسيكتب مذكراته إلى جانب مذكرات لينز، مما يعطى للقارئ فرصة قراءة نسختين لرحلة واحدة. خرج كريستبال من طنجة بزي مغربي واسم سيدي عبد الله، بينما لم يتنكر لينز إلا عند خروجه من مراكش حاملا اسم الحكيم عمر بن علي وصفة طبيب تركي. عند دخولهما إلى مدينة تارودانت، كادا أن يُقتلا من قبل السكان الذين

وصلت إلى مسامعهم أنهما جاسوسان لم يتنكرا إلا في مراکش، لولا تدخل أحد الشيوخ الذي حماهما بعد أن سلّماه توصية من السلطان.

ولم يتوقف تهديد القبائل إلا بعد أن تجاوزا تندوف وكانا يحوان أثر قافلتها حتى لا يتم اقتفاء أثرهما. دخلا إلى أزوان بمالي قبل أن يتوجها إلى تمبوكتو التي دخلا إليها في 1 يوليوز 1880م؛ وفي طريق العودة، عانى الاثنان من مشاكل صحية كبيرة. عادا منهكين ولكنهما يحملان تفاصيل دقيقة حول كل الأماكن التي زارها، ليس فقط عن المغرب بل عن الدول الإفريقية جنوب الصحراء (رغم أن المعلومات حول تمبوكتو لم يكن فيها جديد أكثر مما أعطاه عنها كاتبها).

منذ 1881م، اشتغل كريستبال مترجما في القنصلية الإسبانية بالصويرة وهناك كتب مذكراته قبل أن يتوفى بنفس المدينة في 7 شتنبر 1924م. أما لينز فقد عاد في رحلة جديدة (1885) لاستكشاف نهري النيل والكونغو، ثم عاد ليشغل مدرسا في جامعة براغ. أما تمبوكتو، فقد استولت عليها فرنسا بمساعدة الجيش السنغالي.

#### 4-5 - ليوبولدو بانيت (1850): أول فرنسي يستكشف الصحراء الغربية

استغلّت فرنسا لون بشرة ليوبولدو بانيت (Leopoldo Panet 1859/1818) السوداء (يحمل دماء فرنسية - سنغالية) لاستكشاف مناطق جديدة تهيئها لحملتها الامبريالية. كان بانيت يشتغل بالإدارة قبل أن يقرر امتهان التجارة على طول نهر السنغال رافق القائد العسكري ليون رافنيل Leo Raffanel في رحلة استكشافية داخل السنغال ووصولاً إلى مالي. وخلال مقامه في باريس سنة 1850م، تم تكليفه بمهمة في الصحراء التي باشرها باسم عبد الله وبزي مسلم، خرج من السنغال في 5 يناير 1850م. سافر برفقة مرشد يهودي ومترجم صحراوي حساني متوجها إلى شنقيط بموريتانيا حيث توجد أكبر مستودعات الملح ليدرس الإمكانيات التجارية هناك. بقي لمدة شهر كامل قبل أن يبدأ رحلة العودة عبر نفس الطريق. إلا أنه سيضل الطريق ويضطر للمرور بالمغرب عبر بوجدور الساقية الحمراء وكلميم، والصويرة، حيث استقبله القنصل الفرنسي ليُبحر نحو فرنسا التي وصل إليها في 20 يونيو 1850م. تضمن كتابه الذي يحمل عنوان تقرير حول رحلة من السنغال إلى الصويرة، معلومات في غاية الأهمية لم تتوفر من قبل حول هذه المناطق (طبيعة المنطقة، القبائل، التجارة...).

تم انتقاده بقوة من قبل المفكرين والاكاديميين الأفارقة لكونه تنكّر لأصوله السوداء الإفريقية وسأهم في الاستعمار الأوروبي لإفريقيا.

#### 4-6 - كاميل دولس (1887): مرافق قطاع الطرق

ولد كاميل دولس (Camille Douls 1889-1864) قرب تولوز الفرنسية وكان عضواً في الجمعية الجغرافية لروين Rouen. صرح أنه، انطلاقاً من قراءته لتجربة كل من كايي وبانيت وغولفس ولينز، يسهل الدخول إلى إفريقيا بزي إسلامي. تعلم اللغة العربية وقرأ القرآن وكان هدفه هو التعرف والتعريف أكثر بجنوب المغرب، مكث مدة بالشمال قبل أن ينتقل إلى جزيرة لانثاروت وبيجزر الكناري وبعدها إلى العيون كتاجر جزائري اسمه عبد المالك. ومباشرة بعد وصوله شكت القبائل في أمره وجرده من كل ممتلكاته قبل أن يتم استجوابه من قبل أحد الشيوخ المعروفين بالحكمة. أقر هذا الأخير أن دولس رجل مسلم. لكن السكان لم يعيدوا له ممتلكاته بل رافقوه معهم في رحلاتهم ومغامراتهم في السطو على القوافل، تنقل دولس بين تندوف وطرفاية والعيون والساقية الحمراء وكلميم حيث استضافه شيخ قبائل الصحراء بيروك الذي أرسله إلى أكادير لدي أخيه عابدين وهو ذو نفوذ كبير، إلا أن هذا الأخير سيعتقل دولس بعد أن تأكد أنه غير مسلم، تدخل القنصل الإنجليزي لتحريره وإرساله إلى الصويرة ومنها خرج إلى الجديدة ثم طنجة ليعود إلى فرنسا -فيكون- كما يقول هو نفسه مستكشفاً بدأ وأنهى رحلته بقيود في يديه. خرج في رحلة ثانية نحو تمبوكتو تحت إشراف الجمعية الجغرافية لباريس وذلك في 15 يوليوز 1888م. انطلق من طنجة إلى الإسكندرية وأمضى هناك مدة ليجمع معلومات حول الحج لتلك السنة، فتقرب من مغربيين قادمين من مكة. عاد إلى المغرب بلقب الحاج عبد المالك وصل إلى تافيلالت وهو يحمل رسائل توصية من شيخ وزان ومن السلطان، لكنه سيختفي ابتداء من أكتوبر 1888م، وقد قتل بعد أن اكتشف أمره، خاصة أنه كان يمزج -بالخطأ- كلمات بالفرنسية عند تحدّثه بالعربية.

#### 4-7 - ميشيل فيوشانج (1930): فقد حياته من أجل زيارة السمارة

بعد أن أمضى الخدمة العسكرية في المغرب، أغرم ميشال فيوشانج (Michel Vieuchange 1930-1904) بالصحراء، فقرر استكشافها وخاصة منطقة السمارة المقدسة والتي كان يراهن بالعودة منها سالماً حاملاً لصور عنها. توجه رفقة أخيه جان نحو الصويرة. وبما أن فيوشانج لم يكن يتكلم لا العربية ولا الأمازيغية ولا الحسانية، فقد قرر أن يتنكر في زي امرأة حتى لا يضطر للحديث مع أي كان.

وفي طريقه نحو السمارة، حاول أحد التجار شراءه (شراءها) من أخيه ومرافقيه في القافلة، فاضطر إلى أن يختبئ شبه مستلقي مع السلع والمؤونة التي تحملها الدواب ولم يخرج من مخبئه إلا عند بلوغهم واحة السمارة التي لم يستطع البقاء فيها طويلا خوفا من صراعات القبائل. دون كل تفاصيل المدينة وأخذ صوراً عنها لكن في طريق العودة، أطلق عليه بعض قطاع الطرق النار وأصيب. عند وصوله إلى تزنييت أرسل أخوه رسالة إلى فرنسا يطلب فيها نقل أخيه بالطائرة نحو بلده. لكنه توفي في 30 نونبر 1930م متأثراً بجراحه بعد أن سلم كل الوثائق إلى أخيه، دُفن بمدينة أكادير. وقد نشر أخوه مذكراته سنة 1932م بعنوان السمارة، سجلات السفر- بعد أن تم نشرها على شكل مقالات في 1931م بعنوان: أن أرى السمارة وأموت.

#### 4-8 - إيزابيل إيرهارد (1897): الاستمتاع بالمغامرات قبل الموت

إيزابيل إيرهارد (Isabelle Eberhardt 1877-1904) هي ابنة جنرال ألماني وسيدة ارستقراطية، تعلمت إيرهارد العديد من اللغات منذ صغرها (بما فيها اللغة العربية) رافقت أمها إلى الجزائر وكانت دائما تلبس ثياب الرجال التي تعطيها حرية أكبر للتنقل. وعوض أن تستقر بالجزائر التي يسيطر عليه الفرنسيون، لجأت إلى حي عربي، وحملت إيزابيل اسم محمود السعدي مرات أو نيكولاي بدولونسكي أو محمود بن عبد الله. كما أنها في بعض الأحيان تلبس لباس النساء وتحمل اسم نادية أو مريم. كان الفرنسيون في الجزائر يعتبرونها جاسوسا إنجليزيا- لكن الجنرال ليوطي الذي انبهر بذكائها ورحلاتها في أراضي الصحراء، أرسلها لتفاوض بعض القبائل المتمردة ويقال إنها أصبحت من رجال مخبراته. كانت شخصيتها مثيرة للإعجاب وللشك على حد سواء. كانت قد استقرت جنوب وهران بعين الشفرة حين باغتت الفيضانات هذه البلدة وأنهت حياتها. وُجدت مذكراتها بعد وفاتها ونشرت في جزأين: روايات جزائرية (1905م) ومذكرات السفر: المغرب، الجزائر وتونس (1908م).

#### 4-9 - جوان روزيتا فوريس (1921): المرأة التي تمكنت من دخول واحة

##### كوفرا الممنوعة

وُلدت جوان روزيتا فوريس (Joan Rosita Forbes 1890 - 1967) جنوب إنجلترا في 16 يناير 1890م. بالإضافة إلى حكايات جدتها الإسبانية عن رحلاتها في أمريكا اللاتينية، أغرمت جوان بالرحلات عندما جالت استراليا، الصين، الهند وجنوب إفريقيا مع زوجها الكولونيل رونالد فوربس Ronald Frobes.

وعندما عاد زوجها إلى لندن، فضّلت هي البقاء بجنوب إفريقيا لاستكمال رحلاتها، ولأن زوجها لم يكن راضياً عن تجوالها، فقد اتفقا على الطلاق. تشير بعض المصادر أنها كانت من الاستخبارات البريطانية وانتقلت إلى مصر سنة 1920م. قرّرت الذهاب إلى واحة كوفرا (في ليبيا). بمعية صديقها المصري أحمد حسنين المنتمي إلى العائلة الملكية في مصر والحاصل على شهادة الدراسات الجامعية من جامعة أوكسفورد. وضعت جوان الحجاب وحملت اسم خديجة لتخرج في رحلتها ورغم أنه قد تمّت مدهمة القافلة من قبل قطاع الطرف (كما يحدث عادة عند مرور القوافل في الصحراء إلا أنها استطاعت الوصول إلى الواحة الممنوعة ودخولها وأخذ صور عنها) ساعدها وضع الحجاب في إخفاء واستعمال آلة التصوير دون إثارة الانتباه إليها).

وكانت فوريس تستكمل في مذكراتها وصف تلك المنطقة التي كان غولفس سباقاً إلى اكتشافها. في سنة 1923، زارت فوريس المغرب لإجراء لقاء مع الريسوني حيث كتبت سيرة عنه. كما أنجزت وثائقاً حول البحر الأحمر ونهر النيل—كما أنها زارت اليمن وسوريا وفلسطين والعراق وكينيا وباكستان... وقد كتبت ما بين 1919م و1949م ما مجموعه 30 كتاباً.

#### 5- إفريقيا جنوب الصحراء، عالم صعب الاختراق

كان البرتغاليون أول مستكشفي إفريقيا، استقروا في البداية على السواحل فقط، وتاجروا مع السكان المحليين (خاصة تجارة العبيد) وشيئا فشيئا بدأوا يربط مستعمراتهم برّيا، لكن مخاطر مواجهة السكان الأصليين بالإضافة إلى المشاكل الصحية التي تعترضهم، جعلتهم يرسلون وسطاء أفارقة، وأهم هؤلاء الوسطاء كان بيدرو جواو باتيستا.

#### 5-1 - بيدرو جواو باتيستا (1802): أول من ارتحل من غرب إفريقيا إلى شرقها

يُعد بيدرو جواو باتيستا Pedro Joao Baptista من التجار المحليين في أنغولا والذين يتاجرون في كل شيء. بما في ذلك العبيد، رغم أنه يمكن أن يتحول هو أيضا وفي أية لحظة إلى بضاعة. إلا أن لون بشرته التي تمتزج فيها الدماء الأوروبية والإفريقية كان غالبا ما ينقذه. تم تكليفه من قبل الحكومة البرتغالية رفقة الكولونيل فرانسيسكو انوراتودا كوستا.



لفتح طريق نحو شرق إفريقيا انطلاقاً من أنغولا ووصولاً إلى الضفة المقابلة. خرج باتيستا، كتاجر، محملاً بالسلع الثمينة والتي كانت في الحقيقة عبارة عن هدايا من المفروض تقديمها لرؤساء القبائل لتسهيل مرورهم من منطقة إلى أخرى. إلا أن المحاولة الأولى باءت بالفشل حيث قبض عليه وسُجن لمدة سنتين. بمعية كل مرافقيه. ثم انطلق في محاولة ثانية في 11 نونبر 1804م حسب مذكراته إلا أن الرحلة كانت تتوقف أحياناً لمدة أشهر إما بسبب فيضانات الأنهار أو تأخر الإذن لهم بالدخول أو المرور أو بسبب الحروب بين القبائل كما حصل عندما اضطر للمكوث بكاصيمبي - منطقة بين الكونغو وزامبيا - لمدة أربع سنوات إلى أن توقفت الحرب في المناطق المجاورة. استطاع أخيراً الوصول إلى مدينة طيبي - الموزمبيق - على الساحل الشرقي لإفريقيا في 2 فبراير 1811م ليكون بيدرو جواو باتيستا أول من ربط غرب إفريقيا بشرقها وليس ليفينستون الذي جعلته التقارير الإنجليزية رائداً لهذه الاستكشافات التي لم يرقم بها إلا في سنة 1845م، حيث اكتشف شلالات فيكتوريا. وعند عودته، سلك باتيستا نفس الطريق التي أصبحت آمنة والتي عاد إليها في رحلات تالية بتكليف من الحكومة البرتغالية.

#### 5-2 - هنري مونفريد (1911): الفرنسي الذي فضل أن يكون إفريقيا

ينتمي هنري مونفريد (1879-1974) (Henri de Monfreid) إلى عائلة ثرية من جنوب فرنسا. دخل العديد من المدارس المرموقة وامتحن مهناً عديدة لمدد قصيرة، لكنه كان يشعر بالملل والروتين في كل منها. قرر بعد سنة من المرض والتأمل أن يغير حياته بشكل جذري. فسافر إلى دجيبوتي التي كانت تحت السيطرة الفرنسية. هناك اشتغل بتجارة القهوة والجلد مع السكان المحليين ومن أجل ذلك كان عليه التنقل في مختلف مناطق البلاد. أعجب بحياة السكان وعاداتهم فقرر أن يصبح مثلهم، يلبس لباسهم ويأكل أكلهم ويمتثل لتقاليدهم. وهو الأمر الذي سيجرّ عليه انتقادات مواطنيه. صنع قارباً صغيراً للتجارة مع جيرانه الأثيوبيين والصوماليين في القهوة وبعض الأسلحة، قبل أن يقرر توسيع تجارته وأسطوله. أعلن إسلامه وحمل اسم عبد الحمي بعد حادث عاصفة كادت أن تودي بحياته. في سنة 1913 نشر مذكراته تحت عنوان مغامرات في البحر. وفي 1914 مع انطلاق الحرب العالمية سُمّنع من بيع الأسلحة ولكنه يرفض الامتثال للقوانين فتمّ سجنه بفرنسا. لم يتأخر إطلاق سراحه ليعود إلى جيبوتي للتجارة في الأسلحة بعد أن عقد اتفاقاً مع حكومة بلاده لتوفير المعلومات الضرورية حول تحركات الأتراك في البحر الأحمر. وكان قد استولى على جزر فرسان

جنوب المملكة السعودية ورفع فيها العلم الفرنسي ليمنع دخول الإنجليز إليها. واستحق بكل مغامراته اسم ذئب البحر. ثم استبدل تجارة الأسلحة بتجارة الحشيش - التي لم تكن ممنوعة آنذاك - خاصة مع الإنجليز الموجودين في مصر.

كانت له علاقات وطيدة مع موسوليني وكان ينفق من أرباحه على بعض المراكز داخل إيطاليا. في سنة 1933م طرده هيلاسي لاسي من البلاد لأن كل تحركاته كانت مشبوهة إضافة إلى أن ابنه كان يؤكد أن إسلام أبيه كان ضرورة وليس خيارا. عاد إلى فرنسا وامتحن الصحافة حتى سنة 1936 حيث سيعود إلى أثيوبيا رفقة موسوليني. وفي سنة 1942م سيتم اعتقاله من قبل الإنجليز بتهمة التجسس. ولم يطلق سراحه إلا في سنة 1947م ليعود إلى فرنسا وهو راض عن حياته التي يصفها بالغبية والرائعة. وبالإضافة إلى كتاب رحلاته الذي نشرته الجمعية الجغرافية الفرنسية تحت عنوان الإبحار في سواحل ممنوعة، كتب منفرد أكثر من سبعين كتابا من بينهم رواية خبايا البحر الأحمر.

في علاقة مع رحلة منفريد، تظهر حياة رحلة امرأة وهي إيداتريت (1889 - 1978) التي دخلت إلى جيبوتي سنة 1931م متكرة في زي بحار ترافق منفريد في تجارته. تريت هي أستاذة اللغة الإنجليزية بنيويورك. عاشت مدة طويلة في فرنسا - مع زوجها زعيم الحزب الشيوعي الفرنسي - ورافقته في رحلاته إلى الاتحاد السوفياتي، الصين، جزر الكاريبي وإلى إفريقيا. وكانت رحلتها مع منفريد من أجل إنجاز دراسة حول تجارة العبيد في جيبوتي والمناطق المجاورة والتي كانت ممنوعة على ذوي البشرة البيضاء لتكون هي ومنفريد الغريين الوحيدين اللذين تمكنا من التوغل داخل البلاد وربط علاقات آمنة مع سكان القبائل المتشددة والمتناحرة فيما بينها.



# العدو يأتي دائماً من الجنوب (استراتيجيات السياسة وأحلام الجواسيس)

عبد الواحد أكميز<sup>1</sup>

ملخص:

توضح هذه المقالة حركية التاريخ التي تفتقد إلى حركية ذهنية مواكبة، انطلاقاً من فكرة الصراع بين الشمال والجنوب، وما يسود أحياناً في هذه العلاقة من مقولات ترسخ في الثقافة السائدة وتصبح موجهها رئيساً في تلك العلاقة وتاريخها. ومن بين هذه المقولات التي تتوقف عندها هذه المقالة أن "العدو يأتي دائماً من الجنوب"، حيث عمل الباحث على تفكيكها من خلال محورين اثنين: محور أول حول كيف ترسخت هذه المقولة في الأدبيات السياسية والعسكرية والدينية الإسبانية، إلى أن أصبحت قناعة قائمة يتم من خلالها رسم استراتيجية التعامل مع الجار الجنوبي "المغرب". أما المحور الثاني، فإنه يرصد العمل الميداني والمتمثل في دخول جواسيس إسبان إلى المغرب من أجل تشكيل معرفة قادرة على تغيير تلك المقولة. وقد اختار الباحث مذكرتين لكل من خورخي دي هنين 1604 وعلي باي العباسي 1803.

الكلمات المفتاحية: الصراع، شمال/جنوب، الحق التاريخي، الطاقة الذهنية.

## Abstract:

*This article describes the dynamism of history which lacks cognitive mobility, based on the idea of conflict between North and South, and on the assertions that often partake of this relationship. These contentions are rooted in the dominant culture, and contribute in orienting this relationship and its history. Among the assertions this article focus on is the idea that "the enemy*

1 - عبد الواحد أكميز مدير مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات بالرباط (منذ تأسيسه سنة 2000 إلى إغلاقه سنة 2019) أستاذ التعليم العالي بجامعة محمد الخامس، الرباط.

always comes from the South.” The researcher has worked to deconstruct it through two research lines: The first one is concerned with the way in which this assertion has become anchored in Spanish political, military and religious literature, to the extent that it has turned into a permanent conviction through which to develop a strategy for dealing with the southern neighbor-”Morocco”. The second line explores the fieldwork dealing with Spanish spies in Morocco in order to construct knowledge capable of subverting this assertion. The researcher has chosen to investigate two diaries by Jorge de Henin (1604) and by Ali Bay al-Abbas (1803).

**Key words:** conflict, north / south, historical right, cognitive energy.

## مقدمة

ترسّخت في الثقافة الشعبية الإسبانية وكذا في الوثائق الرسمية والأدبيات السياسية والعسكرية والدينية، قناعة تقول إن ”العدو يأتي دائماً من الجنوب“. هذه القناعة المتخيلة ليست كلها خيال، بل هي مستمدة من دورة التاريخ وتقلباته وحركيته، غير أن هذه الحركة التاريخية لم تكن تواكبها حركة ذهنية، بل هي حركة كانت تفتقد أحياناً للعقل التاريخي، فهذا العدو الجنوبي فقد قوة الزحف نحو الشمال منذ القرن الرابع عشر الميلادي والذي شهد آخر تدخل عسكري مغربي في إسبانيا<sup>2</sup>. وقد حدث منذ ذلك التاريخ ارتجاج في موازين القوى لصالح الشمال، وكان سقوط غرناطة مؤشراً بأن الغزو الذي ينطلق من الجنوب نحو الشمال والذي بدأ في القرن الثامن الميلادي قد انتهى بشكل دائم. وعلى امتداد القرن السادس عشر، احتل الإيبيريون موانئ مغربية في البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، ما زالت بعضها خاضعة لهم إلى اليوم.

كل هذا لم يكن كافياً ليُجعل فكرة العدو القادم من الجنوب تفقد طاقتها الذهنية بعد أن فقدت طاقتها الميدانية. وحتى لما نصل إلى القرن التاسع عشر، وتؤكد إسبانيا من ضعف المغرب السياسي والعسكري، بعد هزيمة حرب تطوان التي ”أزالت حجاب الهيبة عن المغرب“ (الناصرى: 1956، 101)، بقيت مقولة العدو القادم من الجنوب مترسخة في الذهنيات.

في المقابل لم يترسخ في الذهنيات ولا في الأدبيات السياسية والعسكرية بأن العدو يمكن أن يأتي من الشمال، رغم أن الغزو الفرنسي لإسبانيا في القرن

2- اقتنع المرينيون بعد هزيمتهم القاسية في معركة طريف سنة 1340، أن كل تدخل مستقبلي لهم في شبه الجزيرة الإيبيرية لنجدد المسلمين، لن يحقق النتائج التي يطمحون لها، بسبب التفوق العسكري المسيحي، لذا لا نسجل أي تدخل عسكري مغربي مباشر في إسبانيا بعد هذا التاريخ.

التاسع عشر، أطاح بالملك الشرعي وحول إسبانيا إلى مجرد مستعمرة فرنسية، وعجل بفقدانها لمستعمراتها في العالم الجديد. بل إن هذا الشمال بقي يُنظر إليه كمنقذ لإسبانيا من التخلف والانحطاط الاقتصادي والاجتماعي، وسبيلها نحو الحداثة. ويكفي أن نستحضر في هذا الإطار أكبر فلاسفة إسبانيا في النصف الأول من القرن العشرين وهو "أورتيغا إي ماغسيط" Ortega y Gasset الذي كان يكرر باستمرار جملة تقول: "إسبانيا هي المشكلة.. أوروبا هي الحل".

سنتحدث في المحور الأول من هذا المقال عن الكيفية التي ترسخت بها مقولة "العدو يأتي من الجنوب" في الأدبيات السياسية والعسكرية والدينية الإسبانية، وفي المحور الثاني عن الدور الذي لعبه الجواسيس في اختراق الجار الجنوبي، من أجل الحصول على المعلومات التي تسمح بغزوه.

### 1- العدو الجنوبي.. استراتيجيات السياسة وتكيف التاريخ

عندما نعود إلى وصية الملكة "إزابيل الكاثوليكية" التي حررتها وهي على فراش الموت، نستشف أنه لم تكن تشغلها النزاعات بين المتطلعين على العرش بعد رحيلها، ولا الخلافات المؤسسية بين مملكتها (قشتالة) ومملكة زوجها (أراغون)، ولا الصعوبات التي تواجهها قواتها في العالم الجديد بسبب مقاومة الهنود للغزو الإيبيري، بقدر ما كان يشغلها الخوف من عودة العدو الذي يأتي من الجنوب. وكانت ترى أن طرد المسلمين من الأندلس، ما هو إلا الشطر الأول من الحرب بين الإسلام والمسيحية والتي يجب أن تستمر على الضفة الجنوبية للمضيق. وحسب تلك الوصية فإن إخضاع المغرب وتمسيح أهله هو السبيل للحيلولة دون عودة العدو الجنوبي<sup>3</sup>.

الذين كتبوا تاريخ الضفتين من إسبانيا، تبنا وصية الملكة الكاثوليكية في بعدها الديني، والحضاري والسياسي والعسكري، وهم بذلك ساهموا في ترسخ مقولة "العدو يأتي من الجنوب". ونقرأ في هذا الإطار عند راهب ومؤرخ الكنيسة الكاثوليكية "مانويل كستيانوس" Manuel Castellanos، ما يلي: "يجب أن يختفي المغرب الذي يعتبر عار أوروبا وخزيها من خريطة الأمم في أقرب الآجال، وإنني أتساءل عن البلد السعيد الذي ستجعله العناية الإلهية

3- يمكن الاطلاع على النص الكامل للوصية، على أحد الموقعين التاليين (30 سبتمبر 2020):

<http://www.ub.edu/duoda/diferencia/html/es/primario16.html><http://www.delsolmedina.com/TestamentoTexto-0.htm>

يأخذ هذا الإرث ويجدد مصير الشعب المغربي؟... إن إسبانيا هي المدعوة لنقل نور المسيحية إلى المغاربة المتعصبين الأفظاظ وتنفيذ وصية إيزابيل الكاثوليكية<sup>4</sup>.

ولم يكن تفكير الكنيسة والذي تحركه دوافع دينية، يختلف كثيراً عن تفكير المؤسسة العسكرية، بل إن الأولى كانت ترى في الثانية الأداة التي تسمح لها بإنجاح مشروعها التبشيري، لذا فإن أفكار "كاستيانوس" هي نفسها تقريباً أفكار الكولونيل "غوميث أرتيشي" Gomez Arteche الذي نشر عقب حرب تطوان، كتاباً حول "حتمية النزاع مع المغرب"، مما جاء فيه: "لا داعي لنكران تأييدنا لحرب تطوان لأنها المصدر الذي سيسمح لإسبانيا بالازدهار في المستقبل" (Arteche, Gomez: 1859, 83).

ورغم أن مواقف رجال السياسة أقل تعصباً من مواقف رجال الكنيسة والجيش، فإنها هي الأخرى تؤكد على حتمية الصراع مع الجار الجنوبي والحاجة لغزوه حتى لا يقوم هو بالغزو. وأسوق كنموذج، موقف أهم سياسيين في إسبانيا الربع الأخير من القرن التاسع عشر، هما زعيم الحزب المحافظ "كانوفاس ديل كاستيبو" Canovas del Castillo (ترأس الحكومة خمس مرات)، وزعيمه السياسي زعيم الحزب الليبرالي ورئيس الحكومة كذلك "إميليو كاستيلار" Emilio Castelar. ومما نقرأه عند الأول: "بإيصال حدودنا إلى جبل بليونش وبواسطة غزونا أو بالأحرى بواسطة التأثير السلمي لغزونا، يمكن لأطفالنا وأحفادنا إنجاز المشروع الحضاري الذي ينتظرهم هناك والذي يسعى العالم بأسره إلى إنجازه في إفريقيا" (Suarez, Victoriano: 1913, 276/ Morales, Lezcano, 77). ويستعمل "كانوفاس" في حديثه عن غياب الثقة بين المغرب وإسبانيا المنهج التاريخاني (كان مؤرخاً في تكوينه)، كما يتبين من كتابه ملاحظات حول تاريخ المغرب، والذي وصل فيه إلى خلاصة مفادها أن من يسيطر على إحدى ضفتي مضيق جبل طارق لا بد أن يسيطر على الضفة الأخرى، وأن ذلك هو درس التاريخ الذي لم يتغير منذ عهد الإمبراطورية الرومانية، وبناء عليه فإن الحدود الطبيعية لإسبانيا يجب أن تكون حسبها في جبال الأطللس.

لم يصل تحليل "كاستيلار" إلى عمق تحليل "كانوفاس"، ولكن تقاطع معه في حديثه هو الآخر عن الحقوق التاريخية والجغرافية التي لإسبانيا في المغرب، واعتبر أن احتلاله، هو السبيل لتفادي خطره، ومما نقرأه عنده: "لا توجد أية دولة في العالم لها من الخصوصيات التي تسمح لها بالتدخل في المغرب ما

4 - *Historia de Marruecos*, (Primera edición, Madrid, 1884) Ministerio de Asuntos exteriores. Edición al cuidado del P. Eijan. p. 307. Cfr. - Morales, Lezcano. *Africanismo y Orintalismo*

لإسبانيا؛ فالتاريخ والجغرافية وحتمية سيطرة الشعوب المتحضرة على الشعوب المتخلفة تفرض أن يكون المغرب تحت حمايتنا<sup>5</sup>.

## 2- أحلام الجواسيس .. كل شيء من أجل الغزو

### 1-2- الإبهار سلاح الجاسوس

كان التفكير الاستراتيجي للسياسة يبحث عن أشخاص يسهلون المهمة، وقد تجند لذلك مجموعة من الجواسيس، تركوا مذكرات وتقارير سرية، تؤكد محتوياتها الرسوخ التاريخي لمقولة ”العدو يأتي من الجنوب“. وسنعمد كنموذج للتحليل مذكرتين يفصل بينهما حوالي قرنين من الزمن، هما وصف الممالك المغربية، لـ ”خورخي دي هنين“ Jorge de Henin (خورخي دي هنين: 1997، 255)، و”أسفار علي باي العباسي“، لـ ”دومينغو باديا“ Domingo Badia (Badia domingo:1980).

حل خورخي دي هنين بالمغرب في 1604 حيث قضى ثمان سنوات، بينما حل ”دومينغو باديا“ (علي باي) بالمغرب عام 1803، وقضى به ما يزيد عن سنتين، وتمكن كلاهما من دخول البلاط المغربي بسهولة. وقد أصبح خورخي دي هنين من رجال البلاط سنة 1606، وكان قبل ذلك يعمل فكاكا للأسرى المسيحيين بمراكش. وبسبب مهنته تلك، تراكمت عليه الديون التي عليه تسديدها للسلطان مولاي أبي فارس<sup>6</sup>. وأمام عجزه تسديد ما في ذمته للسلطان الجديد مولاي زيدان، عرض خدماته عليه. ولما كلفه السلطان ببعض المهام، أظهر كفاءة أثارت إعجاب هذا الأخير الذي عينه كاتباً خاصاً ومترجماً.

ومن خلال مذكراته يتبين أنه كان يحضر جميع اللقاءات التي كان مولاي زيدان يستقبل فيها السفارات الأجنبية، حيث يتولى مهمة الترجمة وتحرير الرسائل التي يبعث بها السلطان إلى الدول الأجنبية. وكان خورخي دي هنين متمكناً بالإضافة إلى العربية والتركية، من الفرنسية والإنجليزية والإسبانية والفلامانية، بالإضافة إلى معرفته العميقة بالعلاقات الدولية، وبالهندسة العسكرية.

بالنسبة لعلي باي فقد كان هو الآخر يتوفر على ثقافة واسعة في مختلف

5 - *Cronica Internacional*, Marid, Ed., National, p263, Cfr.,Ibid., Morales, p.78.

6 - يحدد هو نفسه المبلغ في 64.000 دوقية، تراكم عليه كديون من خلال افتدائه بعض الأسرى، الذين وعدوه بإرسال الأموال فور وصولهم إلى بلادهم، غير أنهم لم يفعلوا.



حقول المعرفة أساساً العلمية، والتي كانت مفتقدة في مغرب القرن التاسع عشر، وبسبب ذلك أثار إعجاب السلطان مولاي سليمان، الذي علم أثناء زيارته إلى طنجة عام 1803، بوجود "عالم مسلم من الشام" يدعى علي باي العباسي، أثار حديث الناس بعلمه الغزير، خصوصا بعد رصده لكسوف الشمس. وبما أن علي باي كان قد حصل على المعلومات الكافية حول ورع السلطان واهتمامه بالحقل الديني، فقد تظاهر بالتقوى وحرص على أداء الصلوات في المساجد، وكان يقول إنه يؤجل الزواج إلى أن يؤدي فريضة الحج. وحتى يزيل الشكوك حول ديانته الإسلامية، خضع لعملية ختان قبل حلوله بالمغرب.

تحمس مولاي سليمان لكل ما سمعه عنه، وأمر باستقدامه إلى حضرته. وكانت تلك هي الفرصة التي ينتظرها علي باي الذي قام ببعض التجارب العلمية أثارت إعجاب السلطان وحاشيته، ومما نقرأه في مذكراته عن ذلك اللقاء: "وكان أكثر ما أثار دهشته، التجارب حول الإنارة الكهربائية، والتي رغب في أن أعيدها أمامه مرات عديدة... بعد ذلك طلب مني أن أقدم له شروحا مستفيضة عن الآلات التي أستخدمها وعن الكهرباء بشكل عام" (Badia domingo:1980, 75).

بفضل ذلك أصبح رجل ثقة السلطان ومن النافذين في البلاط. وحسب مذكراته، كان السلطان يقول له إنه في منزلة ابنه، وإنه لا يميز بينه وبين بقية الأمراء (نفسه، 12). وكان يستقبله كل يوم جمعة بالقصر الملكي، حيث يتناول وجبة الغذاء في حضرته، كما كان السلطان يزوره في بيته. وقد خصص له أثناء مقامه بمراكش، المنزل الذي كان مخصصاً من قبل للصدر الأعظم، بالإضافة إلى ضيعة خاصة بالاستجمام خارج المدينة، تعتبر من أكبر الضيعات التي توجد بالمنطقة. ومما يؤكد علو شأنه، أنه الوحيد بجانب السلطان والأمراء الذي يستعمل المظلة أثناء تنقل موكبه. وكانت الطريقة التي تقدم له بها التحية في المناسبات الرسمية لا تختلف عن تلك التي تقدم بها للسلطان، عن ذلك يقول: "كان يُقدم لي التحية في البداية وبكل إجلال، الفرسان الذين يرددون بصوت واحد "الله يبارك في عمر سيدنا"، بعد ذلك يأتي دور المسنين والأطفال الذين يحيونني مقدمين جرة من الحليب..". (نفسه، 154).

## 2-2- رصد الأسرار وتحرير التقارير من أجل الغزو

من الملفات الأخرى التي كان كل من الجاسوسين يحرص على تقديم تقارير مفصلة عنها لإسبانيا، الحياة داخل البلاط المغربي، على اعتبار أن

نُظِمَ عيش السلطان وعلاقته بمحيطه، مما يجب رصدُه لتسهيل عملية الغزو. ويتحدث هنين عن حياة البذخ التي كان يعيشها مولاي زيدان، واستهلاكه الأفيون، ومجالس الغناء التي كانت تؤثث قصره. كما يتحدث عن ثروته، وزوجاته وحرمة ومجوهراته وخزانة كتبه الفريدة التي يقدم هنين تقريراً عن كيفية سطو القراصنة عليها (انتهى بها المطاف في الإسكوريال).

من جهته يقدم علي باي معلومات عن حياة السلطان مولاي سليمان، تهم شكله وتقاسيم وجهه ولباسه وسنه وثقافته الواسعة في أمور الشريعة، كما يعطي فكرة عن مداخيله المالية وكذا عن نفقاته والتي يقول إنها مرتفعة بسبب كثرة أبنائه وحرمة.

يقدم كل من الجاسوسين كذلك، تقارير مفصلة عن تحلل البنية السياسية والعسكرية بالمغرب، وحالة الضعف التي يعيشها، وهكذا يتحدث هنين عن الحرب الأهلية التي عرفتها البلاد بعد موت المنصور الذهبي، والتي شارك هو في مجموعة من معاركها بجانب سيده مولاي زيدان. ويقول في هذا السياق إنه بسبب كثرة تلك المعارك، لم يعد المغرب يتوفر على جيش نظامي، خصوصاً وأن عدداً من كبار قادة الجيش تركوا مراكزهم نحو الجبال حيث هربوا الثروات الضخمة التي يمتلكونها. أما الجنود فبسبب تدمرهم من كثرة المعارك، لم يعودوا - حسبه - يشاركون فيها إلا تحت طائل الإغراء المادي، أو عند إرغامهم، وكانوا أحياناً يساقون إليها مكبلين بالسلاسل، ولا تفك قيودهم إلا قبيل انطلاقها بوقت وجيز.

في المقابل يتحدث علي باي، عن الحروب التي جرت العادة أن يخوضها الأمراء فيما بينهم، عند وفاة كل سلطان، وذلك من أجل الظفر بالعرش، وكان يتجاوز عدد ضحاياها أحياناً عشرة آلاف شخص حسب زعمه.

التقارير التي تتضمنها مذكرتيهما، تؤكد كذلك على الدور الذي لعبه كل منهما في المجال العسكري، بحيث يقول خورخي دي هنين، إنه أقنع مولاي زيدان بالتراجع عن قراره بالسماح للقوات الهولندية بالتمركز في العرائش، لأنه كان يخطط لتسهيل احتلال إسبانيا للمدينة، ومما جاء في تقريره: ”ولما رأيت عزم مولاي زيدان على السماح بنزول كتبية من الجنود الهولنديين بالعرائش، وإدراكاً مني بأن ذلك لن يكون في صالح جلالتيكم (الخطاب موجه إلى فيليب الثالث)، قلت له بأن عليه التفكير كثيراً قبل أن يتخذ قراراً من هذا النوع، لأنه إذا كان هو الذي سيسمح للهولنديين بدخول العرائش، فربما لن

يكن بيده قرار إخراجهم في المستقبل... وأضفت إلى ذلك حججاً وأدلة أخرى كلها تصب في نفس الاتجاه، مما جعل مولاي زيدان يتراجع في النهاية عن قراره المتعلق بالسماح للقوات الهولندية بالنزول في حصن العرائش“ (خورخي دي هنين: 1997، 100). وقد قامت إسبانيا مباشرة بعد ذلك باحتلال العرائش.

### 2-3- أحلام لم تتحقق

وضع هنين في مذكراته خطة محكمة لغزو المغرب، تتضمن العتاد العسكري، والأسطول والتمويل وكيفية الحصار، واعتبر ذلك الغزو من السهولة بمكان. وأمام عدم تلقيه الجواب الذي كان يسعى إليه، قدم خطة بديلة تتمثل في قيامه بغزو المغرب لحسابه الخاص. وقد طلب هذه المرة مساعدة أقل بكثير من التي طلبها من قبل، بحيث لا تتجاوز ألف رجل وأسطول من ست سفن حربية، لأنه - حسب زعمه - سوف يعتمد على مساعدة أصدقائه من أعيان القبائل وغيرهم من الناقمين على السلطة. ويتعهد أن يستغل المغرب لحسابه الخاص لمدة سنتين، ثم يتنازل عليه لفائدة الدولة الإسبانية.

وعلى منوال هنين، يتحدث علي باي عن طريقة القتال لدى المغاربة، كما يخبرنا أن الجيش النظامي الوحيد الذي كان يوجد في المغرب آنذاك هو الحرس السلطاني المكون من عشرة آلاف رجل؛ أغلبهم من العبيد الذين اشتراهم السلطان أو قدموا له كهدية. وبجانب هؤلاء يوجد جيش من البيض تشكله قبائل الأودية، وجيش البخاري ومعظم أفراده من الفرسان. وبسبب حالة الضعف التي يعرفها الجيش، فإن الغزو عملية سهلة. ولا يفوته التذكير بالدور الذي يمكنه أن يطلع به هو لتحقيقه، نتيجة النفوذ الواسع الذي يتمتع به. وهذا ما يتبين من الرسالة التي بعث بها إلى الوزير الأول ورجل إسبانيا القوي آنذاك Manuel Godoy ”مانويل كودوي“، ومما جاء فيها: ”لقد أصبحت سيد هذه الإمبراطورية الفعلية، فكل الباشوات هم بمثابة خدم لي، إن الجميع يدين لي بالولاء، وهو ولاء ناجم عن حب أو خوف أو احترام، وهذا ما يجعلهم وإذا ما تقدمت بجيش من 3.000 رجل فقط، يقدمون لي عصا الملك. ويوجد في الوقت الحاضر رهن إشارتي أكثر من 10.000 رجل“ ( Documents originals: 1985، 47). وفي رسالة أخرى يحدد العتاد الحربي الذي يجب أن تخصصه إسبانيا للغزو ويتمثل بالأساس في: ”ألفا بندقية وأربعة آلاف مسدس وبعض المدافع مع حاضناتها“ (نفسه، 47). في رسالة ثالثة، يذكر أنه وبسبب الشعبية الواسعة التي يتمتع بها، له نفس حظوظ بقية الأمراء لتولي العرش في حالة وفاة مولاي سليمان (نفسه، 38).

## خاتمة

مع كل ما تتضمنه تقارير الجاسوسين من مبالغات عن ضعف المغرب، ومن عداء مترسخ له، ومن استعداد تام لخدمة الأجنحة السياسية الإسبانية ومخططها التاريخي المتمثل في استعمار الجار الجنوبي، فإن مذكرتيهما تعتبران ذات أهمية كبرى من الناحية التاريخية، سواء فيما يتعلق بنظرة الإسباني والأوربي بشكل عام إلى المغرب، أو فيما يتعلق بالحياة السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية لبلادنا خلال القرنين السابع عشر والتاسع عشر.

لقد تبخرت أحلام هذين الجاسوسين لأن إسبانيا بداية القرن السابع عشر، لم تكن ترغب في دخول مغامرة حربية جديدة، خصوصا وأن المغامرة الليبيرية الأخرى التي قامت بها البرتغال وانتهت بموت ملكها في معركة وادي المخازن ما زالت عالقة بالأذهان. أما إسبانيا بداية القرن التاسع عشر، فقد تعرضت لضربات خارجية متعددة، على رأسها الهزيمة القاسية أمام الإنجليز في 1804، ثم بعد ذلك بأربع سنوات أمام فرنسا، بحيث خضعت إسبانيا للاستعمار الفرنسي، وهو ما جعل أحلامها وأحلام جواسيسها باستعمار المغرب تتأخر أكثر من مائة سنة أخرى.

## بيليوغرافيا

### العربية

– الناصري، أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء التاسع، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956.

– خورخي دي هنين، وصف الممالك المغربية: 1603-1613، تعريب عبد الواحد أكيم، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ديسمبر 1997.

### الإسبانية

– Arteché, Gomez, *Descripción y mapas de Marruecos con algunas consideraciones sobre la importancia de la ocupación de este imperio*, Ed. Mellado. Madrid, 1859, Ibid., Morales.

-Badia domingo, *Los viajes de Ali Bey*, Ed. El Museo Universal, Madrid, 1980.

- Documents originals, Cf. Barbera Salvador. *Viajes por Marruecos* / Ed. Nacional. Madrid 1985.

- *Historia de Marruecos*, (Primera edición, Madrid, 1884) Ministerio de Asuntos exteriores. Edición al cuidado del P. Eijan.
- Morales, Lezcano. *Africanismo y Orientalismo Español en el Siglo XIX*. Ed. Uned. Madrid.
- Suarez, Victoriano, *Apuntes para la Historia de Marruecos*, (Primera Edición, 1851), Madrid, 1913.

## بين "المعرفة" و"التنكر"

الصحراء الأطلنتية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر بعيون إسبانية  
(بعثة الجنرال خوليو سيربييرا بابييرا الاستكشافية نموذجاً)

عادل بن محمد جاهل<sup>1</sup>

### ملخص:

يعد أدب الرحلة وصفاً لبلد معين يزوره الرحالة، إذ يسجل فيه انطباعاته ومشاهداته الوصفية، ولكن كل حسب رؤيته وتكوينه، بيد أن هذا الوصف يمتزج فيه الواقع، والخيال، وأسلوب القص والحقائق العلمية التاريخية، والجغرافية، والاجتماعية، والنفسية وغيرها. يقدم الرحالة، من خلال هذا الوصف، صورة عن الآخر، مثلما تجلّى في تقارير البعثة العلمية الإسبانية إلى الصحراء الأطلنتية لسنة 1886م، تحت إشراف الجنرال خوليو سيربييرا بابييرا. وهكذا، قدمت هذه البعثة الاستكشافية، صورة الآخر الصحراوي تراوحت بين الإيجابي والسلبي، انطلاقاً من نظرتها الخاصة.

الكلمات المفتاحية: الرحلات الاستكشافية الإسبانية، الصحراء الأطلنتية، الصورولوجيا، القرن التاسع عشر، المعرفة، التنكر.

### Abstract:

Travel literature is about the description of a country, where in the traveller documents his impressions and observations, according to his vision and psychological formation. However, this description is imbued with reality and imagination, with narration and scientific, historical, geographic, social, and psychological facts. Through the description, the traveller provides an image of the other in his text. This was the case with the 1886 Spanish scientific expedition under the auspices of General Julio Cervera Baviera, who provided an image of the other Sahrawi through his particular view point where in both positive aspects of self and other as well as negative ones are delineated.

1 - مترجم وباحث في تاريخ الصحراء الأطلنتية والعلاقات الإسبانية الإفريقية، مختبر البحث في تاريخ الجنوب المغربي وإفريقيا، جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير.

**Key words :** Spanish expeditions; Atlantic Sahara; Imagology; 19th century; Knowledge; Disguise.

## مقدمة

يبدو أن أغلب الرحالة والمستكشفين والعسكريين الإسبان، الذين جابوا مجاهل الصحراء الأطلنتية، على الأقل منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، كانت المغامرة، وارتياح المجهول، واكتشاف العجيب والغريب، والتنقيب عن الطريف والمدهش، والخروج على المألوف، والبحث عن الثراء السريع، والرغبة في الحصول على جائزة خاصة، من الغايات الرئيسة التي دفعتهم إلى التنقل إليها، متجشمين عناء السفر في البر والبحر، ومخاطرين بأرواحهم وأجسادهم. وعلى هذا الأساس، وانطلاقاً من تلك الدواعي، وصل إلى الصحراء الأطلنتية، المنطقة التي كانت تكتسي في مخيلة الأوروبيين، بشكل عام، طابعا غرائبيا (Jesús, Martínez Milán: 2003, 56)، جمهرة كبيرة من المغامرين والمدنيين الإسبان الذين ضاقت بهم سبل العيش في بلادهم، ومنهم أيضا المستكشفون والرحالة المحترفون، الذين تعودوا على الرحلة وركوب الأهوال، ومنهم رجال الدين الذين رغبوا في القيام بنشر رسالة المسيح، وتعاليم الإنجيل، ومنهم رجال العلم، حملة الريشة والقلم الذين استهوتهم الأبحاث عن الغريب في الطبيعة والإنسان. ونجد من بين هؤلاء المستكشفين أيضا الضباط العسكريين، الذين عملوا على إعداد معرفة جغرافية، ورصد أحوال المنطقة والسكان، وجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات والبيانات، مهما بدت صغيرة وتافهة، تمهيدا للغزو وقد يأتي. ومنهم المستكشف بالصدفة، الذي وصل إلى المنطقة بكيفية أو بأخرى، فاستهوته مجاهل الصحراء الأطلنتية، وعجائبها وغرائبها وخوارقها، فحرر على إثرها ارتسامات وخواطر وانطباعات، مرتبطة بالمجال والإنسان الصحراوي.

علاوة على ما تقدّم، نجد أن أغلب هؤلاء الرحالة والمستكشفين الإسبان الذين أطلقت عليهم الساكنة المحلية لقب "الكفار" (José, Carlos López Pozas: 2015, 56)، قبل أن تطأ أقدامهم الصحراء الأطلنتية، كَوّنوا عنها خلفية تاريخية، وجغرافية، ودينية، أصيلة وعميقة، حيث درسوا الثقافة الصحراوية بأبعادها المختلفة، بل أكثر من هذا، تعلموا اللهجات المحلية، والعلوم الإسلامية، وعادات السكان المحليين؛ وذلك كله، من أجل تسهيل مأموريتهم، والنجاح في مهمتهم (عادل جاهل: 2019، 67). وانطلاقاً من ذلك، تمكنوا من جمع كم هائل ومهم من الأخبار والبيانات القيمة عن البنيات السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، للصحراء الأطلنتية والمناطق الواقعة إلى الجنوب

منها، كما كانوا شهود عيان على الكثير من التفاصيل الدقيقة حول أوضاع هذه المنطقة، وجغرافيتها، ومسالكها، وحياة قاطنيها، ومثلهم الأخلاقية، طيلة الشهور والسنوات التي قضاها فيها، قصد التقصي والاستخبار (Pablo Ignacio de Dalmases: 2016, 15-21) عن جزء مهم واستراتيجي من بلاد المغرب.

لكن هؤلاء الرحالين واجهوا صعوبات عديدة ، أثناء تسللهم للمنطقة المذكورة، أو أثناء إجرائهم لبحوثهم الميدانية فيها، إذ تعرض بعضهم للأسر، والإغارة، والسرقة، والموت، والجوع، والعطش، ومنهم أيضا من واجه الحرارة المفرطة، والزوابع الرملية، والرياح الجافة والساخنة، والأمراض البوابية، وأعباء السفر، وطول مسافته، وعدم وضوح معالم الطريق، ولسعات العقارب المميتة، ولدغات الافاعي القاتلة. وكيفما كان الحال، ورغم الصعوبات والعقبات الطبيعية والسوسيو ثقافية الكثيرة والمتنوعة التي اعترضت هؤلاء الرحالة والمستكشفين والعسكريين الإسبان، إلا أنهم تمكنوا جميعهم من تقديم مادة معرفية أولية، عما شاهدوه وسمعوه وعانوه عن شؤون وأوضاع هذه المنطقة المجهولة وغير المعروفة لديهم، سكانا وقبائل وشيوخا، خاصة وأن هذا المجال، يعد من المجالات التي لم يتيسر للرواد والمستكشفين الإسبان الأوائل زيارتها، ومعرفة تفاصيل أحوالها وشؤونها عن قرب.

وتعد رحلة بعثة 1886م العلمية الاستكشافية، تحت قيادة الجنرال والمهندس والمخترع خوليو سيربيرا باييرا، من بين الرحلات الأجنبية القليلة التي قامت بأبحاث تاريخية واجتماعية وجغرافية جد دقيقة حول مجال الصحراء الأطلنتية والمناطق المحاذية لها في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، خاصة لما لهذه المرحلة من أهمية قصوى من الناحية التاريخية والسياسية، حيث تميزت بتسارع الأحداث وتلاحق الوقائع، إضافة إلى ما كان لها من تأثير كبير في توجيه تاريخ الصحراء الأطلنتية المعاصر، وإحداث تحولات كان لها وقع عميق في بنيتها المختلفة سواء من الناحية السياسية، أو الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو الدينية، وحتى الثقافية. وهكذا خلفت هذه البعثة مجموعة من الأبحاث والدراسات تحتوي على معلومات ومعطيات تُعد بحق نادرة و ثمينة، بل ومثيرة في أحيان كثيرة، وقلما تلتفت إليها المصادر المحلية المتميزة بالشح والابتسار من حيث عناصرها الإخبارية؛ وهي خصوصية تشترك فيها كل المجالات الصحراوية وشبه الصحراوية المميزة بضعف التدوين وقلة المكتوب. وفي مقابل تأخر انتشار ثقافة التدوين وتقاليد في المنطقة المذكورة، نسجل الحضور القوي لثقافة الرواية الشفهية، التي تتوارثها الأجيال الصحراوية أبا عن جد في أحيان كثيرة خارج سياقاتها الطبيعية، زمنا وموضوعا، الشيء



الذي يجعل من المستحيل أمام هذه الوضعية الإسطوغرافية المحدودة والهزيلة، تكوين صورة شاملة وواضحة حول تاريخ الصحراء الأطلنتية وحضارتها، بدقة وموضوعية. وهو ما يفرض اعتماد هذه الكتابات الأجنبية الإسبانية، كبديل ومنطلق أساس في إعادة تركيب جزء من أحداث الماضي الصحراوي خاصة، والجنوب المغربي عامة، خلال الحقبة التاريخية المذكورة أعلاه؛ وذلك بعد تمحيص تلك الشهادات المصدرية الإسبانية والتدقيق فيها وفق منهج علمي صارم وواضح المعالم قصد استخلاص الجيد والاستفادة منه، وطرح الرديء والتخلص منه.

إذن، ما هو القناع الذي اختارته بعثة 1886م الاستكشافية، للتوغل في دواخل الصحراء الأطلنتية؟ وما هي الصور التي رسمتها عن مجال وإنسان الصحراء الأطلنتية؟ وإلى أي حد تمكنت من تشخيص الواقع الاجتماعي والاقتصادي للمجال المذكور، خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر؟ هذه الأسئلة وغيرها، هي التي سنحاول البحث عن أجوبة لها، في قادم سطور هذه الدراسة.

## 1- التعريف بعثة خوليو سيريرا بابيرا الاستكشافية

### 1-1 - سياق إرسال البعثة

جرت أحداث رحلة هذه البعثة الاستكشافية الإسبانية، في الفترة الممتدة ما بين ماي وأبريل 1886م، أي مباشرة بعد هزيمة المغرب أمام إسبانيا سنة 1859م- 1860م في "موقعة تطوان" الشهيرة، المعروفة في الإسطوغرافيا الإسبانية بـ "الحرب الإفريقية" (Antonio, González Bueno) (La guerra de África y Alberto, Gomis Blanco: 2007, 35)، وهي فترة تاريخية عُرفت بكثرة الأحداث والوقائع السياسية والاجتماعية، وما يميز هذه الظرفية التاريخية أكثر، هو تزايد واشتداد مظاهر التوتر والصراع في العلاقات المغربية الأوروبية عامة، والإسبانية خاصة. وقد شهد المغرب خلال هذه المرحلة الحرجة من تاريخه مجموعة من الضغوطات والتناقضات، مست مختلف الميادين والمجالات الاقتصادية، والسياسية، والعسكرية، والديبلوماسية. ويمكن إجمال هذه الضغوطات (نور الدين بلحداد: 2016، 12-13) المتنوعة المقاصد والأهداف، في عواقب معركة إيسلي سنة 1844م، ومعاهدة للامغنية سنة 1845م، وما ترتب عليها من إجحاف وتقزيم لحدود المغرب الشرقية والجنوبية. ثم هناك المعاهدة التجارية التي وقعها المغرب مع بريطانيا سنة 1856م، وما حملته من استغلال فاحش لخيرات المغرب.

هذا بالإضافة إلى الحرب التي فرضتها إسبانيا على المغرب سنة 1859م-1860م، وما صاحبها من تعنت إسباني أثناء التوقيع على معاهدة الصلح يوم 26 أبريل 1860م؛ التي التزم فيها المغرب بدفع غرامة مالية باهظة بقيمة 100 مليون بسيطة كتعويض عن الخسائر التي زعمت إسبانيا أنها لحقت بمناطق نفوذها بالمغرب (Antonio, de San Martín: 1870, 7). هذا بالإضافة إلى توقيع المغرب يوم 16 غشت 1863م، تحت تهديد الأسطول الفرنسي بقنبلة الموانئ والمدن المغربية، معاهدة تجارية عرفت في الأدبيات التاريخية المغربية بـ "وفق بيكلار"، والتي من خلالها رسّخت فرنسا بكيفية أو بأخرى وجودها في التراب المغربي.

## 1-2 - حيثيات وأهداف البعثة

نستطيع القول من خلال ما توفر لدينا من معلومات وبيانات، إن رحلة بعثة 1886م الاستكشافية إلى دواخل الصحراء الأطلنتية، كانت لها أربعة أهداف رئيسة وامتازة، هي:

أ- أهداف إمبريالية توسعية: كانت أهم مرامي هذه البعثة الاستكشافية هو الحصول على اعتراف من شيوخ قبائل الصحراء الأطلنتية، على السيادة الإسبانية "على المنطقة الواقعة بين الرأس الأبيض ورأس بوجدور" (Julio.Cervera 1887، 11: Baviera). وهو ما تم فعلا.

ب- أهداف علمية: كانت من غايات هذه البعثة الاستكشافية أيضا، القيام بمسح شامل للمجال الجغرافي الصحراوي لسبر أغواره، وتجميع بيانات تهم بالأساس الميادين: الجيولوجية، والجغرافية، والاقتصادية (نفسه، 6). وبالضبط في المنطقة الممتدة من رأس بوجدور إلى الرأس الأبيض؛ وذلك قصد استكشاف الثراء الطبيعي المخبأ في باطن هذه الأراضي.

ج- أهداف تجارية: تتمثل في إبرام صفقات تجارية مع شيوخ الصحراء الأطلنتية البارزين؛ قصد ضمان الامتيازات التجارية لإسبانيا، في المنطقة السالف ذكرها (نفسه، 2).

د- هدف استكشاف المجهول: يتجسد في رغبة دفينة لدى هؤلاء المستكشفين الإسبان لاستكشاف المجهول، وشغفهم بارتياح غياهبه، ومن أجل كل هذا، تجشّموا الصعاب الجسم، وتحملوا المشاق المصنية، وركبوا المخاطر المهولة، في سبيل تحقيق أهدافهم اللاحدودة المتمثلة في اكتشاف هذه المناطق الصحراوية: "الغريبة"، و"المجهولة"، و"المغلقة"، على حد تعبيرهم.

### 1-3- التعريف بأعضاء البعثة

تكونت بعثة الجنرال والمهندس خوليو سيريرا باييرا (Julio Cervera Baviera) الاستكشافية، من ثلاثة أفراد يحملون الجنسية الإسبانية؛ فبالإضافة إلى رئيس البعثة خوليو سيريرا باييرا سابق الذكر، نجد كل من: الجيولوجي فرانسيسكو كيروكا إي رودريكيث (Francisco Quiroga y Rodríguez)، والقنصل والمستعرب فيليبي ريثو راميرث (Felipe Rizzo Ramírez (Dos) Oficiales del Ejército: 1900, 71 Manuel). كما رافق البعثة جنديان مغربيان موليان للجيش الإسباني من منطقة الريف، أحدهما اسمه الحاج عبد القادر (Dos Oficiales del Ejército: 1900, 73 Francisco) الذي قدّم لأعضاء البعثة خدمات مهمة وكبيرة (Quiroga): 1986, 495)، إضافة إلى مترجمين ومرشدين من الصحراء الأطلنتية، وتحديداً من قبيلة أولاد بو السباع، الأول اسمه الشيخ سيدي البشير، والثاني اسمه الشيخ عبد الودود (Julio, Cervera Baviera: 1886, 5).

ومن الواجب الإشارة في هذا السياق، إلى أن رحلة خوليو سيريرا باييرا وأعضاء بعثته إلى دواخل الصحراء الأطلنتية، ما بين ماي وأبريل 1886م، تم تنظيمها بدعم وطلب من الحكومة الإسبانية والجمعية الإسبانية للجغرافيا التجارية المديرية (Pablo, Ignacio de Dalmases y de Olabarría: 2012-2013, 174).

### 1-3-1 - خوليو سيريرا باييرا

ولد البروفيسور والمهندس والجنرال خوليو سيريرا باييرا (Julio Cervera Baviera)، في 26 يناير 1854م، ببلدة سيكوربي (Segorbe)، إحدى بلدات مقاطعة كاستيون (Castillón)، الواقعة في مدينة بلنسية، شرق إسبانيا (Antonio González Bueno y Alberto, Gomis Blanco: 2007, 212). والده هو الصيادي الدون ميكيل سيريرا إيرنانديث (Miguel Cervera Hernández)، أما والدته فهي الدونة خوسيفا باييرا مانيس (Elena, Martínez) (Josefa Baviera Mañes) (Oyarzabal: 2015, 36). تلقى تعليمه الأولي والإعدادي في مسقط رأسه بلدة سيكوربي، وبعد إتمام دراسته فيها بنجاح، غادرها في خريف 1871م، صوب مدينة بلنسية لاستكمال دراسته الجامعية، حيث اختار شعبة العلوم الفيزيائية والطبيعية (نفسه، 37) وذلك لتميزه فيها وعشقه لها. ورغم التفوق والتميز الذي أظهره أثناء دراسته الجامعية حيث حصل خلالها على أفضل الدرجات

العلمية، بيد أنه سرعان ما غادرها في فاتح يوليوز 1874م، أي بعد سنتين من التكوين الجامعي رغبة منه في الالتحاق بأكاديمية الخيالة (Pablo, Ignacio de) 174، 2012-2013، Dalmases y de Olabarría)، في مدينة بلد الوليد الواقعة وسط إسبانيا. وفي نونبر 1875م تخرج منها برتبة ملازم والأول في دفعته.

علاوة على ما تقدّم، كلفته الحكومة الإسبانية في عام 1877م بالقيام برحلة استكشافية إلى المغرب، خلالها تمكن من زيارة عدة مدن، مثل: فاس والعرائش. وأثناء المدة التي قضاها في هذه المدن والتي تربو على الشهرين، جمع ثروة هائلة من المعلومات، ضمت مختلف الجوانب التاريخية، والاقتصادية، والاجتماعية، والعسكرية، والبشرية، والقبلية للمغرب. ونظرا إلى أهمية هذه البيانات المتنوعة شكلا ومضمونا، قامت مجموعة من المؤسسات العلمية الإسبانية بطبعها، وهكذا نشر تقييداته ومشاهداته في فاس والعرائش، في مؤلف جامع بعنوان بعثة إلى داخل المغرب، وقد تولت طبعه مطبعة ميرايت (Mirabet) في بلنسية سنة 1884م، وفي السنة نفسها طبعت المجلة العلمية العسكرية في برشلونة مؤلفه الموسوم بـ الجغرافيا العسكرية للمغرب، كما طبعت المجلة نفسها دراسة ثانية له سنة 1885م، بعنوان بعثة جغرافية عسكرية إلى دواخل المغرب وسواحله.

إلى جانب ما سلف ذكره، التحق الرحالة بابييرا في عام 1878م بأكاديمية الهندسة العسكرية بمدينة كوادالاخارا، التابعة لمقاطعة كاستيا-لا مانتشا (Castilla-La Mancha)، حيث تخرج منها بعد أربع سنوات من التكوين المستمر، برتبة ملازم في 19 يوليوز 1882م. وبموازاة ما تقدّم، غادر الرحالة إسبانيا مجددا في غشت 1884م نحو المغرب، للقيام برحلة استكشافية سرية ثانية بطلب من مؤسسة الجيش الإسباني (José, Antonio Rodríguez Esteban: 2015)، وعلى إثرها تمكن من زيارة مجموعة من المدن الساحلية، مثل: سبتة وتطوان وطنجة والقصر الكبير والعرائش وأصيلا، منتحلا صفة طبيب، ومنتكرا في زي عربي مسلم قادم من تونس، كما أطلق على نفسه اسم "عمر الشريف" (نفسه). تمكن خلالها من جمع جملة من المعلومات الثمينة عن الجيش المغربي، من حيث بنيته، وتركيبته، ونقاط قوته وضعفه؛ ونظرا لأهمية هذه المعلومات الاستخباراتية، عمدت المجلة العلمية العسكرية البرشلونوية إلى طبع تقييداته وملاحظاته من جديد، في كتاب يحمل عنوان بعثة جغرافية عسكرية إلى دواخل المغرب وسواحله، بل أكثر من ذلك، نجده يدعو الحكومة الإسبانية إلى احتلال المغرب، خاصة بعد التمردات الخطيرة التي شهدتها المغرب، في عهد السلطان مولاي الحسن الأول (1873م-1894م).

وكيفما كان الحال، فإن الرحالة بابييرا ترك في عام 1886م العمل العسكري، للاشتغال في مجال الطباعة بمدينة برشلونة، وفي هذه المدة تحديدا توصل بدعوة من الجمعية الإسبانية للجغرافيا التجارية في مدريد، للقيام برحلة استكشافية عاجلة إلى الصحراء الأطلنتية، بغية عقد اتفاقيات تجارية مع سكان المنطقة وشيوخها البارزين، لضمان الامتيازات التجارية لإسبانيا في أقاليم المغرب الجنوبية (Julio Cervera Baviera: 1887, 2)، على حدّ تعبير رئيس الجمعية الإسبانية للجغرافيا التجارية وقتذاك فرانسيسكو كوييو (Francisco Coello)، خاصة بعد تنامي مشاريع التاجر ورجل الأعمال البريطاني دونالد ماكينزي (Donald Mackenzie)، صاحب الوكالة التجارية "بورت فيكتوريا" (Port Victoria) في ساحل طرفاية. وفور عودة الرحالة من رحلته إلى دواخل الصحراء الأطلنتية، وبعد تأدية مهمته الدقيقة بنجاح، تمت مكافأته بتعيينه ملحقا عسكريا بالمفوضية الإسبانية في طنجة (Pablo, Ignacio de Dalmases y de Olabarría: 2012-2013, 175)، لكن في سنة 1890م أُقيل من منصبه، إثر تصريحاته اللاذعة في حق وزير الدولة الإسباني آنذاك، أثناء المحاضرة التي ألقاها في المركز العسكري بمدريد، بعنوان (الديبلوماسية والحرب في المغرب) (José Antonio Rodríguez Esteban: 2015, 31)، ونتيجة لانتقاداته المستمرة والمتكررة لسياسة حكومة مدريد في المغرب، قامت هذه الأخيرة بإصدار أمر اعتقاله؛ وهكذا سُجن في يناير 1891 ستة أشهر نافذة، في سجن سانتا برابرا، بمدينة أليكانتي (Alicante) شرق إسبانيا (Pablo, Ignacio de Dalmases y de Olabarría: 2012-2013, 175).

إضافة إلى هذا وذاك، تم تعيين بابييرا في عام 1893 مساعدا للجنرال ماسياس كاسادو (Macías Casado) في كل من مليلية وجزر الكناري وبلد الوليد وبويرتوريكو. كما شارك مع الجنرال نفسه في الحرب ضد الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1898م، وبعد انقضاء الحرب نشر كتابا بعنوان الدفاع عن بويرتوريكو، هاجم فيه المتطوعين البورتوريكيين، الموالين للجيش الأمريكي آنذاك، وذلك رغبة منه في الحصول على حظوة عند الجنرال سابق الذكر، وهو ما حصل فعلا. بالرغم من كل هذا، تخلى بابييرا عن وظيفته العسكرية رغم دربته ودرايته الواسعة بها، وكرس كل وقته وجهده بعد ذلك لمجال الاختراع والابتكار والتدريس والتأليف؛ لكل هذا فتح أكاديمية للدراسات التقنية في مدينة بلنسية، والتي ستنتشر الموسوعة العلمية لهندسة الميكانيك الكهربائية، ثم مجلة عنوانها الكهرباء والميكانيكا (نفسه)، ثم بعد ذلك توج مساره الطويل

براءات اختراع في منتهى الأهمية، خاصة في مجال ”التلغراف اللاسلكي“، وكذلك في مجال الإذاعة، وبفعل هذه الإنجازات العديدة تمكن من تحقيق شعبية كبيرة داخل المجتمع الإسباني، وعلى إثرها انتخب نائبا في الكورتيس (Cortes) أي (البرلمان الإسباني) في العام 1908م. وتوفي بايبيرا في 24 يونيو 1927م بالعاصمة الإسبانية مدريد.

### 1-3-2 - فرانسيسكو كيروكا إي رودريكيث

ولد العالم والجيولوجي الإسباني فرانسيسكو كيروكا إي رودريكيث (Francisco Quiroga y Rodríguez) في سنة 1853م، بمدينة آرانخويت (Aranjuez) الواقعة في الجزء الجنوبي من العاصمة مدريد. ينتمي إلى عائلة ميسورة تتبوأ مكانة اجتماعية وعلمية هامة ومرموقة. والده كان بيطريا وأستاذا في علم التشريح بالمدرسة البيطرية في مدريد (José, Luis Barrera Mórte: 2008, 153)، وبايعاز من والده التحق سنة 1868م - 1869م بكلية العلوم لدراسة الصيدلة والعلوم الطبيعية، تخصص ”البتروغرافيا“ و”علم المعادن“ (Pablo, Ignacio de) (Dalmases y de Olabarría: 2012-2013, 175)، ويُخبرنا الباحث خوسي لويس باريرا موراتي (José Luis Barrera Mórte)، بأن الرحالة كيروكا تأثر بدروس أستاذه العالم الجيولوجي المعروف خوسي ماكفيرسون (José Macpherson)، ثم بدرجة أقل البروفيسور سلبادور كالديرون أرانا (Salvador Calderón Arana)، والبروفيسور أكوستو كونثاليث دي ليناريس (Augusto González de Linares) (José, Luis Barrera Mórte: 2008, 157)، وفي عامي 1879-1878م حصل الرحالة كيروكا، على التوالي، على شهادة الدكتوراه في التخصصات سالفه الذكر، الشيء الذي أهله للتوظيف في متحف التاريخ الطبيعي بمدريد (Pablo, Ignacio de) (Dalmases y de Olabarría: 2012-2013, 175)، حيث أوكلت له مهمة التدريس فيه، ثم دراسة وتصنيف المعادن والصخور التي جلبتها آنذاك بعثة إسبانية من المحيط الهادي في سنة 1862م.

فضلا عما تقدم، توصل كيروكا في صيف 1886م، بدعوة من الجمعية الإسبانية للجغرافيا التجارية المدريدية، للمشاركة في البعثة العلمية الاستكشافية المزمع إرسالها إلى الصحراء الأطلنتية، وتحديد إلى منطقتي وادي الذهب والساقية الحمراء، وبعد قبوله المشاركة في هذه المغامرة المحفوفة بالمخاطر، أوكلت له الجمعية الإسبانية للجغرافيا التجارية، مهمة تتلخص في دراسة مفصلة لكل المعطيات المتعلقة بالتضاريس والغطاء النباتي، وكل ما يتعلق بالمناخ، وما تنتجه المنطقة (2) (Julio, Cervera Baviera: 1887, 2)؛ أي كل ما له صلة بمجال تخصصه

في العلوم الطبيعية والجيولوجية. وهكذا أنجز جملة من الدراسات والأبحاث العلمية الرصينة والقيمة في كافة التخصصات العلمية التي أوكلت له، أظهر خلالها كفاءته العلمية المتميزة، إذ تمكن من تصحيح جملة من الأخطاء العلمية التي سقط فيها عدد من الرحالين الذين زاروا الصحراء الأطلنتية قبله، رغم ما عاناه من ظروف سيئة وقاسية هو ورفاقه في فيافي الصحراء الأطلنتية المخيفة؛ إذ أصيب في منطقة تيرس. بمرض الحمى الناتج عن سوء التغذية، والحرارة المفرطة، والمياه الآسنة، وقد كاد هذا المرض أن ينهي حياته هناك (Julio, Cervera Baviera: 1886, 5).

وبعد أن أنهى كيروكا مهمته بنجاح في الصحراء الأطلنتية، قفل راجعا إلى موطنه إسبانيا، مزهوا بالنتائج التي حققها هناك هو وأفراد بعثته، إذ وقعوا في 12 يوليوز 1886م، على اتفاقيات ومعاهدات عديدة، لعل أبرزها مع أمير أدرار أحمد بن محمد ولد عيدة، غايتها تسهيل المبادلات التجارية ما بين أدرار والمحيط الأطلنتي، لكن الخطير في هذه المعاهدات والاتفاقيات، الاعتراف الصريح لقادة جميع القبائل الأكثر تميزا في الصحراء الأطلنتية (Julio, Cervera Baviera: 1887, 11)، على أن المناطق الواقعة بين رأس بوجدور والرأس الأبيض، هي أراض إسبانية (Dos Oficiales del Ejército: 1900, 72-74). وإلى جانب ما سبق ذكره، ترك الرحالة المذكور المغامرات والرحلات إلى التركيز على الأبحاث والتأليف والاختراع، ونتيجة هذا حقق الكثير من النجاحات، إذ يعتبر أول من استعمل جهاز الميكروسكوب في دراسة البنية البلورية للمعادن ((Pablo, Ignacio de Dalmasas y de Olabarría: 2012-2013, 175))، وبهذا حظي بشعبية كبيرة وبمكانة مرموقة ورفيعة بين أترابه من الباحثين والعلماء في كل بقاع أوروبا الغربية، ليُنتج بعد ذلك إلى إنشاء أول قسم أوروبي في علم البلورات بجامعة مدريد المركزية. ونتيجة لذلك، انتخب في العام 1889م عضوا في الجمعية الإسبانية للتاريخ الطبيعي، وقد استمر في منصبه هذا إلى غاية وفاته سنة 1894م (نفسه).

### 1-3-3 - فيليبي ريثو راميريث

ولد القنصل والمترجم والمستعرب الإسباني فيليبي ريثو راميريث (Felipe Rizzo Ramírez)، في 11 مارس 1823م، بالعاصمة الليبية طرابلس، فهو ينتمي إلى عائلة مختلطة إثنية، وذات مكانة اجتماعية محترمة. والده هو خوان باوتيستا ريثو سباتارو (Juan Bautista Rizzo Spataro)، وهو من أصول مالطية-إيطالية،



أما والدته فهي ماريا باليتينا راميرث أورتيث دي ثوكاستي (María Valentina Ramírez Ortiz de Zugasti)، وهي إسبانية من مدريد (Jorge, Pina: 2008, 207)، كان والده يعمل نائب قنصل إسبانيا لدى باشا طرابلس. وقد مكنت إقامة الرحالة راميرث في طرابلس لمدة طويلة، من معرفة لغة العرب وعاداتهم وفن التعامل والتفاوض معهم (Pablo, Ignacio de Dalmases y de Olabarría: 2012-2013, 176)، الشيء الذي مكّنه سنة 1841م، من الالتحاق بالسلك الدبلوماسي الإسباني في تونس، حيث عُيِّنَ وهو في سن التاسعة عشر نائبا للقنصل الإسباني (Jorge, Pina: 2008, 209). ونظير كفاءته الإدارية التي أبان عنها طيلة المدة التي قضاها نائبا للقنصل، تمت ترقيته وتعيينه في منصب وازن، هو القنصل العام الإسباني في تونس، مكلفا بالتفاوض أمام الباي التونسي أحمد بن مصطفى (نفسه)، وقد استمر الرحالة في منصبه هذا إلى غاية حرب تطوان، إذ تم استدعاؤه من قبل الحكومة الإسبانية لتجربته وحنكته الدبلوماسية، قصد المشاركة في المفاوضات المغربية-الإسبانية عقب الحرب آفة الذكر.

هذا، وعُيِّنَ في سنة 1862م قنصلا في المفوضية الإسبانية بطنججة، بيد أنه في سنة 1866م، تمت إقالته من منصبه هذا، بعد أن قام باختلاس أموال الممثلة الإسبانية في المغرب (Pablo, Ignacio de Dalmases y de Olabarría: 2012-2013, 176). في هذه الفترة، عرفت حياته تقلبات عدة، عانى خلالها الأمرين هو وعائلته (Jorge, Pina: 2008, 213)، فرغم تبرئة القضاء الإسباني له سنة 1886م، من تهمة الاختلاس والسرقة، فإن ذلك لم يشفع له في العودة إلى منصبه مرة أخرى، الشيء الذي حتمّ عليه مغادرة طنجة مع عائلته نحو سبتة، التي مكث فيها ست سنوات كاملة، عاش خلالها أزمة عصيبة، لدرجة لم يعد لديه ما ينفق على نفسه وأسرته. وفي سنة 1886م، تمت دعوته للمشاركة في الرحلة الاستكشافية المنظمة من قبل الجمعية الإسبانية للجغرافيا التجارية المدريدية إلى الساقية الحمراء ووادي الذهب. وقد أوكلت له هذه الجمعية مهمة الترجمة لأعضاء البعثة، مع ساكنة الصحراء الأطلنتية وزعاماتها المحلية. وبعد نجاح مهمته، أوكلت له الجمعية الإسبانية للجغرافيا التجارية مهمة أخرى، مفادها ترجمة كل نصوص الاتفاقيات التي تم توقيعها مع شيوخ القبائل الصحراوية، لعل أبرزها الاتفاقية التي وقعها القنصل خوسي ألبارث بيرث (José Álvarez Pérez)، في 10 ماي 1886م، ثم اتفاقية خوليو سيريرا باييرا مع شيوخ أدرار النمر، المعروفة بـ "معاهدة إيجيل" (el Tratado de Iyil).



ونظير هذه الأعمال المهمة التي قام بها، أثناء الرحلة وبعدها، كإفاته الحكومة الإسبانية وبتوسط من الجمعية الإسبانية للجغرافيا التجارية في شخص عضوها الفاعل خوليو سيريرا باييرا، بتعيينه سنة 1888م قنصلا عاما من الدرجة الأولى، في الولايات المتحدة الأمريكية، وبالضبط في مدينة نيو أورلينز (نفسه، 218)، بيد أنه سرعان ما غادر منصبه هذا سنة 1890م، إذ أُحيل على التقاعد، وفي الفترة المتراوحة ما بين 1890م و1898م اشتغل في عدة مناصب، منها وكيل الولايات المتحدة الأمريكية والبرتغال في مدينة فاس، حيث استمر في وظائفه هذه إلى غاية اندلاع الحرب الإسبانية-الأمريكية، في عام 1898م، ونتيجة هذه الحرب غادر فاس نحو سبتة حيث بقي فيها إلى غاية وفاته، في 12 دجنبر 1908م، عن عمر يناهز 85 سنة (نفسه، 224).

## 2- أي قناع اختارته بعثة 1886م للتوغل في دواخل الصحراء الأطلنتية؟

كان من أهم أهداف رحلة بعثة خوليو سيريرا باييرا، إلى أقاليم المغرب الجنوبية، هو القيام بمجموعة من الأبحاث والدراسات العلمية الدقيقة حول مجال الصحراء الأطلنتية ومحيطها، ثم في الوقت نفسه، كانت تهدف أيضا، إلى عقد مجموعة من الصفقات التجارية مع زعماء المنطقة المذكورة؛ قصد ضمان الامتيازات التجارية لإسبانيا (Julio, Cervera Baviera: 1886, 2)؛ وذلك عبر الدخول في اتفاقيات تجارية، مع شيوخ القبائل الصحراوية البارزين. ولتحقيق هذه الأغراض الاستعمارية وغيرها، قامت الجمعية الجغرافية المدريدية، بدعم من الحكومة الإسبانية (نفسه، 1)، بتنظيم رحلة استكشافية إلى دواخل الصحراء الأطلنتية، وتحديدًا إلى منطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب، وقد خصصت الجمعية المذكورة لذلك ميزانية مهمة لتحقيق ما كانت تخطط له، وهو بسط نفوذ إسبانيا على سواحل الأقاليم الجنوبية للمغرب (Francesco, Coello: 1892).

وما ساعد هذه البعثة العلمية كثيرا في مهمتها الاستكشافية الاستطلاعية، هو بعض العسكريين المغاربة من منطقة الريف، وبعض أهالي وشيوخ الصحراء الأطلنتية الذين قدموا لهم كل وسائل الدعم، لاستكشاف أراضي الصحراء الأطلنتية والمناطق المجاورة لها، ولعل أبرز من قدّم الدعم لهذه البعثة، أمير أدرار أحمد بن محمد ولد عيدة، الذي بعث لهم مرافقين عنه، هما: الشريف يدو ولد سيدي يحيى، والشريف عبدي بن ترمين. بل وأهدى لهم عدة جمال لتسهيل تنقلهم في فيافي الصحراء الأطلنتية الحارقة (Julio, Cervera Baviera: 1886, 3)، إضافة إلى اثنين من شيوخ قبيلة أولاد بوسبع، الأول اسمه الشريف سيدي

البشير وهو من أكبر أثرياء القبيلة، والثاني اسمه الشريف عبد الودود وهو من أكبر الصيادين والمحاربين في الصحراء الأطلنتية (نفسه، 2)، إضافة إلى الشيخ الحافظ زعيم أولاد لخليكة فرع من قبيلة أولاد دليم (نفسه، 3). وقد استفاد أفراد البعثة الشيء الكثير منهم، خاصة فيما تعلق بالمجال والمسالك وإنسان المنطقة. وحتى لا يُفضح أمر هوية مستكشفيينا المسيحية، وحتى لا تُكشف نواياهم التجسسية، تقمصوا شخصية رجال أعمال، بيد أن هذه الحيلة، سرعان ما انكشفت لدى السكان المحليين، وعلى إثر ذلك، حاولوا أسرهم وقتلهم أكثر من مرة (نفسه، 6).

كما أشرنا في الصفحات السابقة، ترأس وفد هذه البعثة المهندس خوليو سيريرا بايبيرا، وعن ظروف قبوله هذه المهمة، قوله في المحاضرة التي ألقاها في رحاب الجمعية الإسبانية للجغرافية التجارية. مدريد، أثناء انعقاد دورتها العادية، في 2 نونبر 1886م ما يلي:

”كنت أعمل في برشلونة بهدوء، وأنا أقوم بإدارة بعض أورايش التصوير والطباعة، إلى أن فوجئت برسالة مهمة، وهذه بعض الفقرات منها، سأسمح لنفسني بقراءتها:

السيد الدون خوليو سيريرا بايبيرا، سيدي العزيز:

ترغب الجمعية التجارية التي أترأسها بدعم من الحكومة الإسبانية القيام برحلة استكشافية إلى الصحراء الأطلنتية، وإذا أمكن فيسكون ذلك في شهري مارس وأبريل المقبلين. ووفقا لخطتي، سيتكلف رئيس البعثة بالجانب الطبوغرافي، وتحديد بعض النقاط والإحداثيات الفلكية للمنطقة بشكل دقيق ومفصل، بالإضافة إلى ذلك، سيقوم بجمع كل الأخبار والبيانات عن تلك المنطقة، وتوقيع اتفاقيات مع الأهالي، وذلك من أجل ضمان الامتيازات التجارية الإسبانية. وإذا كان ذلك ممكنا، سوف يصاحبه أستاذ في العلوم الطبيعية للقيام بدراسة مفصلة عن كل المعطيات المتعلقة بالتضاريس والغطاء النباتي والحيواني والمناخ، وكل ما تنتجه المنطقة، وغيرها من الأمور. على أي حال، سيكون هناك شخص آخر يجيد اللغة العربية كتابة وقراءة، والذي يمكن أن يكون أوروبيا أو أحدا من أهالي المنطقة، شريطة تمكنه من اللغة الإسبانية. سوف تبدأ الرحلة من وادي الذهب في اتجاه سبخة إيجيل. إذا كنت تجرؤ على الذهاب، فأنا ألتمس منكم إجابة في أقرب وقت ممكن، وإخباري بكل صدق وصراحة. فرانسيسكو كوييو“ (Julio, Cervera Baviera: 1887, 1-2).

ونتيجة هذه الرسالة واحتراما لشخص فرانسيسكو كوييو، رئيس الجمعية الإسبانية للجغرافيا التجارية المدريدية، قبل خوليو سيريرا المشاركة في هذه الرحلة العلمية، رغم قسمة بعدم قبول أي وظيفة أو مهمة في المغرب، في هذا الصدد يقول: "أقسمت بعدم تولي أي أعمال أخرى في إفريقيا [يقصد المغرب] لكن تقديرا للسيد كوييو الذي يعد بحق شخصية محترمة، أغلقت ورشتي في مجال التصوير، وأخذت القطار، ووصلت إلى مدريد امتثالا لأوامره" (نفسه، 3). وفور وصول خوليو سيريرا بابيرا إلى مقر الجمعية الإسبانية للجغرافية التجارية في مدريد، عقد رئيس الجمعية فرانسيسكو كوييو اجتماعا عاجلا بمنزله، حضره ثلة من الشخصيات السياسية والعلمية الوازنة في إسبانيا وقتذاك؛ بهدف التشاور معهم قبل شروع أفراد البعثة في الإبحار نحو الصحراء الأطلنتية، نظرا لمعرفتها الدقيقة بشعاب الصحراء، ومسالكها، وسكانها، ومثلهم الأخلاقية (نفسه)، وأثناء الاجتماع صدرت آراء عديدة ومتباينة، بين مرحب بالفكرة ومتشائم ومتروقب لها. في هذا الصدد، يقول خوليو سيريرا بابيرا: "كان هناك من أعداء المشروع من تنبأ بنهاية مميتة للبعثة" (نفسه).

ومن بين الأسباب الرئيسة، التي جعلت هؤلاء يصعدون هذا النوع من الأحكام المسبقة، هو اطلاعهم على مجموعة من التقارير والمستندات تفيد أن المنطقة خطيرة وغير آمنة، بسبب كثرة اللصوص، وقطاع الطرق، وتوحش أهاليها، وكرهيتهم للأجنبي، ولكل غريب مسيحي، إضافة إلى أخطار الطريق، وطول مدة الرحلة، وأهوال المناخ، وقسوة طبيعة الصحراء التي لا تطاق، لكن خوليو سيريرا بابيرا لم يأبه بهذه المخاطر والتحذيرات. يقول في هذا الجانب: "بالنسبة للمخاطر التي تمثلها أهوال المناخ (...) فإني لم أعط لها أية أهمية خاصة ونحن في حاجة ماسة تقريبا إلى دراسة المنطقة، رغم التوقيت الصعب، والظروف السيئة للغاية (...) فجيراردو رولفز ودوفيغيي وبارت وريتشاردسون ولينز، والعديد من المغامرين الآخرين الذين ولدوا في بلدان عرضية، حيث نجدهم لم يتراجعوا بسبب قسوة المناخ أو مشقته. نحن الإسبان الذين حاربنا وكافحنا في جبال البيريني الجليدية في شمال أوروبا، وكذلك في المكسيك والبيرو، وفي السهول غير الصحية في جزر الأنتيل الساخنة، كما هو الحال في السواحل البعيدة من الكونتشيشتينا [الواقعة في الفيتنام]، وفي المغرب (...) وفي فيرناندو بو [الواقعة في غينيا الاستوائية]، وفي أمريكا الوسطى، وهي كلها مناطق معروفة بعدم أمنها واستقرارها، إننا لن نعترف أبدا

بالأخطار أو المتاعب ثم لنأت وتتكلم عن الخوف وأن نخشى ما لا يخشاه الفرنسيون والإنجليز والألمان؟ صحيح لقد عانينا من قسوة المناخ الشديد والحر للغاية، كما شربنا أيضا المياه الآسنة، ثم كافحنا الجوع والعطش، وكذا العناصر المتعصبة والعنيفة“ (نفسه، 3).

وكيفما كان الحال، انطلقت رحلة البعثة في 10 أبريل 1886م، من ميناء مدينة قادس جنوب إسبانيا، حيث كانت الوجهة لاس بالماس، إحدى مدن جزيرة كناريا الكبرى، قبل الوصول إلى هذه المدينة، تم التوقف في ستة، بغية اصطحاب المترجم فيليبي ريثو راميريث، وبعض الجنود المغاربة الموالين للجيش الإسباني في منطقة الريف. وفي 7 ماي 1886م وصلت البعثة لاس بالماس، حيث قضت فيها بعض الوقت، وفيها تم اصطحاب الشخص الثالث في البعثة، العالم الجيولوجي فرانسيسكو كيروكا إي رودريكيث، وفي 12 ماي 1886م غادرت البعثة لاس بالماس على متن السفينة المسماة ”وادي الذهب“، في اتجاه شبه جزيرة الداخلة. ونستشف من بعض البيانات، أن أعضاء البعثة شحنوا السفينة، قبل إبحارها نحو مدينة الداخلة، بعدة مواد مثل: التبغ والشاي والسكر والحلويات والكتب وأشياء أخرى عبارة عن معدات علمية وتقنية، منها: مزواة، بوصلتين، كرونومتر، سدس، بارومتر، ميكروسكوب، عداد الخطى، ترمومتر، نظارات طبية، مطارق، صناديق، وخرائط، وغيرها (نفسه، 1). وبعد الوصول إلى مدينة الداخلة، في 14 ماي 1886م، قامت البعثة مباشرة بالتحضير لرحلتها، نحو دواخل الصحراء وأدراة التمر مدة شهر، خلالها أنجز أفراد البعثة مجموعة من الدراسات الميدانية، حول المنطقة المذكورة. وقد صادفوا أثناء إنجازهم لهذه البحوث ”بعض أفراد القبائل مسلحين ببندقيات ومدفعين، وللخروج من هذه الورطة عمد سيريرا إلى تقديم مجموعة من الهدايا للشيخ رحمة الله، رئيس هؤلاء الأفراد. وتمكن من إقناعه بالتوقيع على اتفاقية تجارية“ (نور الدين بلحداد: 2008، 114). كذلك قامت البعثة بإرسال وفد إلى أمير أدراة أحمد بن محمد ولد عيدة، رغبة منهم في السماح لهم بزيارة منطقة نفوذهم، لمباشرة تحرياتهم وأبحاثهم الميدانية، وكذا الدخول معه في اتفاقيات وصفقات تجارية (Antonio, González Bueno y Alberto, Gomis Blanco: 2007، 375-376)، وهو ما تم فعلا، حيث أرسل أمير أدراة ولد عيدة وفدا ضم مبعوثين له وعدة جمال، لمرافقة قافلة هذه البعثة الإسبانية في رحلتها نحو منطقة نفوذهم أي إلى أدراة (Julio, Cervera Baviera: 1887، 11).

وهكذا، غادرت البعثة في 16 يونيو 1886م مركز الداخلة، في اتجاه سبخة إيجيل عبر منطقة تيرس، وبعد قطع مسافة 450 كلم، وصلت البعثة إلى بئر العيوج، حيث تم عقد عدة اجتماعات، في 10 يوليوز 1886م، تخللها توقيع مجموعة من الاتفاقيات، في 12 يوليوز من السنة نفسها، مع زعماء منطقة أدرار وشيوخ قبائل الصحراء الأطلنتية البارزين، في هذا الصدد، يقول رئيس البعثة خوليو سيريرا بابييرا: ”عقدنا مع زعيم العرب عدة اجتماعات في منطقة إيجيل على حدود أدرار التمر، وقد حضر هذه الاجتماعات قادة جميع القبائل الأكثر تميزاً في الصحراء الأطلنتية، وكان نتيجة تلك الاجتماعات حيازة إسبانيا الأراضي الواقعة بين الرأس الأبيض ورأس بوجدور، ومن المحيط الأطلنتي إلى سبخة إيجيل، وإعلان الحماية الإسبانية على منطقة أدرار التمر“ (Julio, 11, Cervera Baviera: 1887).

ومن الواجب الإشارة، في هذا السياق، إلى أن أفراد البعثة لقوا جملة من الصعوبات، في مختلف المناطق التي حلوا بها، لعل أخطرهما ما حدث في دوار الديميسات، حيث تعرضوا هناك لمحاولة الاختطاف، يقول خوليو سيريرا: ”في هذا الدوار تعرضنا لمحاولة اختطاف، كما تمت سرقة الطعام والأقمشة والهدايا التي حملناها“ (نفسه، 5)، وهو الشيء نفسه الذي تعرضوا له عند مرورهم من قبيلة أولاد بوسبع، في هذا الخصوص، يقول خوليو سيريرا: ”في دوار بوسبع اختطفنا وبقينا ستة أيام نكافح بشكل مستمر من أجل السماح لنا بالخروج للسير نحو دواخل الصحراء“ (نفسه، 10)، لكن هذه المدة التي قضوها في الأسر، شكلت لهم فرصة ثمينة جداً لدراسة هذه القبيلة، من حيث قوانينها، وتنظيماتها، وعاداتها (نفسه). إضافة إلى الأسر، واجهت البعثة متاعب ومشاكل أخرى في هذا الشأن، يقول خوليو سيريرا بابييرا: ”هناك حيث كان علينا أن نتحمل بصبر وأناة جميع سكان تلك القرية التي تتكون من 22 خيمة، ولا سيما النساء اللواتي شكلن دائرة ضيقة حول خيمتنا مما جعلنا نتعذب بأسئلتهم البسيطة والحمقاء مع مطالبهن وشتائمهن وعاداتهن السيئة، دون أن يسمحوا لنا بأخذ قسط من الراحة، خلال الساعات القليلة التي يتركنا فيها الرجال أحراراً“ (نفسه)، مضيفاً: ”إنها ذكريات ما تزال ترعبني، الجوع والعطش والحرارة التي لا تطاق، والاضطهاد والتهديدات والمياه الملوثة، ولحوم الغزال النيئة والتعب الناتج عن النوم القصير وغير المستقر، على الرمال الممتلئة بالحشرات القذرة، والبؤس والأوساخ والأمراض غير المريحة. وقبل كل شيء، طاعون من العُرب المرهقين والمقرفين وغير المحتملين“ (نفسه، 6).

وبعد أن حقق أفراد البعثة الأهداف التي جاؤوا من أجلها، غادروا بسرعة نحو الساحل وتحديدًا جنوب أو سرد قصد استكمال التحريات وجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات والبيانات، وقد وجدوا في العبد الأسود (معطى الله) أحد عبيد العُرب (نفسه، 12)، الذين انضموا إلى قافلة البعثة في دوار الديميسات، أفضل مرشد، وأحسن مخبر، خاصة وأن الأخير كان مصدر مجموعة من المعطيات والتفاصيل التي اعتمد عليها أفراد البعثة، لدرجة أن خوليو سيربيرا بابييرا رئيس البعثة قال في حقه: "كان أستاذي المفضل وبياناته ومعلوماته تستحق الائتمان" (نفسه)، وفي 15 غشت 1886م، غادر أفراد البعثة دواخل الصحراء الأطلنتية، مزهوين بالنتائج التي حققوها هناك، سالكين في ذلك مسارات ومحطات مختلفة، وهي: مدينة الداخلة وجزر الكناري وميناء قادس ومدريد.

### 3- دراسات وبحوث حول مجال الصحراء الأطلنتية

حاول أفراد بعثة 1886م العلمية، على اختلاف مجالاتهم التخصصية، أن يدرسوا هذا المجال الصحراوي بالحفر في قعره العميق من أجل تكوين مادة معرفية دقيقة، لدوائر الحركة الاستعمارية الإسبانية، وهو المجال الذي وصفوه في مجمل تقاريرهم المتعددة بالمجال: "المجهول"، و"الغرائبي"، و"المغلق". إن أهم ما يميّز كتابات بعثة 1886م عن غيرها، هي أنها عبارة عن تحريات وأبحاث ميدانية مكثفة، كما استغلت أيضا مجمل الروايات الشفهية المتواترة ممن لهم خبرة وتجربة بالمجال والإنسان الصحراوي، أجنب كانوا أم من الأهالي، الأمر الذي جعل من أبحاثهم المتنوعة، عبارة عن تسجيلات وثائقية، تصوّر بدقة متناهية ما يثير الملاحظة حقا، بحيث قلما نجد لها نظيرا في المصادر التاريخية التي أرخت للصحراء الأطلنتية، سواء المحلية منها أو الأجنبية. ورغم الصعوبات الكثيرة التي واجهت أعضاء البعثة، أثناء استكشاف المجال المراد "احتلاله" و"استغلاله"، إلا أنهم تمكنوا من تكوين صورة تقريبية عن سكان الصحراء الأطلنتية، ومعالمها، وأعلامها، وقبائلها؛ صورة ترواحت بين الواقعي والتخييلي.

وفيما يلي قائمة الأبحاث، التي أنجزها أفراد بعثة 1886م حول مجال الصحراء الأطلنتية، وكل هذه الدراسات نشرت في مجلة الجغرافية التجارية المدرسية، وتحديدًا في العدد 25-30، يوليوز-شتنبر 1886م:

أ- خوليو سيربيرا بابييرا

- بعثة إلى الصحراء الأطلنتية، من وادي الذهب إلى إيجيل.

ب- فرانسيسكو كيروكا إي رودريكيث

- وادي الذهب: هيكل شبه جزيرة وادي الذهب،

- جيولوجيا وجغرافيا،

- الصحراء الأطلنتية وسكانها،

- مجموعات من الصحراء والكناري: المعادن، والصخور، والحفريات.

ج- فيليبي ريثو راميرث

- الصحراء الأطلنتية: إلحاق وحماية.

4- صورة الصحراء الأطلنتية في تقارير بعثة خوليو سيريرا بابيرا

1-4- المناخ والمجال الطبيعي

ضمت تقارير بعثة خوليو سيريرا بابيرا، بيانات ومعطيات مهمة ودقيقة، حول العناصر الجغرافية والمناخية والهيدروغرافية للصحراء الأطلنتية، وهي معلومات تستقي قيمتها من كونها عبارة عن تحريات وأبحاث ميدانية مكثفة وفي عين المكان، الشيء الذي يجعلنا نطمئن إلى نتائجها، ودقتها، وصدقها. ومما أمكن التقاطه من إشارات وشهادات، في هذا الجانب، أن مناخ الصحراء الأطلنتية يتميز بشدة الجفاف، وارتفاع درجات الحرارة، وقلة الأمطار طيلة السنة. وهكذا، شكلت حرارة الصحراء الحارقة عائقا كبيرا، منع أفراد البعثة من القيام بالمهام التي أتوا من أجلها للمنطقة المذكورة، وهذا ما عبّر عنه بوضوح تام، رئيسها خوليو سيريرا بابيرا، في إحدى تقاريره الاستعلامية عن المنطقة، بالقول: "في 20 يونيو [من سنة 1886م] (...) وفي الساعة الثالثة بعد الظهر، بلغ ميزان الحرارة 62 درجة مئوية، وقد التصقت ألسنتنا بأحناكنا، وأضحت شفاهنا جافة ومقطعة، وحاولنا ترطيبها بحمض الستريك، أما الكلبة التي كانت معنا، فهي تلهت بجنون، حيث بدأت تحفر بشدة في الرمال، بحثا عن طبقة سفلى أقل سخونة، لتنام فيها، وهي تعوي عواء حزينا، كأنها تموت" (Julio, Cervera 1887, 4).

ورغم شدة حرارة الصحراء الأطلنتية اللافتة، واضطراب أحوالها المناخية، فإن سكانها يرون حسب تقرير البعثة أن "بلدهم هو الأكثر جمالا وخصوبة ومتعة في العالم، وقد منحهم الرب سهولا رملية واسعة، وغطاء نباتيا غنيا وكثيفا، إضافة إلى آبار جميلة، تتميز بمياه عذبة وطرية" (Julio, Cervera

3, 1887, Baviera)، بيد أن سيريرا هنا يتدارك كلامه هذا، مستحضرا تلك النظرة الاستعمارية النمطية المتحاملة المبنية على التفوق الغربي، وعلى هيمنة الحضارة الغربية الرأسمالية، ليقول متهكما: ”وفقا لنا هي أراض عبارة عن مستنقعات قذرة ومتسخة ومثيرة للاشمئزاز، إذ يرى سكانها أنهم قد منحهم الرب ماشية كبيرة من الجمال والأغنام والماعز، ومنحهم كذلك حسب اعتقادهم نساء جميلات ودودات وحنونات، مكافأة لفضائلهم العالية، ولإيمانهم الكبير بالله، حيث يكرسون كل الساعات للإنشاد ومدح النبي (...). من ناحية أخرى، قال لنا أحد زعمائهم المستنيرين متسائلا: كيف يمكنكم العيش دائما في المياه على جذوع الأشجار والأخشاب، التي تطفو على سطح البحر؟ التعساء يرون بعض مراكب الصيد الصغيرة للصيادين من جزر الكناري، ويعتقدون أن هذه هي طريقتنا المعتادة في العيش“ (نفسه، 3-4).

#### 4-2- السكان والفئات الاجتماعية

##### 4-2-1- سكان أهل البحر

حسب تقرير خوليو سيريرا باييرا الاستعماري، فإن سكان أهل البحر ”يعيشون في الساحل دون أن تكون لهم جراحة لاختراق المناطق الداخلية [للسحراء]، فهم ينتمون إلى فئة اجتماعية ذات مكانة منحطة، وهي فئة بئيسة وفقيرة، ومستعبدة من قبل العرب المحاربين، ومن القبائل المجاورة، وهم يكرسون أنفسهم لصيد الأسماك، ويعيشون بين الصخور، ويأكلون الأسماك النيئة والمجففة دون تملحها. ومن أزمنة قديمة، فهذه الفئة تحافظ على علاقات مع الصيادين الإسبان من جزر الكناري، ولهذا السبب فهم يتحدثون شيئا من اللغة القشتالية. في شبه جزيرة الداخلة هناك مجموعة من هؤلاء أهل البحر، كما يطلق عليهم الصيادون الكناريون، تتألف هذه المجموعة من حوالي ستين فردا، أما زعيم تلك القبيلة فيدعى بيبي خوسي، وهو رجل ذكي جدا، ويتحدث اللغة الإسبانية جيدا، اسمه الحقيقي هو عمر بن مرزوك. يجب الاهتمام بهذه المجموعة الصغيرة من التعساء من الجانب الإسباني، حيث من شأن هذا أن يكون ذا فائدة عظيمة للشركات الإسبانية المستقبلية في الصحراء الأطلسية“ (نفسه، 8).

إضافة إلى هذه الأخبار المسرودة، والوقائع المطروقة، جاء في التقرير أيضا، أن رجال هذه المجموعة يزاولون فقط صيد الأسماك، في حين أن النساء والأطفال، يتجولون حول المركز التجاري الإسباني للتسول رغبة منهم في



الحصول على بعض الحلوى أو حفنة من الأرز، يحصلون عليها غالبا من قبل موظفي المركز التجاري المذكور. ومن وقت لآخر، يأتي عرب الداخل إلى الساحل بحثًا عن الأسماك المجففة؛ إذ ينتزعونها بالقوة من هؤلاء الصيادين البائسين، مع العديد من الأشياء الثمينة، التي يجدونها في خيامهم (نفسه، 9).

#### 4-2-2 - المجموعات الدينية أو قبائل الزوايا

يُشير تقرير خوليو سيربيرا بايبيرا أنه في الصحراء الأطلنتية، تعيش بعض القبائل أو العائلات التي نذرت نفسها لدراسة العلوم الإسلامية، وللصلاة والحياة التعبدية، وعلى رأس هذه القبائل، نجد قبيلة أهل برك الله، المستقرة في منطقة النكجير، التي يتزعمها الشيخ ماء العينين، وحسب التقرير المذكور، فالأخير يعد من الأولياء الصالحين العظام، إذ يتمتع بقداسة دينية جد كبيرة في الصحراء الأطلنتية والمناطق الواقعة إلى الجنوب منها (نفسه، 5-9)، ويتبعه مجموعة من المريدين، حيث شكل حلقة دراسية حقيقية في البادية الصحراوية لتدريس القرآن الكريم وعلومه. ويُضيف التقرير أيضا أن رجال الدين في الصحراء الأطلنتية، قد تركوا العلم والتعليم إلى التجارة في العبيد، حيث يُخبرنا التقرير أن رجال الدين هؤلاء، كانوا يذهبون إلى الساحل الصحراوي، ويطلبون من سكان أهل البحر البحث لهم عن أعداد كبيرة من القواقع أو المخاريط؛ إذ كانوا يستخدمونها كعملة في بلاد السودان الغربي لشراء العبيد (نفسه).

#### 4-2-3 - القبائل المحاربة

تضمّن تقرير خوليو سيربيرا بايبيرا بيانات وارتسامات عديدة ونادرة، تخصّ مجموع القبائل المحاربة في الصحراء الأطلنتية، وتحديدًا خلال العقد الثامن من القرن التاسع عشر، وعلى رأسها قبيلة أولاد دليم، وهكذا جاء في التقرير أن قبيلة أولاد دليم تُعدّ أكثر القبائل الصحراوية عدداً، إذ جعلت من المنطقة المباشرة للساحل مكان استقرارهم الدائم، وتمتّع هذه القبيلة أيضا بشهرة كبيرة في قطع الطرق ونهب القوافل التجارية الكبرى، التي تعبر الصحراء وبلاد السودان الغربي، ويتبين من التقرير المذكور أن أولاد دليم كانوا يملكون مجموعة من أصناف الماشية من: أغنام وأبقار وماعز وجمال. ويشكل الحليب ومشتقاته طعامهم الرئيس (نفسه، 9). إلى جانب هذه القبيلة، نجد قبيلة أخرى لا تقل أهمية عن الأولى، وهي قبيلة أولاد بوسبع، هذه القبيلة تتكون في غالبيتها من (فئة الشرفاء)، ويُحدثنا التقرير أن قبيلة أولاد بوسبع تنقسم إلى

طبقتين اجتماعيتين متميزتين، الأولى تتكون من التجار، وأغلبهم متعلمون، أما الطبقة الثانية، فتتكون من الصيادين والمحاربين (نفسه، 11).

#### 4-2-3 - العبيد

تُفيدنا تقارير بعثة خوليو سيربيرا بابييرا الاستكشافية، أن الصحراء الأطلنتية عرفت الاسترقاق منذ قرون عديدة، كيف لا والمنطقة لا تبعد عن روافده إلا بكيلومترات جد معدودة، حيث شكلت إفريقيا الغربية جنوب الصحراء الكبرى، أو ما كان يسمى حينئذ بـ (بلاد السودان الغربي)، المنطقة الرئيسة التي من خلالها كان يتم جلب أعداد كبيرة من هؤلاء الرقيق إلى الصحراء. ويتبين من تلك التقارير أيضا، أن تجار الصحراء الأطلنتية في العقد الثامن من القرن التاسع عشر، رغم إلغاء العبودية في كل بلدان البحر الأبيض المتوسط (Francisco (Quiroga)، Julio (Cervera: 1886, 38)، كانوا يستجلبون الرقيق السوداني تحديدا من أسواق تنبكت وولاته. وهكذا كان تجار المنطقة المذكورة يحصلون على الرقيق السوداني عن طريق المقايضة، أي بمبادلة هؤلاء العبيد بألواح الملح المستخرج من بعض ممالح سبخة إيجيل، التي كانت في ملكية أهل سيدي محمد وقتها (Julio, Cervera Baviera: 1887, 11). هذا، وكان يتم شراء امرأة سوداء شابة وقوية البنية في السودان الغربي، وفي بلاد شنقيط، حسب تلك التقارير دائما، بسعر يتراوح من 14 إلى 16 لوحا من الملح، أما شاب أسود ذو بنية جسمانية قوية، فسعره يتراوح بين 10 إلى 12 لوحا من الملح، في حين يتراوح سعر فتاة سوداء، يبلغ عمرها ما بين 6 و8 سنوات، من 4 إلى 6 من ألواح الملح (Francisco, Quiroga: 1886, 67).

#### 4-3-4 - المرأة الصحراوية

استأثرت المرأة الصحراوية باهتمام خوليو سيربيرا بابييرا، الذي تحدث عنها بكثير من الاستعلاء والتحقير والسخرية، حيث ادعى أن المرأة في هذه المنطقة لا تقوم بأي دور على الإطلاق سوى الترفيه وممارسة الجنس! في هذا الخصوص، يقول: "المرأة في الصحراء لا تقوم بشيء على الإطلاق، ولا تتركس نفسها لأي عمل أو مجهود، غير الترفيه" (Julio, Cervera Baviera: 1887, 10). مضيفا: "في الليل، عندما يجمع العبيد السود قطعان الماشية حول الدوار [يقصد الخيمة]، تقوم هذه المرأة بحلب النوق، ثم تشرب الحليب، وبعد ذلك، تذهب لممارسة الجنس. وفي الصباح، تعود لشرب الحليب على معدة فارغة،

زيادة الوزن، وهي طريقة مثالية للمرأة، التي تريد أن تبدو جميلة، وإذا كان الجو حارا، تتعري بالكامل، ثم تلجأ إلى قَرَبِ جلدية مليئة بالماء“ (نفسه).

أكثر من هذا وذاك، نلاحظ أن خوليو سيربيرا بابييرا لم يتوقف عند هذا الحد، بل زاد من تعميق تلك الصورة الاستعلائية التحقيرية، بقوله: ”أما زينة المرأة، فتتجلى أساسا في طلاء العينين والحدين والفم، وتصفيف الشعر، ووضع قلاذات، مع إبداء حركة الوركين بشكل بارز عند المشي. لقد قرأت، وأنا لا أتذكر في أي مؤلّف، إن نساء الصحراء جميلات جدا، بيد أنني لم أر هناك أي نوع من الجمال، ولا حتى شيئا منه، ولا حتى في الخيال، حيث تُغطي كامل جسدها قشرة ضخمة من الأوساخ، هذا بالنسبة للمرأة الأكثر أناقة (...). المرأة مثلها مثل الرجل لا تغتسل أبدا“ (نفسه، 11-10). وفي الاتجاه ذاته، يُضيف خوليو سيربيرا بابييرا بنفس الأسلوب والطريقة، لكنه هذه المرة مزوج بكثير من السخرية، وهو يتحدث عن طريقة المرأة الصحراوية في تزيين نفسها، يقول: ”لتصنيف المرأة شعرها، تقوم بدهن ضفائر شعرها بالزيت الذي يُستخرج من الأسماك، والذي تقوم بخلطه مع الحليب الحامض، بعد ذلك، تضع هذا الخليط تحت أشعة الشمس، مدة من الزمن، هذا الخليط، يُحوّل رؤوس تلك الجميلات إلى بورة من الأوبئة“ (نفسه، 11).

يمكن القول بناء على ما سبق ذكره، إن خوليو سيربيرا بابييرا حاول تشويه صورة المرأة الصحراوية بكيفية أو بأخرى، حيث نجده يُصورها ككائن ليس له أي هدف في الحياة غير الترفيه، وأيضا ككائن بشع ومقرف. ولكن كل هذا الحقد الذي يكنه سيربيرا للمرأة الصحراوية يفسره أمر واحد، هو تعرضه بمعية رفاقه للأسر والتهديد في إحدى خيام أولاد بوسبع. وفي الحقيقة، لعبت المرأة في الصحراء الأطلنتية، دورا هاما وفعالا إلى جانب شقيقها الرجل، إذ كانت تقوم بكل الأشغال التي تفرضها ضرورة العيش الصحراوية القاسية، من: رعاية الأسرة وتربية الماشية وحرث الأراضي الزراعية وجمع الحطب. الأمر الذي جعل الرجل في الصحراء الأطلنتية يفتخر إن كانت زوجته تسد مسدّه (الشيخ محمد الإمام: 2013، 116).

#### 4-3-5 - المؤهلات الاقتصادية

يتبين من خلال تقارير أفراد بعثة خوليو سيربيرا بابييرا، أنهم كانوا مهتمين كثيرا بدراسة وتحديد الثروات الطبيعية التي كانت تتمتع بها الصحراء الأطلنتية ومحيطها، وقد جاء في أحد التقارير أن هناك مؤشرات دقيقة تقول

إن المنطقة المذكورة يوجد فيها الحديد والملح بوفرة كبيرة، كما تتمتع بثروات سمكية هائلة، وتحديدًا في منطقة وادي الذهب، لدرجة أن أفراد البعثة أطلقوا على هذه المنطقة اسم "بنك السمك" (Julio, Cervera Baviera: 1887, 13). ونتيجة لهذه الثروات التي تتمتع بها الصحراء الأطلنتية، دعا عالم الاقتصاد الإسباني خواكين كوستا مارتينيث (Joaquín Costa Martínez)، إلى جعل منطقة وادي الذهب مستعمرة ومركزًا تجاريًا وبحريًا في الآن ذاته (Joaquín, Costa: 1886, 45).

### على سبيل الختم

من المفيد أن ننهي حديثنا عن بعثة خوليو سيربيرا بابييرا إلى الصحراء الأطلنتية، بطرح سؤال جوهري يفرض نفسه علينا بإلحاح، هو التالي: هل فعلاً حققت هذه البعثة أهدافها التي جاءت من أجلها؟

الجواب، نجده عند الصحفي والدبلوماسي الإسباني كونزالو دي رابارات (Gonzalo de Raparaz)، الذي نوّه بالتناج والبيانات التي توصلت إليها البعثة، وبالأهداف التي حققتها، يقول رابارات في هذا الخصوص: "كل القبائل ما بين أدرار التمر ووادي الذهب وخليج أركين اعترفت بالسيادة الإسبانية، وتبلغ مساحة كلتا هذه الأراضي 500.000 كلم مربع (...). وهكذا شكلت هذه المعاهدات التي وقعت البعثة مع شيوخ الصحراء الباب المفتوح للوصول إلى أدرارات أخرى في الصحراء الغنية" (Pablo Ignacio de Dalmases y de Olabarría: 2016, 184).

هكذا نخلص إلى أن هذه البعثة الاستكشافية حققت أهدافها كاملة، والدليل إعلان إسبانيا في 26 دجنبر 1886م حمايتها على المنطقة الواقعة بين رأس بوجدور والرأس الأبيض. وكل هذا جاء بفضل أعضاء بعثة الجمعية الإسبانية للجغرافيا التجارية تحت رئاسة الضابط والمهندس خوليو سيربيرا بابييرا.

### بيليوغرافيا

#### العربية

- الإمام (الشيخ محمد)، الجأش الربيط في الدفاع عن مغربية شنقيط وعربية المغاربة من مركب وبسيط، [تحقيق محمد الظريف وتقديم ماء العينين ماء العينين] الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، الطبعة الأولى، 2013.

– بلحداد (نور الدين)، السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية 1894-1873م، [تقديم مصطفى الكثيري]، الرباط، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الطبعة الثانية، 2016.

– بلحداد (نور الدين)، التسرب الإسباني إلى شواطئ الصحراء المغربية (1860-1934)، الرباط، منشورات معهد الدراسات الأفريقية، الطبعة الأولى، 2008.

– جاهل (عادل بن محمد)، ”البحث الكولونيالي الإسباني حول مجتمع أفريقيا (الصحراء الأطلنتية نموذجاً): محاولة في التعريف والتركيب“، في مجلة جيل العلوم الانسانية والاجتماعية، مجلة علمية دولية محكمة ومفهرسة، تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي، طرابلس، لبنان، العدد 51، مارس 2019، (صص. 84-65).

#### الإسبانية

- Baviera (Julio Cervera), “Conferencia dada por el señor Don Julio Cervera en la reunión ordinaria de 2 de noviembre de 1886”, In *Boletín de la Sociedad Geográfica de Madrid*, Tomo XXII, Primer Semestre de 1887, (pp.7-20).

- Baviera (Julio Cervera), “Expedición al Sáhara: de Río de Oro a Iyil”, In *Revista de Geografía Comercial de Madrid*, Número 25-30, Año II, Julio-Septiembre de 1886, (pp.1-6).

- Baviera (Julio Cervera), *Viaje de exploración por el Sáhara Occidental: Estudios geográficos*, Madrid, Boletín de La Sociedad Geografía de Madrid, Tomo XXII, 1887.

- Bueno (Antonio González) y Alberto (Gomis Blanco), *Los territorios olvidados: Estudio histórico y diccionario de los naturalistas españoles en el África hispana (1860-1936)*, Aranjuez Ediciones Doce Calles, 2007.

-Costa(Joaquín), “Agricultura, Oasis artificiales”, In *Revista de Geografía Comercial de Madrid*, Número 25-30, Año II, julio-septiembre de 1886, (pp.38-46).

- Coello (Francesco), “España en el Sáhara: los tratados de Iyil”, In *Revista de Geografía Comercial de Madrid*, Número 104-5-6, Año VII, Abril-Mayo y Junio de 1892, (pp.261-262).

- Dalmases (Pablo Ignació de), *Viajeros por el Sáhara español: Antología de relatos viajeros*, Madrid, Grupo Editorial Sial Pigmalión, Colección Casa de África, Primera Edición, 2016.

- Dalmases (Pablo Ignacio de), *El Sáhara Occidental en la bibliografía española y el discurso colonial*, [Tesis doctoral sin publicar], Barcelona, Universidad Autónoma de Barcelona, Departamento de historia moderna y contemporánea, 2012-2013.

- Dos Oficiales del Ejército, *Posesiones españolas en el África Occidental*, Madrid, Imprenta y litografía del depósito de la guerra, 1900.

- Esteban (José Antonio Rodríguez), “Julio Cervera: la visión africana de un explorador del desierto”, In *Julio Cervera y telegrafía sin hilos*, Madrid, Imprenta Ministerio de Defensa y Ministerio de Economía y Competitividad, Abril 2015.

- Lanuza (José Carlos López Pozas), *África Occidental Española: La cuestión de la soberanía y la retirada del Sáhara*, [Tesis doctoral sin publicar], Madrid, Instituto Universitario General Gutiérrez Mellado, 2015.

- Martín (de San Antonio), *La ciudad del sueño: Viaje al interior de Marruecos*, Madrid, Imprenta de Santos Larié, Editor Urbano Manini, 1870.

- Milán (Jesús Martínez), *España en el Sáhara Occidental y en la zona sur del protectorado en Marruecos 1885-1945*, Madrid, Editorial Universidad Nacional de Educación a Distancia, 2003.

- Mórte (José Luis Barrera), “Francisco Quiroga Rodríguez (1853-1894)”, In *Conmemoración de la expedición científica de Cervera-Quiroga-Rizzo al Sáhara Occidental en 1886*, [ed. José Antonio Rodríguez Esteban], Madrid, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 2008.

- Oyarzabal (Elena Martínez), “Vida militar de Julio Cervera”, In *Julio Cervera y telegrafía sin hilos*, Madrid, Imprenta Ministerio de Defensa y Ministerio de Economía y Competitividad, Abril 2015.

- Pina (Jorge), “Felipe Rizzo Ramírez, Apuntes biográficos”, In *Conmemoración de la expedición científica de Cervera-Quiroga-Rizzo al Sáhara Occidental en 1886*, [ed. José Antonio Rodríguez Esteban], Madrid, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 2008.

- Quiroga (Francisco), Julio (Cervera), “Comercio, Factorías, Ferias”, In *Revista de Geografía Comercial de Madrid*, Núm.25-30, Año II, Julio-Septiembre de 1886, (pp.36-38).

- Quiroga (Francisco), “Apuntes de un viaje por el Sáhara Occidental”, In *Anales de la sociedad española de historia natural*, Madrid, Tomo décimo quinto, 1886, (pp.495-505).

- Quiroga (Francisco), “el Sáhara Occidental y sus moradores”, In *Revista de Geografía Comercial de Madrid*, Número 25-30, Año II, julio-septiembre de 1886, (pp.66-72).

- Rodríguez (Manuel Fernández), *España y Marruecos en los primeros años de la restauración (1875-1894)*, Madrid, Consejo Superior de Investigaciones



صورة جماعية لأعضاء بعثة 1886م الاستكشافية إلى الصحراء الأطلنتية

يُرى إلى يمين الصورة المهندس والمخترع خوليو سيريرا بابييرا  
رئيس البعثة، وعن يساره المترجم والقنصل فيليب ريثو راميريث، ثم الجندي  
المغربي الحاج عبد القادر الأخضر، والشخص الجالس في الوسط هو الدكتور  
فرانسيسكو كيروكا إي رودريكيث أستاذ الطبيعيات في جامعة مدريد  
المركزية.



## ثلاثة جواسيس إسبان في مغرب القرن التاسع عشر: علي باي العباسي، وخوليو سيربييرا بابييرا والشريف الحاج عبد النبي بن راموص

عبد المنعم بونوا<sup>1</sup>

ملخص:

لقد قامت الإمبريالية في نهاية القرن التاسع عشر بتحريك ترسانة كاملة من الغزو أدت إلى تضاعف عدد الكتابات الوثائقية حول المغرب، حيث غامر قليل من الرحالة بدخول أرض بدت رمزاً للمجهول تبدو منطوية على نفسها قبل نهاية القرن التاسع عشر. ونموذج هؤلاء الجواسيس الإسبان الثلاثة، الذين جاؤوا إلى المغرب من أجل التجسس على المجتمع المغربي، وبالتالي زعزعة استقرار المملكة المغربية، وتهدئة ظروف التدخل العسكري لإسبانيا في شمال المغرب وصحرائه، يعكس تطور الحروب الأوروبية والفتوحات الاستعمارية في شمال إفريقيا، حيث ازدهرت عمليات التجسس طوال القرن التاسع عشر. كان جمع المعلومات الاستخبارية من أي نوع: السياسية أو العسكرية أو الاجتماعية أو الدينية أو الاقتصادية أمراً ضرورياً لصنع القرار السياسي.

الكلمات المفتاح: التنكر، التجسس، الاستخبار، الرحلة، الاختراق.

**Abstract:**

At the end of the 19th century, imperialism mobilized a whole arsenal of conquest which resulted in a significant increase in archival documents on Morocco, as few travelers ventured into a land that seemed to be symbolic of the unknown. The case of these three Spanish spies, who came to Morocco to spy on Moroccan society, and thus destabilize the country and create the conditions for a military intervention by Spain in Northern and Southern Morocco, reflects the development of European wars and colonial conquests in North Africa, where the spying operations flourished throughout the 19th

1 - أستاذ باحث متخصص في الدراسات الإيبيرية والإيبيرية الأمريكية، متعدد اللغات، كلية الآداب، جامعة محمد الخامس بالرباط. ”



century. The endeavor was about collecting intelligence data of all kinds: political, military, social, religious or economic, all of which were essential for political decision-making.

**Key words:** disguise, spying, intelligence, travel , penetration.

يهدف هذا المقال إلى تقديم عمل وتجربة بعض الرحالة الإسبان الذين قدموا إلى المغرب في إطار مهمات سرية خلال القرن التاسع عشر. جاؤوا إلى المغرب، متنكرين في زي عربي إسلامي، مبعوثين من قبل السلطات العليا السياسية والعسكرية لإسبانيا من أجل التجسس على المملكة المغربية. لكن قبل تناول ثلاثة نماذج من هؤلاء الجواسيس، سنقوم بتحديد السياق التاريخي الذي كان وراء وصول هذه الفئة من الرحالين المغامرين. فلقد عانى المغرب تحت ضغط الإمبريالية الأوروبية في نهاية القرن التاسع عشر من انفتاح قسري على أراضيه أمام الاختراق الأجنبي. ومنذ القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين غذى الطمع الدولي الأمل في غزو المغرب، إذ أن القوى التي كانت مهتمة بالقضية المغربية في تلك الفترة (ألمانيا وإنجلترا وفرنسا وإسبانيا وإيطاليا)، لم تتوقف في الوقت نفسه عن الحفاظ على علاقات دبلوماسية وتجارية مع المغرب. لقد قامت الإمبريالية في نهاية القرن التاسع عشر بتحريك ترسانة كاملة من الغزو أدت إلى تضاعف عدد الكتابات الوثائقية حول المغرب، إذ غامر قليل من الرحالة بدخول أرض بدت رمزا للمجهول ومنطوية على نفسها قبل نهاية القرن التاسع عشر. فمنذ ثمانينيات القرن التاسع عشر، جاء عدد من المستكشفين الإسبان إلى المغرب ظل مغلقاً لفترة طويلة، مثل ذلك الرجل الإسباني المجهول الذي ترك كتاباً بعنوان رحلة السفارة الإيطالية من طنجة إلى فاس في مايو ويونيو 1885، والذي نُشر في نفس العام في مدريد. فكان السفراء والصحفيون والعلماء الموفدون والجواسيس يقومون باستعلامات وتحقيقات يتم نشرها فيما بعد. وكانت هذه الأعمال الوثائقية والتقنية هي التي توجه اختراق ودخول البلاد وتفتح مجالات جديدة للدراسة للباحثين، تماماً كما سبق للحملة المصرية بقيادة نابليون بونابرت أن قامت بإشراك أكثر العلماء شهرة بجانب الجيش، من أجل استغلال الثروات الأثرية للبلاد. لهذا يمكننا القول، إن القرن التاسع عشر كان قرن الاستشراق التشكيلي والأدبي بامتياز.

وتسمح دراسة المصادر المختلفة بلغات مختلفة وخصوصاً باللغة الإسبانية، بمقاربة ظاهرة الاختراق الأجنبي للمغرب؛ حيث كان المشروع الاستعماري مصحوباً بالفعل بالعديد من الشهادات التي كانت تنشر صورة

معينة عن المغرب. وإذا استثنينا عددًا قليلاً من التقارير الإدارية السرية، فإن هذه الكتابات الوثائقية موجودة ومنشورة ويمكن الحصول إليها، وتقوم بإخبار القارئ المهتم بالقضايا المغربية. كما أن نشر هذه الأعمال أو المقالات في المجالات العلمية، يمكن القارئ من معرفة تقنية عميقة بالمغرب. أما التقارير العسكرية فلم يتم نشرها، بل تمت أرشفتها، وذلك لأنها لا تهدف إلى نشر صورة عن المغرب، حيث لا تزال بعض هذه التقارير مغلقة في الكثير من الأحيان أمام الدارسين.

## 1 - علي باي العباس

إنه الكاتب والمستعرب والرحالة الأسطوري والجناسوس الإسباني المعروف بلقبه علي باي العباسي، لكن اسمه الحقيقي هو دومينكو فرانسيسكو جردي بديا ليليش. ولد في برشلونة بإسبانيا عام 1767، وتوفي في سنة 1818. في عام 1803 وصل دومينغو باديا إلى طنجة، وبدأ رحلته هناك حتى عام 1808، نقلته من المغرب إلى تركيا مروراً بطرابلس وقبرص ومصر والجزيرة العربية وفلسطين وسوريا، من بين دول أخرى. ولأنه لم يسافر باسمه الحقيقي، بل باسم علي باي العباسي، فلقد كان من أوائل الغربيين الذين وطئوا بلدانا ومدنا كان يتعذر على غير المسلمين الوصول إليها من قبل، حيث يبدو أنه كان أول إسباني استطاع دخول مكة.

لقد كان مستكشفاً ومغامراً من منطقة كتالونيا، جاب المغرب وجزءاً من الإمبراطورية العثمانية في بداية القرن التاسع عشر. وتعود قصة هذا الجناسوس إلى 8 أبريل 1801، حين التقى في مدريد برئيس الوزراء مانويل جودوي، الذي قدم له خطة سفره إلى المغرب لأغراض علمية وسياسية بناء على قرار كان قد أصدره الوزير الإسباني مانويل جودوي. ويتعلق ظاهر هذا القرار بالقيام ببحوث جغرافية وبيولوجية وبيولوجية وإثنولوجية وفلكية. أما باطنه فلم يتجنب، بالإضافة إلى ذلك، تكليف المسافر بمهمة سياسية أخرى. لقد كان هذا شرطاً لا غنى عنه لتنفيذ مشروع التجسس خدمة لحكومة كارلوس الرابع، حيث كان المعني بالأمر رائداً في التجسس، ولم لا قلب نظام الحكم في المغرب بداية القرن التاسع عشر، والإطاحة بالسلطان والحلول خليفة مكانه. كان هدفه إقناع السلطان المغربي المولى سليمان بقبول التعاون مع إسبانيا، درءاً لخصومه الطامعين من الفرنسيين والإنكليز. وفي حالة فشل هذا المخطط، فسيلجأ إلى دعم بعض الثوار لإيقاد فتنة داخلية تساعد على إضعاف المغرب وتسهيل احتلاله على الإسبان. وفي رحلته التي استمرت أربع سنوات، تمكنت هذه

الشخصية من كسب ثقة سلطان المغرب (المولى سليمان). كان علي باي يقيم في الكثير من الأحيان بجوار السلطان في قصر السمالية، بعد أن أصبح صديقاً له. فكان يقدم له مجموعة من النصائح لمساعدته على تدبير شؤون المملكة، ولم يتوان في اقتراح وصياغة دستور وتقديمه للسلطان. حيث كان يلح إلحاحاً شديداً على ملك المغرب بتبني ذلك الدستور<sup>2</sup>.

عند عودته إلى وطنه، قدم معرفته وخبرته حتى تتمكن إسبانيا من تطوير سياسة خارجية فعالة في الدول الإسلامية. في هذا الإطار، يؤكد علي باي في إحدى مراسلاته للسلطات الإسبانية على درجة الثقة التي أضحى يوليها له المولى سليمان، فيقول "لقد عاملني سلطان المغرب كابن وألبسني سترته حتى يرى الجميع كيف كان يحترمني". كان كارلوس الرابع متحمساً لفكرته وكلفه بإحداث تغيير سياسي في المغرب مقابل المال.

كان الملقب علي باي العباسي يتحدث اللغة العربية بشكل جيد، لدرجة أن أحداً لم يشك في كلمته، ونظروا إليه على أنه أمير عباسي من أصل سوري. لم يترك هذا الرحالة أي شيء للصدفة، حيث تم ختانه حتى يتطابق كل شيء في مظهره مع تفاصيل قصته. وبفضل ذكائه الحاد ومهارته، قام دومينغو باديا برحلة كبيرة عبر العالم الإسلامي، وخاطر بحياته للوفاء بتفويض رئيس وزراء إسبانيا، مانويل جودوي. لقد كان جاسوساً في خدمة كل من إسبانيا خلال عهد كارلوس الرابع، وفرنسا خلال حكم نابليون، حيث قدم خطة حرب دقيقة لغزو البرتغال، والتي سينفذها نابليون بعد ثماني سنوات. وكذلك إنجلترا في عهد جورج الثالث. ومثل العديد من المثقفين الآخرين الذين تبنا الأفكار الفلسفية والثورية لعصر الأنوار، ولو أحياناً ضد مصالح بلده الأصلي إسبانيا، لم يكن لديه من خيار في نهاية مشواره الحافل بالدسائس والمؤامرات سوى الذهاب إلى المنفى في فرنسا. هناك نشر في عام 1811 مجلدين من أشهر أعماله<sup>3</sup>.

2 - ضومينكو باديا، علي باي في المغرب (مسرحية تراجيدية من خمسة فصول)، ترجمة عبد المنعم بونو وأحمد برمضان، تقديم شعيب حليفي، جامعة الحسن الثاني المحمدية الدار البيضاء، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن مسيك الدار البيضاء، منشورات المختبرات، مختبر السرديات، 2012.

3 - BADIA DE LEBLICH, Domingo, *Les voyages d'Ali Bey en Afrique et en Asie*, Paris, Imprimerie de P. Didot l'ainé, 1811.

## 2 - خوليو سيريرا بابيرا

كان مهندسا عسكريا وسياسيا ودبلوماسيا وصحفيا إسبانيا ورائدا ومخترعا في مجال الاتصالات اللاسلكية في إسبانيا. ولد في إقليم كاتالونيا في عام 1876 وقام بأول رحلة إلى المغرب إلى مدينة فاس والعرائش مبعوثا من قبل السلطات العسكرية الإسبانية، بشكل غير رسمي، بهدف جمع المعلومات الطبوغرافية حول المغرب من أجل الحركة الاستعمارية التي كانت قد بدأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وهو ما ساعده على جمع مجموعة من الوثائق والمراجع لنشر كتابه الجغرافية العسكرية للمغرب في 1884<sup>4</sup>. كما كان عضوا بارزا في حركة الماسونية التي كانت متغلغلة داخل المؤسسة العسكرية خلال هذه الحقبة.

وفي سنة 1884، أي قبل التقسيم الوشيك لإفريقيا من قبل القوى الاستعمارية الأوروبية، تمت الموافقة على ذلك بموجب معاهدة برلين لعام 1885، إذ تم إرسال هذا الجاسوس العسكري والمهندس من قبل القيادة العسكرية في مهمة سرية لاستكشاف المناطق الداخلية للمغرب (تطوان، طنجة، القصر الكبير، فاس، الرباط، العرائش وأصيلة) من أجل قياس احتلال إسباني محتمل لمنطقة الريف والبحث عن دعم محتمل للقبايل الريفية. بعد عودته إلى إسبانيا في 1885، نشر كتابه البعثة الجغرافية العسكرية إلى المناطق الداخلية والسواحل المغربية. (CERVERA BAVIERA, Julio: 1909) وفي عام 1886 عاد إلى المغرب بتكليف من الجمعية الإسبانية للجغرافية التجارية قصد القيام باستكشاف للصحراء المغربية، حيث قطع أكثر من ألف كيلومتر من أجل جمع المعلومات العلمية (الجغرافية والجيولوجية والطبيعية) بهدف توقيع معاهدات تجارية مع السلطان المغربي وإنشاء مصانع للثروات السمكية، لتصبح في ما بعد، وسيلة للمطالبة بحقوق مفتعلة لإسبانيا داخل منطقة واد الذهب، وبالتالي تحويلها إلى حماية يتم استغلال الملاحات الموجودة فيها وتحويل الواحات الصحراوية إلى مستعمرات فلاحية.

عند عودته إلى إسبانيا، سيتم توشيحه بمجموعة من الأوسمة، وسينشئ مسكنا ماسونيا. كما سيتم تعيينه ملحقا عسكريا في طنجة حيث سيتمكث فيها إلى غاية 1890، وسوف يستغل إقامته في هذه المدينة من أجل توسيع

4 - CERVERA BAVIERA, Julio, Geografía militar de Marruecos, Madrid, Imp. y Lit. E. Mirabet, 1884.

حركة الماسونية بشمال المغرب. كما كان هذا المهندس الجاسوس والعسكري الاسباني قد قام بإصدار جريدة الإمبراطورية المغربية في مدينة طنجة خلال سنة 1887. لقد كان سيريرا بايرا مدافعا كبيرا عن حركة التوسع الاسباني في المغرب، وسوف يشارك في الحملة العسكرية بمليية سنتي (1894-1893). في كتابه بعثة إلى داخل المغرب سيحكي هذا الجاسوس للقارئ مجموعة من الظواهر الاجتماعية والأحداث السياسية التي كان المغرب يعرفها آنذاك. فعند وصوله إلى مدينة فاس، قام بتغيير هيئته وملابسه حتى لا يثير شكوك السكان المحليين. يقول: "وحتى لا أثير الانتباه في عاصمة الإمبراطورية [أي فاس] فقد ارتديت الجلابة والطربوش وما صاحب ذلك من الأشياء التي يرتديها الناس في هذا البلد، بينما وضعت في الحقيبة بذلتي التي كنت أرتديها لحد الساعة وهذه الطريقة. كان بإمكانني أن أعمل بحرية وأن أفتح كل الأماكن المغلقة في وجه المسيحيين وكذلك أن أراقب بهدوء كل التفاصيل من دون أن أثير الشكوك وانتباه المسلمين وفضولهم إلى شخصي المتواضع" (نفسه، 70).

لقد كان يتصل ببعض أفراد العائلات المعروفة بفاس، حيث كان بعض أبناء هاته العائلات الفاسية قد درس في إسبانيا وعاد إلى المغرب، كعائلة سيدي عمر برادة وأحمد بنشقرن، وكان هذا الأخير يقدمه للناس على أساس أنه شريف تونسي، جاء إلى المغرب واسمه عمر (نفسه، 73). وهو ما ساعد «الشريف عمر» على السكن والتجوال والمراقبة، مصحوبا ببوصلته وخرائطه وقلمه ومسدسه.

هذا وبعد اضطلاعهم ومسحه للموقع الجغرافي والطوبوغرافي للمدينة، خرج الكاتب بخلاصة حول خطة الهجوم والاستيلاء على مدينة فاس، حيث يقول إن "الهجوم على فاس لا يجب أن ينطلق ابتداء من نهر سبو، لأن مسار هذا النهر صعب عند باب أولاد عيسى وأولاد اليميني. إن غزو فاس يجب أن يبتعد عن هذا النهر الكبير انطلاقا من واد الردم والمرور عبر باب تيوكة [...] انطلاقا من هذا السهل يجب الهجوم على كل الإمبراطورية، حيث عندها سيتم الاستيلاء على جبل تغاث، سيسهل الوصول إلى أبواب الساحة بعد توجيه هجوم المدفعية من دون توقف جهة جبل زلاغ، بالموازاة مع الزحف نحو القصر الملكي وفاس الجديد. وإذا ما وجدنا مقاومة شديدة، يمكننا الهجوم كذلك من جبل المهرز والتلال الجنوبية» (نفسه، 77).

### 3 - الشريف سيدي الحاج عبد النبي بن راموس

إنه مؤرخ مدينة سبتة الشريف الحاج عبد النبي بن راموس، الاسم المستعار لأنطونيو راموس إسبينوثا دي لوص مونطيرروس. هو إسباني جاء متنكرا بزّي عربي إلى المغرب في سنتي 1903-1902 لإبلاغ الدوائر العسكرية في بلاده. كان بن راموس شخصية معروفة في الأوساط الصحفية والسياسية وصديقا للطبقة العسكرية المرابطة بهذه المدينة. لقد كان هذا الصحفي النشيط، شغوفاً بمدينة سبتة وكان يعتبرها نقطة استراتيجية بين الضفتين، بين إسبانيا والمغرب. لقد كان يعي أهمية هذه المدينة التي كان يقول عنها إنها: "تقع وسط البحر الماضي والحاضر والمستقبل. من يمتلكها سوف يصبح حكماً وشاهداً على الأحداث التي سوف تجري في تلك المياه ولو كان ضعيفاً. لكن إذا كان من سيحكمها قوياً فسوف يكون حاكماً على الضفتين".

لقد كان أيضاً صحفياً يكتب في مجموعة من الجرائد والمجلات، مثل: إفريقيا وصدى سبتة وشمال إفريقيا ومجلة سبتة. لكن كتابيه إسبانيا في إفريقيا والجواهر السوداء، عالجا المواضيع المتعلقة بالمغرب من أحداث خلال السنوات الأولى من القرن العشرين. كما كان أحد مؤلفي الدليل السنوي للمغرب الذي كان يصدر إلى غاية 1930 والذي كان يشرف عليه مانويل اورطيكاً.

في سنة 1889 بعد عودته من مدينة غرناطة حيث كان يدرس هناك، وحيث قضى مدة سجنية خلال دراسته هناك، بسبب أفكاره القومية وانتقاداته لحكام المدينة، سبباً أنطونيو راموس مرحلة من الأسفار المستمرة إلى المغرب، حيث كان يرافقه فيها صحفيين وكتاباً يحتاجون لمساعدة خبير يعرف المجتمع المغربي ويستطيع إرشادهم ومرافقتهم بحكم معرفته الجغرافية والاجتماعية للمغرب. كان أنطونيو راموس يزور المغرب من حين لآخر متخفياً، للاطلاع على الأحوال الاجتماعية والسياسية، وإخبار السلطات المحلية بالمدينة التي كانت ترفع التقارير السياسية والأمنية والعسكرية إلى السلطات المركزية بالعاصمة مدريد. ففي كتابه الشهير الجواهر السوداء، الذي نشر لأول مرة سنة 1903، والذي كان نتيجة رحلته الاستطلاعية في شمال المملكة المغربية؛ قام الكاتب بإخبار القارئ الإسباني بالوضعية الاجتماعية والأمنية المضطربة التي كان يشهدها المغرب آنذاك: "ارتدبت بذلتي الإسلامية وخرجت أبحث عن أخبار الحرب الحالية التي لاشك أنكم اطلعتم عليها في جريدة هيرالدو مدريد، وأبحث عن جحافل أولئك الرجال الذين جاؤوا من الحوز المراكشي ومن فاس وأزمور والشاوية وشراكة وعبدة ودكالة والسراغنة ومكناس...". (RAMOS:).

(1903, 64) في كثير من الأحيان، كان هذا الرحالة الإسباني في كتابه يبالغ كثيرا في وصفه للسكان المحلية والقوات المخزنية، حيث اعتبرهم مجموعات متوحشة وهمجية بعيدة عن الحضارة الأوروبية الإنسانية. فكان بذلك يكرس الصورة النمطية المتحاملة التي تنطلق من مبدأ التفوق الغربي المركزي أمام الشعوب والثقافات الأخرى. كل ذلك من أجل خدمة وتبرير التدخل العسكري، فالاحتلال ثم الاستغلال. في هذا الإطار يقول بن راموس ” لم أستطع كبح مظاهر الاحتجاج التي كانت بدواخلي كرجل ينتمي إليكم، إلى بلد متحضر أمام هول المشاهد الرهيبة التي كنت شاهدا عليها، صورة الرؤوس المقطوعة التي يتجول بها الناس في الأحياء، رؤوس المعارضين والمتمردين“ (نفسه، 64).

أخيرا، يمكن القول إن نموذج هؤلاء الجواسيس الإسبان الثلاثة، يعكس تطور الحروب الأوروبية والفتوحات الاستعمارية في شمال إفريقيا والشرق الأوسط، حيث ازدهرت عمليات التجسس طوال القرن التاسع عشر، قبل أن تشهد عصرها الذهبي في القرن العشرين. كان جمع المعلومات الاستخباراتية من أي نوع: السياسية أو العسكرية أو الاجتماعية أو الدينية أو الاقتصادية أمرا ضروريا لصنع القرار السياسي، فحاول هؤلاء الجواسيس الإسبان الثلاثة، التجسس على المجتمع المغربي بهدف زعزعة استقرار المملكة المغربية، وتهيئ ظروف التدخل العسكري لإسبانيا في شمال المغرب وصحرائه.

## بيبلوغرافيا

### العربية

- ضومينكو باديا، على باي في المغرب (مسرحية تراجيدية من خمسة فصول)، ترجمة عبد المنعم بونو وأحمد برمضان، تقديم شعيب حليفي، جامعة الحسن الثاني المحمدية الدار البيضاء، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بن مسيك الدار البيضاء، منشورات المختبرات، مختبر السرديات، 2012.

### الإسبانية

- BADIA DE LEBLICH, Domingo, *Les voyages d'Ali Bey en Afrique et en Asie*, Paris, Imprimerie de P. Didot l'ainé, 1811.

-CERVERA BAVIERA, Julio, *Expedición geográfica en las regiones del interior y las costas de Marruecos*, Valencia, Imp. y Lit. E. Mirabet, 1909.

- CERVERA BAVIERA, Julio, *Geografía militar de Marruecos*, Madrid, Imp. y Lit. E. Mirabet, 1884.

- RAMOS (Cherif El Hach Abd-El Nabí; seudónimo de Ramos y Espinosa de los Monteros), *Perlas negras*, Madrid, Imprenta à cargo de Eduardo Arias, 1903.

## الرؤية السردية المستعارة في "الطاهر" لـ جان-وايس بادوفاني تفكيك ثقافي لمضمّر الأنا الكولونيالي حول الآخر الأصلي

الزهرة إبراهيم<sup>1</sup>

"القناع عقدة وظيفية يُرتَّب الأنا من خلالها علاقته بالموضوعات." يونغ  
"أنا هو آخر، وأسفاه للخشب الذي يُلفي نفسه كمانا." رامبو  
"الإنسان هو المخلوق الذي من أجل إثبات وجوده واختلافه يُنكر." كامبي

ملخص:

لم يكتب جان-وايس بادوفاني باسم مستعار، بل نشر "الطاهر" باسمه، ولم يدخل في جلد واحد من شخصه، لكن الغايات المبيّنة التي سعى إليها نظراؤه بتغيير أسمائهم، والتسرب إلى ذوات الأصليين، وفي عناصر من بيئتهم، ورموز من ثقافتهم؛ سلك هو إليها مسرّبا مغايرا بانتقاء صيغة سردية مُسَخَّرة بحذق لمآرب مبطنة.

وهو يُهدي، من حيه الباريسي الراقي، إلى جان طارو وشقيقه جيروم، أقصوصة عن "الآخر"، أقل ما توصف به، على إيجازها، أنها شهادة حية لتاريخ "الأنا" الكولونيالي ومخططاته الخفية المترابطة؛ فقد رسم، في الوقت ذاته، حقلًا خصبا للدراسات الثقافية التي خلخلت مزاعم السرديات الكبرى، واختطت قراءة مغايرة تنقضها من داخل خطابها نفسه.

الكلمات المفتاح: التنكر-الأنا/الآخر- الاستعارة- الرؤية السردية- الاستعلاء الثقافي- الهوية- التابع- الاحتواء الثقافي.

1- الزهرة إبراهيم أستاذة باحثة في المسرح والأنثروبولوجيا، وأستاذة التعليم العالي مؤهلة بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين فرع القنيطرة؛ تخصص اللغة العربية وديداكتيكها.



## Abstract :

*Jean-Wallis PADOVANI did not write under a pseudonym or assume the part of any of his characters, but rather published the story of TAHER under his real name. Unlike his contemporaries, who, driven by hidden motives, had changed their names or otherwise disguised themselves in their writing in order to appropriate the identity of the indigenous people, the elements of their environment, or the symbols of their culture. PADOVANI took a different alternative by choosing a narrative form that he cleverly exploited for equally camouflaged purposes.*

*From his upscale Parisian neighborhood, he dedicated to Jean THARAUD and his brother Jérôme a short story about the «Other» that one could describe, despite its brevity, as a living testimonial to the history of the colonial «Ego» and of its veiled plans for domination. At the same time, he also laid a fertile ground for the cultural studies discipline that has hereafter unsettled the claims put forward by the grand narratives.*

**Key words:** *masquerade, ego / other, metaphor, narrative vision, cultural superiority, identity, subordinate, cultural inclusion.*

## مقدمة

لو حصل تحويط ما كتبه الغربيون عن "الآخر"، منذ لقائه واكتشافه، والصدام معه، أو حتى محاولة استيعابه والانتصار له في حالات معزولة، ستبوح هذه الكتابات بأسماء من أوغل منهم في صيغ تنكر استثنائية إمعانا في التواري، متجنبنا صيغ التنكر المطروقة مثل التفتح باسم مستعار أو هويات مزيفة كتلك التي سادت، عادة، في كتابات الرجل الأوربي، سادن القارة العجوز، أو المارق منها نحو العالم الجديد، ليحكي عن الملونين، مفتونا بكل ما يجده مخالفا لثقافته البيضاء.

إنها فتنة لا تبدو عفوية أو بريئة، لأن الغربي الذي يكتب سرودا حول الآخر ليس قرصان سفينة في عرض الأطلسي، ولا بائع نبيذ في ريف بوردو. هؤلاء الذين خطوا سواد المحكيات على بياض مذكراتهم هم سدنة العقل الإشكالي المرصوص بإرث فلسفة الأنوار وعلم الأفكار، وما أنسل منهما من نظريات مضادة وما بعد حدثية. لهذا، من الخطأ قراءة منجزهم السردى بشكل تبسيطي مهما بدا موضوعه بدائيا ومتخلفا بالنسبة إلى السلم القيمي للحضارة الغربية.

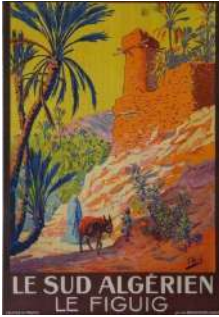
هؤلاء المفتونون بالسرد عن الآخر، لم تغفل أعلامهم ما رأوا في إفريقيا، وآسيا، وأستراليا، وأمريكا، والصحاري، وجزر المحيطات، وقطبي الكرة

الأرضية. ويبدو أن فتنة الكتابة هاته موجة قوية ركبها كل من سنحت له فرصة الوصول إلى الخرائط القصية والغربية: حكام، وضباط، وصحافيون، ومستشارون، وأطباء، ومدرسون، ورهبان، ونبلاء، ورحالة، وبخاتة، وعلماء، وأنثروبولوجيون، وكتاب، وشعراء، وفنانون، ورسامون... لقد راكموا إرثا إنسانيا من المخطوطات والأبحاث واللوحات والحفريات والتحف، بدا، وقتند، انتصارا فذا للإمبرياليات الأوربية ما بين القرن الثامن عشر ومنتصف القرن العشرين، ليتحول، بعد ذلك، إلى إرث مضاد فكك يقينيات المركزية الغربية بما شادت حول وجودها الكوني من أساطير الغلبة والتفوق.

وقد استوفينا العقد الثاني من الألفية الثالثة -على بُعد حوالي قرنين من احتلال الجزائر حيث اعتبر المستعمر الفرنسي واحة فجيح جزءا من الجنوب الجزائري التابع لإقليم وهران- كيف يطاوعنا الحفر في السرديات الغربية عن أشكال التنكر في واحد من النصوص التي كتبها توماس-دومينيك بادوقاني عن أصلائي الواحة؟

تسعى هذه الدراسة إلى تحليل مورثات genes التنكر في قصة "الطاهر" داخل مختبر الدراسات الثقافية بمفاهيم قد تستل إجابات تضيء عتمات صدام ثقافي حدث خلال الغزو الإمبريالي، منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وما زال يلقي بظلاله على العلاقة بين الأنا والآخر، كل من موقعه وهويته الثقافية.

### 1- فرنسي... واحة... وصيغة كتابة



مهما دأب هذا القاص والشاعر<sup>2</sup> الفرنسي على توقيع كتاباته، حول فجيح، بتغيير اسمه الشخصي توماس-دومينيك Thomas-Dominique إلى جان-واليس Jean-Wallis، والاحتفاظ مع كليهما باسمه العائلي بادوقاني PADOVANI، فإن الرجل لم يفكر في الكتابة باسم مستعار، بل نشر قصة "الطاهر" باسمه، ولم يدخل في جلد واحد من شخوصه، إلا أن الغايات المبيّنة التي سعى إليها نظراؤه بتغيير أسمائهم والدخول

2- ترك كتابات شعرية تحمل عنوان « (Croquis en) DRIS BAHHAR على الفيسبوك، حيث توجد وثائق جملة يتقاسمها هذا الباحث والمترجم: Centre de documentation militaire de Vincennes- Bibliothèque nationale de France - Site web gallica de France ؛ وكلها تخص كتابات الغربيين حول واحة فجيح خلال مرحلة الاستعمار.

في ذوات الأصلايين، أو في عناصر من بيئتهم، أو في رموز من ثقافتهم، سلك هو إليها مسربا مغائرا عبر انتقاء صيغة سردية مُسَخَّرَة بحذق لمآرب مبطنة، وهو يُهدي، من حيه الباريسي الراقي La Garenne Colombe في مقاطعة نانثير Nanterre، إلى جان طارو وشقيقه جيروم، حكاية عن "الآخر"، أقل ما توصف به، على إيجازها، أنها شهادة حية لتاريخ "الأنا" الاستعماري ومخططاته الخفية والمترابكة عبر كل ما أوتي من خطابات صريحة، حيناً، ومضمرة، حيناً آخر.

في نقطة قصية من شريط الواحات، "ال فكيك، الجنوب الجزائري LE SUD ALGÉRIEN LE FIGUIG" - كما سماها المستعمر الفرنسي على خرائطه، ووثقها في سجلاته، وتهادها في بطائقه - تندثر واحة فكيك المغربية بركام هائل من خرائط، وكتابات، ولوحات الفرنسيين، والإسبان، والإنجليز، والألمان. وتشاء الصدفة أن يصل إليها في منتصف عشرينيات القرن الماضي توماس-دومينيك بادوقاني ليعيش هذه الرجة الثقافية في لقاء الآخر، على جغرافيا غريبة بتضاريسها ومناخها، وأسلوب عيش ساكنتها. فكيف طفت هذه الرجة الثقافية على سطح "الطاهر"؟

## 2 - التَّنْكَرُ: إضاءة من علم الاشتقاق

قد يؤمنُ العبور من مستويات اللغة طريقا سالكة نحو مَظَانِّ دراسة يتنازعها قطبان نُكران: التَّنْكَرُ، من جهة؛ وثنائية "الأنا/الآخر"، من جهة أخرى. وبالعودة إلى المستوى الصرفي، يتناسل من الجذر (ن ك ر) الذي ورد في لسان العرب مفتوح العين (نكز)، ومضمومها (نكز)، ومكسورها (نكز) سجل لغوي يُنْضِدُ معاني تنبئ، في مجملها، بالخبز من ملكة العقل، وتندر من قوة الدهاء، إلى درجة يستنكرها المرء. ف «النُّكْرُ والنُّكْرَاءُ: الدهاء والفتنة. ورجل نَكْرٌ ونُكْرٌ ومُنْكَرٌ من قوم مَنَّاكِرٍ: داهٍ فظنٌ، حكاه سيبويه.» (ابن منظور: 1992، -232 233).

أما فعل "نَكَرَ"، مصدره «التَّنْكَرُ: التَّغْيَرُ، زاد التهذيب: عن حال تَسْرُكٍ إلى حال تَكَرُّهها منه.» (نفسه، 234). أما في المعجم الفرنسي، فقد دخلت

3- في الأصل، تسمى فجيج، نسبة إلى موقعها في فج بين جبال تحيط الواحة. في تسميتها يقول القاضي والشاعر أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الجبار الفجيجي: فَجَّجَ الفجَّاجَ فَجَّجَ فَجَّجِنَا \*\*\* وخيرُ خلقِ الله به سَكُنُوا. (للتوسع أكثر، انظر: الزهرة إبراهيم، مدونة القنص بالصقر في أدبيات روضة السلوان للشيخ العلامة إبراهيم بن عبد الجبار الفجيجي الإدريسي الحسيني، دراسة أنثروبولوجية مقارنة، دار النايا، دار محاكاة- دمشق، سوريا/ دار الجزائر، الجزائر، الطبعة الأولى، 2013، صص. 134 - 139).

لفظة تنكر Déguisement أو آخر القرن الثاني عشر الميلادي ودلت على: 1. التمويه والتنكر بلباس الجنس الآخر 2. Travestissement. تنكر في بذلة كرنفال. 3. فُعل الاختباء والتعديل من أجل الخداع: حيلة، رياء، مكياج، خدعة. (LE PETIT، 572، ROBERT). فكيف اجتمعت في الأنا الغربية صفتا النكر والتنكر لتختط لسردياتها، حول الشعوب الأصلانية، منظورا استقوائيا هو ملمح من ملامح "الثقافة الاستعلائية" كما وصفها إدوارد سعيد؟

### 3 - التنكر وجهات نظر من الفلسفة والتحليل النفسي

لعل عرفان الإنسان الأوربي للعقل، واعترافه بنفعه وثيق الصلة بخلاص أوربا من الظلامية القروسطية، جعل من هذا العقل معيارا للتمييز بين البربرية والمدنية؛ بل تحول في يد الإمبريالية إلى مسوغ قوي لإخضاع هذا "الآخر"، والتحكم في أوضاعه بذريعة نقله من التخلف إلى الرقي. فقد أسهمت الفلسفة في تأطير هذا الإحساس بالتفوق حيث «نسج ماركس وإنجلز نظريتهما عن الجهل والتطير الشرقيين والأفريقيين. وإنّ ذا الجانب ثانٍ من جوانب الرغبة الإمبريالية غير المنطوقة؛ ذلك أنه إذا تم تحويل الأصلانيين الممعنين في ماديتهم من كائنات (خاضعة) إلى (مخلوقات) بشرية دونية، فإن المستعمر يتحول بصورة مشابهة إلى كاتب لا مرئي تقدم كتابته تقريرا عن الآخر، وتصرُّ، في الوقت نفسه، على تجردها العلمي. وتصرُّ (كما لاحظت كاثرن جورج) على التحسن المطرد في أوضاع الأصلانيين، وشخصياتهم، وعاداتهم نتيجة لاحتكاكهم بالحضارة الأوربية.» (إدوارد سعيد: 1997، 229).

نعرِّج، بكثيرٍ من الاقتضاب إلى مداري الفلسفة والتحليل النفسي، لنلتقط بعضاً من زوايا النظر حول فعل التنكر. لم يغب عن الفلسفة، كروية فوق، ما يسود المجتمعات البشرية من تنازع بين الظاهر والباطن، بين الحقيقة والزيغ، حيث يمارس الفرد حياته الاجتماعية بكثيرٍ من المداراة والتخفي. فالإلام تعزو الفلسفة هذا السلوك؟ وما هي مسوغاته؟

يرى نيتشه «أن العقل، من حيث هو وسيلة للحفاظ على الفرد، يطور قدراته الأساسية في الإخفاء، والإخفاء هو الأداة التي يستطيع الأفراد الضعاف، ومن هم أقل قوة باعتبارهم يمثلون أولئك الذين حرموا من وسائل الدفاع والمقاومة بهدف الحفاظ على وجودهم.» (نيتشه: 1996، 65) فيجتهدون في تنويع أساليب التخفي والتنكر أمام من يحسونه الأقوى، ويهابون حضوره وسطوته، حيث «يغدو الوهم والتملق والكذب والنميمة والغش والاعتداد

بالنفس، والمظاهر البراقة، وارتداء الأقنعة، وحجاب العرف، وانتحال أدوار زائفة لخداع الذات والغير، وبايجاز سيرك التملق المتواصل (...). فكل ما هو جميل مصدره الوهم، إن الحقيقة تقتل بل أكثر من ذلك، إنها تقتل ذاتها عندما تكشف أن أساسها هو الخطأ.» (نفسه، 66) فما سبب وجود حقيقة أساسها خطأ؟ وما هي إمكانية وجود حقيقة أساسها الصواب؟

إن الحقيقة الأولى -من منظور نيتشه- هي «مجموعة حية من الاستعارات والتشبيهات والمجازات، وهي بايجاز، حاصل علاقات إنسانية تم تحويلها وتجميلها شعريا وبلاغيا (...). أن يكون المرء صادقا هو أن يستعمل الاستعارات المقبولة والمتداولة.» (نفسه).

نستخلص من هذا التعريف أن الحقيقة "الحقيقية" -إن شئنا القول- هي "حقيقة خام" أو "حقيقة وهم" ولا وجود لها إلا في العقل، لكنها بمجرد أن تفكر في التحول، وتسلك قناة اللغة للإعراب عن نفسها، تبدأ في استحالة داخلية *métamorphose*، ثم العبور إلى دائرة الإيهام كلما عملنا على تدليكها وتجميلها بوظائف اللغة، خاصة الميتالغوية منها والشعرية، لأن هاتين الوظيفتين تفسحان المجال أمام التأويل والانفعال اللذين ينزاحان، بدرجة أو بأخرى، عن الحقيقة الخالصة كما قذفها العقل قبل تدخّل اللغة. و«لقد كان الفضل في التنبيه إلى العلاقة الوثيقة القائمة بين الكناية والفنون القصصية الواقعية بشكل خاص لرومان جاكبسون. فقد لاحظ أن الإنسان القادر على التعبير باللغة مزود بملكيتين ضروريتين: ملكة الاختيار والتعويض، وملكة التركيب والربط.» (حميد لحميداني: 1989، 55). ومما لا ريب فيه أن استثمار هاتين الملكيتين طبع بين حروف شاعر مثل بادوفاني إن مال من قصيدة النثر، على صعوبتها، نحو القصة القصيرة. والحاصل أنه في "الطاهر" اختار وعوّض، وركب وربط بما يضيء منظورا إبداعيا، ومما يخدم موقفا إيديولوجيا لا يمكن إغفاله في هذه الفترة من تاريخ السرديات الأدبية الكولونيلية وطيدة الصلة بالمسيحية والعلم<sup>4</sup>.

في علاقة بتنكر الذات، تقدّم سوزان كراكويك Suzanne Krakowiak مفهوم القناع في التحليل النفسي باعتباره «عقدة وظيفية يُرْتَبُّ الأنا من خلالها علاقته بالموضوعات. لقد اختار يونغ هذا اللفظ بطريق المماثلة مع القناع الذي كان يضعه المؤدون للأدوار في القديم، فهو يستحضر، في هذه الحالة، المسرح واللعب. ف *Persona* هو قناع يتظاهر بالفردية، حيث يجعل ذاته نفسها

4- انظر: السرديات الكبرى- باركر (كريس)- معجم الدراسات الثقافية- ص 217.

والآخرين يعتقدون بأنه فردي، في حين أنه ليس إلا دوراً متممّصاً، ومن يتكلم داخله هو النفس الجمعية (131-130, Agnel: 2008). فالقناع، في هذه الحال، حامل خطاب ثقافي يتجشّمه الـ "أنا الفردي" Le Moi individuel خدمة لـ "الأنا الجمعي" Le Moi groupal، بما يقتضيه الانتماء والتعايش الاجتماعيين.

من منظور آخر، يقترّب مفهوم الشخصية عند بيير جاني P. Janet من المعنى الأول الذي أعطاه يونغ للقناع: «نحن شخصيات personnages نتقمص دورنا بشكل حسن إلى حد ما (...) وهكذا لكل واحد دور خاص حيث يؤدي الواحد منا دوراً إزاء شخصيات أخرى. ولا يمكننا أن نتخلص منه وهذا حقيقي جداً حتى أن الوظيفة تتغيّر موقف الشخصيات.» (Janet: 1984, 181) يمكن للقناع أن يلعب دوره بطواعية كوظيفة للعلاقة مع العالم الخارجي، وأن يشكل حماية للأنا، تكون ضرورية لتطور جزئه الحميم. إنه، في هذه الحالة، تكميّليّ للروح وللعقل المعتبرين كوظائف للعلاقات مع العالم الداخلي، «فالهوية إلى القناع تشترط تلقائياً تطابقاً لا واعياً بالروح، لأنه إذا لم يتميّز الأنا عن القناع، لا يمكنه أن يحصل على صلات واعية مع الإجراءات اللاواعية (...). فالذي يتطابق على نحو غير مشروط مع موقفه الخارجي يكون مُسَلماً إلى إجراءات داخلية على نحو لا يُعوّض. (...)» (Agnel: 2008, 132-133).

#### 4 - المؤلف حياً أم ميتاً؟ مطاردة التنكر بين بارت وكونراد

لا يستقيم أود الكتابة الأدبية من دون عنصر التنكر، فهي مورث حيوي في جسد النصوص، بدءاً بوظائف لغة الشعر في القصيدة، أو بمفهوم القناع ومظهراته في الكتابة الدرامية كما في اللعب المسرحي داخل مساحات الفرجة، وانتهاءً إلى الكتابة الروائية التي تتيح سيرورات شتى للتنكر: تنكر المؤلف للاحتراز بدهاء من عالمه الواقعي، أو تنكر الشخصيات للاشتباك بذكاء في عالمها الروائي.

في شأن تنكر صاحب العمل الأدبي، نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام مفهوم المؤلف، وما اعتراه من تشكيك وتقويض. فإما أن نتبنى ما نادى به «الثقافة السنية والحس المشترك اللذان يفهمان المؤلف على أنه الفرد المبدع للنص، وأن نواياه هي التي تبني عمله للمعاني والدلالة» (كريس باركر: 2018، 349)، فتعامل مع "الطاهر" أنه حاصل رحلة ومعايشة عاشها القاص في فجيح؛ وإما

أن يوجهنا مفهوم التناص إلى قبول طعون كُتِّب ما بعد البنيوية أمثال فوكو ودريدا، والتسليم «بعبارة بارت الشهيرة "موت المؤلف" مؤكداً أن النص لا يمتلك معنى مفرداً.. بل من الأفضل أن يُفهم كفضاء متعدد الأبعاد، من خلاله تتمازج كتابات مختلفة وتتصادم في الوقت نفسه. (...) كما أن المعنى لا يمتلك مصدراً إبداعياً مفرداً، بل هو نتيجة لعلاقات بين النصوص.» (نفسه، 349-350).

فإذا تبيننا مفهوم الثقافة السنية والحس المشترك، سنقر بكون "الطاهر" من وحي بادوقاني، وخلاصة تجربة شخصية عاشها في فجيج، والتقطت عينه الغربية-الغربية ما بدا له مختلفاً وغريباً، أو منحطاً. ولعل إهداءه قصة "الطاهر" إلى الأخوين طارو ما يرجح هذا الطرح «حيث تفهم المعاني على أنها نتاج لأشخاص موحدين ووحيدين يمتلكون جوهرًا باطنياً يعد مصدر الدلالة الإبداعية» (نفسه: 349) كتقاسم لشيء ذاتي مع شخصين حميمين ينفذ إليهما هذا المكسب الثقافي الذي لن يحظى به سوى من قطع آلاف الكيلومترات ليصل إلى عالم الأصلايين الطافح غرابة وغموضاً. وفي هذه الحالة، تقف "الطاهر" على خط الندية مع "قلب الظلام"، مثلاً، حين نفهم هذا السرد الأدبي على أنه حاصل تجربة شخصية وواقعية تنتمي إلى الرواية الواقعية الكولونيلية، وعلى كون بادوقاني اقتفى خطوات كونراد باعتباره «السلف الممهّد لوجهات النظر الغربية حول العالم الثالث التي يجدها المرء في أعمال روائيين متباينين تبأين غراهام غرين، وفي. إس. نيبال، وروبرت ستون، ومُنظري الإمبريالية مثل حنة أرندت، وكتّاب الرحلات، ومخرجي الأفلام، والمباحكين الذين تخصصوا في نقل العالم غير الأوربي (إلى الغرب) إما من أجل تحليله والحكم عليه أو لإشباع الأذواق الغرائبية للمتلقين في أوروبا وأمريكا الشمالية.» (إدوارد سعيد: 1997، 63).

من خطل القول اعتبار هذه الكتابات محض إشباع للفتنة بالغريب L'exotique، إنما هي كتابات انخرطت، في خدمة الأثروبولوجيا الإستعمارية حتى يسهل التحكم في الأصلايين عبر ثغور-ثغرات ثقافية منقذها الدين، والتقاليد، ونظام الحكم، وأسلوب العيش؛ ونتيجة لذلك، فإن «أفق الكتاب الاستعماريين هو، في معظمه، جيوسياسي، حيث ستشكل أقاليم ما وراء البحار مصدر إلهام لكل من الكتاب الاستعماريين والسياسيين، وستمثل عاملاً في تحديد وتأثير فرنسا وأدبها.» (TASRA: 2019, 36)





أما في حال ترجيح معطى التناص، فإن "الطاهر" انبعاث من رماد "قلب الظلام" و"نوسترومو"، ونماذج روايات<sup>5</sup> كتبت ما بين 1899-1910 وما بعدهما. وفي هذه الحال يصير التناص في حد ذاته شكلا للتكرار حين يحو المؤلف آثار كتابته-جريمته، فيفسر نصه على استعارة حياة وهوية من نصوص سابقة. ويبدو أن قصة "الطاهر" كيميائية من تناص ومن سردية واقعية عاش بادوقاني تفاصيلها متنازعا بين فتنة الآخر-الغريب وبين رغبة التبشير بـ "أنا" الثقافة البيضاء، هذه النوايا المغلفة بصوت شخصية ورقية عالمة تشيد العالم القصصي المتخيل، ولا علاقة لها، حسب ما تم ترتيبه، بالعالم الواقعي للكاتب.

##### 5 - استعارة "الأنا" الإمبريالي الروئية من الخلف لاحتواء "الآخر" الأصلي

يركز ماتيو-كولاس اشتغال علم السرديات حول وجهة النظر في خلاصة تضعنا طي الروئية من خلف، حيث «عادة ما نميز ثلاث حالات أساس، مهما كانت اختلافات علم الاصطلاح. من جانبه، يقارن تزفيطان طودوروف معرفة السارد مباشرة بمعرفة الشخصية.» (1, 1979, MATHIEU-COLAS). فجان بويان J. Pouillon يسميها "الروئية من الخلف" vision par derrière، ويطلق عليها جينيت Genette "اللاتبشير" أو التبشير في درجة الصفر focalisation zéro، أما طودوروف Todorov فاستعان بالرمز الرياضي "أكبر"<sup>6</sup> (N > P). ليضبط العلاقة الكمية بين معرفة سارد عالم بكل شيء omniscient عن شخصية تجهل الكثير عن نفسها وعن مصيرها.

وبالعودة إلى كلمة omniscience، أي «العلم الكلي: إحدى صفات الله» (IDRISS, Souhaïl:1994,715)، توجهنا البادئة<sup>7</sup> (omni préfixe) نحو كليات

5 - Jules BOISSIÈRE Fumeurs d'opium 1896// Albert de POUVOURVILLE L'Annam sanglant 1896// Louis BERTRAND Le sang des races 1899// Paul CLAUDEL Connaissance de l'Est 1900// Paul GAUGIN Noa-Noa 1902// Marius-Ary LEBLOND Les Sortilèges 1902- Le Zézère 1903// Jean AJALBERT Sao Van Di 1905 Robert RANDAU Les Colons 1905// Pierre MILLE La Vaste Terre 1906- Barnavaux et quelques femmes 1908- Louise et Barnavaux 1910// Max ANLEY (Victor SEGALÉN) Les Immémoriaux 1907. (TASRA: 28).

6 - Narrateur supérieur au Personnage.

7 - بادئة أو سابقة أو أداة تصدير: Préfixe.



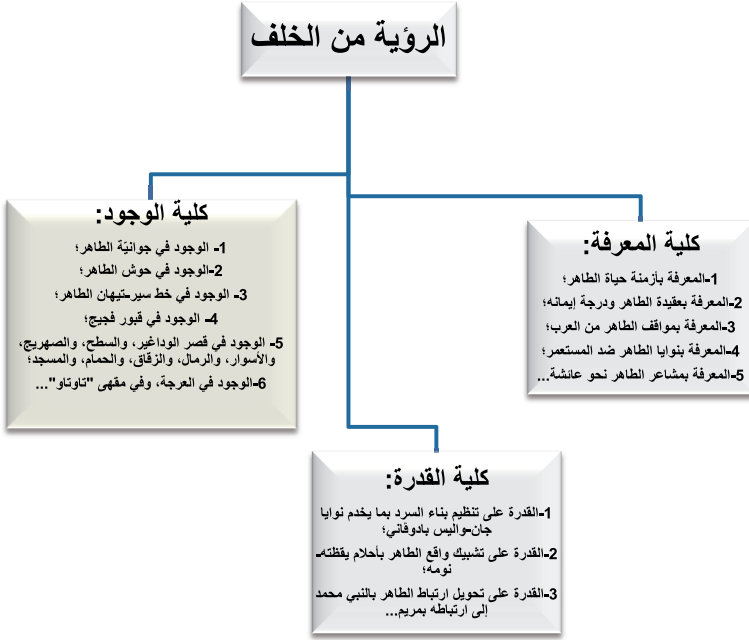
أخرى تتصافر لتجتمع منظورا وافيا تشرف به هذه الرؤية من عل، ومن كل الزوايا على الشخصية لتضعها تحت مجهر معرفة لا تترك شيئا إلا وعته، وتصرفت فيه.

يعزز السارد في "الطاهر" "كلية المعرفة" بـ "كلية الوجود"، أو الوجود في كل مكان omniprésence، وبـ "كلية القدرة" أو القدرة المطلقة omnipotence، وكتاهما من صفات الله كما يقول بودليير<sup>8</sup>، وذلك حتى تكتمل صورة يرتضيها الكاتب نموذجية طي ما يضم صوت سارد ليس شخصية ورقية فحسب، تحكي عن الطاهر وعلاقته بالأهالي، بل بوصفه "أنا" و"هوية" وجدت نفسها وجها لوجه أمام "الآخر" وهويته. فكيف تفكر هذه "الأنا" الفرنسية القادمة من مدينة الأنوار إلى واحة في قلب الصحراء، يعيش فيها مزارعون بسطاء، ويتردد إليها، من تخوم تافيلالت، تجار من سائقي الجمال؟

فالكاتب المتنكر في رؤية سارده، و"الطاهر"، يعيشان، بالقدر نفسه، تطورا حيويا على مستوى هويتيهما، حيث «لا تنطوي الهوية على جوهر يرتبط بالذات، بل بالأحرى، تتضمن مواقع للذات متحولة باستمرار.» (كريس باركر: 2018، 380). بادوقاني الذي يتطور موقفه في التبشير بقيم المسيحية بعيدا عن الفاتيكان، و"الطاهر" الذي يبدأ أثرا في معسكر النبي محمد وينتهي مستسلما في معسكر أم المسيح. ويتضح، عبر تنامي السرد في القصة، أن الكاتب وبطله "لم يؤلفا سردا واحدا حول نفسيهما" منذ الولادة حتى زمن كتابة النص، بل إن "الهوية" لديهما -وفق الدراسات الثقافية- "أدائية-خطابية"، حيث قام منظروها («مساءلة المسلمة التي تعتبر الهوية شيئا ثابتا تمتلكه. الهوية، كما يرون، ليست كيانا بل هي أوصاف مشحونة وجدانيا، بدلا من أن تكون ماهية خالدة. فما يصنع الشخص يُعدُّ مرنا ومتحولا ويخضع لأوضاع اجتماعية وثقافية معينة.» (نفسه، 382). هذا الترافع -بين هوية القاص التي تحيل إلى مرجعيات غربية مسيحية، وهوية "الطاهر" التي تصوغها حروف فرنسي جاء من الأقصي ليشكل منها كليشيهها لكل أصلائي الواحة- ما كان لترجح كفته لصالح الكاتب-السارد لولا كفاءاته العالية في الرؤية من خلف.

8 - «Dans l'idée de Dieu, avec son omnipotence et son omniprésence.» Baudelaire. Le Petit Robert, P 1531

## خطاطة الرؤية السردية في "الطاهر"



### 6 - صدام الأنا الكولونيالي بالآخر الأصلي شاحن الاستعلاء الثقافي

يجد "الأنا" تحديده الأصل في علم النفس، فهو «مفهوم الفرد عن نفسه، وهو الجزء من الشخصية الذي يكبح التعبير عن الـ "هو"». (فاخر عاقل: 1977، 38). ويرد تعريفه أيضا بكونه «الجزء الشعوري الواعي، أو الجانب المتمدين المعقول في شخصية الفرد والذي نعرف عنه الكثير عادة. وتنشأ "الأنا" من الدوافع الفطرية وتنفصل عنها نتيجة الخبرة والتدريب والتعلم.» (سمير سعيد حجازي: 2005، 132)؛ وإذا كان هذا الأنا يتفرع إلى: الأنا الجسمي، والأنا المثالي، والأنا المفكر، والأنا المفكر الحالم. (نفسه، 133)، فإنه متضام ومتواطئ داخل الأنا الكولونيالي بكل ما يرسخ تمثلات الاستعلاء الثقافي على الآخر.

لو نبشنا عنه في حقل الفلسفة نكشف أن «المصدر النظري الأول لهذه الفكرة هي ثنائية السيد والعبد التي قدمها الفيلسوف الألماني هيغل، بينما المصدر الثاني هو التفكيك الذي قام به دريدا لثنائيات الفلسفة الغربية. وفي كلتا الحالتين، تكون هويات كل جانب من العلاقة مصوغة معا. السيد لا ينفصل

عن العبد، هويات الرجل متشابكة مع هويات المرأة، وذاتية الاستعمار الحاكم مصوغة مع الذوات المستعمرة.» (كريس باركر: 2018، 53). وتقدم قصة "الطاهر" أرضية خصبة لقراءة العلاقة الصراعية الأنا/الآخر من جانب المستعمر كما من جانب الأصلايين، على حد سواء. فحسب معجم الدراسات الثقافية، «يرتبط مفهوم الآخر بشكل وثيق بالهوية والاختلاف، حيث إن الهوية محدّدة في جزء منه كاختلاف عن الآخر. أنا ذكر لأنني لست أنثى، أنا رجل سوي جنسيا لأنني لست مثليا، أنا أبيض لأنني لست أسود وهكذا دواليك. ثنائيات الاختلاف هذه غالبا ما تتضمن علاقة ترتبط بالسلطة، الإدماج والإقصاء، بحيث يكون جزء منها محوّلًا لأن يمتلك هوية إيجابية، بينما الجزء الثاني منها يكون آخرَ تابعا.» (نفسه).

وفي ضوء هذا التحديد القائم أساسا على الاختلاف، نجرد مجموع خصيصات تجلو مفهوم "الآخر" انطلاقا من مفهوم "الأنا" في قصة "الطاهر": أنا مسلم لأنني لست مسيحيا، وأنا أمازيغي لأنني لست عربيا، وأنا أصلايين لأنني لست روميا، وأنا نائر لأنني لست خانعا... ألا تشتغل "الأنا" الكولونيالية «كاستعارة للتفوق» تحيل إلى بادوفاني، وفي الوقت ذاته ك «استعارة للتبعية» (نفسه، 45) تخص الطاهر وأهالي الواحة؟

نخمن أنها الاستعارة عينها التي وجهت بادوفاني إلى استعارة الرؤية من خلف بما يفترض في نفسه-صوت سارده من صفات كلية أو كفاءات ذاتية ليحكى عن هذا "الآخر" الذي ينتمي إلى عالم الما-قبل؛ ذلك «أنه إذا تم تحويل الأصلايين المعنين في ماديتهم من كائنات (خاضعة) إلى (مخلوقات) بشرية دونية، فإن المستعمر يتحول بصورة مشابهة إلى كاتب لا مرئي تقدم كتابته تقريرا عن الآخر، وتصرّ، في الوقت نفسه، على تجردها العلمي وتصرّ (كما لاحظت كاترن جورج) على التحسن المطرد في أوضاع الأصلايين، وشخصياتهم، وعاداتهم نتيجة لاحتكاكهم بالحضارة الأوروبية.» (إدوارد سعيد: 1997، 229)

فهل يُشرف بادوفاني، من عل، بسارده ذي الصفات الإلهية: كلية المعرفة وكلية الوجود وكلية القدرة، ليحسم تساؤل آلان روب-غرييه -A. Robbe «Grillet» عمن يكون هذا السارد العليم، الذي يضع نفسه في كل مكان في الوقت نفسه، والذي يري في الآن ذاته وجه الأشياء وظهرها، الذي يتابع في الوقت نفسه حركات الوجه وحركات الضمير، الذي يعرف، في الآن ذاته الحاضر، والماضي ومستقبل أي مغامرة؟» (MATHIEU-COLAS: 1979، 2).

كلما تدرجنا بالقراءة عبر سطور القصة وما بينها، يتأكد إمام السارد بكل ما يخص الطاهر ظاهريا وجوانيا؛ وبكل من وما له علاقة بهذا الفتى المشحون بهواجس تحرير الأرض والإنسان، كما «يتجلى تفوق السارد في معالجة الزمان والمكان بقدر ما يتجلى في صيغة معرفة الشخصيات.» (2) (Ibidem) التي تظل في خلفية المشهد، ولا تظهر إلا وفق ما يرتضيه سارد مهيمن يكتفي بالاستعانة بها لتكتمل الصورة التي خططها لـ «الطاهر». تستحکم الرؤية من الخلف عبر صوت السارد الذي يصر على أن يقدم «الطاهر» حسب تصور جاكيسون، أي أن «هذه الشخصية تشبه فونيمما، أي شبكة من العناصر الاختلافية.» (فليب هامون: 1990، 27).



تسعدنا سيميائيات غريماس للاشتغال بمفهوم «العامل» حيث تشبك العلاقات بين «الطاهر» ومن/ما حوله (الأطفال حشود القصور والأسواق - كاتب بائس - تاوتاوا - النبي - ابن الشيخ - الجمالون - عائشة - المغنون - حاملو التبن - عازفو الغامبري - مريم - مخزنيان / الطين المبلل - الجدار - الصحراء - فجيح - القبور - الوداغير - السطح - الصهريج - النخيل - الممرات - العرجة - المخيم - الوادي - السد - حجر - شجر - الأسوار - الحمام - الزقاق - المسجد) في تجاذب قوي ومتسارع لا يلين، حيث يلزم كل عامل موقعه ووظيفته في توفير الشرط الموضوعي لتنامي «الشخصية باعتبارها مورفيما فارغا في البداية

(لا معنى للشخصية، ولا مرجعية لها إلا من خلال السياق) لا تمتلئ إلا في آخر صفحة من النص، حيث تتم مجمل التحولات المتنوعة التي كانت هذه الشخصية فاعلا فيها وسندا لها.) (نفسه، 30).

#### 7 - الاستعلاء الثقافي: بدء السرد وتأييد فكرة الأصلاحي الكسول

هل يمكننا الجزم بأن بادوفايني قبل زيارة فجيح، وقبل أن يكتب "الطاهر" لم يقرأ شيئا من كتابات الأوربيين حول فتوحاتهم واكتشافاتهم الإفريقية والهندية؟ ألم يكن، على سبيل المثال قد قرأ روايتي قلب الظلام (1899) ونوسترومو 1904 لجوزيف كونراد؟ هذه الأخيرة التي كتبها في «مرحلة الحماسة الإمبريالية الأوربية التي لم يكذبها منازع (...)» وهكذا نقل كونراد نزعاته الإمبريالية القارة إلى من تلاه، رغم أن ورثته لا يكادون يملكون عذرا واحدا للتسويغ ما في أعمالهم من تحيز كثيرا ما يكون مرهف الخفاء وخاليا من التمعن. (إ. سعيد: 1997، -64 65). ألم تستفزه، مثلا، حمية الانتصار للإمبراطورية وانحاز إلى تعزيز الحملة الفكرية خدمة لمرامي التوسع، وأسهم بهذا النص القصصي لتثبيت نزعة التفوق «لأن السرد يلعب دورا كبيرا في المسعى الإمبريالي، فليس من المفاجئ في شيء أن فرنسا و(خصوصا) إنكلترا تمتلكان تراثا غير منقطع من الكتابة الروائية لا نظير له في أي مكان آخر.» (نفسه، 67)؟ وهل يمكننا القول إنه لم يدعم مخططات بلاده لما اعتبرت الجزائر واحدا من أقاليمها حيث تقع واحة فجيح جنوبه؟

باطلاعنا على تقارير عسكرية، وكتابات أنثروبولوجية حول "الجنوب الجزائري أو الوهراني"، نفهم أن تعاطي الفرنسيين مع ساكنة هذه المنطقة وثقافتهم يدور في فلك ما "كتب الداعية الفرنسي المدافع عن الاستعمار، جول هارمان، عام 1910، يقول: «إنه لضروري، إذن، أن نقبل كمبدأ ونقطة انطلاق حقيقة أن ثمة تراتبية بين الأعراق والحضارات، وأننا ننتمي إلى العرق والحضارة المتفوقين (...)» إن المشروع الأساسية للفتح والغلبة على شعوب أصلانية تكمن في الإيمان بتفوقيتنا.. وإن كرامتنا وعزتنا لترتكزان إلى هذه الخصيصة، وهي ما يتبطن حقنا في أن نوجه بقية البشر ونقودهم.» (نفسه، 87).

يكتف السارد، عبر ثلاثة أفعال مضارعة متداخلة فيما بينها زمنيا، إيقاع حياة أصلاحي مؤثرها النوم، ومظاهر الخمول، في واحة يزحف عليها الرمل والصمت. لقد استهل السرد بقوله: «يتمدد الطاهر، يتشاءب، يههم، لقد حان الليل.»، ويختمه بعبارة «ويستيقظ الطاهر، وفوق رأسه مخزنيان جالسان

يترصدانه ويدخنان برزانة.» (PADOVANI: 1925, 1-3)). أهو المشي على خطي كونراد الذي «استخدم المسارد الاستعمارية عن الأصلايين الكسالي.» (إ. سعيد: 1997، 229) ليفتخر بالإمبراطوريات اليقظة المتبقطة المشربة بمخططاتها إلى مقدرات الأراضي الغربية البكر؟

## 8- العقل الكولونيالي ومفهوم التابع: مخططات الاحتواء الثقافي

### 8-1- الأنا الكولونيالي وشرخ العظم الاجتماعي الأصلاي

هذا المفهوم وطيد الصلة بكلمة "التابع" Subaltern الواردة في فكر غرامشي حين حلل العلاقات الاجتماعية المحكومة بتفاوتات فكرية واقتصادية؛ ويقصد بها «الطبقات التابعة التي تعد كجماهير شعبية غير منظمة سياسيا.» (كريس باركر: 2018، 105). لكن الفهم الثقافي للتابع في "الطاهر" يضعنا أمام الخلاصة التي وصلت إليها الباحثة الهندية سبيفاك جاتري Spivak، Gayatri Chakravorty، حول وضع النساء في الهند، خلال الاستعمار البريطاني، وذلك «في عملها الشهير: هل يمكن للتابع أن يتكلم؟ وكانت إجابتها بالسلب لأن الذات التابعة غير متجانسة ولا يمكن أن تُستحضر كخطاب موحد.» (نفسه، 105).

يتراتب مفهوم التابع في "الطاهر" من "هؤلاء النساء وعائشة" في الدرك الأسفل، إلى رواد مقهى تاوتاو البسطاء، إلى المخزنيان، وأخيرا إلى الطاهر نفسه الذي ظهر في البداية عازما على الانتصار لدينه وواحته وأهله، لكنه ينتهي إلى خط سير نقيض، يُحتمل أن ينسف كل ما رتبته، طيلة سنوات، للثورة ضد الرومي واسترجاع الواحة بقصورها، وأسواقها، ونخيلها، ومائها، ورملمها.

تغذي رؤية السارد الصراع بين العنصرين العربي والأمازيغي عبر استنكار "الطاهر" صورة المرأة في الشعر العربي، وقد اختار السارد ذلك بوابة لاقتحام الطابو الديني حين تجرأ الفتى وترجم القرآن إلى الأمازيغية "حتى لا تعرف هؤلاء النساء هلاك الروح". فالمضمرة في الخطاب هو تعرية الطريقة التي يتمثل بها العربي المرأة في وجوده من خلال شعره كموضوع شبق.

وحيث تقدم اللغة العربية نفسها قناة المقدسين الشعري والديني، ألا ينبغي فحص القرآن للتأكد من عدم وجود مواقف شبيهة فيه لأن الشعر سابق عن الرسالة؟ وبعدها، أليس الأمازيغي، في حد ذاته، مجرد تابع لثقافة عربية بدينها وشعرها، لم ينجز هو فيها شيئا يُعتد به أو يُحال إليه كذاكرة حضارية ما زالت مهيمنة في السلوك اليومي للأصلايين الأمازيغ؟

- لم اختار بادوقاني "الطاهر" عنواناً لقصته؟ ولم انتقى قرآناً في الإهداء؟  
يكون من حسير النظر تلقي عنوان القصة على كونه اسم بطلها، وانتهى الأمر. إن ملاحقة مبدأ الطهارة في الديانات التوحيدية سينتهي بنا إلى اجتراح أسئلة جديدة عن تنامي المفهوم حسب توالي الحدث في القصة أفعالاً ووضيعات. فأية طهارة تترسب في كيان "الطاهر"؟ الطهارة بمفهومها الإسلامي أم بمفهومها المسيحي؟ وما علاقة ذلك بنبية التبشير التي ينطوي عليها تحول موقف البطل في القصة؟

يبدو أن إعادة ترجمة الكلام الرباني إلى لغته الأصل خان صيغة الآيات القرآنية التي ورد فيها النهي عن فساد الإنسان وإفساده في الأرض. وباستنادنا إلى مضمون الإهداء في علاقته بمتن القصة، فقد توزع فهمنا كلمة "منكر-vice" مستويان اثنان؛ فهي ترتبط، من جهة، بالقائمين بها، أي "أهل المنكر"، ومن جهة أخرى بـ "الأرض" كمرح لهذا المنكر. إن علاقات الدل والمعنى قائمة، في جميع الأحوال، بين الفساد والمنكر؛ لكن المغزى القرآني الذي قصده بادوقاني يعني الفساد المنهي عنه في الأرض كما أمر الله في سورة الشعراء، باعتبارها أقرب إلى سياق الإهداء، "وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ" (151) الذين يُفسدون في الأرض ولا يُصلحون (152). إن مراد بادوقاني كامن في المعنى الذي تنطوي عليه صلة الموصول في الآية 151؛ وسيرافع به حجة ضمن خطابه المضمّر حول الإسلام.

لو تأملنا العلاقة بين الآية 152، وبين "آيات النبي" حول الجهاد، والموقف الذي انتهى إليه الطاهر، نلتقط مؤشرات موقف تبشيري يشكك في قيم رسالة الإسلام حيث يتأكد العنف - «عادت إلى ذاكرته فجأة بعض آيات النبي المثيرة للحماس. كم عدد المدن التي أسقطناها؟ هي الآن مستعبدة تحت أنقاضها. كم عدد الآبار التي تم التخلي عنها؟ كم عدد الحصون التي دُمّرت؟- اقتلاع القرحة المسيحية التي تنخر وجه الإسلام- دع الرومي يخرج من أرضنا كسهم القوس، فلا يعود إليه أبدا- كان سعيداً ببناء شرقه الذي لا يعتمه ظل المشنقة المصلوبة- ليستحضر تماوج الحجاج على طريق مكة، والقيروان، وفاس،

9 - أنظر السور الآتية: البقرة: 29- 59- 202- 203؛ المائدة: 35- 66؛ الأعراف: 55- 73- 84؛ هود: 85؛ الرعد: 26؛ الشعراء: 151- 183- 152؛ القصص: 77؛ العنكبوت: 36؛ ص: 26- 27؛ محمد: 23- 24.

وليحلم بتوازنات سياسية جديدة- إعتاق البلد من الغريب...»: PADOVANI: ((1925))- كل هذا، يناقض، افتراضاً، رسالة المسيحية المبشرة بروح المحبة والتسامح. وبالتالي يتدرج السرد بالكشف عن تحول عميق في قناعات الطاهر كما تكشف مونولوجاته: «يا مريم، أنت من بكلمة واحدة جعلت الجندب يُولّد، أنت من تمسحين ألوانك العديدة من الحناء على رقبة السُنُونُو فترك لها العلامة الحمراء التي ترتديها اليوم، يا مريم، ارحميني.» (Ibid). ولم يعد لهمس الوادي والنخل تأثير، كما في السابق، على روحه المتعبة شرودا ويأسا.

### خطاظة التبشير: الطاهر من عقيدة محمد إلى عقيدة مريم



بهذه الخطة يرسم السارد العالم خلاص الطاهر من ورطة مقاومة المسيحية تحت راية القرآن، وتطهره من تعاليم دين بيدو غازيا، وعنيفا، ومدمرا: «لن أعشق الآلهة التي تختفي.» (Ibid). خلاص ييوح به السارد منذ البداية، ثم يسافر بنا طويلا في رحلة حياة أمازيغي يكون قد أخطأ، ربما، في تبني فكرة الثورة ضد مستعمر يملك ديانة سمحة وآلهة لا تختفي. كما تعرّض للعقاب بسبب الكاتب الواشي حين ترجم القرآن إلى الأمازيغية فكان مصيره التيهان في الأرض مثل يهودي. يتجشم الطاهر ذلك من أجل تابعين لا يستحقون تضحياته «لقد وعدتكم بالحرية في ظل آلهتكم وأسيادكم وبيوتكم، فهل تريدون مصيرا أفضل؟ عودوا إلى سفالتكم.» (Ibid).



## 9 - جان واليس-بادوفاني سادن الأنثروبولوجيا الاستعمارية

كما فعل غيره من الفرنسيين الساعين إلى تمزيق أو اصر المجتمع المغربي بدس أفكار صراعية بين العنصرين الأمازيغي والعربي، نراه يخصص حيناً لمفردات لغة الأهالي ضمن أسلوبه الفرنسي. فكلمة "الرومي" يجري استعمالها لدى الأمازيغ، بينما يستعمل المغاربة "العرب" كلمة "النصراني". ونجده قد اضطر إلى استعمال كلمة<sup>10</sup> "إزلان Izlans" لأن معجمه الفرنسي لن يسعفه لا بدلالة اللفظ ولا بمعناه.

هذا ملمح تهجين Hybridation يُعرّفه باختين بـ «الزج بين لغتين اجتماعيتين في ملفوظ واحد، إنه لقاء في حلبة هذا الملفوظ بين وعيين لغويين مفصولين بحقبة أو باختلاف اجتماعي أو بهما معا» (حميد لحميداني: 1989، 85). لقد حصل التهجين، في هذا السياق، نتيجة مثاقفة تبدو غير متكافئة، كان للمثقف الكولونيالي دور قوي في إرسائها، فما الأسباب التي وجهته نحو هذا التهجين؟

بعودتنا إلى كتابات كولونيالية أخرى حول واحة فجيج، يتأكد لنا أن اعتماد التهجين اللغوي حكمه ما يلي:

1. رغبة امتلاك لغة الأصلايين للتغلغل في ثقافتهم؛
2. رد الاعتبار إلى اللغة الأمازيغ ضدًا عن لغة القرآن، وتوسيع الهوية اللغوية-الثقافية بينهم وبين العرب دعماً لغايات الظهير البربري؛
3. الاعتداد بالسجلات اللغوية الغريبة كغنائم ثقافية تعظم نفوذ الإمبراطورية وتوسع مجالات بحثها الأنثروبولوجي.

10 - Izlanes: Izli n. m- Parole de chanson. Pl. Izlan- Izəlwan (انظر: حسن بنعمارة- المعجم الأمازيغي الفرنسي). وحسب الباحث والمترجم بحار (إدريس) فـ "إزلان" هو «جمع المصطلح الأمازيغي إيزلي، ويعني اشتقاقياً "السائل" كمصطلح عام، ويعني قصيدة قصيرة جداً مع لحن وإيقاع ثابت مع استخدام واسع سواء كانت "تماويت"، "تمنادين" أو "تأحزومت" أو غيرها، ولكن مع خصوصية كونها قصيدة من سطرين؛ وأيضاً الأغاني الأمازيغية التي يمكن العثور عليها في كل مكان عبر جميع أنحاء المغرب العربي. في الريف، يطلق على الـ "إزلان" "عزران"». المرجع: استجواب، عبر الميسنجر، حول كتابات جان-واليس بادوفاني عامة، وقصة "الطاهر" تحديداً، بتاريخ 13/09/2020.

## للختم...

تقدم قصة "الطاهر" صيغة تكرر استرفدها بادوفاقي من علم السرديات ليبري قلمه، أمام أنصار الأنثروبولوجيا الثورية، من تهمة التبشير واستصغار الثقافات الأصلانية. لقد حاول المروق بصوته من العالم الواقعي ليحل في صوت سارده الورقي المحسوب على عوالم متخيلة يشيدها السرد. فهل ينجو من الوزر الذي يلاحق كُتّاب الإمبريالية الذين خصهم إدوارد سعيد بكلام جورج أورويل: "إن المثقف موجود في بطن الحوت وخارجه"؟

يضج النص القصصي بأدلة موضوعية حول تشبّع كاتبه بفكرة الاستعلاء الثقافي، واعتباره أصلائي فجيج محض تابع للإمبراطورية يبيح له ممارسة احتواء ثقافي سرت عدواه إلى عقيدة الإسلام بوصفها مقوما جوهريا في هويتهم الثقافية. وتبقى هذه الكتابات الكولونيالية ليس فقط شاهدا على استقواء المركزية الغربية، ولكن مشتلا خصبا لتنامي كتابات مضادة قلبت طبيعة الصراع بين الأنا والآخر رأسا على عقب، وكشفت، بما لا يقبل مجالا للشك، تورط عدد من دعاة التنوير والديموقراطية، وهم متنكرين خلف أقنعة شتى، في مخططات استصغار الآخر باستقطابه واقتلاعه من ثقافته، واستغلال موارده إخلاصا لتأييد فكرة الأوربي الأبيض، الذكي والمتفوق.

## بيليوغرافيا

### العربية

– القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

– إبراهيم، الزهرة، مدونة القنص بالصقر في أدبيات روضة السلوان للشيوخ العلامة إبراهيم بن عبد الجبار الفجيجي الإدريسي الحسني، دراسة أنثروبولوجية مقارنة، دار النايا، دار محاكاة- دمشق، سوريا/ دار الجزائر، الجزائر، الطبعة الأولى، 2013.

– ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، طبعة، 1992.

– باركر، كريس، معجم الدراسات الثقافية، ترجمة جمال بلقاسم، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2018.

– حجازي، سمير سعيد، معجم المصطلحات الحديثة في علم النفس والاجتماع ونظرية المعرفة، عربي- فرنسي، مراجعة جالور جيوردانينو، دار

الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2005.

- سعيد، إدوارد، الثقافة والإميرالية، نقله إلى العربية وقدم له كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1997.

- عاقل، فاخر، معجم علم النفس، إنكليزي- فرنسي- عربي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، 1977.

- حميداني، حميد، أسلوبية الرواية، مدخل نظري، منشورات دراسة سال، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1989.

- نيتشه، فريدريش فيلهيلم، الحقيقة والوهم - 4 - الحقيقة، دفا تر فلسفية، إعداد وترجمة محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1996.

- هامون، فيليب، سيميولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة سعيد بنكراد، تقديم عبد الفتاح كيليطو، دار الكلام للنشر والتوزيع- الرباط - طبعة 1990.

#### الفرنسية

- Agnel Aimé et autres, *Dictionnaire Jung*, Ellipses Éditions Marketing S. A. Paris, 2008.

- BAHHAR Dris, *Interview via messenger*, Le 13/09/2020.

- BENAMARA Hassane, *Dictionnaire Amazighe-Français Parler de Figuig et ses régions*, Centre de l'aménagement linguistique UER- Lexique, © IRCAM, 1ère édition, 2013.

- IDRIS, Souhaïl, *AL-MANHAL*, DAR AL ADAB, Beyrouth, Liban, 14ème édition, 1994.

- JANET Pierre, *L'évolution psychologique de la personnalité, compte rendu des conférences faites en 1929 au Collège de France*, Nouvelle édition, Paris, 1984.

- Michel MATHIEU-COLAS, *LA PERSPECTIVE NARRATIVE, ANALYSES ET EXEMPLES*, Eléments de cours : Villetaneuse/Censier, Université Paris XIII, 1979 [www.mathieu-colas.fr/michel/recit/cours-vision.pdf](http://www.mathieu-colas.fr/michel/recit/cours-vision.pdf) (visité le : 11/10/2020).

- PADOVANI, Jean-Wallis, *TAHER*, texte narratif écrit à La Garenne Colombe- Nanterre, Paris le 21 Mars, 1925.

- REY. JOSETTE, *DEBOVE ET ALAIN REY, DICTIONNAIRE LE PETIT ROBERT*, Edition juin 1996, Paris.



**TAHER**

A JEAN ET JÉRÔME THARAUD.  
 « Tu es un peuple assis sur  
 le vent de la terre »  
 KORAÏA »

Taher s'éveille, heule, grognonne. La nuit qui vient, une nuit bleue de février, au-dessus de sa tête, à plat ventre dans l'argile détrempée, quelques mouchachous, les yeux au bord du trou, l'épient sauvagement.

Et, au-dessus de la tête des mouchachous, une étoile dirige au cœur de lumière sur Taher qui murmure : de quel enferrai-je point les dieux qui disparaissent.

Taher a traduit le Koraïa en langage crebère. Il a voulu que ses femmes délaignées de prestige arabe, ne commencent pas la perdition de l'âme. Les toudes des humbles Ksours, des Souks, il désire de le voir s'épanouir à plus de lumière. Dénuée par quelque misérable sorcier, il s'est vu traité de vilain en village, de moquerie en mosquée. Sans le gourdis, il a haïlé ; longuement il a remontré à ses accointés que, sa vie durant, il fut pieux, patif, s'édièque, bienfaisant ; il lui a été répliqué : « Un jour, tu auras sous les yeux le spectacle de tes propres hommes ou mauvais, et tu désireras qu'un immense intervalle te sépare du mal que tu auras fait.

Taher a froid. Adossé au mur gluant, un fillet d'eau coulant le long de sa jambe, il compte pauser, en l'espace de sa tête, ce vent de silence jamais esaluté par la pluie.

Il voudrait dormir, s'enfoncer dans le sommeil comme dans un tas de sable, ne penser à rien, à rien.

Peut-être a-t-il eu tort ! Mais Dieu a sports à Adam la manière d'implorer son pardon.

Et Taher soupire : — Si Dieu m'a envoyé l'affliction, lui seul peut m'en débarrasser.

Les heures s'abattent lourdes, comme des gronnelles dans une mare ; Taher s'élève, glisse, heule le fond de l'âme, de peur, le nez dans l'eau glacée.

Et voilà que les fenêtres de la rue qui se fermaient pour lui d'un côté, s'ouvrent de l'autre, et que toute la douceur de son passé lointain, dans cette nuit atroce de février, lui entre dans le cœur.

Il avait figuré, enfant, il a connu parait les ombres sous le rire du cowaddy Tsontou. Qui lui rendra à cette heure Oulaghe, la terrasse, le bassin et les palatras ?

Il se souvient d'un après-midi rose de décembre où, le Koraïa sous le bras, il avait été à El-Hadja visiter le camp, la rivière et le barrage.



Devant les murs abattus, les corridors obscurs, devant l'insolence de l'abîme, sous la haie des palatras, quelques caillots versets du Prophète lui étaient subitement revenus en mémoire.

« Combien de vides avais-je nous renversés ? Elles sont maintenant ensevelies sous leurs ruines. Combien de puits ont été abandonnés ? Combien de forteresses détruites ? »

Allongé dans l'ombre du mur d'enceinte, il s'ouvrait de l'orgueilleuse musique des vers du Koraïa, et la joie de vivre coulait comme un vie amoureux dans ses veines.

Une jeunesse, éphémère Taher soulevé et sur la. Arracher l'incertitude chrétienne qui rongeait la face de l'islam, et cette double vie de prière et d'action, il entendait l'annuler quelque jour, quand, à la façon des juifs, il serait un errant sans terre.

« O Taher, si tu n'as rien de plus à me proposer, mon d'habiter, j'irai me réfugier, le vent de la terre, les secoues évangéles par mes heules ; grandis, petit mouchachou, dans l'incalculable des chaudes journées sahariennes, un jour viendra où nous nous arrêterons d'arguill l'almosphère que tu respireras. Nous inclinerons ton cœur débordant de compassion vers ce pays que la douleur déchire, nous l'aiderons à le désirer de l'étranger. Nous vaudrons que la terre lui semble trop étroite dans sa fuite précipitée.

Et hic, grisé par de telles promesses d'éternité, embrassait toute pierre, tout arbre, et s'écriait : « O, faites que je ne connaisse pas la mort, faites que le royaume sorte de nos terres comme la félicité de l'arc, et qu'il n'y rentre plus.

D'ordinaire, il bannissait soigneusement toute exaltation morbide, tout écart d'imagination ; mais ce soir-là, gagné par le douceur de cet après-midi d'hiver, il s'était plu à bâter un Orient que rassemblait pas l'ombre du gilet du corselet, à dépeindre la houle des palatras sur la route de La Mecque, de Kairoana et de Fou, à rêver d'alliances nouvelles, d'équilibres politiques nouveaux.

Le soir, chez Tsontou, il n'avait pu résister à la tentation de développer ses theories devant quelques chameleurs. Ceux-ci l'avaient écouté un instant, sans mot dire puis, toujours silencieux, s'étaient mis à jouer aux dés, si bien que dans l'indifférence générale il leur avait crié :

« Je vous avais promis la liberté sous vos dieux, vos maîtres et vos lois, vous le voyez d'un sort plus avantageux, retournez à votre avilissement. »

À la sortie, dans la détresse de l'âme, il avait crié le die d'un cœur qui lui avait dit à l'oreille : « Ta voit et celle

d'un marabout sont deux ennemies que je n'oublie jamais. Quand je ferme les yeux, je les entends et chacune d'elles dit une chose différente.

Je t'aime, ô Taher, sans amour s'exagère. Pourquoi m'importunerai-je de la façon dont ton rêve s'aura, au si ton rêve même doit avoir sa fin.

Et maintenant Taher songe à Aïcha. Avait-il éclairé ses yeux dans ces longues années où, l'un à côté de l'autre, ils allaient s'enchantant mutuellement de comtes et d'histoires-pilatras.

« Tes yeux, disait Taher, sont deux petits chameaux qui courent toute la journée sans se fatiguer. Ils sont deux petits chameaux qui voyagent tousjours ensemble sans que l'un connaisse l'autre.

Devant le cowaddy les chanteurs s'installent, porteurs de allures, joueurs de tambour ; ils arrivent de Taïlales et vont chanter ; « Les chrétiens sont venus chez nous avec leurs armes et leur puissance parce que Dieu l'a voulu, mais patiatex.

« O Taher, si tu n'as rien de plus à me proposer, mon d'habiter, j'irai me réfugier, le vent de la terre, les secoues évangéles par mes heules ; grandis, petit mouchachou, dans l'incalculable des chaudes journées sahariennes, un jour viendra où nous nous arrêterons d'arguill l'almosphère que tu respireras. Nous inclinerons ton cœur débordant de compassion vers ce pays que la douleur déchire, nous l'aiderons à le désirer de l'étranger. Nous vaudrons que la terre lui semble trop étroite dans sa fuite précipitée.

« O Myrrhoun, toi qui d'un mot fis naître la superstition, toi qui auvent au cou de l'héroïde les amantes tenues de beauté lui laissas la marque rouge qu'elle porte aujourd'hui, ô Myrrhoun, prends-moi en pitié. »

Et Taher se réveille. Au-dessus de sa tête, deux mouchachous accroupis l'observent et fument gravement.

JEAN WALLIS-PADOVANI.

La Gazette Coloniale.

27 mars 1925

**Les Chefs-d'Œuvre**



Armand Dutaec, le « Napoléon de la presse », dans un vent de diaspore les événements aux amérains, subit-à beaucoup Polaire qui, d'allures, le lui joulait bien et lui a sauprésé plus d'un trait pour peindre son héros Méroédet.

Mais Dutaec, ethnophile pourtant, a avant guère le temps de lire.

« Avec-vous le Balas ? demandait-il un jour à un centain.

« Comment si je l'ai lui ? Vous songez-vous de moi ? répond l'interpellé.

« Je ne me souviens pas, dit Dutaec. Mais moi, je n'en ai pas le vingt lignes dans ma vie. Seulement, je connais, et pour cause, ses traits avec les éditeurs. J'en ai le collection complète. Ce sont des chefs-d'œuvre !



## الهويات المستعارة عند فرناندو بيسوا (لا أحد وشخصيات عديدة في آن واحد) \*

فيلامونا إيوس  
ترجمة فريدة الصمدي<sup>1</sup>

### ملخص:

في هذه المقالة، لا ندعي أننا نبتكر موضوع الهويات المستعارة لبيسوا، بل بالأحرى نجمع بطريقة أصيلة مجموعة من المعلومات والأفكار التي أعدها النقاد البسويون في أوقات مختلفة. نظر اللبليوغرافيا الهائلة التي تراكت حول فرناندو بيسوا وأعماله الإبداعية، فإن هذا العرض سيكون بالضرورة مختزلاً للغاية. لذلك فإن هدفنا هو تقديم رؤية شاملة وصادقة عن هذا الموضوع. سنسمح لأنفسنا بطرح بعض الأسئلة التي تثيرها شخصية بيسوا وأقنعتنا المتعددة وما تثيره من إشكاليات نفسية وفلسفية، مثل الأنا والآخر والوعي والعزلة، إذ شكلت كتاباته تحليلاً دقيقاً لمآسي ونكبات الإنسان في القرن العشرين، كما أبرزت إمكانية التعايش بين مختلف اللانهايات، حيث يسمو المنطق الوحيد الذي يؤدي إلى التناقضات الكبرى. وعليه تروم هذه المقالة إبراز جوانب من عمل بيسوا التي، في رأينا، لم يسلط عليها الباحثون والنقاد الضوء بشكل كافٍ حتى الآن.

الكلمات المفتاح: العوالم، الشخصيات، الروح التائهة، التناقضات، الإبداع، الكتابة.

\* Filomena Iooss, "L'HÉTÉRONYMIE DE FERNANDO PESSOA «Personne et tant d'êtres à la fois»", *ERES / «Psychanalyse»*, 2009/1 n° 14 | pages 113 à 128.

1 - فريدة الصمدي، أستاذة اللغة الفرنسية وطالبة باحثة في سلك الدكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمرتيل، تخصص الأدب المقارن والترجمة. تشغل مهمة أستاذة زائرة بسلك الماستر بذات الكلية منذ الموسم الجامعي 2015/2016.

## Abstract:

*In this article, we are not claiming to be inventing the theme of the borrowed identities of Pessoa, but rather we attempt to put together in an authentic way a collection of information and ideas that have been explored by the Pessoaian critics at various times. Given the enormous bibliography that has been accumulated around Fernando Pessoa and his creative work, this contribution will necessarily be very succinct. Therefore, our aim is to present a comprehensive and honest view of this topic. We will allow ourselves to ask some of the questions raised by Pessoa and about the multiple convictions and the psychological and philosophical problems this figure raises, such as the ego, the other, consciousness and isolation, since his writings formed an accurate analysis of the tragedies and calamities of man in the twentieth century, and highlighted the possibility of coexistence between the various infinities, where the only transcending logic leads to major contradictions. Accordingly, this article aims to highlight aspects of Pessoa's work that, in our opinion, have not sufficiently been highlighted by scholars and critics so far.*

**Key words:** worlds, characters, lost soul, contrasts, creativity, writing.

لا يمكن لنا أن نجسد هويتنا في كلمة أو في كتاب  
فأرواحنا تسكن بعيدة عنا (...) ونحن أحلام لذواتنا، شعاع لأرواحنا  
وكل منا هو بالنسبة للغير أحلام رآها هذا الغير.  
فرناندو بيسوا

ولد فرناندو بيسوا في لشبونة في الثالث عشر من يونيو عام 1888م، وتوفي في نفس المدينة في الثلاثين من نوفمبر من العام 1935م. إلا أنه لم ينظر إليه كواحد من شعراء القرن العشرين البارزين إلا في السنوات القليلة الماضية. فإذا كان بيسوا قد نشر معظم كتاباته النثرية والشعرية في ألمع المجالات والجرائد في تلك الحقبة، وأضحى معروفا لدى الكتاب المرموقين، فإن شهرته لم تتسع إلا بعد وفاته مباشرة، إذ عثر أهله على حقيبة تضم أكثر من 27534 وثيقة غير منشورة لم يتم جردها بشكل رسمي إلا سنة 1968م. ونظرا لغازرة إنتاجه الأدبي وكتاباته التي اتسمت بالتعقيد، رأى النقاد أن خطابه سوف يظل مفتوحا على مختلف التأويلات.

تعدّ كتابة بيسوا، حسب مجموعة من المتخصصين: "تحليلا في غاية الدقة لمآسي ونكبات الإنسان في القرن العشرين، وهي في الآن ذاته أصدق الكتابات وأقساها" (Antonio Tabucchi: 1998, 23). ويمكن القول، تماشيا مع ما عبّر عنه تابوشي، أن بيسوا كان سباقا (منذ 1914م) إلى تلخيص أهم الإشكاليات

النفسية والفلسفية التي عرفها القرن العشرون: الأنا، والوعي، والعزلة، وذلك وفق مقارنة تعتمد على تعدد الهويات، جعلت منه شخصية مثيرة ومحورية في الشعر المعاصر.

فإذا كان "الآخر" قد ظل يشكل كابوسا غريبا ومقلقا منذ نهاية القرن التاسع عشر عند أشهر الكتاب الأوروبيين، فإن الكاتب البرتغالي عبّر عنه بشكل مختلف في الثامن من مارس 1914م داخل غرفته المتواضعة بلشبونة: في ذلك اليوم المجيد، وقع الكاتب على ولادة هوياته المتعددة الثلاث: ألبيرتو كيرو (Alberto Caeiro) وألفارو دي كامبوس (Alvaro de Campos)، وريكاردو ريس (Richardo Reis)، وقد دخلت هذه الشخصيات في صراع إبداعي مع الهوية الحقيقية لفرناندو بيسوا. وقد ذكر الشاعر في رسالة مؤرخة في 13 يناير من العام 1935م، في سياق ردّه على الناقد أدولفو كاسيس مونطيرو (Adolpho Casais Monteiro)، ما يلي:

"لقد كنت أميل منذ صغري إلى أن أنسج من حولي عالما من الخيال، حيث يحيط بي أصدقاء ومعارف لم يوجدوا قط. (في الواقع لا أدري إن كانوا هم غير موجودين، أم أنا من لا وجود له. ففي مثل هذه الأمور كما في كلها، يجب الحذر من الدغمائية). أتذكر منذ أن تعرفت على نفسي حسب ما أناديتها الأنا، أنني حددت في ذهني شكل مجموعة من الشخصيات الخيالية وحرركاتها وسلوكها وتاريخها، والتي كانت بالنسبة لي مرئية وتنتمي إلى عالمي شأنها شأن الأشياء التي نسميها ارتباطا بالحياة الواقعية. لقد رافقني دائما هذا الميل (...). الذي حتى وإن غيّر لحن جاذبيته فإنه لم يُغيّر كيفية الجذب (...). ذات يوم (...). كان الثامن من مارس 1914م، اقتربت من خزانة عالية، فأمسكت ورقة وشرعت في الكتابة واقفا مثل ما أفعل دائما عندما يمكنني ذلك. كتبت آنذاك على التوالي أزيد من ثلاثين قصيدة وأنا أشعر بنشوة لم أستطع تحديدها طبيعتها. كان يوم الانتصار في حياتي ولم أعش أياما أخرى تضاهي ذلك اليوم. شرعت في كتابة العنوان: حارس القطيع. بعد ذلك، بدأت تظهر في نفسي ملامح شخص آخر، والذي أعطيته للتو اسم ألبيرتو كيرو. اعذروني على هذا القول العبثي: لقد ظهر معلمي في أناي. لقد أحسست به على التو، لدرجة أنه بمجرد انتهائي من كتابة الثلاثين قصيدة هذه، وجدت نفسي أمسك بورقة لأكتب بتسلسل القصائد الستة التي تشكل "المطر المائل" لفرناندو بيسوا. فورا وبشكل كامل... إنها عودة فرناندو بيسوا - عودة ألبيرتو كيرو إلى فرناندو بيسوا. أو بعبارة أفضل، يتعلق الأمر برد فعل فرناندو بيسوا على عدم وجوده باعتباره ألبيرتو كيرو.



فبمجرد ظهور شخصية ألبيرتو كيرو، قمت بالواجب بشكل غريزي وعن لاوعي، فقدّمت له بعض التلاميذ. فقد انتزعت من وثنيته المزيفة الشخصية الخفية لريكاردو ريس، حاولت أن أجده اسماء على مقاسه، حسب ما كنت أراه فيه. فجأة، ظهرت شخصية أخرى متهورة انشقت في الاتجاه المعاكس لشخصية ريكاردو ريس. وبسرعة قصوى، وبلا توقف أو تصحيح على الآلة الكاتبة، بزغت أنشودة النصر لألفارو دي كامبوس، القصيدة التي تحمل هذا العنوان والشخص بالاسم الذي لديه.“ (F.Pessoa: 1980, 300-303)

انقسمت شخصية فرناندو بيسوا إلى عدة هويات<sup>2</sup> (اثنان وسبعون منها عُرفت في العام 1990م) (Teresa Rita Lopes: 1990)، وكانت مستقلة بشكل كبير ومختلفة بعضها عن بعض لدرجة أنها تتعارض بقوة أحيانا. بعث فيها الشاعر الحياة بشكل مثير، فجعل لكل واحدة حالة مدنية، ومزاجا وطبعا خاصة وتفردا جسديا. وهكذا، فإن بيسوا لم يمنح حرية التحليق، حسب تعبيره، سوى للأسماء المتعددة المذكورة آنفا. فيبدو أن ألبيرتو كيرو، وريكاردو ريس وألفارو دي كامبوس هم شعراء مستقلين عن بعضهم البعض. أما بالنسبة لبرناردو سواريس (Bernardo Soares)، صاحب أجمل مذكرات شخصية في القرن العشرين تحت عنوان: كتاب اللاطمأنينة (Fernando Pessoa: 1988)، فلم يكن بالنسبة لبيسوا سوى شبه اسم، إذ قال: ”إن لم تكن شخصيته هي شخصيتي، فهي لن تختلف عنها كثيرا، أو بالأحرى هي ببساطة صورة مشوهة: أنا، أقل عقلانية وعاطفة“. أما بالنسبة للهويات الأخرى، فإن بيسوا لم يمنحها سوى صفة ”شخصيات أدبية“. كما أنه من المهم أن نذكر أمرا غير معروف عن بيسوا (Teresa Rita Lopes: 1990/ Maria Graciete Besse: 1998)، وهو خوضه غمار الفضاء الأنثوي، عبر استعارته لهوية ماريما خوصي (Maria José) بغية توقيع

2 - Dr Pancrácio. Luis Antonio Congo. Eduardo Lança. A. Francisco de Paula Angard. Pedro da Silva Salles. José Rodrigues do Valle. Pip. Dr Caloio. Morris & Theodor. Diabo Azul. Parry. Gallião Pequeno. Accursio Urbano. Cecilia. José Rasteiro. Tagus. Adolph Moscow. Marvell Kisch. Gabriel Keene. Sableton-Kay. Dr Gaudenão Nabos. Nympha Negra. Professor Trochee. David Merrick. Lucas Merrick. Willyam Links Esk. Charles Robert Anon. Horace James Faber. Navas. Alexander Search. Charles James Search. Herr Prosit. Jean Seul de Méluret. Pantaleão. Torquato Mendes Fonseca da Cunha Rey. Gomes Pipa. Ibis. Joaquim Moura Costa. Faustino Antunes (A. Moreira). Antonio Gomes. Vicente Guedes. Gervasio Guedes. Carlos Otto. Miguel Otto. Frederick Wyatt. Rev. Walter Wyatt. Alfred Wyatt. Bernardo Soares. Antonio Mora. Sher Henay. Ricardo Reis. Alberto Caeiro. Alvaro de Campos. Barão de Teive. Maria José. Abilio Quaresma. Pero Batelho. Efbedeed Pasha. Thomas Crosse. I. I. Crosse. A. A. Crosse. Antonio de Seabra. Frederico Reis. Diniz da Silva. Caelho Pacheco. Raphael Baldaya. Claude Pasteur. João Craveiro. Henry More. Wardour. J. M. Hyslop. Vadooif [?].

رسالة من فتاة عمرها 19 سنة، حذباء جراء مرض السل، كانت تريد أن تبعثها إلى شاب صانع للأقفال كانت قد وقعت في غرامه.

”روح تائهة“ حسب تعبيره الخاص، فبفضل كتابته عن شخصيات أخرى تسكن ذاته، استطاع بيسوا أن يسافر من شخصية إلى أخرى، وأن يعيش عوالم مختلفة عن طريق بناء هذا المشهد داخل نفسه وخارجها: ”إني أضع روحي خارج ذاتي“ قال هذا بيسوا الذي استطاع أن يفرض رهان ”الإحساس بكل شيء ومختلف الطرق“. غير أنه كان يعلم مسبقا بأنه ”سوف ينقصه دواما شيء ما، كأس، نسمة، جملة، وأنه كلما تمتعنا بالحياة واكتشفناها، كانت هذه الحياة قاسية.“ (Fernando Pessoa: 1988)

إذا أخذنا بعين الاعتبار الفكرة التي يتبناها جيل دولوز والتي تقضي بأن: ”الأدب هو بمثابة استثمار في الصحة، ليس لأن الكاتب يمتلك الكثير من الصحة، بل لأنه يتمتع فقط بالقليل منها لكن بشكل لافت لا يقاوم، حيث اكتسبها مما سمعه أو شاهده من الأمور الكبرى التي كانت تبدو أكبر وأقوى منه وصعب تحملها في الحياة، فمنحته بالرغم من ذلك مستقبلا قويا لا تضمنه البنيات القوية“ (Gilles Deleuze: 1993,14). يمكن لنا أن نفترض بأن الأشياء الكبرى التي صادفت الشاعر بيسوا والتي لا يمكن تنفسها، وأيضا الصدمات العنيفة كانت وراء الانهيار الذاتي: فالجسد الذي يمثل للنص من شأنه أن يعوّض الجسد القار والمستمر والذي يعيق مستقبل الكاتب. ويشكل التعبير اليومي عن الهويات المتعددة والمتناقضة لشخصية بيسوا، فرصة يحاول من خلالها البحث عن وحدته المفقودة. وبالتالي، فعندما يصف الكاتب للآخرين عالمه الداخلي بكل اختلافاته، فإنه بذلك يحاول أن يجد إثباتا لوجوده وحدوده الهوياتية.

ومن هنا تبدو أهمية الإشارة إلى بعض المعطيات المتعلقة بسيرة هذا الشاعر البرتغالي الغامض، والذي كان يعيش يومياته بقناع الموظف البسيط الذي يحمل نظارتين دائريتين وربطة عنق كفراشة، ثم قبعة وبذلة غامقة، فالرتابة التي كانت تغطي على حياته لم تسمح بأن يكون لديه رفيق إنساني أو إيديولوجي أو ديني<sup>3</sup>.

”لم يسبق للأسرة أن كانت هكذا في انسجام زائد“ هكذا صرّح أرموند كيبيير (Armand Guibert) في كتابه فرناندو بيسوا: ”كانت والدة

3 - للمزيد من التفاصيل، الاطلاع على مقال:

Gérard de Cortanze, « Chronologie », Magazine littéraire, n° 291, Fernando Pessoa, Paris, septembre 1991.

الشباب فرناندو التي رأت النور في منطقة جزر الأزور تتقن اللغة الفرنسية، كما كانت تدرس اللغة الإنجليزية على يد المعلم الخاص بولي العهد. كان لديها ذوق كبير في الموسيقى والقراءة، يشاركها فيه زوجها الذي كان يشغل موظفاً في كتابة الدولة وناقداً موسيقياً في جريدة (*Diario de Noticias*). وبالإضافة إلى الخادمتين، كانت هناك الجدة ديونيزيا (*Dionisia*) التي أصيبت بالجنون لدرجة أنها قضت فترات عديدة داخل المصححات العقلية (*Armand Guibert: 1960*). فطفولة فرناندو بيسوا كانت سوداء بسبب مجموعة من الأحداث الدرامية التي عاشها: وفاة الأب جراء إصابته بمرض السل حينما كان عمر الطفل خمس سنوات، موت أخيه في السنة الموالية بسبب العدوى من أبيه، الصمت الذي كان يخيم على المنزل بسبب الحزن والجنون، وأيضا الاقتلاع من الوطن في سن الثامنة في اتجاه إفريقيا الجنوبية حيث رافق والدته التي تزوجت من جديد بالسفير البرتغالي بدير بان داخل المستعمرة الإنجليزية لناطال (*Natal*). فقد شكل هذا الرحيل بالنسبة لبيسوا، صغير أمه، مرحلة جديدة سوف يشعر فيها بأنه يتيم وبعيد عن أمه الحبيبة التي انتزعتها منه زوج جديد وأطفال آخرون (علماً بأن جميع هويات بيسوا المتعددة تعيش نفس اليتيم).

آنذاك تلقى الكاتب تربية صارمة وقاسية. تلقى تعليماً باللغتين الإنجليزية في كل مرحلته. كان تلميذاً متألقاً، فمذكرة قراءته في سن الخامسة عشرة تفصح عن اختيارات مبهرة: بايرون، مولير، فولتير، تولستوي، شوبنهاور، أفلاطون، شكسبير، أرسطو، كيتس، إسبرونسيدا، فونتونيل، شيلي، لكنه لم يستطع بسبب جنسيته البرتغالية أن يستفيد من المنحة الجامعية التي تخصصها مستعمرة ناطال لأفضل طالب. وهكذا ضاع حلم بيسوا في متابعة دراسته بجامعة أو كسفورد أو كامبريدج فقرر العودة إلى البرتغال، وتخلي عن فكرة الجامعة كما رفض مجموعة من عروض العمل المهمة لأنها تفرض التزامات في الوقت لا تتناسب مع إنتاجاته الأدبية. في العام 1908، شرع فرناندو بيسوا الذي كان يبلغ من العمر عشرين عاماً في العمل كمراسل في الخارج لمجموعة من الشركات التجارية، حيث كان يعيش بمفرده داخل غرفة مفروشة. كتب مجموعة من الأبيات الشعرية باللغة الإنجليزية. فلقد كان اللقاء الصادم ببلده الأصلي السبيل الذي مكّنه من استعمال لغته الأم في سياقاته الأدبية. وبعد ذلك بضع سنوات صرّح على لسان شخصية برناردو سواريس (*Bernardo Soares*): موطني هو اللغة البرتغالية.

لقد عاش بيسوا دائما في فنادق متواضعة أو في غرف مكتراة. لم يكن معروفا بالشراهة ولا حتى بالذوق الرفيع. عاش علاقة عاطفية وحيدة جمعته بالكاتبة الإدارية أورفيليا كيروز (Orphélia Queirioz) التي اشتغل معها في شركة للاستيراد والتصدير. لم تدم هذه العلاقة طويلا. فبالرغم من الرسائل الغرامية التي وصفها ألفارو دي كامبوس (Alvaro de Camp) بالمبتذلة، فإن ارتباطهما ببعضهما البعض ظل أفلاطونيا. وهنا نجد أنفسنا أمام لغز مرتبط ببيروس (Eros): فمن بين المفسرين لشخصية بيسوا، نجد قلة فقط من تعمقوا في هذا الجانب الخفي لشاعر مثير على جميع المستويات.

في كتابها طفولة الفن، نلمس نجاعة فكرة سارة كوفمان (Sarah Kofmann) حول ظاهرة الافتتان بالفن وبالكتابة على وجه الخصوص: ”فما عساها أن تكون النفس سوى نص يمثل نص آخر؟ كيف ينسجم نص الكتاب مع نص الحياة؟ أليس نص الكتاب وحده من ينسج تفاصيل حياة الكاتب بناء على ما توحى به تخيلاته؟“ (Sarah Kofman: 1985, 77) غير أن بيسوا ذكر أن كل اسم من الهويات المتعددة مرتبط بدراما (مونولوج درامي)، بحيث تشكل في مجملها دراما أخرى، وبالتالي فكل من قرأ كتاباته على هذا النحو، فإنه يمتلك مفاتيحها.

وبما أن النقاش ظل قائما حول مفتاح كتابة بيسوا، فإننا بدورنا نفترض أن نصوص بيسوا شكلت مخيالاته، وبالتالي حياته أيضا. بتعبير آخر، فإن التسامي عند بيسوا يعبر عن جموح طاقته إلى أعلى درجة من الرغبة الجنسية. فنحن نظن أن هذا الأمر قد يعلل أو يؤكد نوعا من ”البرودة الذكورية“، والتي يشير إليها الشاعر على لسان برناردو سواريس (Bernardo Soares) حينما تحدث عن عدم عجزه عن الشعور بالحب. وفي إطار هذا التقديم الوجيه للهويات المتعددة لفرناندو بيسوا، فإنه حريٌّ بنا أن نقدم بعض المعلومات حول الشخصيات الرئيسية الأربعة<sup>4</sup> مع الإشارة إلى بعض النقاط التي يمكن أن تثير نقاشا فكريا في المستقبل.

4 - العروض التقديمية الموجزة لهذه ”المخلوقات“ الأربعة، بصرف النظر عن مقتطفات من قصائد مختارة، هي في الأساس تجميع لما كتبه أنطونيو تابوتشي عنها في:

*La nostalgie du possible, Sur Pessoa*, Paris, Seuil, 1998, ainsi que dans *Une malle pleine de gens*, op. cit.

## 1 - ألبيرتو كايرو (1869 - 1915)

باعتباره معلما لفرناندو بيسوا ولألفارو دي كامبوس، فإن شخصية ألبيرتو كايرو قضت نحبا جراء إصابتها بداء السل مثل ما حدث بالضبط لوالد بيسوا. ولد في لشبونة لكنه عاش حياته القصيرة في قرية صغيرة تقع وسط البرتغال تدعى ريباتيجو (Ribatejo)، حيث كان يقطن مع عمته الكبرى غير أن سوء حالته الصحية أرغمته على الانسحاب. كانت مجمل كتاباته تدور حول القرية من حارس القطيع إلى مذكرته القصيرة التي تحمل عنوان الراعي الولهان<sup>5</sup>. فرجوعه إلى لشبونة كان من أجل أن توفيه المنية بها بعد أن كتب فيها قصائده الأخيرة من ديوان قصائد مفككة. فهذا الشخص الوحيد والمتفرد، الشرس والمتأمل، قضى حياته بعيدا عن الضجيج وعن الروابط العاطفية. حسب وصف بيسوا فهو رجل أشقر وشاحب، متوسط القامة وذو عينين زرقاوين. فالقصائد التي كتبها تصب في الرثاء ويطغى عليها طابع السذاجة. في الواقع ألبيرتو كايرو هو العين التي تشاهد، والسباق لعلم الظواهر الذي سوف يبرز في أوروبا في العقود اللاحقة:

لم يسبق لي أن حرس القطيع  
لكن يبدو لي كأنني حرسها  
فروحي مثل الراعي  
تعرف الشمس والريح  
تمد يدها إلى الفصول  
تتابع وتشاهد  
[...]

أؤمن بالعلم مثل زهرة الربيع  
لأنني أراه، ولا أفكر فيه

ففي التفكير يكون اللافهم. (Alberto Caeiro: 1993, 9-11)

## 2 - ألفارو دي كامبوس (1890م - 1935م)

ولد في منطقة ألكارف بمنطقة تقع جنوب البرتغال بتاريخ 15 أكتوبر من العام 1890م. ومدينة كلاسكو حاز على دبلوم الهندسة البحرية. عاش

<sup>5</sup> - في

*Poèmes païens d'Alberto Caeiro et de Ricardo Reis*, Paris, Christian Bourgeois éditeur, 1989.

في لشبونة دون أن يشغل فيها أية وظيفة. ومن خلال قامته الطويلة، وشعره الأسود والأملس المفروق جانبا، وأيضا هيئته المتكبرة وهو يرتدي نظارته أحادية الزجاج، فإن ألفارو دي كامبوس يجسد نموذجا للشخص التقدمي، بورجوازي ولابورجوازي في آن واحد، مستفز وراق، مندفع وكثير القلق والتوتر. فعلى ما يبدو أنه عاش عاطفة مثلية جعلت من دخوله إلى حياة بيسوا دافعا إلى هدم علاقته مع أورفيليا Orphélia.

لقد خاض دي كامبوس غمار رحلة إلى الشرق عبر المحيط الأطلسي، وخصّص لها قصيدة "أوبياريوم" التي نشرها في تاريخ مغلوط. تميزت القصيدة بنوع من الغندرة والنقد العقيم والفاشل من خلال بعض التيمات كالسفر عبر المحيط والأفيون والغرائب. وبعد بضعة أشهر، وقع دي كامبوس "أنشودة النصر" والتي أصبحت بيانا للحدث البرتغالية.

أصبحت شخصية دي كامبوس تتميز بإفراط في العاطفة وتأرجح في المزاج: ينتقل من الغبطة الفائقة إلى الخمول المطلق. فهو لا يجسد في هذا الصدد سوى الهستيريا التي كان يعاني منها بيسوا، والتي تُعد السبب القاطع في تقمصه لمجموعة من الشخصيات: "لقد وضعت في [...] ألفارو دي كامبوس كل المشاعر التي لم أهبها لا لنفسني ولا للحياة" (نفسه). يختلق دي كامبوس الأوجاع الحقيقية التي يكابدها بيسوا وأيضا الأفراح التي ينشدها. فمن خلال بناء شخصية دي كامبوس، يعمد بيسوا إلى تصحيح شكله وجعله أكثر أناقة، بل أيضا حياته كلها التي تكتسي أهمية أكبر. فعلى منوال بيسوا، يبدو دي كامبوس حيويا في المرحلة الحداثية، بينما منكسرا بعد ذلك. قام بالتنسيق والحجز بشكل سري مع مجلة برينسنسا (Prensensa) التي تمثل الطليعة الثانية داخل البرتغال (المدعومة بالاستبطان البروستي وبنهج جيد (Gide) وبيرانديلو (Pirandello))، حيث نشر أكبر قصائده التي تدور حول الغياب والعدمية: "الحاشية / 1929م"، "عيد الميلاد / 1930م"، "مكتب التبغ / 1933م"، وهي القصيدة التي اعتبرت من أجمل قصائد القرن.

وفي قصائد مرحلة النضج، يخبرنا دي كامبوس برفضه للواقع البراغماتي، وفي المقابل بحفاوته بالحلم والرغبة وحرية الإبداع. فهو يعي جيدا

6 - "لا أعرف ما إذا كنت مجرد حالة هستيرية، أو بالأحرى ضعف عصبي هستيري. إنني أميل إلى هذه الفرضية الثانية، لأنني أعرف مظاهر عجز الإرادة التي لا تدخل الهستيريا نفسها ضمن أعراضها." ضمن: *Lettre de Fernando Pessoa à Adolfo Casais Monteiro, du 13 janvier 1935, transcrit par A. Tabucchi, dans Une malle pleine de gens, op. cit., p. 145.*

بأن السعادة موجودة أمامنا وخارج ذواتنا: وهو يشعر أيضا بالحنين للآخر غير الموجود والقادر على أن يكون سعيدا. يُجسّد دي كامبوس الوعي بالفشل ورفض الخيال، وسخرية اليأس:

أنا اليوم في حيرة مثل ذلك الشخص الذي فكّر ووجد، ثم نسي  
أنا اليوم منقسم بين الوفاء الذي أدين به  
إلى مكتب التبغ الذي يوجد أمامي بواقعيته الخارجية  
وبين إحساسي بأن كل شيء حلم بواقعيته الداخلية  
لقد خسرت كل شيء  
بما أنني لم أرسم أي هدف، ربما لأن الكل لم يكن أي شيء.  
إنها التربية التي تلقيتها.

خرجت من النافذة خلف المنزل  
ذهبت إلى القرية وكنت قد رسمت أهدافا كبرى.  
لكنني لم أصادف سوى العشب والأشجار  
وأشخاصا صادفتهم يبدوون مثل كل البشر.  
[...]

لا، أنا لا أثق في نفسي  
في جميع الملاجئ، هناك مجانين يحملون الكثير من اليقين  
وأنا الذي لا أحمل أي يقين، فهل أنا على صواب؟  
بلى، فهو لا يوجد حتى بداخلي<sup>7</sup>.

في السنوات الأخيرة من حياة كامبوس عندما كان يعاني من زكام شديد  
(Fernando Pessoa:1988,225) ، انعدمت لديه الإرادة التي أنهكها تعب الحياة:

أنا لا أنام، ولا أرغب في النوم  
وحتى في الموت، لا أرغب في النوم  
[...]

7 - مقتطف من:

«Le bureau de tabac», dans *Poésies et proses d'Álvares de Campos*, publiées du vivant de Fernando Pessoa, Paris, La Différence, 1989, p. 159.

كم الساعة؟ لا أدري  
لا أمتلك القوة لأنظر إلى الساعة  
لم أعد أقوى على شيء، على أي شيء (نفسه، 208-207).

توفي ألفارو دي كامبوس بلشبونة في الثلاثين من نوفمبر عام 1935م في نفس اليوم ونفس السنة التي توفي فيها بيسوا. فهو الشخص الوحيد الذي رافقه إلى مثواه الأخير.

### 3- ريكاردو ريس (1887م -؟م)

ولد بمدينة بورتو بتاريخ 19 شتنبر من العام 1887م، حيث تلقى تكوينه اليوناني واللاتيني بالمدرسة الكاثوليكية. كان طبيبا لكننا لا ندري إن كان يمتحن الطب من أجل قوت يومه. ومنذ 1919م، نُفي ريكاردو ريس إلى البرازيل طواعية ودون رجعة، وذلك بسبب توجهاته الملكية خصوصا بعد الإعلان عن جمهورية البرتغال الأولى.

يعتبر ريكاردو ريس من الشعراء الماديين والكلاسيكيين الجدد، حيث تميزت اختياراته بالتخلي العاطفي. تأثر بالوثنية الجديدة المتبصرة لوالتر باتر (Walter Pater)، وأيضا بالكلاسيكية المجردة التي افتتن بها أصحاب التيار الطبيعي وبعض العلماء الأنكلوساكسونيين في نهاية القرن. ويمكن القول إن المثالية بالنسبة لريكاردو ريس هي الزمن المتوقف، العالم الجامد الذي لا يندثر. لقد اختار ريس ألا يختار حينما استسلم لإرادة القوى المجهولة. غير أنه استنادا لفكرة طابوشي، فإن ريس: ”من خلال بحثه عن اللحظة المطلقة والجمود الأدبي، يجد نفسه خاضعا لمسار [...] التطهير الجذري. فهو يقتل ميكروبات الزمن، ثم يستمر في المشاهدة من خلف زجاج بذلته المائية بقية البكتيريا التي حاول أن يتفادى قتلها. تُسمى هذه البكتيريا الحياة التي رفض ريس أن يعيشها“ (Antonio Tabucchi: 1998, 36)، والتي من أجلها أصبح يشعر في السر (Fernando Pessoa: 1988, 158) بنوع من الحنين القاسي، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار بعض قصائده.

### 4- برناردو سواريس

نحن نجهل التاريخ الحقيقي المتعلق بميلاده وبوفاته. عاش حياة بسيطة يمكن القول إنها تجسيد باهت لشخصيته. اشتغل كمساعد محاسب في إحدى شركات الاستيراد والتصدير للأقمشة بلشبونة. كل الأسباب تجعلنا نعتقد،



حسب ما أظهره الكاتب، بأن يبسوا المجرد من التفكير المنطقي ومن العاطفة سوف يتجسد قبل كل شيء في مرحلة الملاحظة. قدم يبسوا برناردو سواريس بالقرب من النافذة بغية المشاهدة.

كتاب اللاطمأينة الذي ألفه سواريس في الفترة ما بين 1913م و1935م، والذي يضم مجموعة من الأفكار والأمثال والحكم، هو عبارة عن مذكرات لما أسماه "داء سر الحياة". فالنظرة التي تخيم على الكتاب تشكل في آن واحد فهما وتغيرا لمعطيات التجربة: فكل ما يقع خارج الأنا والأنا يدعمه، ما هو سوى العالم الخارجي الذي يتحول داخل هذا الأنا. وبما أن كتاب سواريس لا يواكب الحياة اليومية، فإنه يعتمد أسلوبا متواضعا وهمسا ينسجم مع الشخصية التي يمثلها.

تعرف يبسوا على برناردو سواريس داخل مطعم صغير كان يدعى "ببسوا"، حيث تحدث له أثناء وجبة العشاء عن مشروعه الأدبي. فبفضل هذه الشخصية المتواضعة اجتماعيا الغنية بروحها، نالت لشبونة رمز مدينة الأدب خلال القرن، وذلك على منوال مدينة براغ لكافكا. فهذه المدينة حبلت بالأسرار لأن كاتبها أودع داخل ربوعها سر الوجود.

ومع ذلك، فإنه من خلال اطلعنا على شبه الاسم المستعار لبرناردو سواريس وأجزاء مؤلفه كتاب اللاطمأينة، فإننا نكتشف مسبقا الأسس الموضوعية والذاتية لنفي الحب، والتي يتقاسمها مع يبسوا<sup>8</sup>. وفي الواقع، بعد المسئلة التي تفيد أن: "الإنسان يحس أنه بإحساسه يشكل اثنين"، فإن مضمون الشذرة 273 يبدو مفروضا في السياق: "كل منا نحن الاثنين هو اثنان، فعندما يلتقي شخصان ويتقاربان ويرتبطان، فإنه من النادر أن يتفق الأربعة فيما بينهم". في سياق آخر (الشذرة 416)، يقول سواريس:

"نحن لا نحب أبدا أي شخص ما، بل نحب ببساطة الفكرة التي نكونها عن أحد الأشخاص [...] حقا إن الاستمناء مسألة دنيئة، لكن تبقى في الواقع التعبير الجيد والواقعي للمُحب. فهي الطريقة الواحدة الخالية من التقليد والخداع."

وفي الشذرة 438، تبرز من جديد هذه الفكرة وبشكل أقوى:

8 - أنظر مقال

Manuel dos Santos Jorge, «L'amour à l'épreuve», Latitudes, n° 4, Paris, décembre 1998, p. 11-18.

”نبذوا متفاهمين لأننا نتجاهل بعضنا البعض [...] كل المتزوجين في العالم مرتبطون بشكل سيء، لأن كل واحد يختزن في نفسه [...] صورة الرجل المعشوق الذي لا يوجد له أثر، صورة المرأة الراقية التي لم تكن كذلك“.

فالإيمان بأن ”الحب إشباع وإحباط“ وبأن ”الإحساس دون تملك يعني الحفاظ“، يبدو جلياً في جل صفحات الكتاب: ”تملك الجسد شيء مبتذل“ (الشذرة 260)، أو ”الحب هو أن تتعب في وحدتك: هذا جبن وخيانة لذواتنا“ (حري بنا ألا نقع في الحب بتاتا/ الشذرة 453).

صحيح أن بيسوا اعترف منذ 1915م لوالته ويتمان (Walt Whitman): ”أرغب أن أعيش طليقاً في الهواء. أريد أن أتحرّك خارج جسدي [...] لا أريد قفلاً للأبواب“. وهنا هاجس الحرية يتماشى مع أفكار برناردو سواريس: ”العقيدة، المثالية، المرأة أو العمل، كلها أمور تعني الزنانة والأصفاد. فالوجود يعني أن تكون حراً“ (الشذرة 414). ومن هنا، يمكن أن نفترض بأن الحرية التي تقتضي، حسب الشاعر، العزلة وممارسة الجنس بالشكل الطبيعي المعروف، تم كتبها من قبل بيسوا من خلال رقابة قوية بحيث جعلها أقوى من ذلك بفضل الارتقاء بالفن.

هناك أمر آخر جدير بالاهتمام. كما سبق لنا الإشارة، فإن اللغة البرتغالية هي اللغة الأم لفرناندو بيسوا. فقد ألف أول قصيدة له في سن السادسة بهذه اللغة ثم أهداها إلى والدته: ”إلى أمي“. وعند بلوغه ثمان سنوات، تعلم اللغة الإنجليزية وذلك للاندماج في البيئة المحيطة به. وقد أشار روبير بريشون (Robert Bréchon) بأن: ”اللغة الثانية تبقى بالنسبة إليه لغة للتعبير الفكري، لغة التطور، وهي مخصصة للكتابة بكل ما تحمله من ضباية.“ (Robert Bréchon: 1991, 34). كان بيسوا خجولاً للغاية في اتصاله الجسدي بالآخرين، ربما بسبب رغبته في تفادي أي علاقة جنسية يخشاها ويعتبرها ضرباً من الجنون. لقد كان الفضل للغة الإنجليزية في رفع هذه المنوعات جزئياً، على الأقل بالنسبة للغة الشعرية. فكأن الشاعر تعدد هوياته باللغة الإنجليزية. هذه اللغة التي، وإن لم تربطه بها أصرة الجسد والوطن، فإنه تعمد أن ييوح بواسطتها عن غير عادة وبكل صدق عن كل ما يخالجه نفسه. وعن القصيدتين الفاحشتين اللتين كتبتهما سنة 1918م و1921م، يقول بتعبيره:

”هناك قصيدتان فقط يمكن تصنيفهما ضمن الشعر الفاحش: ”أنتينوس“ و”إيتالام“<sup>9</sup>. في الواقع، كل منا يحمل في داخله جانبا من هذا الشعر يختلف من شخص لآخر، وذلك مهما حاولنا أن نتعد في تخصصنا عن الغوص في ثناياه. وبما أن هذا الأمر قد يشكل إزعاجا للعقول الراقية، قررت إقصاءهما بنفس الطريقة البسيطة التي تجعلني أعبر عنهما بقوة“<sup>10</sup>.

حسب روبر بريشون، فإن خصوصية هاتين القصيدتين مقارنة مع بقية الكتابات الأخرى، تكمن في أن الشاعر يرغم نفسه على الرؤية المباشرة للمشهد الذي تسبب في انهياره خارج إطار الطفولة، والذي كان مصدرا لشعوره بالذنب. هذا المشهد الذي ألهمه وأرهبه في آن واحد، والذي، حسب تعبير إدواردو لورونسو (Eduardo Lourenço): ”لم يستطع بيسوا إدماجه ضمن صورته الخاصة الخالدة“<sup>11</sup>، تم إدراجه بشكل مختلف في القصيدتين. بالنسبة لقصيدة ”أنتينوس“، ذكر المشهد بصيغة الزمن الماضي في إطار علاقة مثلية راقية تشيد بالعلاقات الجنسية الغيرية في اليونان. أما قصيدة ”إيتالام“، فقد صيغت في زمن المستقبل بأسلوب فظ، والتي تعبر، حسب الشاعر، عن الحب الغيري لدى اللاتينيين. وهنا يبدو الفعل الشهواني سليما ومفعما بالسعادة. أما الأمر المومئ فهو المسكوت عنه في القصيدتين: الرغبة التي لم تتحقق، والهواجس التي توحي بالضعف الكلي. بريشون يدافع عن الفكرة التي تفيد أن: ”القصيدتين الجنسيين باللغة الانجليزية تخفيان السر الذي يخنق أنفاس بيسوا، لكن على شاكلة ”الرسالة الطائرة“ لبو (Poe): لكثرة تسليط الضوء عليه، يمكننا أن نعثر عليه“. (Robert Bréchon: 1991, 35)

وفي المقابل، فإن شعر بيسوا باللغة البرتغالية عفيف بشكل لا يصدق. وبهذا، فإن تيمة المثلية الجنسية تظهر جليا مع هويته المستعارة ألفارو دي كامبوس، والذي كان أكثر شخصية مزجت بقوة بين المخيال والحياة الواقعية للكاتب (والتي قال عنها بيسوا كما أشرنا سابقا: ”لقد وضعت في [...] ألفارو دي كامبوس كل المشاعر التي لم أهبها لا لنفسني ولا للحياة“). يعترف دي

9 - في:

*Le violon enchanté, écrits anglais de F. Pessoa (vers et prose), dans Œuvres complètes de Fernando Pessoa, t. VIII, éd. bilingue pour la poésie, Paris, Christian Bougois éditeur, 1992.*

10 - مقتطف من:

*La lettre adressée par Pessoa à João Gaspar Simões, en novembre 1930, repris par Gérard de Cortanze dans « Chronologie », art. cit., p. 22.*

11 - Cité par Robert Bréchon, « Le masque et l'aveu: l'œuvre anglaise », art. cit., p. 35

كامبوس بحبه المثلي لمراهق نُجهل اسمه (قصيدة قديمة<sup>12</sup> 1922م). وفي "قصيدة البحر" (نفسه، 115-63) التي تتكون من ثلاثة وخمسين صفحة، والمنشورة في العام 1915م، حاول دي كامبوس التخفيف من رغبته المفرطة والمنحرفة، حيث نجد صرخات جامحة ومثيرة للشفقة لا توجد إلا في لغة بيسوا، تمتزج فيها الرغبات المازوشية والسادية التي يصعب الإفصاح عنها. وهنا يمكن لنا أن نسجل مقطعاً صغيراً، لكنه يشكل بالنسبة لبعض النقاد "تجربة شعرية شاملة":

“ هناك نسيم غامض

لكن روحي مع الأشياء القليلة التي أراها

مع السفينة التي تدخل

لأنه مع المسافة، مع الصباح

مع شكل البحر في ذات الوقت

مع العذوبة المؤلمة التي تعتريني مثل الغثيان

مثل بداية دوار البحر، لكنه أصاب فكري

[...]

أووووووو-إيبي

أيها الشراع أوووووووو-إيبي

[...]

إرحل كيفما كان وحيثما كان

[...]

جسدي كله يندفع إلى الأمام

[...]

أنتم يا ربابنة السفن! أيها الرجال الموجودون على دفة وأعمدة القيادة!

أيها الرجال الذين تنامون على الأسرة الخشنة

أيها الرجال الذين ترقدون مع الخطر الذي يطل عليكم من النوافذ

أيها الرجال الذين تتخذون من الموت وسادة لكم

[...]

12 - Dans *Poésies et proses d'Álvaro de Campos*, publiées du vivant de Fernando Pessoa, op. cit., p. 117.

إيه إيه إيه! إيه إيه إيه! إيه إيه إيه إيه إيه إيه إيه!

إيه لا هو لا هو - لاها لاها

[...]

أريد أن أذهب وإياكم

[...]

نعم، نعم، نعم اصلبوني في الملاحه

وخواطري سوف تستمتع بصليبي!

اربطوني في الأسفار على آلة التعذيب والجلد،

وسوف أستسلم لشعور ضربات الجلاد التي تخترقني

سوف أشعر بها في رعشة جامدة!

[...]

اقتلعوا جلدي وسمّروه على الدبابيس

لعلي أشعر بألم المسامير، ولن أتوقف أبدا عن الشعور به.

[...]

اجلدوني على الأعمدة، اجلدوني!

[...]

أيها القراصنة، القراصنة، القراصنة

أيها القراصنة، اعشقوني وابغضوني!

[...]

هناك سمفونية من المشاعر المتناقضة والمتشابهة،

هناك تناغم لصخب الجرائم في دمي

[...]

يوجد في جسدي الجامد المرأة - كل النساء

اللواتي اغتصبن، قُتلن، جُرْحن وقُطعن من قبل القراصنة!

[...]

إيه إيه إيه! إيه إيه إيه! إيه إيه إيه إيه إيه إيه!

إيه لا هو لا هو - لاها لاها

أووووووو-إيبي

أيها الشراع أوووووووو-إيبي

داربي كراوو-أو-أو-أو-أو-أو-أو!

داربي كراوو-أو-أو-أو-أو-أو-أو!

احضر الغررررقة، داربي!

إيه إيه إيه! إيه إيه إيه! إيه إيه إيه إيه إيه إيه!

إيه إيه إيه! إيه إيه إيه! إيه إيه إيه إيه إيه إيه!

إيه إيه إيه! إيه إيه إيه! إيه إيه إيه إيه إيه إيه!

إيه إيه إيه! إيه إيه إيه! إيه إيه إيه إيه إيه إيه!

شيء ما ينكسر بداخلي، أصبر اللون الأحمر داكن

لقد شعرت كثيرا لأستمر في الشعور

روحي مرهقة، ولم يتبق سوى صدى واحد في أعماقي

[...]

لا يوجد داخل أعماقي سوى فراغ، صحراء، بحر ليلي

[...]

آه! كيف استطعت أن أشعر وأحلام بهذه الأشياء؟

كيف أنني الآن عما كنت فيه قبل قليل؟

هستيريا من المشاعر - تارة هذه وتارة أخرى مناقضة!

[...]

آه! طفولتي الماضية، لعبتي التي كُسرت

غير قادر على السفر إلى الماضي، ذلك البيت، ذلك الحنان

أمكث هناك للأبد، طفلا للأبد، سعيدا للأبد!

كان كل هذا من الماضي، فانوس في زاوية شارع قديم،

والتفكير فيه يشعرنني بالبرد وبالجوع من أجل شيء لا يمكن الحصول عليه

أشعر بالندم الممزوج بالعبث بسبب التفكير فيه

آه! دوامة بطيئة من المشاعر المتنافرة!

[...].“

في غمرة وحمى الإحساس، ينجرف دي كامبوس-بيسوا في سمفونية من المشاعر المتناقضة والمتشابهة متجاهلا وجود أي رقابة إلى غاية فتور الصخب وتعب الروح: اصطدم بحدود الزمكان التي لا تتطابق مع رغبته المطلقة، وذلك لأنه نفسه دي كامبوس الذي يهتف في قصيدة "مكتب التبغ" (نفسه، 157-167):

"أنا لست شيئا  
ولن أكون شيئا أبدا  
ولا أستطيع أن أحلم بأن أكون شيئا  
ما عدا هذا، أختزن بداخلي كل أحلام العالم."

فإذا رجعنا إلى الشابة الحدباء ماريا خوصي (Maria José) الهوية المستعارة للشاعر، فهي أيضا تقول: "أنا لست رجلا ولا امرأة [...] لا شيء، فقط أنا نوع من الأشخاص". على العموم، هي تعلن نفسها من الجنس المحايد، وهو النوع الذي يصيب بيسوا بالهوس، حيث يراه حلا للمولود البئس من جنسين مختلفين.

بفضل هوياته المستعارة، استطاع بيسوا أن يخلق في الزمان والمكان فضاء منسجما مع حاجته أن "يكون كل شيء" وأن "يحس بكل شيء"، مجيبا بذلك على التساؤل الذي يطرحه ألفارو دي كامبوس في "وداع والت ويتمان":

"كيف يمكن أن نعيش كل الحيوانات وكل الأزمنة  
وكل أشكال الشكل  
وكل حركات الحركة؟"

يتضح لنا أن حاجة الشاعر الملحة في زيادة شخصياته تترجم السباق المحموم نحو أقصى حد للاكتفاء الذاتي، وهو الشرط الضروري لتحقيق السعادة، سعادة توجد دائما في مكان آخر، في الأمام، أو لدى صاحب "مكتب التبغ"، أو المدعو استيف (Esteve) الذي لا يؤمن بالميتافيزيقا. فأن تكون شخصا آخر دون أن تتخلى عن شخصك هو أمر ينطبق على الأقوال المأثورة لبرناردو سواريس: "التنحي عن الحياة من أجل عدم التنحي عن النفس." (الشذرة 264). فقوة الفن تساعد على النجاح في التخلص من القيود التي تضع حدودا للجسد، ونبد شهوات الجسد حتى لا يغزوه الآخرون وأيضا مقاومة الهشاشة التي تطبع كل الأشياء الموجودة داخل كل الأشخاص، الشيء الذي يعني

الوصول إلى درجة عليا من الحرية، وبالتالي السعادة المثالية. أن "تكون لا أحد" يعني أنك "كل شيء"، مثل ما شعر بذلك ريكاردو ريس:

"من يكرهنا أو يحسدنا ليس هو الوحيد  
من يحاصرنا أو يضطهدنا، لأنه من يحبنا  
لا يضع لنا حدودا على الأقل  
لعل الآلهة تمنحني بعد تجردني من نبض القلب،  
الحرية الباردة للقمم دون أن أفعل شيئا  
من يحلم قليلا يربح كل شيء، ومن لا يرغب في شيء  
هو شخص حر، ومن لا يمتلك شيئا ولا يرغب في شيء  
إنسان، متساوٍ مع الآلهة."<sup>13</sup>

استطاع بيسوا الموظف الإداري البسيط والمنتج للعوالم المتعددة، في مطلع القرن العشرين، أن يتوقع شروط عيش الإنسان الحديث. فيفضل الحدس الذي كان لديه تجاه الفقر والكذب الملازم لكل تجربة تقر بأن-كل شيء مبعر، ولم يعد هناك شيء كامل-، لم يتوان بيسوا، من خلال كتاباته، عن إبراز الثروة التي لا تقدر في إمكانية التعايش بين مختلف اللانهايات. بتعبير آخر، قد يكون الشاعر استبق لاكان (Lacan) عندما أكد في مجمل كتاب حياته، بأن المنطق الوحيد هو الذي يؤدي إلى التناقضات الكبرى.

وفي إشارته إلى العقلانية التي ميزت كتابات بيسوا، يذكر طابوشي: "لا توجد هناك أية حالة علاجية يمكننا اكتشافها في الأسماء المتعددة لبيسوا، لا شيء سوى حالة جنون بسيطة (31- 1998 Antonio Tabucchi)، - غير أن الأدب لا يعدو أن يكون سوى جنون بسيط. كل شخصية مستعارة حسب التفسير البيسوي، هي "شخصية متناقضة، تدعمها حوافز معقدة ومسارات نفسية متشابكة وأيضا مصادر ثقافية متنوعة." (نفسه، 44) الجنون إذن خارج العمل الأدبي- والذي قد تعافى مسبقا (نفسه، 30). فما عسانا أن نقول إذن في الذي قال في "علم النفس الذاتي":

"التظاهر هو ميزة الشاعر"

يتظاهر كليا

13 - Dans Poèmes païens d'Alberto Caeiro et de Ricardo Reis, op. cit., p. 232.



بأنه تمكن من أن يُظهر بأن الألم  
هو الألم الحقيقي الذي يشعر به.

فهل نجح بيسوا من منظور فرويد في تحليله للعمل الأدبي أن يبقى النقاش  
مفتوحاً على غرار كتاباته؟

### Bibliographie

- Besse, Maria Graciete, «Fernando Pessoa/Maria José e a encenação do feminino», *Latitudes* n° 4, déc. 1998.
- Bréchon, Robert, « Le masque et l'aveu: l'œuvre anglaise », *Magazine littéraire*, n° 291, Fernando Pessoa, Paris, septembre 1991.
- Caeiro, Alberto, extrait du *Gardeur de troupeaux*, Le Muy, éditions Unes, 1993
- Caeiro, Alberto, *Poèmes païens d'Alberto Caeiro et de Ricardo Reis*, Paris, Christian Bourgois éditeur, 1989.
- Campos, Álvaro de, *Œuvres poétiques*, dans *Œuvres complètes de Fernando Pessoa*, t. IV, Paris, Christian Bourgois éditeur, 1988.
- Cortanze, Gérard de, « Chronologie », *Magazine littéraire*, n° 291, Fernando Pessoa, Paris, septembre 1991.
- Deleuze, Gilles, *Critique et clinique*, Paris, éditions de Minuit, 1993.
- Guibert, Armand, *Fernando Pessoa*, Paris, éd. Seghers, 1960.
- Kofman, Sarah, *L'enfance de l'art, Une interprétation de l'esthétique freudienne*, Paris, Galilée, 1985
- Jorge, Manuel dos Santos, «L'amour à l'épreuve», *Latitudes*, n° 4, Paris, décembre 1998.
- Lopes, Teresa Rita, *Pessoa por conhecer – Roteiro para uma expedição*, Lisboa, ed. Estampa, 1990.
- Pessoa, Fernando «Le bureau de tabac», dans *Poésies et proses d'Álvaro de Campos*, publiées du vivant de Fernando Pessoa, Paris, *La Différence*, 1989
- Pessoa, Fernando, *Le violon enchanté*, écrits anglais de F. Pessoa (vers et prose), dans *Œuvres complètes de Fernando Pessoa*, t. VIII, éd. bilingue pour la poésie, Paris, Christian Bougois éditeur, 1992.
- Pessoa, Fernando, *Pessoa en personne, Lettres et documents*, Paris, La Différence, 1986.
- Soares, Bernardo, *Le livre de l'intranquillité*, traduction de O Livro do

Desassossego par F. Laye, dans *Œuvres complètes de Fernando Pessoa*, t. III, Paris, Christian Bourgois éditeur, 1988.

- Tabucchi, Antonio, *La nostalgie du possible, Sur Pessoa*, Paris, Seuil, 1998.

- Tabucchi, Antonio, *Une malle pleine de gens*, Paris, Christian Bourgois éditeur, 1998.

### **Petite bibliographie supplémentaire**

BRÉCHON, R., *Étrange étranger: une biographie de Fernando Pessoa*, Paris, Christian Bourgois, 1996.

BRÉCHON, R., *L'innombrable: un tombeau pour Fernando Pessoa*, Paris, Christian Bourgois, 2001.

BRÉCHON, R. , *Fernando Pessoa: le voyageur immobile*, Paris, éd. Aden, 2002.

LAYE, Françoise., *Pessoa: un singulier regard*, Paris, Christian Bourgois, 2005.



## المسافر وأقنعتة:

### حالة السويديين عند جون بيير كروسلي \*

أنطوان إيشي

ترجمة محمد العافية العروسي<sup>1</sup>

ملخص :

يحاول أنطوان إيشي في هذا المقال أن يرصد الدوافع التي تجعل الرحالة -الكاتب يخفي هويته خلال رحلته أو بعد نشر نص محكي سفره. لهذه الغاية يقترح دراسة حالة محكي جون بيير كروسلي: ملاحظات حول إيطاليا والإيطاليين كما يرويها سيدان سويديان، وهو النص الذي ترجم من السويدية إلى الفرنسية ونشر سنة 1764؛ وذلك بالتركيز على مسألة تلقي النص من قبل القارئ في حالة اختيار الكاتب لاسم مستعار أو المصدر المجهول. يحلل الباحث في البداية مسألة التواطؤ والتلاعب، على اعتبار أنهما قاعدتان مهمتان في الكتابة وحيث يصبح القناع مكوناً أساسياً لأفق انتظار القارئ. يكشف الباحث بعد ذلك عن صورة القناع السويدي في الكتابات الصحفية، ثم يرصد كيف تم تلقي أعماله الأخرى قبل أن يعرض الجوانب الإيجابية والسلبية في استعمال القناع وكذا نظرة الكاتب نفسه حول إبداعاته. في نهاية تحليله يتساءل الباحث عن جدوى التخفي في كل أشكاله وخصوصاً في النص، موضوع المقال، والذي لا يعرض كاتبه للخطر، عكس معاصريه من الكتاب والفلاسفة الذين يتجنبون الرقابة والمنع.

**الكلمات المفتاح:** القناع السويدي، الرحلة الإيطالية، المسافر، التخفي، الاسم المستعار، التلقي، المصدر المجهول، الصحافة.

\* Antoine Eche, "Le voyageur et ses masques: l'exemple des Suédois de Pierre-Jean Grosley", *Convergences francophones*, Mount Royal University; Calgary, Alberta, 5.1 (2017): 19-36.

1 - محمد العافية العروسي، باحث ومترجم. ترجم العديد من النصوص والمقالات، نذكر منها: سفارة لويس الرابع عشر إلى المولى إسماعيل، بيدو دو سانت ألون (كراس المتوحد) و (Procès et politique au Maroc, IsmaelJbari) (co-traduction - Afrique Orient).

## Abstract:

In this article, Antoine Eche attempts to elucidate the motives that lead the writer-traveller to conceal his identity during the journey to a foreign country, and also after publication of the travel narrative. He therefore proposes to analyse the case of Pierre-Jean Grosley's account: *Observation sur l'Italie et les italiens*, by two Swedish gentlemen, translated from Swedish into French and published in 1764, by exploring in particular the relationship that the use of a pseudonym or anonymity establishes between the reader and the narrative. He thus examines the question of manipulation and connivance, which are the norm in writing and where the mask would be part of the reader's horizon of expectations. Further, the author examines the image of the Swedish mask in the press of the time, in which the decentration of the Swedish gaze is emphasized. Then he reports on his various publications and their reception, before drawing up the positive and negative aspects of the use of the mask, as well as the author's own point of view on his production. Finally, the researcher questions the usefulness of concealment in all its forms and especially in this narrative, which after publication does not put its author in danger, unlike his contemporaries, who sought to escape censorship.

**Key words:** The Swedish mask, travel in Italy, The traveler, concealment, pseudonym, reception, anonymity, the press.

يبدو أن العلاقة التي تجمع بين القناع، كوسيلة لإخفاء الهوية<sup>2</sup>، والمسافر لأمر بديهي. لدينا أمثلة شهيرة وعديدة لمسافرين مشهورين اختاروا تقنية القناع: رجوع عوليس إلى إيطاكا (Ithaque)، رحلة رونيكاياي إلى تومبوكتو، أو رحلة ألكسندرا دافيد نييل إلى لاسا إنخ<sup>3</sup>. وغايات تلك الرحلات متعددة أيضا: من أسطورة الداهية عوليس، الذي سعى إلى استتباب الأمن في مدينة إيطاكا إلى خدع الرحالة الباحثين عن معلومات جديدة، فإن هذا النطاق يبدو

2 – تلاحظ سيلفي شتاينبرغ أن معجم Trévoux يميز بين أن 'تكون مقنعا' / être masqué و 'التخفي' / se déguiser (2001-VII)، لكن طبعة لورين (1738 – 1742) الرقمية تقدم الكلمتين كمرادفين ومع ذلك فإن هذا التمييز ليس واضحا في طبعات نفس قاموس يرجع تاريخه إلى النصف الأول من القرن الثامن عشر، يطرح المصطلحين كمرادفين: "التألق... أن تتنكر بملابس أخرى، أن تتخفي".

(<<http://www.cnrtl.fr/dictionnaires/anciens/trevoux/lorraine.php>>).

يبدو أن النسخة التي استخدمها شتاينبرغ (لم تتم الإشارة إليها) هي طبعة (Paris, Compagnie des Libraires associés, vol.8, 163) نفس الإصدار يؤكد مرادف، في المدخل "مقنع" (المجلد 5، 872)، ولكنه يميز بين "تغطية نفسك بوجه مزيف" و "تغيير الزينة العادية". حيث تهدف كلتا العمليتين إلى إخفاء الهوية الأصلية من أجل تقديم أخرى مزيفة، ومع ذلك سنستخدم هذه المصطلحات على أساس أنها مترادفات.

3 – خلال ندوة الرحلة المجهولة (خريف 2016) لاحظ المنظمون وجود هذا الموضوع المكرس في أدب الرحلات. (<[http://www.fabula.org/actualites/identites-dissimulees-le-voyage-anonyme-dans-les-societes-anciennes-et-modernes\\_72880.php](http://www.fabula.org/actualites/identites-dissimulees-le-voyage-anonyme-dans-les-societes-anciennes-et-modernes_72880.php)>).

واسعا. خصوصا أن كل رحالة يعتبر كتوما حسب ما ذهب إليه جون ديديي أوربان الذي يرى أن الرحالة الذي يروي رحلته يتمثل نفسه مقنعا.

لكن من الضروري الرجوع إلى تلك العلاقة، لأنه يبدو أن اهتمام النقد ينصب أكثر على حالة الرحالة الرواة الذين يخفون هوياتهم خلال الرحلة، في حين أن الأبحاث التي تهتم بالرحالة الذين يقدمون أنفسهم تحت أسماء مستعارة أو يعمدون إلى نشر نصوص مجهولة المصدر، فلا ترقى لنفس الاهتمام وتبقى صلتهم بالنوع الأول ضعيفة<sup>4</sup>. والواقع أن اختيار الظهور باسم مستعار أو بصيغة المجهول يؤسس لا محالة لعلاقة بين القارئ والقصة وهي العلاقة التي سنتعمق فيها هنا.

من هذه الزاوية سنتطرق لظهور المذكرات الجديدة أو ملاحظات سيدين سويدين حول إيطاليا والإيطاليين سنة 1764. تم تقديم محكي الرحلة هذا في صيغة ترجمة من اللغة السويدية إلى الفرنسية إذ لا نستطيع التعرف بالتحديد على هوية الرحالة، أي المؤلفين المحتملين للمحكي، ولا مترجمه. لا نعثر على الاسم العائلي ولا على الأحرف الأولى للاسم ولا حتى الخطاب المصاحب للنص (عنوان، إهداء، تقديم...) كما لا نجد أي إحالة على مصدر النص، بل فقط "نحن" ضمير الرحالين المتكلمين وأصولهم الجغرافية. لكن القناع يسقط بسرعة: كاتب هذه الرحلة هو بيير جون كروسلي، محامي في مدينة طروادة، متعاطف مع القضية اليانسينية (jansénisme) لكنه صديق للموسوعيين، إذ ساهم في مشروعهم بمقال نشر في موسوعة الأنوار<sup>5</sup>. إذا ما قرأنا مليا مراسلاته (باتريس-دوبروي، جزء الثالث، 414-444 وتروويل سان إيفرون 302-307) وسيرته التقريبية، حياة كروسلي، التي كتب جزءا منها بنفسه وأكمل كتابتها ونشرها الأب مايديو (1758)، فإن نص الرحلة ليس من وحي الخيال لأن كروسلي قد سافر إلى إيطاليا من ماي إلى دجنبر 1758، انطلاقا، ليس من باريس كما فعل السويديين الاثنين ولكن من طروادة رفقة صديق تاجر اسمه السيد

4- هكذا لم يخف الرحالة الذين ذكره أوربان هوياتهم ككتاب. ويبدو أن هذا الصنف من الرحالين هو موضوع الدعوة للمشاركة في الندوة السالفة الذكر. بالنسبة للمنظمين "تغيير الاسم ليس هو التقنية الوحيدة التي يجب اعتبارها في هذا الباب. تحت هذا المسمى "الرحلة المجهولة" نعني مجموعة الحالات المميزة لرحالة اختاروا إخفاء هوياتهم مؤقتا أو على الأقل جزئيا. يتعلق الأمر بمعرفة كيف وبأي دافع وفي أي ظروف يسعى فيها المسافر إلى منع أي معرفة بهويته في البلد الذي يعبره." (مرجع مذكور) في غياب برنامج أو أعمال بحثية، ستستحيل معرفة ما إذا كانت أبحاث متوفرة في الموضوع الذي يهمننا هنا.

5- يتعلق الأمر بمقال "Roise" انظر ملخصا منه في النسخة الإلكترونية معجم الصحافيين (1789-1600): <<http://dictionnaire-journalistes.gazettes.18e.fr/journaliste/368-pierrejean-grosley>>.

بيلي (كروسلي-مايديو 171-151). باستثناء نقطة الانطلاق فإن الملاحظات حول إيطاليا والإيطاليين، تتبع نفس الطريق الذي يتوافق عامة مع الذي تم تتبعه في تلك الفترة (بيرتراند، جزء 18، فصل 3 ن.ب)

ردود الفعل التي تم استقاؤها مع بداية ظهور الصحافة في القرن الثامن عشر تسمح بفهم أفضل للقضايا ونطاق هذه الممارسة لدى نوعية خاصة من القراء "المجادين"، في قرن كان فيه استخدام الأقنعة والتكرار ممارسة اجتماعية شائعة يعكسها المسرح أو تستلهمها الرواية<sup>6</sup>، وحيث نلاحظ أيضا ظهورا متكررا على الساحة العمومية لشخصيات التمويه والتشويه مثل Abbé de Choisy أو Chevalier d'Eon Steinberg). لكن قبل التطرق إلى مسألة القناع السويدي لجون بيير كروسلي، يجب أن نعود في البداية إلى وجهة النظر التي وضعها جان ديديه أوربان، وذلك لتوضيح استخدام مفهوم القناع في علاقته بالمسافر.

### 1 - التلاعب والتواطؤ

من المسلم به في الثقافة الغربية أن المسافر يمارس التخفي والمناورة وذلك على الأقل منذ ظهور كتاب التاريخ الحقيقي للسفر إلى القمر (لوسيان دو ساموزاط). يحيل ساموزاط بطبيعة الحال على عوليس الذي يسافر بلا كلل فيصف الوحوش الغريبة والتحويلات. إذن فمنذ ظهور هذا الجنس أصبح الشك يحوم حول المسافر ونص رحلته على ما يبدو. ولا يستثنى من هذه القاعدة القرن الثامن عشر<sup>7</sup>. ألم يذكر ديدرو في نهاية توطئة كتابه رحلة إلى هولندا<sup>8</sup> الشعار القائل: "رب كذبة تصبح موثوقة حين تأتي من بلاد بعيدة" حتى يتسنى له إلغاءه أو إبداء تحفظه منه؟ في هذا السياق بالذات تبدو لنا إمكانية تحديد ثلاثة أنواع من الأقنعة المختلفة.

وحتى يبرز الرحالون البعد المرجعي والواقعي للحكاية فإن عليهم تكرار ما يثبت ذلك إلى درجة تصبح الصور البلاغية المكرسة في كتابة الرحلة ضامنة لمبدأ عقد القراءة (Gannier 45-59- Ouellet 9-16) وهنا تصبح هوية المسافر

6 - بالإضافة إلى مقال جون جاك تاتان كوربي المنشور في هذا العدد، انظر أيضا:

*Les Décors et les choses dans le roman français au XVIIIe siècle*, Oxford, Voltaire Foundation, 1992, 69-74.

7 - حول هذه المسألة انظر المؤلف المعتمد بيرسي أدامس:

*Travelers and Travel Liars 1660-1800*, [1962], New-York, Dover Publications, 1980.

8 - حول علاقة ديدرو بالمسافرين انظر: (Kovacs 2010).

أساسية. بالنسبة للرحالة فرانسوا ليكا... كل من يتحدث كشاهد، عليه أن يعرف باسمه، كما يقال<sup>9</sup> أما الإخوان شيرشيل، وهما من قاما بتأليف وتجميع محكيات رحلية في بداية القرن الثامن عشر، فيريان أن المعايير التي تضمن جدية المعلومات تركز بشكل كبير على هذه النقطة (Eche 99-100) وهنا تصبح قاعدة عقد القراءة على المحك. أما في حالة ما إذا كان الاسم مستعارا فإن القارئ لا يفطن للإخلال بالعقد إلا إذا سقط القناع: وهنا لا مجال للتواطؤ، عكس الحالات المذكورة سالفا، حيث يتعرف القارئ على تغيير هوية المسافر بينما يهمل باقي المشاركين في الرحلة فيطولهم النسيان. وبخصوص الحكايات المجهولة فإن اختبار الزمن والوقائع يبقى في النهاية السبيل الوحيد للتحقق مما إذا كانت الرحلة واقعية ونمط سرد مكوناتها قائما.<sup>10</sup> لكن ورغم المعرفة المسبقة بهوية الرحالة فإن مسألة التخفي والتعقيم تظل غير مستبعدة من الحكاية. وهي النقطة التي أثارها جون ديديي أوربان:

” نحن نقوم لا محالة بإعادة ترتيب مجريات تجربة سواء أكانت واقعية أم متخيلة، مستقبلية، ماضية أو تخيلية قبل أو بعد أو حتى في الآن نفسه فإننا نعيد ترتيبها، نترجمها ونجربها على قبول برنامج ومعنى ومنطق يعطي للحكاية تناسقا وتسلسلا. هذا ما يعطي للحكاية قوتها، وهي محاكاة تدفعنا غالبا إلى تبني الخطاب الذي ننتظره... (أوربان 87)“

يتمثل هذا التلاعب في تطبيق معيار اجتماعي. بالفعل ففي عالمنا الغربي يخضع سرد الرحلة لمبدأ التصديق: يجب أن تحكمه وظيفة وغاية معينة. وهنا يكمن النموذج الذي تبني (الأخلاق) عليه تجربة التنقل التي تترجمها الكلمات (أوربان 44) وتكرسها بشكل دائم كل إنتاجات فنون وأدبيات الرحلة<sup>11</sup> arsapodemica. وهذا النموذج يقتضي الانتقاء، يعني اختيار أحداث الرحلة التي تستحق أن تحكى، وترك ما لا يجدي وما لا ينفع. إن مغزى الرحلة هو وضع ” نسق خطاب يعمل على تطبيع وتوحيد موضوعه.“ (أوربان 87

9 - Voyage et aventures de François Leguat & de ses Compagnons, en deux Isles desertes des Indes orientales (1707), cité par Gannier (51).

10 - أحيانا يكون وجود الرحالة غير كاف، مثل حالة جيمس بروس ونص رحلته إلى الحبشة (Adams-210-222).  
11 - للرجوع إلى هذه الكتابات، انظر على سبيل المثال:

Normand Doiron, *L'art de voyager. Le déplacement à l'époque classique*, Saint Foy, Québec, Presses de l'Université Laval/Paris, Klincksieck, 1995 et Justin Stagl, *A History of Curiosity: The Theory of Travel, 1550 - 1800*, Chur: Harwood Academic Publishers, 1995.



– 88). ومن المعلوم أنه إذا كان القارئ ينتظر من الرحلة حكاية وافية لتجربته فإن مفهوم الوفاء يبقى نسبيا لأنه يجب أن يتوافق مع الاعتقاد السائد<sup>12</sup>. تصاغ الحكايات إذن تبعا لهذا المغزى: غالبا ما يتم إلغاء التفاصيل المملة وبالمقابل، تحجب الفراغات المحتملة في جرد المحكيات بفضل مصادر ثانوية. (مورو 18) إن الفوارق بين الأحداث الواقعية في تجربة الرحلة وترجمتها إلى نصوص تبقى مقبولة بل ويتم الحث عليها ما دام ميثاق القراءة يحترم. إذا ما كانت القطيعة واضحة فإن القارئ ستصيبه الحيرة أمام المظمح الذي تسعى إليه القصة، بدءا بالعنوان (Eche 97-101). يحمل هنا كاتب المحكي إذن قناعا مقبولا على المستوى الاجتماعي.

لكن، إذا كان اللجوء إلى الاسم المستعار أو التنكر لشيء معمول به في القرن الثامن عشر<sup>13</sup>، فإن الأمر ينطبق أيضا على الأعمال المتميزة. في قرن تميز برقابة شديدة على كل إنتاج إبداعي فإن العديدين كانوا يروجون لأفكارهم 'الهدامة' بواسطة التنكر والاسم المستعار فيدلون بذلك على مضمون النص ثم يوجهون قراءته. (Mckenna 16). إن ممارسات كهذه يمكن أن تنطبق على نص الرحلة التي تنتمي كما هو معروف لجنس "ليست له خصائص معينة" (Le Huenen 45) وقادر على "استيعاب تنوع الأجناس وأنماط الخطابات" (Pascuali 133). لأننا نعلم أن حكايات الأسفار تساهم في تطور الأفكار الفلسفية وهذه بدورها يتم نشرها عبر حكايات مطبوعة بما سميناه فنون وأدبيات الرحلة من جهة و"صعود فكر الأنوار في جانبه الحسي والنفسي" (Roche 167) فاللجوء إلى التخفي أو تبني الاسم المستعار في محكي السفر يمكن اعتباره كمؤشر يدل على التعبير عن فكر غير مقبول من النموذج الاجتماعي والسياسي القائم<sup>14</sup>. لذلك فكاتب هذا المحكي سيستعمل قناعا من نوع آخر، يحدث قطيعة مع الانتظارات الرسمية.

القناع الأول، المقبول اجتماعيا والذي يكون في النهاية "غير ظاهر"، تصبح وظيفته هي "صقل" تجربة الرحلة. أما القناع الثاني الخاطيء فهو غير

12 – يظهر مثال على تعدد مفهوم الأمانة جليا في مجال الترجمة في تلك الفترة: المقصود بالأمانة يحيل على اللغة المصدر كما يحيل على الثقافة المستهدفة. فهي تتقلب إذن حسب معايير القبول المعمول بها. انظر:

Benoît Léger, «Soumission et assujettissement : la fidélité chez les traducteurs et «théoriciens» de la traduction française dans la première moitié du XVIIIe siècle.» TTR : traduction, terminologie, rédaction 9.2 (1996) : 75-101.

13 – يعد النشر المجهول الطريقة السائدة في الحقبة الكلاسيكية (هيرمان).

14 – يجب الأخذ بعين الاعتبار أيضا نشر الأفكار أو التمثلات المنحرفة والمنافية للذوق العام.

مقبول لكنه ظاهر، وظيفته هي إثارة الانتباه للجانب المميز في المحكي. يعبر القناع الأول إذن عن القبول والتوافق مع قاعدة اجتماعية ونمط معين من الكتابة، كما يشكل جزءاً من أفق انتظار القارئ الذي يصبح هو بدوره مسافراً محتملاً. مجمل القول يتعلق الأمر بإخراج مركب يقتضي توفر درجة من التواطؤ مع القارئ. أما الثاني فيشكل رفضاً لهذا النمط أو تعبير هامشي عن اختلاف نصي واجتماعي غير مقبول لكنه يبقى جزءاً من الحقل الأدبي. نستشف من هنا أن اللعبة بين المسافر - الراوي وقارئه معدة سلفاً ولا تستثنى منها أية رحلة. وزيادة على هذين القناعين يجب إضافة قناع المسافر على اعتبار أنه من شخوص القصة، يعني أنه يتمثل متخفياً خلال السفر وهو ما يمكن وصفه بالقناع الحكائي<sup>15</sup>. سينصب اهتمامنا في السطور الموالية على النوع الثاني.

## 2 - القناع السويدي كما تراه الصحافة

لكي نعطي مثالا عن صنف القناع الظاهر، كان بمقدورنا ذكر البريطاني لورنس يوريك وكتابه رحلة وجدانية بين فرنسا وإيطاليا عن السيد يوريك (1768). وكما هو معروف فإن السيد يوريك قد سافر عبر القارة سنة 1765 لكنه قرر أن يعطي لسفره منحى آخر وذلك باختلاق شخصية بديلة بهوية لا تخدع أحداً<sup>16</sup>. بالفعل، كان ستيرن قد استعمل صورة القس يوريك في روايته حياة وآراء السيد تريسترام شاندي (176-1759) فجعله يموت مبكراً في صفحة سوداء أخذت شهرة كبيرة. في هذه الرواية، يعتمد ستيرن إلى محاكاة ساخرة لخطب الوعظ الديني، يقدمها يوريك وهو الاسم الذي يحيل على المرحوم مخرج ملك الدانمارك في التراجيديا المعروفة هامليت. بقيت الصورة مرتبطة بالكتابات الدينية لستيرن وهو نفسه قس. وهكذا ظهرت خطب ستيرن تحت عنوان خطب الوعظ للسيد يوريك 1760. سيعمل ستيرن على كل حال، على صياغة صفحة عنوان ثانية باسمه دون أن ينسى ذكر الطابع التجاري للصفحة الأولى. في الرحلة الوجدانية، يسمح اللجوء إلى الاسم المستعار لستيرن بأن يطور خطاباً ساخراً ونقدياً حول السفر وأن يعرض في نفس الوقت لطريقة

15 - إضافة إلى الأمثلة التي أوردناها سابقاً، في المقدمة يمكن أن نقرأ في ذكرياته المقطع حيث يقول رجل الكنيسة الطروادية نيكولاس-زاكاري سيمونو أنه وضع القناع عندما قرر السفر إلى أفينيون حتى يفلت من قرار المس الجسدي الصادر من البرلمان بعد جدل رفض الطقوس. (99-100)

16 - انظر الانتقادات المنشورة في Monthly Review مارس وأبريل 1768. نشر الكتاب في فبراير ومات ستيرن في مارس.

أخرى في السفر وطريقة ترجمته المرتكزة حول ذات المسافر والمغلاة في التفاصيل التي كانت منقحة من قبل<sup>17</sup>.

لا يسمح البعد الساخر في محكي ستيرن مع ذلك بالإحاطة بردود الفعل التي قد يثيرها اللجوء إلى الاسم المستعار في جنس يُعدّ جادا وعليه يقارن غالبا بالتاريخ. في حالة قصة كروسلي، لا شيء يدفع القارئ إلى الشك في وجود قطيعة مع نمط سرد الرحلة الفعلية. قدمت الصحافة في تلك الفترة النص كسرد حقيقي وواقعي ولا تحاسب كاتبه على التمويه. إذا كان كريم (Grimm) في المراسلة الأدبية للأول من فبراير 1769 ينتقد علنا حكاية كروسلي فإنه لا يذكر مسألة الاسم المستعار:

”يزداد فوران الكتابة والتصنيف يوما بعد يوم. مواطنونا الفرنسيون لا يفوتهم، في كل مرة يضعون أقدامهم في إيطاليا، أن يتحفونا بنص رحلة. وها هو النص الثالث في غضون سنوات معدودة؛ الأول لسيدين سويديين عن المحامي كروسلي الطروادي في الشومباني ونص الراهب ريشاردو سان نون قد سبقا؛ وهما كتابان رديئان<sup>18</sup> (VI، 155-156)“

لن يقدم كروسلي توضيحات علنية حول خياره، رغم أن الفرصة سنحت له سنة 1770 في طبعة جديدة تتضمن رسالة إهداء للفارس ميكريني وقعها كروسلي باسمه مقدما نفسه ككاتب للحكاية: ”تقبلوا... ملاحظاتي حول إيطاليا والإيطاليين“ (ملاحظات حول إيطاليا، t.I, vi). يحتفظ الكاتب بوظيفة فعل التلفظ (énonciation) للطبعة الأصلية، فيبقى النص ثابتا دون أن يعمل قناع المسافر على إفساد وفاء النص للتجربة.

في الحقيقة ستعمل الصحافة على ذكر الأسباب الممكنة التي دفعت كروسلي إلى اللجوء لهذه الحيلة. منذ الثلث الأول لسنة 1765 أعلنت مكتبة العلوم والفنون الجميلة وعن بيع ملاحظات حول إيطاليا والإيطاليين لدى

17 - Voir Jean Viviès, *Le Récit de voyage en Angleterre au XVIIIe siècle*, Toulouse : Presses universitaires du Mirail, 1999, 105-122; Thomas Curley, «Sterne's A Sentimental Journey and the Tradition of Travel Literature». John McVeagh (éd.) All before them 1660-1780. Londres: The Ashfield Press, 1990, 203-216.

18 - غداة ظهور نص رحلة كروسلي إلى إنجلترا المعنونة : لندن، سيعود كريم للحديث عن الرحلة إلى إيطاليا. يعيب على كروسلي كونه ارتكب أخطاء في وصفه للوقائع. لم يذكر إلا مثلا واحدا وهو عندما يقدم ”الرحلة السويديون“ الكونت بيلكي، سيناتور روما، كسيد ألماني بينما هو... سويدي ((Correspondance, 4 avril 1770, t.VI, 390)). قد نتساءل بكل صدق إن كان كريم قد قرأ النص. بالفعل، بينما ينتقد بشكل سلبي كتاب لندن لكروسلي، انتهى به الأمر إلى الاعتراف بأنه لم يقرأه. حول هذه النقطة انظر، دولورم، (1964).

الكتبي برو (Prault) في باريس. أعلن القاص عن وجود نص كروسلي كترجمة ثم وضح الأمر قائلا:

”يعتقد الكل يقينا أن هذين السيدين السويديين ليسا إلا اسمان استعارهما كروسلي بهدف لفت انتباه الجمهور لأهمية كتابه لأن الاعتقاد السائد في فرنسا هو أن المسافرين الأجانب يتسمون بالنباهة والصبر وبما أنهم أقل سطحية من الفرنسيين فهم يرون الأشياء بدقة أكثر. ومهما يكن فإن الكتاب رائع...“ (ج 23، 246-247)

يبدو أن كاتب هذا التقرير، مثل التقارير التي ستلي، يعتمد على تعليق مفصل وارد عن السارد السويدي في بداية المحكي وفيه يشتكي لكونه تعمد التصرف مثل الفرنسيين بعد مقامه في باريس وهو الأمر ”الذي يقلل من شأنه الإيطاليون“ (ج. 1، 2) وعليه سيخدمه هذا التقليد في تفاعلاته مع الإيطاليين الذين ”... يخشون تفاهة الفرنسيين؛ تتناقض خفته مع رباطة جأشهم؛ مقام الرخاء الذي يكتسبه يوما بعد يوم ينضم بشكل سيء إلى دقة النظر في كل أشكال اللياقة واللباقة لديهم.“ (ج. 1، 2-3) حسب السارد يمنع هوى الفرنسي الرحالة من أن يسبر كل أغوار إيطاليا وهي ”... بالنسبة لفرنسي وكل من يبدو كفرنسي، بلد عدو وحيث كل شوارعه مغلقة وكل المراكز محروسة“ (ج. 1، 3). وهنا يبدو القناع كشيء يضمن عمق الملاحظات الواردة في المحكي. في هذه الحالة نستطيع أن نفهم جيدا لماذا يتبعهم أو يسبقهم هذا الهوى الفرنسي. بالتأكيد يقوم كروسلي بتفعيل القناع السويدي في أماكن محددة خلال السفر وفي معرض قصاصات فتختلط الأشكال لدى الإيطاليين فيبدو لهم السويدي مثل فرنسي (ج. 1، 122-365؛ ج. 2، 316) أو أحيانا حين يبني مشهدا يظهر فيه عدم التمكن من اللغة الفرنسية بشكل أقل مما هو عليه لدى الأشخاص الذين تمت ملاقاتهم على الطريق. يتعلق الأمر هنا بتعزيز واقعية القناع السويدي<sup>19</sup>. وعلى الرغم من ذلك، وبناء على ما رصدناه لا يوجد ذكر مباشر للسويد في النص (باستثناء العنوان)، أما الهوية الثقافية للمسافر يتم التذكير بها بواسطة تقرير جغرافي غير واضح: ”دول الشمال“ (ج. 1، ص 79 و 128). لكن جنسية المسافرين تلعب في النهاية دور مكان-اسم مستعار<sup>20</sup>، بمعنى أن العديد من المحللين، الذين يعرفون الهوية الحقيقية للكاتب، سيحيلون عليه للإشارة على المسافرين كما لو كانوا حقيقيين.

19 - يستعمل كروسلي لنفس الغاية، إحالات المترجم، التي يدججها في قصته، (مثلا، الكتاب الثاني 175-176)  
20 - نستعمل في الغالب عبارة: اسم موقع جغرافي (topo-patronym) للدلالة على الاسم الذي يحيل على أصول جغرافية.

في عدد ماي سنة 1765 من مذكرات تريفو 'Trévoux' يذكر أنه تم التعرف على الكاتب دون تسميته. يقدم الصحفي تبريرا آخر فيما يخص الحيلة التي نهجها كروسلي:

”لم ينخدع أحد ممن قرأوا العنوان بإمعان؛ بل تم، بكل سهولة، اكتشاف أن النسخة السويدية الأصلية للمذكرات كانت بمثابة نتاج خيالي محض ويظهر جليا، ما وراء القناع واحدا من مؤلفينا الذين ندين له بالكثير من الإنتاجات المهمة، رجل ذو عقل فياض لم يسعفه الوقت من دون شك في أن يمحو من مذكرات رحلته أشياء كثيرة سمح لنفسه بها، ففكر في أن ينسبها لأجنبي. (المقال الثامن عشر، 1158)

إذا كان اللجوء إلى السرية (المترجم) والاسم المستعار (المسافر) يسمح للمسافر بأن يميز نصه عن باقي حكايات الأسفار في إيطاليا، وذلك بإبراز نظرة مغايرة عن العالم، على طريقة أوزبيك وريكا في الرسائل الفارسية، فإن هذا الأسلوب يسمح له أيضا بأن يتجاوز مغزى الرحلة ويترك بعض المخلفات التي لا يقبل بها في جنس أدبي جاد.

بالمقابل ورد في المجلة التاريخية لماديات الزمن تبرير من نوع آخر: ربما اختار كروسلي هذا الشكل لإلهاء قرائه وتمييز نصه عن باقي الإنتاجات.

”لدينا مسبقا عدد كبير من الكتب ذات الطابع الرحلي والتي تتخذ إيطاليا كموضوع، لكن يمكننا التأكيد، دون تكبر أنه لحد علمنا لا يوجد أهم من هذه المذكرات الجديدة ودون أن نستثني مذكرات ميسون (Misson). وقع المسافرون السويديون على السر الذي يؤهلهم لتسليية القارئ، وعلى الأقل بنفس براعة هذا الأخير دون أن يقصد فعل ذلك على حساب الحقيقة.“ (ج. 98، يوليو، 1765، 93-94)

يقيم الناقد علاقة تناص ظاهرة بين نص كروسلي ورحلة إيطاليا الجديدة لماكسيميليان ميسون، نشرت لأول مرة سنة 1691، وهو من أشهر ما كتب حول رحلة عبور سلسلة الألب. ورغم أن نص كروسلي لا يتبع نمط المراسلات<sup>21</sup>، فإن خاصيتي السرد وحدة النظر قد أبهرا على ما يبدو الصحفي، إلى درجة إصراره على وضع مقتطفات ”بالأسلوب الخاص بالمحرر“ (انظر ما سبق)

21 - جنس المراسلات في حكاية ميسون هي من وحي خيال الكاتب الذي أعاد تشكيل النص مشفوعا بملاحظات استقاها خلال الجولة الكبيرة مع الكونت دارون.

وتعود النشرة الثانية لمكتبة العلوم والفنون الجميلة في خريف 1765 لموضوع المحكي ودوافع الكاتب:

”لقد قلنا في تقديمنا للكتاب أنه لم يكتب قط بالسويدية بل كتب في الأصل بالفرنسية من قبل السيد كروسلي. ومهما كانت دواعي هذا الكاتب العالم والمرموق، والتي جعلته يقوم بدور المترجم المبتدل، فإن هذه الدواعي لم تبد بالشكل الذي تجعل القناع الذي وضعه بكل تواضع أن ينزع عنه وأن ينصفه الجميع. يذكر أحيانا حقائق قاسية لمواطنيه؛ يحكم عليهم بصرامة حتى أنه ظن أنه سيغفر للأجنبي أكثر من الفرنسي؛ لكنه إن جنح وفضل الإيطاليين، إن تستر على عيوب أمته فإنه لا يبالي في ذلك أيضا... يرى السيد كروسلي عيوب مواطنيه كفيلسوف، ويتحدث عن ذلك كرجل مهذب وكمواطن.“ (ج. 24، 388-389)

يغير الصحفي رأيه الأول: لم يكن القناع ليستعمل كإشارة تدل على رؤية نقدية منصفة بل كدرع واق. إضافة إلى ذلك يحمل القناع دلالة أخلاقية وهي التواضع الذي يحيل في نهاية المطاف على ما هو 'نفعي': لا يجب أن تتجاوز صورة المسافر الأعراف التجريبية لمحكي السفر وتقديم المعرفة المساهمة في مشروع الأنوار.<sup>22</sup>

يتم تجاوز مسألة تحديد هوية الكاتب بسرعة للنظر أكثر في دواعي الكتابة. لأن هذه الشروحات التي تصبح مجرد تخمينات، تتميز بالتكرار. وهذا التكرار يصبح علامة على وجود قلق دائم بسبب غياب إضفاء شرعية الكاتب الحقيقي. بالنسبة لقراء القرن الثامن عشر لا يبدو أن إخفاء الهوية له ما يبرره: بالفعل فبيير جون كروسلي معروف والجنس الأدبي له مكانته وللمحكي صدى إيجابى لدى النقد. وترى المجلة الموسوعية أن الخدعة غير مجدية نوعا ما: ”عندما ينعته القراء باسمه، عندما يشير إليه الجمهور وعندما يتنبأ به الجميع، رغم كل احتياطات التستر فلماذا نتظاهر بأننا نجعل أن الأدباء والفنانين مدينون لكروسلي بهذه الملاحظات؟“ (44-45، ماي 1765)

إن التساؤلات التي يثيرها هذا الكتاب لن تبقى حبيسة فرنسا، فقد ظهرت ترجمة بالإنجليزية سنة 1769. يجمع المترجم في المقدمة بين فكرة النظره المنحرفة عن المركز وفكرة الدرع ليشرح الحيلة المثيرة للانتباه:

22 - انظر استنتاجات شارل باتن حول هذه النقطة في:

Charles Batten, *Pleasurable instruction. Form and convention in eighteenth century travel literature*. Berkeley: University of California Press, 1978, 63.

”نشرت هذه الملاحظات في فرنسا على أنها من عمل سيدين سويديين؛ لكنها معروفة في الوقت الحاضر، فهي من إنتاج المثقف والمبدع كروسلي. من المفترض أن يكون لهذا السيد اللقب المذكور أعلاه، بهدف تحيز الجمهور لصالح أدائه. لأنه في فرنسا هو رأي مقبول وربما عادل، وهو أن المسافرين الأجانب بشكل عام هم الأكثر انتباهاً، والأكثر صبراً والأقل سطحية من الفرنسيين، وأكثر حكمة وحيادية في ملاحظاتهم. ثمة سبب آخر لارتداء هذا التنكر، وهو الحرية التي يمارسها مع أبناء هذا البلد، في تعريفهم بالعديد من الحقائق البغيضة المتعلقة بنقاط ضعفهم الوطنية، والتي ربما يكون من السهل أن يغفروها لأجنبي، أكثر من أي فرنسي... ونضيف لذلك أنه حر تماماً في جعل نفسه ييغض خبث المتعصبين والمتحمسين العنيدين.“<sup>23</sup> (ج.1، ix-viii)

هذا التأويل الذي يجمع بين المريرين المذكورين في الصحافة الفرنسية، سيتم نقده في المجلة الموسوعية يناير 1770. نفس الانتقاد سيثار من جديد في طبعة الملاحظات لسنة 1770 المذكورة أعلاه<sup>24</sup> بالنسبة للصحفي تبقى:

”الملاحظات خاطئة من كل الجوانب ويكذبها كروسلي نفسه. أما الفرنسيون المثقفون فيتمتعون بنفس دقة ملاحظة الإيطاليين والإنجليز والسويديين إلخ... استحضر كروسلي في وصفه لأمتة حسه الوطني وتحدث عن الدين كرجل يحترم مشاعره. اختار التكتّم بدافع التواضع؛ وكل من قرأ كتابه يستغرب آراء المترجم (الإنجليزي) والذي أدى دوره في النهاية على أكمل وجه.“ (يناير 1770، 145)

من نظرة منحرفة، وهي دليل حداثتها، إلى تواضع الكاتب، مروراً برغبة في تمييز الكتاب عن باقي الإنتاجات في سوق تنافسية كبيرة، يبدو أن الصحفيين قد عرضوا الأسباب الممكنة التي قد تكون حفزت كروسلي على التنكر في قناع سويدي. لكن يبدو لنا أن هذا التأويل الذي يفرض نفسه مع مرور الزمن، قد أصبح جزئياً ومضللاً لأن من يقولون به ”ينسون“ الأخذ بعين الاعتبار مؤثراً هاماً له علاقة بسياق مجموع العناصر النصية والصورية التي تقدم الكتاب.

23 - في تقديمها للترجمة تتناول مجلة *La Critical Review* نفس الحجج (الجزء 28 لندن: هاملتون 1769، 29 - 30).

24 - يقع النص في صفحة غير مرقمة، بعد توطئة الكتيبي.

كروسلي، كأيقونة أدبية معروفة ورغم أنه صقل موهبته في دائرة رجال الآداب المشهورين، كتب ونشر عدة مسرحيات ونصوصا مختلفة باسمه ولكن أيضا بأسماء مستعارة. وقد قدم الكاتب لائحة تضم حوالي مائة نص "غير رسمية" ولم تنشر. بقيت اللائحة مكتوبة بخط اليد في القرن الثامن عشر ونشرت جزئيا في القرن الموالي، وستسمح هذه اللائحة بالرجوع إلى ماضي الكاتب وعلاقته بالقناع.<sup>25</sup> إن معرفته ليست أساسية للإحاطة برد فعل القراء أمام القناع السويدي خلال فترة نشر النص الرحلي. وهذه العادة كانت معروفة لدى بعض القراء. بالفعل عرف عن كروسلي كونه واحدا من بين المؤلفين المجهولين لمذكرات أكاديمية العلوم، الكتابات، الآداب والفنون الجميلة إلخ. والذي نشر مؤخرا في تروا (Troyes Champagne) سنة 1744. ومنذ صدوره ظهر تقرير في قراءات حول بعض الأعمال الجديدة للراهب ديفونتين فقدم المذكرات على أنه "عمل مبسط وهزلي، بأسلوب العمل الرائع للمجهول د. مونتانايسوس" وحيث نجد "بعض الهزل الهادف نوعا ما... مثلما هو الحال عند رابلي وسويقت" (1744، 231)<sup>26</sup>. لم يذكر كروسلي باسمه لكن دوره قائم في المجمع الأدبي الذي ذكره الاسم غداة ظهور النص المجهول في طبعة ثانية منقحة سنة 1756. سجل كريم (Grimm) في مراسلاته، أن "كروسلي قد نشر للتو مذكرات الأكاديمية... وهي هزلية ظهرت سابقا في جزء... (ج. 1، 15 ماي 1756، 453). وقد ظهرت مقتطفات من هذه 'الهزلية' في الصحافة، مثل إنشاء حول طرق ضرب العشيقه، في المجلة الموسوعية، لأبريل 1756 (ج. 3، فصل 2، 58-66). وبما أنه تم الإبقاء على التكتيم فإن ذلك كان مناسبا على ما يبدو.

اعتمد كروسلي أسماء ريشات أخرى أبدعت أجناسا نصية أكثر جدية. باستعماله اختصار لفظي "M.D.C de Troyes en Campagne" أي دو شاسيلاس،

25 - يبدو أن اللائحة، التي يجمع الكل على تسميتها "Farrago de Grosley" قد فقدت. لكن، بفضل الأشغال التمهيدية لنشر أعمال كروسلي بعد موته، أصبح من الممكن إعادة تشكيلها. انظر سيمون (xxi، 1811) وكورار دو بريهان (3-10-1850؛ 3-8-1852). في السيرة المختصرة التي خص بها كروسلي يشير ألان نابارا أن مخطوط "فاراغو" يوجد في المكتبة الوطنية الفرنسية (معجم الصحفيين).

26 - تحديد كاتب النص يطرح إشكالية. حسب نسخة من رسالة لمساهم في المذكرات، قد قبل كروسلي أن يكون كاتب النص المنشور في "أوراق" ديفونتين (سوكار 250) إسناد النص لكاتب لم يتحدث عنه ألبير بابو في أكاديمية طروادة وكتاب المذكرات المنشورة باسمه : بابو يعتبر ديفونتين ككاتب للتقرير (15-16) نعرف مع ذلك أن ديفونتين ليس هو كاتب كل التلاخيص (انظر تلخيص جون سكاراد "أحكام حول أعمال جديدة" معجم الجرائد:

1600-1789 <http://dictionnaire-journaux.gazettes18e.fr/journal/0794-jugements-sur-quelques-ouvrages-nouveaux>



حصل على الترشيح لمباراة ديجون مع جون جاك روسو عن خطاب ما إذا كان التأسيس للعلوم والفنون قد ساهم في تهذيب الأخلاق. حسب ديورم: "كان بعض الكتاب على علم بأن السيد دو شاسيلاس وهو اسم كروسلي المستعار في هذه الحالة قد ترشح سنة 1750 لمباراة أكاديمية ديجون..." (98). للأسف لم يذكر ديورم هؤلاء المؤلفين. في سيرة كروسلي الجزئية وضح الراهب مايديو أنه قبل سفره إلى إيطاليا "أن لكروسلي شهرة واسعة في دائرة الآداب بفضل إنتاجات إبداعية رائدة وأن سمعته قد سبقته إلى إيطاليا حيث وصل خطابه لسنة 1750 وأهله الترشح للجائزة التي حاز عليها جون جاك روسو في أكاديمية ديجون..." (156). إذا كان البعض يكتفون السر فيجب التأكيد على أن الإعلان عن النتائج في *Mercur de France* يتضمن اسم دو شاسيلاس وليس كروسلي ككاتب لهذا الخطاب (نوفمبر 93-94-1750). إضافة إلى ذلك، نشر النص في يونيو 1752 في *Mercur* بنفس الاسم المستعار (68-90). إن قراءة متأنية لمراسلاته تبين مع ذلك أن كروسلي كان يرسل كتبه "لكل من بمقدوره أن يساعده وكل من لديه كفاءة تقدير مخطوطاته..." (باربو، 1882، 339). كان الرئيس هينو Hénault، وهو شخصية باريسية مرموقة، على اطلاع بنص الخطاب وصاحبه رغم أنه لم يقرأه وذلك على الأقل منذ سنة 1754 (Truelle-Saint-Evron, 265) أرسل كروسلي الخطاب إلى *Lelorgne*، وهو أستاذ اللغة الفرنسية في فلورانسا، لترجمته إلى الإيطالية حتى يتم ترتيب استقباله (باربو، 1882، 338). ويعتقد أن دائرة العارفين قد أفضت إلى نتائج مهمة، على اعتبار أن كروسلي قد "وسع علاقاته وتوجه نحو الموسوعيين" خلال سنوات 1750-1760 (باربو- 1882، 323). ترأس على الخصوص مع مونتيسكيو (ديورم - 98) وفولتير الذي استقبله في فيرنبي سنة 1758 وهي زيارة تم التطرق إليها في ملاحظات حول إيطاليا (جزء 1، 29-31). يتضح إذن أن استعمال القناع لدى كروسلي كان شيئاً قائماً بلا شك قبل صدور الملاحظات حول إيطاليا، لكن دون أن يكون لذلك أثر في التقارير، ورغم معرفتنا بميوله للتهكم<sup>27</sup> أو بإسهاماته في النقاش الفلسفي.

وهناك استعمال سابق للقناع يجدر بنا ذكره رغم أننا لا نستطيع التركيز عليه في النهاية. في سنة 1757 نشر كروسلي باسم مجهول نصاً بعنوان رسالة محب لوطنه يهدف من خلاله التنديد بمؤامرة يسوعيين غداة محاولة اغتيال الملك والذي تقرر الحكم عليه بالنار من قبل البرلمان<sup>28</sup>. ومع ذلك يبدو أن تخفي

27 - حول هذا المفهوم انظر مقال Yen-Mai Tran-Gervat الذي يتطرق فيه لمقاربات وتعريف عديدة (2006).

28 - استجواب صاحب المطبعة وزوجته سيتم في لا باستي Bastille دون أن يفصح عن اسم الكاتب:

Truelle Saint-Evron, 1878, 311.

الكاتب قد تم التحفظ عليه من قبل القراء وهو الشيء الذي يجعلنا لا نأخذ بعين الاعتبار قناع النص الهجائي في السياق التأويلي الذي يحكم تلقي ملاحظات حول إيطاليا... لكن هذا المثال يعطينا فكرة حول تعدد استعمالات القناع لدى الكاتب نفسه. إذا ما درسنا إذن درجات التحفظ على الاسم المجهول، المرتبطة بغايات النص - لا أحد يكشف (أو لا يود الكشف) هوية كاتب رسالة من محب لوطنه، لكن من الممكن عرض كاتب نص رحلة في إيطاليا- سنلاحظ أيضا تعددية الاستعمالات التي تظهر مدى تعقد المسألة. علما أن التعاطي لجنس أدبي قد تخضع للتغيير: بالفعل، سينشر كروسلي باسم مجهول ودون قناع غريب، نص رحلة إلى إنجلترا بعنوان لندن (1770).

#### 4 - إيجابيات وسلبيات القناع

في حالة رسالة محب لوطنه، تبدو الوظيفة الوقائية للقناع بديهية، تماما كما يدل التظاهر به على عدم قبول مضمونه. لكن في الحالة التي تهّمنا هنا واعتبارا لأن هذا الاستعمال ليس بالأمر السري تماما، فقد نتعجب لكون الكاتب يلح على الرجوع إليه، وخصوصا عندما يتعلق الأمر بنصوص ليس لها مضمون ساخر. بالنسبة لهذا المتعاطف مع اليانسنيين (jansénistes) والذي كان قد ندد بالمؤامرة اليسوعية سنوات قبل ذلك، قد تشكل مسألة الدين في إيطاليا نقطة جدال عميق. لكن حسب ما يراه بعض الصحفيين، إذا كان "السويديون يعبرون شيئا ما بحرية في موضوع بعض ممارسات التدين السائدة لدى الشعب الإيطالي وأن كل الأشخاص المثقفين لا يميلون للتنديد بهم، فليس ذلك للحصول على متعة سب الديانة الكاثوليكية." (Suite de la clef/ T. 89). (Août 1765/ 94). على كل حال يجب التوضيح أنه في تلك الفترة، لوحظ موقفان متعارضان فيما يخص ذكر الديانة في رحلات إيطاليا خلال القرن الثامن عشر: الأول مدافع والثاني منتقد وراديكالي ( برتران "الرحالة" 96 - 101). يأتي هذا التمييز في لحظة "يأخذ فيها الفرنسيون مسافتهم" من التدين، عكس نظرائهم الإيطاليين (95). يشكل ذكر مؤسسة لوريت والنقل "سانتا كاسا" في المتن السردي، واحدا من المواضع النصية حيث يتم الرجوع إلى موقف المسافرين فيما يخص مسألة الإيمان. يشير كروسلي مباشرة إلى النقاش وجمع مراجع متناقضة ليبين الاستحالة المادية للسفر من "سانتا كاسا" انطلاقا من الناصرة إلى لوريت، ومن ثم افتقار المتدينين للعقلانية. (ج. 2، 172-176).

يبدو إذن أن التعبير عن التظاهرات العامة للتدين لدى كروسلي ينخرط في نزوع إلى السفر في إيطاليا مقبول على الأقل عند واحد من المعسكرين. يتضح من ذلك أن القناع السويدي لا مبرر له في هذه النقطة.

إضافة إلى ذلك، يمكن للخدعة أن تفضي إلى نتائج عكسية لأسباب عدة. أولاً، يلاحظ بعض الصحفيين أن القناع لا يقنع أحياناً. وهكذا عندما يصل المسافرون إلى جنيف يقول أحد الصحفيين: ”بالطريقة التي يتحدثون بها عن المدينة وديانتها يبدو أن الكاتب قد نسي أنهم سويديون وبالتالي لوثيريون (Luthérien)؛ فواجته في الحقيقة أحياناً بهذه المزحة الخفيفة.“ (المكتبة العلمية، 1765، ج. 24، 392). ومع ذلك فالصحفي مستعد للسفر برفقتهم، ”على أن تكون ملاحظاتهم وتخميناتهم صحيحة وموضوعية“ (392). بينما قراء آخرون سيبدون أقل رحمة. بعد ذلك، إذا كانت هوية الكاتب تشكل معياراً أساسياً في نص الرحلة فإن غيابه قد يلغي تقييم ذلك النص، خصوصاً، كما يلاحظ ذلك الصحفيون، أن كتابة الرحلة كانت مزدهرة في تلك الفترة كما كانت مرتبطة بالممارسة. بالفعل، إذا كان السفر إلى إيطاليا في الفترة نفسها... يشكل مغامرة محسوبة العواقب، وحيث يكتسب المسافر كرامة تؤهله أن يسطع ويعترف به، من قبل من غادرهم، عند عودته لملاقاتهم.“ (برتراند Le Grand Tour section 21 ch2 n.p) يكتسب النص صفة عمومية، عربون اعتراف واسع من الجمهور. وهكذا يسلط برتراند الضوء على تأثير السفر إلى إيطاليا على مستوى الحياة المهنية لبعض الرحالة ويلاحظ هنا ”أن المحامي الطروادي كروسلي قد تم تعيينه في أكاديمية النقوش ثلاث سنوات بعد عودته من إيطاليا.“ (المرجع السابق). لو أن القناع قاوم لفترة طويلة، هل كان في مقدوره الظفر بهذا الاعتراف؟ التخفي مصدر الريبة والشك. الأب ريشار، مؤلف وصف تاريخي ونقدي لإيطاليا سنة 1766، لا يتردد في تمرير هذه الفكرة حتى يثير قلوب القراء فيميلوا لنصه. وهكذا كتب: ”لا أستم أبداً في التخفي، ولا أظهر باسم مستعار وبما أن لدي ضمانات محترمة سأحيل عليها فلا أخشى أن ينكر أحد أياً من الوقائع التي أسردها...“ (1766، ج. 1). غاية هذا التحليل يشار إليها بطريقة غير مباشرة في إحالة آتية حيث يذكر ريشار ”حكايات طريفة وأمور غير دقيقة استمتع بتخيّلها.“ وواردة في ملاحظات حول إيطاليا والإيطاليين (-XIV XV) وهو أمر لا يخفى على كاتب التقارير حول كتاب روبر La Suite de la (mars 1767. 181) (Clef) أو في Le Journal des savants (شتنبر: 1766، 567-568). يخلق هذا النمط من التحاليل نقاشاً عمومياً (رغم كونه محدوداً) فيمنح لنص كروسلي سمعة، كما يلاحظ ذلك بنفسه في معرض رده على انتقادات ريشار: ”اسمحوا لي أيها السادة أن أعبر للجمهور، بواسطة جريدتكم، كم هو شرف كبير لي بالالتفاتة التي خصصها السيد ريشار لكتابنا ملاحظات... نحن ندرك

جيدا نظرة السيد ريشار خصوصا وأنها مجانية“ (Journal encyclopédique avril) 132 par.2 III vol. 1767). إن الدليل التجاري الذي يذكره هنا كروسلي على سبيل المزحة، رّمّا لا يجب استبعاده من وجهة نظر استراتيجية ما دام الرجوع إلى هذا السويدي الغامض يميز بين نص رحلته ونصوص الأسفار الأخرى إلى إيطاليا.

## 5 - وجهة نظر الكاتب

كما ذكرنا ذلك سابقا، لن يتحدث كروسلي عن القناع السويدي. في النسخة الثالثة (التي ظهرت سنة 1744) سيظهر الحرف الأول من اسم الكاتب، وفي ذلك إشارة إلى أن قناع التواضع المفترض أو النظرة المفارقة لا يمكنه ربما أن يقاوم إكراهات عالم النشر. سيعود الأب مايديو للتطرق لهذه السمة في شخصية الكاتب حتى يشرح لماذا لم تكن سمعة كروسلي على قدر ما كان يتمناه: تواضع الطرودادي كانت في أوجها إلى درجة أنها تتمظهر ”في انفصالها عن كل ما أنتجه فحملها بعيدا لدرجة لا يقدر حملها أي كاتب آخر“ (303-304). ويتابع مايديو، موردا كلام كروسلي في ”خلطته“:

”كنت أفرح كثيرا في كتابة أفكار جوفاء تمر في رأسي، ولكي أضحك من نفسي بداخلي كنت دائما أزين صفحات Le Mercure et le Journal de Verdun؛ ظهرت في الأول تحت اسم جيرودي دو سان فلورونتان وهو اسم تلميذ كنت أقطن معه والذي كان يريد بهذه الطريقة أن يكتسب سمعة أدبية... وهذا تفصيل لتفاهته أسرده قدر ما تستطيع ذاكرتي تذكره.“ (كروسلي - مايديو 306)

تتبع هذا الشهادة لائحة ستة وتسعين منشورا غير معترف بها رسميا، ومن بينها تلك التي أحرزت الترشيح لمباراة ديجون: ”سنة 1750 حصلت على حق ترشيح لجائزة أكاديمية ديجون تحت اسم دوشاسيلاس؛ انظر في Le Mercure لسنة 1750 مقطع لإنشاء كتبه لكنه غير مرتب جيدا“ (308 - 309). من المثير للانتباه هنا أن كروسلي يتعامل بنوع من التحفظ مع منشوراته المستترة. لنذكر أن الأمر يتعلق بما نشر في الصحافة وأن الكتابات المطولة تم استبعادها. إن استخدام كلمة ”تفاهة“ (coglionerie) قد تذكرنا بموقف فولتير حيال الحكايات الفلسفية، التي لا ترقى كثيرا للجنس الأدبي الجاد في نظره (رغم أن هذه الكلمة تتكرر في مراسلاته في مواضيع أخرى). بالفعل، فقد سبق لكروسلي أن وقع باسمه مؤلفات في تاريخ القانون (حياة بيير بيتو 1756)، في الوقت الذي ظهرت

فيه مؤلفات أخرى مجهولة المصدر (أبحاث في تاريخ القانون الفرنسي، 1752) لكن مع وجود مؤشرات كافية في التوطئة تخص التعرف على المؤلف والذي سيظهر جليا فيما بعد. سيقوم كروسلي، المحامي، بتفعيل تمييز بين منشوراته "الجادة" المنبثقة من تكوينه الأصلي وباقي إنتاجاته. في هذه الحالة سيصعب فهم كيف سترجم هذه المسافة، القريبة من القدر حسب مايديو، التواضع العميق للمؤلف. (كروسلي-مايديو 310) : كونه يقدم بعض أعماله باسمه لدليل على أن انفصاله المفترض له محدوديته. وقد نسائل أيضا حاجة تحديد لائحة أعماله غير المعترف بها رسميا، مشفوعة أحيانا بتعاليق تتعدى وظيفة مذكرة بسيطة. هل يصبح التيه في اللائحة مصدر متعة للمؤلف؟ بالنسبة لجينيت (Genette) "استعمال الاسم المستعار يشبه المخدر الذي يؤدي إلى تعاطي المادة باستمرار، ومن ثم إلى الإدمان بل وزيادة الجرعة." (55) وهذا ما يفسر إفراط كروسلي في استعمال أسماء مستعارة يمنحها حياة ووجودا<sup>29</sup> (hétéronyme). وقد نسائل أيضا استبعاد الأعمال الكبيرة والنصوص الهجائية المجهولة: تضع اللائحة جانبا مجموعة كتابات ذات مواضيع مختلفة (التاريخ، الأدب، العلوم الطبيعية، القانون). في أشكال مختصرة ومنشورة في مجلات دورية. هل اعتبرت هذه النصوص أقل أهمية للأسباب التي ذكرناها؟

في فترة كان فيها إنتاج نص ينتمي لجنس "جاد" يسمح بتعزيز مكانة الأديب أو الفيلسوف، سيطرح خيار الاحتفاظ بالتخفي علامات استفهام. إذا ما اعتبرنا الاسم المستعار كتجمل للمؤلف الكاتب<sup>30</sup> (auctorialité)، سنتساءل لماذا سيبحث كاتب معروف مسبقا أن يدل هذه الصفة بالتكرار الموسوم غالبا بالقصور. قد نكون مجانبين للصواب إن اخترنا هذا الاستعمال في الأسباب الوقائية أو الاحترازية أو مجرد نزوة كاتب. قد يكون استعمال القناع لدى كروسلي، بالنسبة لأعمال طويلة مثل ملاحظات حول إيطاليا... أو لندن، كتعبير عن إرادة إظهار تمييز نوعي على مستوى الأعمال. لكن هذه الأخيرة لا ينظر إليها نظراؤه بمنظور الدونية ما دام السفر إلى إيطاليا الذي يترجمه المحكي، يعتبر غالبا وسيلة اكتساب حظوة في عالم الفنون والآداب. يبدو أن تغيير نظر السويديين عن المركز، الذي تحدثت عنه صحافة تلك الفترة، لشيء مثير ومتناغم مع إنتاج أدبي موسوم بفلسفة الأنوار. لكن، كما لاحظنا ذلك، فبناء

29 - يتحدث جنيت في هذا السياق عن مفهوم "Polyonimat"، 54.

30 - بالنسبة لجينيت "...تعد الكتابة بالاسم المستعار نشاطا شعريا أو شيئا من قبيل العمل الإبداعي. إن كنتم تدعون في تغيير الاسم فهذا معناه أنكم تدعون في الكتابة." (57)

القناع السويدي يتطلب موهبة أدبية، وهو الأمر الذي يفتقده كروسلي في هذه الحالة. هل يجب اعتبار ذلك كدافع لترك القناع المستغرب في نص رحلته إلى إنجلترا؟ إن مسألة الاسم المستعار تحيل هنا على ممارسات وضرورة مرتبطة بمرحلة تاريخية، كما تحيل أيضا لعلاقة الكاتب مع أعماله. إذا لم يكن في مقدورنا في النهاية أن نزعّم إيجاد السبب الذي دفع كروسلي المحامي وصاحب الدعاية، المتعدد المشارب و"الفيلسوف المحارب" كما يقول فولتير (نابارا) إلى استعمال التنكر والاسم المستعار في أعمال، لا تعرضه غالبها للخطر، نستطيع رغم ذلك أن نعتبر القناع السويدي كتعبير عن محدودية موهبته، ولم لا في نفس الوقت تكريم (متعثر) للفارسيين للكاتب مونتيسكيو - كذكرى لمراسلاتهم الأدبية.

### Bibliographie

- «Assemblée publique de l'Académie des sciences et belles lettres de Dijon.» *Mercure de France*, Paris, André Caillau, La veuve Pissot, Jean de Nully, Jacques Barrois, 1750, 82-97.
- Babeau, Albert, «Les correspondants de Grosley.» *Mémoires de la Société académique d'agriculture, des sciences, arts et belles-lettres du département de l'Aube*, vol. 46, tome 19, Troyes, Librairie Léopold, Lacroix, 1882, 321-353.
- Babeau, Albert, *L'Académie de Troyes et les auteurs des mémoires publiés sous son nom*, Troyes : Dufour-Bouquot, 1887.
- *Bibliothèque des sciences et des beaux-arts*, Tomes 23 et 24, La Haye, Pierre Gosse et Daniel Pinet, 1765.
- Bertrand, Gilles, *Le Grand Tour revisité: Pour une archéologie du tourisme: le voyage des Français en Italie, milieu XVIIIe – début XIXe siècle*, Rome, Publications de l'École française de Rome, 2008. Web. <<http://books.openedition.org/efr/1974>>.
- Bertrand, Gilles, «Les voyageurs français face aux dimensions religieuses de l'Italie entre l'âge des Lumières et l'époque romantique: les ambiguïtés du 'moment révolutionnaire'.» *Les échanges religieux entre l'Italie et la France, 1760-1850. Regards croisés - Scambi religiosi tra Francia e Italia, 1760-1850*. Sguardi incrociati. Frédéric Meyer, Sylvain Milbach (éds.), Chambéry, Université de Savoie, 2010, 93-115.
- Corrard de Bréban, Antoine-Henri-François. « Perte du farrago de Grosley. Découverte d'un fragment de ce manuscrit. » *Annuaire administratif, statistique et commercial du département de l'Aube pour 1850*, Société

académique de l'Aube, Troyes, Bouquot, 3-10.

- Corrad de Bréban, « Farrago de Grosley. Supplément à la liste des pièces fugitives. » *Annuaire administratif, statistique et commercial du département de l'Aube pour 1852. Société académique de l'Aube. Troyes* : Bouquot, 3-8.

- Delorme, Suzanne, «Une victime de Grimm: Pierre-Jean Grosley.», *Mélanges Alexandre Koyré*, vol. 2, *L'Aventure de l'esprit*, Paris, Hermann, 1964, 94-117.

- Desfontaines, Pierre-François Guyot, *Jugements sur quelques ouvrages nouveaux*. Avignon, Pierre Girou, 1744, vol.2.

- Eche, Antoine, «Les récits de voyages fictifs.» *Expérimentation scientifique et manipulation littéraire au siècle des Lumières*. Jean-Marie Goulemot (éd.), Paris, Minerve, 2014, 93-112.

- Gannier, Odile, *La littérature de voyage*. Paris, Ellipses, 2001.

- Genette, Gérard, *Seuils*, Paris, 2002.

- Grimm, Friedrich Melchior, *Correspondance littéraire, philosophique et critique de Grimm et de Diderot depuis 1753 jusqu'en 1790*. Jules-Antoine Taschereau et Chaudé, A (éds.), Paris, Furne, 1829-1831.

- Grosley, Pierre-Jean, «Discours ou dissertation, où l'on examine si le rétablissement des sciences et des arts a contribué à épurer les mœurs.», *Mercure de France*, Vol.1, Paris: André Caillau, La veuve Pissot, Jean de Nully, Jacques Barrois, 1752, 68-90.

- Grosley, Pierre-Jean, *Nouveaux mémoires, ou Observations sur l'Italie et les Italiens, par deux gentilshommes suédois*, 3 vols. Londres, Jean Nourse, 1764.

- Grosley, Pierre-Jean, *Observations sur l'Italie et les Italiens, données en 1764, sous le nom de deux gentilshommes suédois*, Londres, 1770.

- Grosley, Pierre-Jean, *Londres*. Lausanne, 1770.

- Grosley, Pierre-Jean, *Œuvres inédites de Pierre Jean Grosley*. Louis-Marie Patris-Debreuil (éd.), Paris, Patris, 1812-1813.

- Grosley, Pierre-Jean et Jean Maydiou, *Vie de M. Grosley, écrit en partie par lui-même; continuée et publiée par M. l'abbé Maydiou*. Londres et Paris, Théophile Barrois le jeune, 1787.

- Herman, Jan, «Postures d'auteur et doxa à l'Âge classique.», *La pseudonymie dans la littérature française*. David Martens (éd.), Rennes: Presses universitaires de Rennes, 2017, 293-310.

- *Journal des sçavans*, Paris, Lacombe, 1766.



- *Journal encyclopédique*, Vol.1. Tome 3. Liège : Everard Kints, 1756.
- *Journal encyclopédique*, Vol.19. Tome 4. Bouillon, : Imprimerie du journal, 1765.
- *Journal encyclopédique*, Vol. 23.Tome 3. Bouillon, : Imprimerie du journal, 1767. *Journal encyclopédique*, Vol.29. Tome 1. Bouillon : Imprimerie du journal, 1770.
- Kovacs, Eszter, «De la méfiance à une critique raisonnée : considérations sur les voyageurs et les voyages chez Diderot.» *Recherches sur Diderot et l'Encyclopédie* 45.4 (2010), 26-43.
- Le Huenen, Roland, « Le récit de voyage: l'entrée en littérature.» *Études littéraires* 20.1. 45–61.
- McKenna, Anthony, « Introduction. » *La lettre clandestine* 8 (2000) : 15-17.
- *Mémoires pour l'histoire des sciences et des beaux-arts*, Paris, Chaubert et Le Breton, 1765.
- Moureau, François, *Le Théâtre des voyages. Une scénographie de l'Âge classique*, Paris, Presses de l'Université Paris-Sorbonne, 2004.
- Nabarra, Alain, «Pierre-Jean Groslier.» *Dictionnaire des journalistes*, (1600-1789).<<http://dictionnaire-journalistes.gazettes18e.fr/journaliste/368-pierre-jean-grosley>>.
- Nugent, Thomas, *New Observations on Italy and its inhabitants, written in French by two Swedish gentlemen*, translated into English by Thomas Nugent, Londres, L. Davis et C. Reymers, 1769.
- Ouellet, Réal, *La Relation de voyage en Amérique (XVIe-XVIIIe siècles). Au carrefour des genres*, 2<sup>nd</sup>e éd. Paris, Hermann, 2015.
- Pasquali, Adrien, *Le Tour des horizons. Critique et récits de voyages*, Paris, Klincksieck, 1994.
- Richard, Jérôme, *Description historique et critique de l'Italie, ou Nouveaux mémoires sur l'état actuel de son gouvernement, des sciences, des arts, du commerce, de la population et de l'histoire naturelle*, Dijon/Paris, François Desventes / Saillant, 1766.
- Roche, Daniel, *Humeurs vagabondes. De la circulation des hommes et de l'utilité des voyages*, Paris , Fayard, 2003.
- Simon, Edouard-Thomas, «Notice sur la vie et les ouvrages de Monsieur Grosley, publiée en 1787, par monsieur Simon.» *Mémoires historiques et critiques pour la ville de Troyes*, Vol.1. Pierre-Jean Grosley, Paris/Troyes, Volland/Sainton, 1811, xv-xxxviii.



- Simonnot, Nicolas-Zacharie, *Mes souvenirs. Récits de Nicolas-Zacharie Simonnot. Chanoine de l'église de Troyes. Épisodes de l'histoire du jansénisme*. Publiés d'après le manuscrit de l'auteur par l'un de ses petits-neveux, Troyes, Librairie Bertrand Hu, 1878.
- Socard, Emile, «Quelques mots sur un ouvrage intitulé: Mémoires de l'Académie de Troyes.» *Mémoires de la société d'agriculture, des sciences, arts et belles-lettres du département de l'Aube*, tome XVIII, n°29-32, 245-281.
- Steinberg, Sylvie, *La Confusion des sexes. Le travestissement de la Renaissance à la Révolution*, Paris, Fayard, 2001.
- *Suite de la clef, ou Journal historique sur les matières du temps*, Tome 98. Paris et Rouen, Eustache Herault, 1765.
- *Suite de la clef, ou Journal historique sur les matières du temps*, Tome 101. Paris, Ganeau, 1767.
- Tran-Gervat, Yen-Mai, «Pour une définition opérationnelle de la parodie littéraire: parcours critique et enjeux d'un corpus spécifique.» *Cahiers de Narratologie* 13 (2006) <<http://narratologie.revues.org/372>>.
- Truelle Saint-Evron, Charles et Albert Babeau, *Lettres inédites de Grosley et quelques-uns de ses amis, dans Collection de documents inédits relatifs à la ville de Troyes et à la Champagne méridionale publiés la Société académique de l'Aube*, Troyes, Dufey-Robert, 1878, t. I, 219-433.
- Urbain, Jean-Didier, *Secrets de voyages: menteurs, imposteurs, et autres voyageurs invisibles*, Payot, 1998.

# الأقنعة المدهشة لعلي باي!

شعيب حليفي<sup>1</sup>

ملخص:

تشكل هذه المقالة تقديمًا موسعًا لمسرحية ضومينكو باديا ليليش، والتي كتبها عن المغرب سنة 1803 وهو متنكر في شخصية علي باي العباسي. وفيها قراءة في تيمة القناع وما يحمله من معرفة مؤدجة تتغيا الوصول إلى نتائج جاهزة، وكل ذلك يتم عبر اللغة والمسرح التي تقتضي بناءً تخيليا يخفي هوية الكاتب وكذلك هوية الدائرة الخلفية للخطاب والذي يتشابك فيه السياسي بالتاريخي بالثقافي.

وقد رامت المقالة البحث في هذه الإشكالية عبر محورين: سيرة ضومينكو باديا الجاسوس، وسيرته حينما اختار التنكر بقناع علي باي العباسي؛ ثم محور الخيال المقنع، وهو جزء من تنكر الكتابة وألاعيبها في الاخفاء والرمزية.

**الكلمات المفاتيح:** التسجيلي، التخيلي، القناع، الحدث، الدستور، الكتابة، المسرح.

## Abstract:

*This article is a detailed introduction to Domenico Badia Leblich, a play written about Morocco in 1803 by a play wright disguised as Ali Bey Al-Abbasi. It is about the reading of the theme of the mask and its ideological knowledge that seeks to achieve immediate results, through a dramatic language that requires an imaginary structure where in the identity of the writer is concealed, and wherein the identity of the inner circle intertwines political, historical and cultural discourses.*

1 - شعيب حليفي: أستاذ جامعي بجامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء، مدير مختبر السرديات ومجلة سرود. له عدد من المقالات ومؤلفات في الرواية والنقد الأدبي، من بينها: شعرية الرواية الفانتاستيكية - الرحلة في الأدب العربي - هوية العلامات - مرايا التأويل - ثقافة النص الروائي.

*The article explores this issue through the biography of Domenko Badia the spy, and his biography when he chose to disguise himself as Ali Bay al-Abbasi; then through the trope of the masked imagination, which is part of the writing denial and its games of concealment and symbolism.*

**Key words:** documentary - fictional - mask - event - constitution - writing - theatre.

إن قدرة اللغة غير محدودة في التعبير بطرائق متجددة، عن رؤى وتأويلات لأحداث وتخييلات تبرز وتتفاعل في سياقات معقدة، فردية وجماعية، لتُبدع قولاً مفتوحاً على إمكانات دلالية متنوعة.

وكلما كانت خبرة الكاتب متجذرة في الواقع، فاعلاً فيه ومنفعلاً مع تياراته، بالإضافة إلى قدرته وموهبته في فن التعبير باللغة، جاءت نصوصه حية بطبقات تخفي، وتُظهر، من الدلالات ما له مقدرة دائمة على اللعب والتنويع فيه.

في هذه الورقة، سأعرض لورود تيمة واحدة ذات تشعبات معقدة في ثلاثة أشكال تعبيرية، يتقاطع فيها التخيلي بالتسجيلي ضمن دائرة تشابك الثقافي بالسياسي، الحقيقي بالزائف، الظاهر بالباطن، المعلن بالخفي... وغيرها من الأدوار المتصارعة، كما تُعبّر عنها الكتابة، وذلك ضمن فهم ثقافي وتاريخي فاعل فيما يتشكل من أفكار وأفعال.

تيمة من مشاريع أفكار شخصية ومؤسسية بلورها رحالة يمتلك مقدرة إبداعية توازي مقدرته على التنكر في شخصية عربية، يحمل فكرة تصبح حلماً يسير ويحيا بجوار واقع، وهما معا متناقضان يتصارعان، كل واحد ينتصر على الآخر بأسلوبه الذي يُجيده، الواقع الذي يتحول إلى أحداث أبطالها لهم مقدراتهم وخطتهم، فيما يتحول الحلم إلى كتابة.

صُومِنكو باديا الذي سيتخذ من اسم علي باي مفتاحاً يلج به عوالم جديدة تمده بلحظات اختبار ممتعة وعنيفة، سيحولها إلى تخيل رحلي وتراجيدي ومقرر استباقي عن دستور محتمل. استطاع عبرها بناء رؤيته بأبعادها الثلاثة: الأولى ما قبل ارتحاله، حين كانت فكرته مشروعاً حالمًا، يختلط فيه الوهم بغرور التفوق، وهو مشروع من صميم التقاء إرادتين: إرادته بوصفه عالماً يعشق المغامرة، وإرادة السياسة الأسبانية ذات المخططات التوسعية.

أما البعد الثاني فمن أجل تحقيقه سيضطر إلى التنازل ليعيش مُخْتَبِراً أحلامه بوصفه رحالة مستكشفاً عبر مغامرة أخفقت في نتائجها السياسية، ولكنها أتت أكلها في بنائه لحلمه الجديد على أنقاض أوامره التي تمثلها قبل خوض المغامرة.

وستهتم هذه المقالة بإعادة بسط عدد من مكونات سيرة ضومنكو بادياً وتأويلها؛ بهدف الدنو من كتاباته وفهم الجدل الذي يؤسس لها بين التخيلي والتوثيقي.

## 1 - القناع والحلم

كل من سيقراً سيرة ضومنكو بادياً (علي باي)<sup>2</sup> المشتتة، هنا وهناك، أو يُطالعُ نصوصه ورسائله التي كتبها بحسّ الروائي ومراوغات المسرحي ودهاء السياسي، سيخارمه إحساس غريب وملتبس تجاه هذه الشخصية: شعور بأنه "بطل" معجون بماء القدر المتقلب وروح المغامرة، فيبدو كما لو أنه خرج من بطن الخيال!

لا أحد يختلف بشأن أن علي باي الذي دبرَ نفسه "تاريخاً جديداً" قد دسّ فيه الحقيقة ضمن إبرام الخيال بواقع جديد، من قناع يصعب تمييزه، عدّه في البداية حياة موازية تسمى مغامرة على حافة خطر واقعي. بهذه الصفة، سيدخل إلى العالم العربي الإسلامي من بوابة المغرب؛ ودون أن يدري ستصبح الحياة المقنعة، وقد اختارها لرحلة مجهولة، هي حياته الحقيقية التي كان يخطط لها ويحلم بتنفيذ خططها، تحركه طموحات شخصية وعامة.

إنه ضومنكو بادياً الأسباني المزداد في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وسط صخب سيمتد طويلاً، تسربت بعض ظلاله إلى نفسه؛ فاختر الخروج عن المؤلف والارتحال إلى المجهول في رحلة عُدت "تجسسية"، استطاع أن يحولها إلى تجربة ثقافية يتقاطع فيها السياسي بالاقتصادي بالوهمي لصالح دولتين

2 - ولد ضومنكو بادياً ليليش Domingo badià y leblích في 1 أبريل 1767 بشلونة، وهو رحالة ومغامر أسباني. توفي بدمشق سنة 1818. وقد درس، شأن كل مجاليه، عدة علوم كانت منتشرة وأساسية ترتبط بأفق المرحلة الثقافية والسياسية في أوروبا. كما تعلم اللغات اللاتينية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية ومبادئ العربية. من مؤلفاته التي خلفها:

- *Voyages d'Ali Bey el Abbassi en Afrique et en Asie pendant les années 1803- 1807* (3 T), Paris, imprimerie de p. dido 1914.

- *Ali Bey En Marruecos*, Tragedia, Ed. estudio y notas de celca c. Garcia Valdés y michael mcgaha, Espana, collanejos de rilce, 1999.

- *La quimera constitucional de Ali Bey* (la chimère constitutionnelle d'Ali Bey), Tanger, edition khbar bladna, Maroc, 2010.

كبيرتين، أسبانيا أولاً ثم فرنسا. ووحده كان يدرك أنه يعمل لصالح خيالاته، حتى أن المؤرخين سيحتارون في تصنيفه: هل هو جاسوس أخطأ الوسيلة بعد أن فاضت أحلامه عن الحد المسموح به لمهمة واقعية جداً؟ أم مغامر تشبّع بأحلام الغزو الأوربي وطموحات الذات بما تمتلكه من معارف ورغبات؟ أم هي لعبة أديب متعدد المواهب، رَحالة يحب الاكتشاف، وكاتب يهوى اللعب بالبيضة والحجر، بالواقع والخيال... يعشق تركيب البسيط داخل المعقد، واليقين خارج المحتمل، والكذب بمراوغات الصدق الموارب؟!<sup>3</sup>

سيرة متشابكة ذات وجهين: وجه "بحقائق" يلاعب بها أشخاصاً "آمنوا" بقدرته على الاندساس داخل عوالم مغلقة ومغايرة، أغراهم بفكرة تطويع الآخر واحتوائه؛ ووجه من أقنعتة التنكيرية<sup>4</sup> في حياته بالمغرب وفي بقية دول العالم العربي الإسلامي.

منذ طفولته بدأ ضومنكو بادياً يستأنس بالعالم الإسلامي عبر علاقته بالتجار المسلمين رُفقة والده أَلْضون بيدرو باديا كاستيو، هذا الأخير الذي تقلد وظائف متعددة، منها سكرتير حاكم برشلونة ثم سكرتير جنرال مالقة، وأخيراً راوي أخبار الحرب ونائب أمين صندوق الحزب العسكري لمدينة البيرا من إقليم المرية.

في الرابعة عشرة من عمره، تم تعيينه متصرفاً بالإدارة المالية على ميناء غرناطة، وبعد خمس سنوات سيخلف والده في وظيفته إلى جانب مواصلته دراسته بالمدارس الملكية للفيزياء والكيمياء. وبعد زواجه، الذي أثمر بيدرو وماريا، جرى تعيينه متصرفاً للمداحيل الملكية من التبغ وهو يُتَمُّ دراساته وتأملاته، على الأخص في قرطبة التي تختزن آثار الحضارة الإسلامية.

في هذه الفترة، تحول بادياً إلى اختبار تجارب فيزيائية وعلمية حول الضغط الجوي من خلال المنطاد، وقد لقيت فشلاً خسر إثره كل ما اقترضه من أموال، الأمر الذي سيدفعه إلى مغادرة قرطبة نحو مدريد مخلفا وراءه زوجته وابنيه في فييرا، وهناك التحق بمنصب سكرتير مكلف بمكتبة الضون بابلو، أمير منطقة كاستيل فرانكو سنة 1799. وفي السنة التالية، ترجم عن الفرنسية

3 - هناك أيضاً من شكك في سلامة عقله:

<http://www.egiptologia.com/grandes-egiptologos/3250-domingo-francisco-badia-y-lebllich-ali-bey-el-abasi.html>

Almarcegui, Patricia, Ali Bey y los viajeros europeos a Oriente, Barcelone, Bellaterra, 2007, 312 p.

4 - سادت ثقافة التنكر في اللباس العربي مع عشرات من الرحالة والمغامرين الأوربيين قبل علي باي وبعده، وذلك في سياق معرفة أدق بعوالم الشرق العربي والغرب الإسلامي.

معجم عجائب الطبيعة لجوزيف أكنون سيكو<sup>5</sup>، كما كان مولعاً، في أوقات فراغه، بالبحث داخل المكتبات عن جديد الكتاب الفرنسيين والإنجليز حول استكشافاتهم في أفريقيا، وهي الشرارة التي ألهمت حماسه فحرَّرَ مذكرة تتضمن خطة متكاملة عنوانها الطريق إلى إفريقيا، قدّمها في الثامن من أبريل 1801 إلى رئيس الوزراء الأسباني مانويل كدوي<sup>6</sup>، مضمونها انتحال بادياً لشخصية عربية والسفر عبر المغرب نحو زنجبار وكينيا وأثيوبيا وليبيا لخلق تحالفات سياسية واقتصادية مع أسبانيا، وهو الأمر الذي أغرى كدوي، لثقته في قدرة ضومنكو بادياً- كما سيُعبّر عن ذلك في مذكراته سنة 1836 بسبب تدهور العلاقات بين أسبانيا والمغرب وتوقف المعاملات التجارية في عهد السلطان المغربي المولى سليمان. كما فكر مانويل كدوي في أن وجود بادياً في المغرب سيُمكن- هذا الأخير- من الالتقاء بكل المتمردين ضد سلطان المغرب ومساعدتهم عسكرياً على تنحيته. لكن قرار الأكاديمية الملكية للتاريخ، الموكل إليها دراسة مثل هذه المشاريع، لم يكن في صالح بادياً، فقد أبدت مجموعة من الملاحظات الوجيهة، منها أنه لا يتقن اللغة العربية ولم يقرر رفيقاً له في رحلته.

لم ييأس بادياً بعد أن علم أن الملك كارلوس الرابع ومانويل كدوي متحمسان للمشروع، فانتظر إلى حين حصوله على الموافقة وتقرَّرَ سفره بصحبة سيمون دي روخاس، الذي يعرف اللغة العربية وحاصل على دكتوراه في اللاهوت من مقاطعة بلنسية<sup>7</sup>.

وهكذا، خرج من مدريد في الثاني عشر من مايو 1802، نحو باريس ليلتقي بالعالم الفلكي جوزيف دولالاند وعالم الطبيعة جون لامارك وغيرهما،

5 - جوزيف أكنون سيكو (1730-1810) (Joseph Aignan Sigaud): عالم فرنسي في الفيزياء وأحد الرواد الأوائل في الفيزياء التجريبية. له عدد من المؤلفات في تخصصه وفي الرياضيات، كما له مؤلف معجم عجائب الطبيعة من ثلاثة مجلدات، كتبه ما بين 1781 و1801.

6 - مانويل كدوي Manuel Godoy (ولد في أسبانيا 1767، وتوفي في باريس 4 أكتوبر 1851): رئيس الحكومة الأسبانية لفترتين في ظروف صعبة، وقد عاش حياة مليئة بالأسرار والمغامرات والتقلبات. كتب مذكراته التي نشرها سنة 1836، وفيها أشار إلى علي باي ومهمته.

Godoy, Manuel de, *Memoirs of Don Manuel de Godoy, Prince of the Peace, Duke del Alcudia, Count d'Everamonte*, &c. London: R. Bentley, 1836.

للمزيد من الاطلاع على حياته، انظر:

<http://www.britannica.com/EBchecked/topic/236890/Manuel-de-Godoy>

7 - سيمون دي روخاس (-1777 1827) عالم نباتات أسباني يجيد اللغة العربية، وله أيضاً معارف متعمقة في الكيمياء واللاهوت وفقه اللغة العبرية. عمل طويلاً في الحدائق النباتية وتصنيف النبات والحيوانات. انظر للمزيد: [http://en.wikipedia.org/wiki/Sim%C3%B3n\\_de\\_Roxas\\_Clemente\\_y\\_Rubio](http://en.wikipedia.org/wiki/Sim%C3%B3n_de_Roxas_Clemente_y_Rubio) [http://www.uv.es/metode/numero34/5\\_34.html](http://www.uv.es/metode/numero34/5_34.html)

وقد نشرت جريدة مدريد خبر سفر روخاس وضومنكو بادياً، رغم سرية المهمة، دون أن ينتبه إليه أحد في الضفة الأخرى.

حيث حصل على معلومات جغرافية وبحرية. وفي غشت من السنة نفسها، توجه إلى لندن، وهناك التقى بعدد من العلماء وتعرف على الآليات التي سيستعملها في رحلته، واغتنم الفرصة فأخضع نفسه لعملية ختان على يد طبيب يهودي، تاركاً لحيته ومرتدياً اللباس العربي.

في قادس، التي وصلها بادياً وصديقه روخاس، على باخرة من لندن، استقر رأيهما على أن يختار بادياً اسم علي باي بن عبد الله؛ فيما سيحمل روخاس اسم محمد بن علي، هذا الأخير الذي لم يكن متحمساً أو مقتنعاً، وربما خائفاً، تخلف تاركا بادياً يسافر وحيداً إلا من قناعه الجديد نحو طنجة يوم 29 يونيو 1803، وهناك قدّم نفسه للمجتمع الطنجي على أنه ابن أمير سوري ثري خرج من بلاده لأسباب سياسية، فعاش ودرس في إيطاليا وإنجلترا، وقال لهم إنه جاء للتعلم في دين آباءه.

وقد أظهر، منذ البداية، الورع والتقوى بالمداومة على الصلاة وتوزيع الصدقات على فقراء المدينة؛ فذاعت شهرته، وعلى الأخص حين تنبأ بالكسوف في الخامس عشر من فبراير 1804، وتوثقت علاقته بكبار المسؤولين السياسيين والدينيين في طنجة، ولأنه لم يكن يجيد اللغة العربية فقد استعان بيهوديين لخدمته في التواصل والترجمة.

## 2 - الخيال المُقنّع

بهذا القناع والخيال وخططه المرسومة أو المُستجدة، سيلتقي بالسلطان المغربي المولى سليمان<sup>8</sup> إثر قدومه طنجة بقصد تسوية أمر طارئ، مقدماً له هدايا سخية، لينتقل بعد ذلك إلى فاس بدعوة منه، ثم مراكش برفقته دائماً، وهناك سيهديه السلطان قصر السمالية، الذي وصفه علي باي بدقة متناهية فيما دونه عن رحلته إلى المغرب ابتداء من الفصل السادس (علي باي: رحلات، ص. 51).

بقي علي باي على اتصال بمناويل كُدُوئي، يوهمه بأن النصر قريب على مرمرى نظر، فقريباً سيلجأ السلطان إلى طلب العون من أسبانيا لإخماد ما سيأتي من ثورات. وإذا ما فشل هذا السيناريو فسيعمل على التنسيق مع متمردي

8- السلطان المغربي المولى سليمان (1792-1822): اشتهر بالعدل والتقوى وبقطع المواسم التي عدّها كعبة المتدعة والفاستين، وأمر بخطبته الشهيرة على سائر المنابر إرشاداً للناس لاتباع السنن ومجانبة البدع. ومما يقوله في نهاية خطبته: "وها نحن عباد الله أرشدناكم وأنذرناكم وحذرنناكم، فمن ذهب بعد لهذه المواسم، أو أحدث بدعة في شريعة نبيه أبي القاسم، فقد سعى في هلاك نفسه، وجرّ الوبال عليه وعلى أبناء جنسه، وتله الشيطان للجبين، وخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الحسران المبين، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم".

قبائل جبال الأطلس وغيرهم للإطاحة بالسلطان، وبياع (علي باي) سلطاناً على الإمبراطورية المغربية.

لكن تحولاً جديداً سيظهر في مسار حياته التنكزية خلال ديسمبر 1804، إثر المواجهة بين أسبانيا وإنجلترا، جعلت الملك كارلوس الرابع يدعو بادياً إلى تطبيق مخططه بغزو المغرب؛ غير أن علي باي اكتشف أنه لم يعد قادراً على لعب الدور نفسه؛ فالتمردون لا يثقون فيه كما أن شكوك عدد من المحيطين بالسلطان بدأت تساورهم.

وكان علي باي قد شرع في إقناع السلطان بتبني دستور يُقنن تَوَلَّى الحكم ويضمن للمغاربة الملكية الفردية. وفي هذه الفترة، تزوج من أم هانئ التي ستضع له ابناً، بعد رحيله، حَمَلَ اسم عثمان. وتؤكد أن السلطان غير مقتنع بأي تعديل على حكمه وأن عداوته لأسبانيا ثابتة، فتسارعت الأحداث وحاول التنسيق مع مولاي العربي الدرقاوي لتنفيذ الثورة، لكن محاولته فشلت، وأحس السلطان بأن علي باي متورط بشكل من الأشكال فأمره بالخروج فوراً من المغرب.

في مسار حياته بالمغرب كان علي باي ينطلق دائماً من نقط ارتكازية شكَّلت محور تفكير وتدبير، ذلك أن اقتراح فكرة تبني الدستور ستصبح داخل محيط النخبة السياسية جوهر النقاش والصراع، وقد أشار علي باي إلى فكرة الدستور وأشكال تلقيه في نص المسرحية، سواء من لدن السلطان أو حاشيته، مصوراً صراع الأفكار المعيرة عن وعي طبقات متباينة تحركها ثقافات ومصالح. ومما ورد على لسان من عدهما عدوين لمشروعه، ألا وهما عبد الملك ومحمد السلاوي (المشهد الخامس من الفصل الأول):

عبد الملك (مُخاطباً السلطان المولى سليمان): بالرغم من ذلك، فإن فكرة إعطاء رعاياك ضمانات بحرية والملكية الخاصة ومنحهم التمثيلية على مستوى الوطن تخيفني وتجعلني أرتعش.

السلاوي: في رأيي، إن كل تجديد يُعتبر خطيراً، وخصوصاً عندما يتعلق الأمر بالتخفيف من خضوع أناس غير قادرين على تقنين حقوقهم وواجباتهم. ثق بي سيدي، إن الله قد أعطاكم عرش المغرب لكي تنعموا بالراحة، دون أن تقلقوا على مصير الستة ملايين من الخلق الذين قَدَّر لهم أن يكونوا في خدمتكم وتلبية رغباتكم.



وأنا بدوري أعترف وأشهد أنه حتى البذلة التي أرتديها ليست لي. الكلكل ملك للسلطان. إننا لم نجد هذه المؤسسة القوية والموجودة منذ عدة قرون. (علي باي، علي باي في المغرب ص 61 من النص الإسباني).

وفي المشهد الخامس من الفصل الثاني، يرد السلطان على اقتراح علي باي بما يلي:

السلطان: هذا صحيح، يا علي باي، لكنني مرتاح لوضعتي، فلماذا علي أن أقوم بالتجديد الذي يمكن أن يشكل خطراً؟ (نفسه، 80).

وهو المعنى نفسه الذي سينقله المولى عبد السلام عن أخيه السلطان في حوار له مع علي باي (المشهد السابع من الفصل الرابع):

عبد السلام: آه، يا صديقي العزيز! إن الله لن يستجيب لدعائنا. لقد صار قلب سليمان متحجراً بسبب نصائح عبد المالك الشاذة فقاوم كل حججي وأعلن بصفة نهائية أنه لا يريد وضع دستور.

علي باي: هل هذا صحيح؟

عبد السلام: للأسف، إنه صحيح جداً.

علي باي: لكن ما هي الأسباب التي اعتمد عليها لكي يرفض؟

عبد السلام: لقد رأى الخطورة في كل جديد. كما أنه غير مقتنع بجديوى الدستور خاصة إذا ما كان والده سيدي محمد وجدّه مولاي عبد الله، وهما من أكبر السلاطين، لم يضعوا دستوراً للبلاد.

علي باي: ما أتعس هؤلاء الأمراء! وما أتعس هذه الأمة...!

عبد السلام: إنني أعرف جيداً أسباب مقاومة سليمان؟ فهو لا يريد التخلي عن سلطته الجائرة التي يستمتع بها ولهذا، فإن وضع قانون مكتوب ومؤسسات للدولة تسهر على حمايته هو في الواقع أمر يرهبه.

علي باي: وهل يعقل أن يميل قلب سليمان إلى التلذذ بلحظة عوض الاطمئنان على مصير عائلته وسعادة شعبه؟ (نفسه، 112).

وفي المشهد الثالث من الفصل الخامس والأخير سيصرح السلطان، المولى سليمان بأمر ما عنده في هذا الموضوع أمام علي باي والمولى عبد السلام:

عبد السلام: لا يا سليمان، لا تستخف بنصائح علي باي. هو يكلمك

بصراحة قلبه، ويمكن القول إن الله هو الذي جاء به إلى أرضنا كي ينبهنا لما فيه خير لهذه الأمة.

سليمان: (يتردد) ليته كان ممكناً... لكن لا... علّه كان بمقدوري التوفيق... لا، هذا غير ممكن. (بحزم) لا تكلموني بهذا الشأن مرة أخرى. (نفسه، 129).

ترك هذه الحوارات، التي تختزل بنيات الزمن في فصول متتالية وحوارات في أمكنة محدودة، انطباعاً مباشراً حول تيمة الصراع في قبول الدستور أو رفضه، وهي قضايا ثابتة تاريخياً؛ لكن علي باي لا يهّمه ظاهرياً إبراز التاريخ، بقدر سعيه إلى تشخيص وعيين متصارعين، ضمن تجنيس ثقافي يسمح لأفق التلقي بتقبل البعد الدرامي وجعل البعد التوثيقي خفياً، قابلاً في مرجعية خلفية، ضمن مرجعيات أخرى متنكرة.

\*\*\*

بعد صدور قرار الترحيل من ميناء العرائش، وبإشراف حاكمها محمد السلاوي وزير السلطان، الذي تكلف بتنفيذ قرار الطرد، أبحر علي باي على ظهر سفينة، يقودها الرئيس عمر، يوم الثالث عشر من أكتوبر 1805، دون السماح لزوجته أم هانئ، وهي حامل، بمرافقته؛ متوجهاً عن طريق طرابلس الغرب ومتوقفاً في ليبيا، ثم تاهت السفينة في سواحل قبرص أثناء سيرها نحو الإسكندرية، قبل أن تصل في الثاني عشر من مايو 1806، حيث سيلتقي بالكتاب الفرنسي شاتوبريان، صاحب كتاب الرحلة من باريس إلى القدس<sup>9</sup>.

في القاهرة، شرع يتصل بالجمالية المغربية، التي قال إنها كانت كثيرة العدد وذات نفوذ ديني واقتصادي، كما التقى بالمولى سلامة - شقيق السلطان - المطالب بعرش المغرب. بالإضافة إلى لقاءاته مع رموز عهد محمد علي، منهم هذا الأخير وعمر مكرم والقبطان باشا التركي.

9 - فرانسوا - رينيه دي شاتوبريان (1768 - 1847): كاتب فرنسي ورحالة، زار أمريكا سنة 1791 راصداً حياة الهنود الحمر المتصالحة مع الطبيعة. وفيما بين صيف 1806 وصيف 1807 سيرحل إلى الشرق، وهي الرحلة التي سيدونها في كتاب صدر أول مرة سنة 1811 تحت عنوان رحلة من باريس إلى القدس، ومن القدس إلى باريس مروراً باليونان، والعودة من مصر وبلاد البرابرة وإسبانيا. وقد رافقه في رحلته خادمه جوليان Julien Potelin (1757- 1832) وسيصدر كتابه بعد موته أول مرة سنة 1901 تحت اسم جوليان خادم شاتوبريان، ثم في طبعات أخرى لاحقة.

انظر: شاتوبريان، الطريق من باريس إلى القدس، ترجمة مي عبدالكريم محمود، سوريا دار المدى، دمشق، 2008. *Itinéraire de Paris à Jérusalem et de Jérusalem à Paris, suivi du journal de Julien*, édition présentée, établie et annotée par Jean Claude Berchet, Paris, Gallimard, folio classique, 2005, (735 p).

في ديسمبر 1806 توجه إلى مكة، فوصلها يوم الحادي عشر من يناير 1807، مؤدياً شعائر الحج، وهو ما سيصفه بدقة متناهية في الفصول الخاصة بذلك في رحلته، قبل أن يعود إلى مصر في يونيو من السنة نفسها ليمكث خمسة عشر يوماً فقط، ثم يشد الرحال - ولمدة ثلاثة أشهر - إلى فلسطين وسوريا. وفي أكتوبر سيصل القسطنطينية وقد استشعر أن محمد علي اكتشف أمر تخفيته وأشاع خبره في مصر وفلسطين وسوريا، فعبّر حدود الإمبراطورية العثمانية إلى فيينا (في الرابع عشر من يناير 1808) ليصل إلى باريس في السابع عشر من أبريل 1808، فأسبانيا. وهناك، وجد أن جوزيف بونابارت - شقيق نابليون - قد أصبح هو الملك، بعد تنحي الملك الأسباني كارلوس الرابع.

انبهر نابليون بالمعلومات الدقيقة التي سمعها من علي باي عن المغرب، فقرر إرسال القبطان أنطوان بوريل<sup>10</sup> لاستكشاف إمكان تحويل المغرب إلى مستعمرة فرنسية.

في مدريد سيصدر علي باي (يوليو 1808) مطبوعاً عن حياته وموجزاً لرحلاته؛ وهي الفترة التي سيتحمل فيها عدداً من المسؤوليات التي جلبت عليه متاعب وإشاعات، تتهمه حيناً بأنه يهودي ومجنون، وحيناً آخر بأنه مسلم وماسوني وزنديق. وفي قرطبة، اتهم بسرقة أموال الأديرة ومحاكم التفتيش، كما كلفه جوزيف بونابارت بالتفاوض مع ثوار بلنسية وفشل، وآخر مشاكله اعتقاله بتهمة اختلاس المال العام قبل أن يفرجوا عنه.

خلال هذه السنوات الأربع، أدخل علي باي - وهو مسئول في قرطبة - عدة إصلاحات على الزراعة والإدارة المحلية والتعليم وأنشأ أكاديمية العلوم والآداب والفنون الجميلة، وهي الفترة نفسها التي دَوّن فيها رحلته ونشرها في فرنسا.

سيرة ضابطة بالحياة وما هو واقعي، في مجال عمله ومسئوليته السياسية والاجتماعية والعلمية، يفر منها إلى ذاته التي يجعلها معبراً إلى التخيل.

10 - أنطوان بوريل (1773-1850) (Antoine Burel): ابن مزارع فرنسي، خريج مدرسة علوم التقنيات. التحق بالخدمة سنة 1793، وعمل في عدد من المهمات بمصر وأسبانيا، قبل أن يتم إرساله، تمهيداً لغزو المغرب، برسالة من نابليون إلى السلطان المولى سليمان، حيث وصل طنجة يوم 27 مايو 1808، وقضى ثلاثة أشهر فيها قبل أن يلتحق بمكناس، وخلال هذه الفترة استطاع جمع معلومات عن تركيبة ساكنة طنجة وتنظيم الجيش وطبيعة الأرض. انظر: *La mission du capitaine Burel au maroc en 1808*, document publié par Jacques Caillé, Paris, Arts et métiers graphiques, 1953.

### 3 - عودة الراكدا!

عاد علي باي إلى أحلامه القديمة فكَاتَبَ، في أكتوبر 1815، وزير الخارجية الفرنسي يدعوه إلى استعمار المغرب، مُغْرِباً إياه بثناء طبيعته وثوراته، مقترحاً نفسه للقيام بهذه المهمة، مثلما شرع في طرق أبواب الكونت ديكاكز وزير الشرطة ثم الكونت مولي Molé وزير البحرية. وبطريقة ما، تم قبول مهمة علي باي الذي خرج من باريس في نهاية ديسمبر 1817، يحمل اسماً مستعاراً هو الحاج علي أبو عثمان، عادلاً عن اسمه الأول، مُيَمِّماً نحو الحج ماراً بميلانو الإيطالية ثم القسطنطينية والبوسفور وصولاً إلى دمشق. وفي كل هذه المراحل، كان دائم المراسلة مع الكونت مولي والالتقاء بسفراء فرنسا للتمويل مادياً.

في دمشق اشتدَّ عليه المرض، داء الدوسنتاريا<sup>11</sup>، ثم قامت قافلة الحجاج من دمشق ولم تتوقف إلا على حدود الجولان، لمدة عشرة أيام، وهو في حالة صحية متدهورة أحس معها بدنو أجله، فأحرق بعض أوراقه، ثم كلف خادميه ياسين وإبراهيم بتسليم كل حاجاته المتبقية إلى قنصل فرنسا في دمشق، فيما اختار الشيخ الجزار وصياً لتنفيذ وصيته.

أثناء سير القافلة من الزرقاء إلى البلقاء، أمر بتوزيع أمواله التي بقيت معه، بين عبد أسود مرافق له وبين فقراء مكة والمدينة.

وفي منتصف الليل من شهر غشت 1818، مات علي باي ودُفِنَ على الطريقة الإسلامية في قلعة البلقاء، جنوب شرق الأردن، رغم ما أشيع عنه، من طرف مغاربة كانوا برفقته في قافلة الحج، بأنه مسيحي مُتَخَفٍ وساحر.

وبعد وفاته، شاعت عدة روايات رسمية بأنه مات مسموماً من طرف عميل بريطاني، كما أن أسرته لم تعلم بخبر موته إلا في السابع عشر من مارس 1819، دون أن تصدق ما بلغها مُعْتَبَرَةً ذلك خدعة من خططه الغريبة، وقناعاً لحياة أخرى.

### 4 - الحنين إلى القناع القديم

حين طرد الفرنسيون من أسبانيا في نهاية 1812، رافقهم علي باي مستقراً في فرنسا، وقد كانت رغبته حية في تحقيق مشاريعه، ومنها طبع رحلته التي كان قد حصل، من قبل، على أمر من نابليون بتحريرها وترجمتها وطبعها، لكن

11 - مرض الدوسنتاريا، أو الزحار، عبارة عن التهاب الأمعاء نتيجة الإصابة بأحد الجراثيم أو الطفيليات؛ مما يؤدي إلى حدوث إسهال مصحوب بارتفاع درجة الحرارة والقيء.

الظروف السياسية الجديدة دفعته إلى إعادة الطلب من لجنة العلماء الفرنسيين التي وافقت على النشر، وتعهدت وزارة الداخلية باقتناء 250 نسخة من الرحلة المطبوعة وكان ذلك سنة 1814، حيث صدرت الطبعة الأولى بالفرنسية في ثلاثة أجزاء بعنوان رحلات علي باي العباسي في أفريقيا وآسيا خلال أعوام 1803 - 1807، مرفق بها أطلس وخمس خرائط وثلاثة وثمانين رسماً، والغريب أنه لم يستعمل اسمه الحقيقي زاعماً أن كتابه هو ترجمة لرحلة كاتب عربي، وأنه مجرد ناشر، وقد رمز لاسمه بحرف B، دون أن يذكر في الكتاب نشاطاته السياسية.

وفي سنة 1816، صدرت الطبعة الإنجليزية في جزأين بعنوان مغاير: رحلات علي باي إلى المغرب وطرابلس وقبرص ومصر والجزيرة العربية وسوريا وتركيا بين أعوام (1803 - 1807)، كما صدرت في السنة نفسها الطبعة الألمانية في جزأين والطبعة الإيطالية في أربعة أجزاء. بمقدمة عن سيرة خيالية لعلي باي، وتأخرت الطبعة الأسبانية بلنسية إلى سنة 1836، وهي الطبعة التي تكشف عن الشخصية الحقيقية لعلي باي، أما الترجمة إلى اللغة الكطلانية فجاءت ابتداءً من عام 1888.

#### 5 - أفئدة الكتابة

يدو من أرشيف إدواردو طودا<sup>12</sup> برشلونة، أو من وثائق في أماكن أخرى بالمغرب ومصر ودمشق، أو لدى أشخاص يحتفظون بما لديهم، ومن خلال كتاب ومؤرخين وديبلوماسيين عاصروه، أن إرث علي باي ما زال يعد بالكثير، فقد نُشر مؤخراً نص الدستور<sup>13</sup> الذي كتبه سنة 1817، قبل وفاته، حين عاوده الحنين الراقد في وجدانه الجموح، ليكون سلطاناً على المغرب. وقد كتب هذا الدستور للمغرب في الفترة التي قبل فيها الفرنسيون انخراطه من جديد في مغامراته التنكرية إلى الشرق، تمهيداً لخطة جديدة بالمغرب، وفي ذاكرته لحظة ترحيله سنة 1805 التي كانت قاسية على نفسه.

12 - إدواردو طودا (1855-1941): ديبلوماسي إسباني، كان مسئولاً في قنصليات بالشرق، وفي 1884 عُين قنصلاً عاماً في القاهرة حيث شارك في اكتشاف قبر سندجم، كما ذهب في مهمة أركيولوجية بأعالي مصر، وكل ذلك بإشراف ماسبيرو. غادر طودا مصر في مارس 1886 محملاً بعدد من الآثار النفيسة، ونشر بعد رجوعه ثلاث مونوغرافيات، كما نشر مؤلفه *A travers del égypte*. وكان لظودا فضل كبير في تجميع العديد من الوثائق حول علي باي، خلال تواجده قنصلاً لأسبانيا في مصر، أو ما عثر عليه في أسبانيا وإنجلترا وفرنسا، أو مغامراته بشراء جزء من أرشيف علي باي الذي كان في حوزة حفيده إميل دي سال بباريس سنة 1889. وقد سلم طودا كل هذا الأرشيف لاحقاً إلى مكتبة المعهد البلدي برشلونة، وضمنه نص مسودة المسرحية.

13 - دستور للمملكة المغربية قام بصياغته علي باي حوالي سنة 1817، بعد عشر سنوات من خروجه من المغرب. وتوجد نسخة منه في أرشيف برشلونة ضمن ما تركه طودا: AHCB, col, toda, Ms B, 162-II. وقد طبع بالمغرب باللغتين الفرنسية والإسبانية:

*La quimera constitucional de Ali Bey (la chimère constitutionnelle d'Ali Bey)*, Tanger, édition khbar bladna, Maroc, 2010 (65 pages).

إن حلم علي باي بالمغرب معقد بشكل غريب، بعد الذي عاشه فيه مما ترك في نفسه أثراً أشبع إحساسه وخياله فعبر عن ذلك أولاً، في رحلة رَفَع اسمَه الحقيقي وحقائق مهمته عنها. ثم ثانياً، في نص مسرحي روى فيه كيف كان يبحث عن دسترة المغرب. وأخيراً، في نص قانوني، هو الأول من نوعه، ينظم الملك والملكية من خلال إحدى وثلاثين فصلاً بعد الديباجة والخاتمة؛ وهو في كل هذا كان متأثراً بالسياق العام الذي عاش فيه بأسبانيا وفرنسا، وسحر شخصية نابليون بونابارت وشهرة حملته على مصر سنة 1798، وحكم أخيه جوزيف عرش أسبانيا، ثم موضوع الدستور الذي كان محط نقاش وفير في أوروبا تلك السنوات.

ونعتقد أن مسرحية علي باي في المغرب، قد كتبت في الفترة نفسها، خلال خريف 1815، وهي من خمسة فصول وثلاثة وخمسين مشهداً، تتخذ من علي باي شخصية محورية إلى جانب السلطان المولى سليمان والمولى عبد السلام، الأخ الأكبر للسلطان، وكان أعمى وصديقاً حميماً له، بالإضافة إلى شخصيات أخرى ذات نفوذ وتأثير، وكأن علي باي قد عاد مستكملاً ما لم يستطع تفصيله في الفصول الثلاثة الأخيرة من رحلته إلى المغرب (الفصول 16 و17 و18)، محاولاً تشخيص مجموعة من الأحداث والأفكار والتمثيلات الثقافية عن أناه والآخر، وبخاصة أنه ذو خيال واسع وعاشق للمسرح، فقد سبق له أن وضع مسودة لكتاب حول يوميات المسارح، مثلما عدّ حياته مسرحية يمثل فيها دوره إلى جانب الآخرين.

تطرح المسرحية مجموعة من القضايا الثقافية الملحة في تلك الفترة، منها الشخصية المغربية والنخبة، وأشكال الحوار وتداول الأفكار، وقضية الهوية، ثم التحديث والصراع بين دسترة السلطة والانشداد إلى الواقع كما هو. كل ذلك في طابع درامي يصوغ التاريخي في بناء تخيلي منفتح على خطابات ثقافية سادت في المغرب وأوروبا مع بدايات القرن التاسع عشر.

وقد تناول كل هذه القضايا ببنية ضمن إطار تراجيدي، متجاوزاً بذلك سقوط النص في التوثيقي أو الواقعي بلجونه إلى تحويل فكرة الدستور إلى حدث درامي خلق صراعاً حَقَّق التشويق رغم أنه اتخذ كل أبطال المسرحية من أسماء شخصيات حقيقية تاريخياً، في تقاطع مع سيرته الشخصية أثناء رحلته إلى المغرب وبين مضمون المسرحية.

ومن جهة أخرى، استطاع علي باي توثيق سفره إلى المغرب في الفترة ما بين 1803 و 1805، مثلما سيُدوّن بقية أسفاره عن السنتين التاليتين، في نصٍ رحلي من ثمانية عشر فصلاً في شكل يوميات بتواريخ مضبوطة، معززا مشاهداته برسومات من إنجازهِ، حيث كان التخيل والحلم وسيلتين لجعل التنكر - من شخصية ضومنكو بادياً العالم والرحالة الأسباني، إلى شخصية علي باي المسلم ابن الأمير العباسي الحلبي، الباحث عن مكان آمن في بلد إسلامي - مرآة سحرية لتوثيق ما يحدث عنه. بل سيبدو أنه يحمل بداخله مشروعين كبيرين خلف تنكره، المشروع الرسمي الأسباني كما جرى الترتيب له مع الوزير الأول الأسباني مانويل كودوي والملك الأسباني، ثم لاحقاً مع فرنسا؛ والمشروع الشخصي الذي كان، في المرحلة الأولى، جنينياً وحلماً بعيداً، لكنه في المرحلة الثانية، بفرنسا، سيصبح على بعد خطوة من أن يصبح إمبراطوراً على المغرب بصفته العربية، وهو ما عبّر عنه في نص الدستور الذي كان آخر ما قيده، دون الحديث عن مراسلاته وملاحظاته المدونة. فأول جملة تعبر عن بداية ذوبان الشخصيتين في شخصية ثالثة (وهي أقصى درجات التخفي) حين قال: "ولا يمكن أن يُقارن الإحساس الذي يَغمرُ الإنسان وهو يخوض هذا العبور القصير سوى بالحلم، ذلك أن انتقاله في حيزٍ زمني وجيز إلى عالمٍ جديد كلياً لا شبه له - ولو من بعيد - بالعالم الذي خلف وراءه، يجعله يجد نفسه في الحقيقة، كأنه قد حُمل إلى كوكب آخر" (علي باي، رحلات . ص 9).

إنه يُجهد نفسه لجعل نصه وثيقة تنتمي إلى دائرة جنس رحلة عالم في الطبيعة والإنسان؛ ففي صفحة واحدة - مثلاً - نجده يجمع عدداً من الأفكار والتعليقات عن طبيعة الخيول في طنجة، ثم ينتقل إلى عدد ساكنة طنجة "عشرة آلاف أكثرهم جنود وتجار.." (نفسه، 23)، ليستطرد مفصلاً الحديث عن ملابسهم وأنواعها قبل الحديث عن النساء وهن "ملتحفات تماماً دوماً، حتى إنه بصعوبة ما تُتَبَيَّنُ عينٌ في عُمق ثنية هائلة من حايكهن...." (نفسه، 23)، مثلما سيقف أيضاً على ألبسة الأطفال.

وسيعمل علي باي على وصف كل شيء مرتبط بالدين والحياة اليومية والتجارة والفن والعلوم والطبيعة، قبل أن يهتم بالحكام وأنسابهم... كل ذلك بأسلوب سردي سلس ودقيق جعل الخلفية التسجيلية لا تبدو ضاغطة على التخيل. ويمكن تفكيك الكتابة عند علي باي، في هذا النص، من خلال أربع حلقات متفاعلة:

1 - حلقة الأنا في تنكرها، فقد أعلن منذ البداية، في الطبقات الأولى إبان حياته، أنه مجرد ناشر لترجمة رحلة كاتب عربي، رامزاً لنفسه بحرف "ب"، وبهذه الشخصية المتخفية يقدم نفسه أميراً عربياً، وعالمًا متشبعاً بالعلوم من دول أوربية، مما جعله يُصَبِّغُ على ذاته بعض القداسة مصوراً إعجاب الجميع به، من الرعية والسلطان وحاشيته، مقابل وجود أعداء له يقفون في وجهه مشاريعه.

و لم يَسَلِّمْ قناع الأنا من التزحزح عن مكانه، فيطل منه ضُومَنُكو بادياً، وبخاصة في الفصل التاسع من رحلته إلى المغرب (نفسه، 95)، خلال حديثه عن الدين الإسلامي والرسول والوحي والقرآن، فيبدو محايداً يكشف عن خلفية غير مقتنعة تماماً.

وفي هذه الحلقة، يُحَقِّقُ تجاوز التخييل للتوثيق، لأن الرحالة الراوي هو علي باي الذي "قتل" رمزياً رحلة ضُومَنُكو بادياً، وانخرط ضمن جنس تعبري من شروطه سرد وقائع الرحلة وما يَقَعُ فيها من عجائب ومصادفات، ووصفها، دون أن تخلو من توثيق استطاع علي باي أن يدونه داخل حكي تشويقي.

2 - حلقة الآخر كما يصوره، سواء من عموم الناس الذين يجعلونه لعلمه وجاهه وعطفه على الفقراء، أو السلطان وحاشيته الذين لا يستطيعون الاستغناء عنه وعلى الأخص صديقه المولى عبد السلام (الأخ الأكبر للسلطان)، وسيخُصُّه علي باي بكثير من المحبة في الرحلة والمسرحية، ويَعُدُّه أقرب أصدقائه ومناصريه؛ وفي المقابل يوجد أعداؤه- كما سيسميهم في الرحلة والمسرحية- وعلى رأسهم الوزير الأول محمد السلاوي ومجموعته، وهم ممن كانوا يشكون في شخصيته واكتشفوا حقيقة علاقته بثوار الأطلس.

3 - حلقة المغامرة وحب البحث في الطبيعة والإنسان وتسجيل كل الملاحظات وإعادة بنائها.

4 - حلقة الأحكام المضمنة في تعليقاته المباشرة وغير المباشرة.

وتُعَدُّ الفصول الثلاثة الأخيرة من رحلة علي باي إلى المغرب (16 و17 و18) محوراً أساسياً يتضمن أهم الأفكار التي رسمها، وسيعيد كتابتها بطريقتين مختلفتين، تخييلياً في المسرحية وتوثيقياً في نص الدستور.

يفتح الفصول الثلاثة بقوله: "خلال إقامتي بالسملالية، هاجمني مرض كاد يقودني إلى عتبة القبر. فخلال ثلاثة أشهر أصبتُ بخمس انتكاسات



جسيمة، وكابدت وقتاً مماًثلاً طريح الفراش في حال من الوهن الفظيع، مما فوّت عليّ وقتاً ثميناً لإجراء أبحاثي المختلفة الأنواع“ (علي باي، رحلات، ص 183). إنه تمهيد يرمز بقدر ما فيه من واقعية إلى تقابل هذه البداية مع النهاية التي ستأتي بموت أحلام علي باي وكل مشروعه في المغرب، بعد أن تم “ترحيله” أو طرده من ميناء العرائش. يقول:

”.. سألتُ عن الباشا فقالوا لي بعجرفة: ”اركب من فضلك“. حينئذ بدت لي واضحة سوء نية السلطان والباشا اللذين أمرا حتى اللحظة الأخيرة أن تُقام لي المراسيم الكبرى من قِبَل فيالق الجيش والشعب، بينما كانا يفكران في الضربة التي يُفترض أن تخرجني وتُصيبي في الصميم، فشرعتُ أنظرُ باهتمام كبير إلى مصير أولئك الناس الذين يُكْتَبون لي كل الحب، مثلما كنتُ أتأمل مصيري الخاص.

أركبوني الزورق، وقلبي يتقطع بسبب صراخ بعض رفاق قافلتني المتألمين لهذا الفراق. نزلتُ إلى النهر، يفترسني الحنق واليأس، إلى حين الوصول إلى الحاجز، حيث الضربات القوية للأمواج أصابتنني بالدوار [.....].

لقد غادرتُ سلطنة المغرب بمثل هذه الصيغة. وأتفادى إيراد انطباعاتي التي ليس هذا محلها، ولربما يكون موضعها مناسبة أخرى“. (نفسه، 230)

لم يشأ علي باي، بحسه الحذر، أن يتجاوز شخصيته التنكيرية في قوله بأن الرحلة ليس محلها إيراد انطباعاته المترتبة عن حدث حقيقي، ولكنه يعمد إلى إعادة تصوير هذه اللحظة التي آلمته وتركت في نفسه جرحاً بليغاً، بصيغة فنية، في مسرحيته وبخاصة في المشهد الأخير (الثاني عشر) وبعده يُسدل الستار وتنتهي المسرحية، وهو يصف كيف كان مع التأثيرين عصمان وابن الجيلالي ضد السلطان ينسقون، وفجأة يدخل عليهم جنود السلطان يتقدمهم الأمير مولاي عبد المالك رئيس الحرس وابن عم سليمان برفقة محمد السلاوي الوزير الأول (الأعظم)، بعد اكتشاف مؤامرتهم ضد المولى سليمان وقدمهم للقبض عليه:

”يدخل، فجأة، عبد المالك بمعية بعض الجنود ويَرْتَمون على علي باي وعصمان وابن الجيلالي طارحين الاثنين أرضاً. تراه أم هانئ وتصرخ:

– أم هانئ: آه، يا أ الله!

– عبد المالك: أيها الخونة، هيا لتدفعوا ثمن جريمتكم.

(السلأوي يحاصر النساء رفقة فوج آخر من الجنء وبقول):

– السلأوي: أم هانئ، أنتِ أسيرتي.

(تكسر أم هانئ الحاجز وتحاول الذهاب نحو علي باي الذي يسل سيفه ليشق لنفسه طريقاً نحوها هاتفاً):

– علي باي: لِنُمتُ يا أم هانئ.

(يطرح الجنوء علي باي أرضاً ويتزعون سلاحه وتركض أم هانئ إلى شجرة الورد وتمسك الخنجر هاتفة):

– أم هانئ: آه أيها السلأوي الغادر!

(تذهب ناحيته وترفع يدها هاتفة): فَلْتُمْتُ أيها الخبيث.

عند توجيهها الطعنة له، يعترضها جنان الذي يتلقاها ويسقط قائلاً:

– جنان: واحسرتي!

(أم هانئ تقول للسلأوي):

– أم هانئ: استطعت أيها الشنيع إنقاذ هذه الحياة البغيضة لكنكم لن تستطيعوا استعباد حياتي.

(تُصيب نفسها وتسقط قائلة):

– أم هانئ: الله أكبر.

– عبد المالك: أيتها المرأة الرائعة، إنك تستحقين حياة أفضل!. (علي

باي، المسرحية، ص.125).

وإذا كان علي باي قد أوردَ حدثاً واحداً في نصِّين بالشكل الفني المتجاوز للنفس التسجيلي، فإنَّ الموقف نفسه سيعيد قراءته بطريقة تسجيلية في نصِّ الدستور الذي كتبه، سواء في تقديمه أو خاتمه، ومما جاء في الديباجة:

– أيها المؤمنون الأوفياء، إنكم تعرفون أن سلطاناً رائعاً سيظهر في

أطراف العالم الغربي. يا له من سلطان! ويا له من رجل عجيب علي باي هذا! أنتم تعرفونه وتحبونه. إن علي باي الذي تكوّن على يد الله العظيم التي لا تقهر، ويتأييد الله سوف يدمر طغيان واستبداد هؤلاء الشرفاء الذين يُخضعونكم للعبودية تحت غطاء الدين، إرضاءً لأهوائهم ومن دون احترام لأي قانون،

وينتزعون منكم ممتلكاتكم ويمتصون دمكم وأموالكم ملء كنوزهم، دون أن يقدموا شيئاً لبلدانهم، كل ذلك من أجل التلذذ بأهوائهم ولكي يجعلوا منكم ضحايا بؤساء<sup>14</sup>.

قبل أن يعود في خاتمة الدستور ليصرح بشكل واضح - بضمير الغائب - ما وقع له منذ قدومه إلى المغرب، وهي قراءة جديدة يقدمها من منظوره انتقاماً لنفسيته الجريحة:

”جاء إلى المغرب في سنة 1218 هجرية بدون أية أطماع رغم سيطرته على شخصية مولاي سليمان، وكان بإمكانه أن يستولي على العرش، ولكنه رفض ذلك نظراً لنبله وعدم اكتراثه بالموضوع، واقترح على مولاي سليمان أن يقوم بصياغة دستور للإمبراطورية بنفسه من أجل مصلحة عائلته ومصلحة شعوب الغرب. وتعرفون أن مولاي عبد السلام العظيم وكل الرجال الطيبين قد تبنوه وتمنوا أن يتم وضع دستور، لكن مولاي سليمان والوزير السلاوي الخائن كانا يعارضان ذلك.

لم يرد علي باي إزاحة سليمان عن العرش مع أنه كان يمكنه القيام بذلك، وغادر المغرب لأداء واجبه الديني الذي هو الحج إلى بيت الله الحرام. أنتم تعرفون أنه خلال سفر علي باي وعند مروره بفاس أعلن العلماء أن مولاي سليمان قد ارتكب ذنباً عندما لم يقبل بدستور علي باي. وتعرفون الرسالة الدامية التي أرسلها له مولاي سليمان في هذا الشأن. وتعرفون أنه أعطى أوامره لإلقاء القبض على علي باي بوجدة عندما كان ذاهباً إلى الشرق. فأخذه إلى العرائش حيث تم إركابه سفينة وتجريده من نسائه وخدمه. وتعرفون أن علي باي لم ينتقم قط منه حيث التقى مولاي سلامة، أخ سليمان بمصر، وأغدق عليه بالهدايا والأموال له ولعائلته<sup>15</sup>.

إن حدثاً واحداً ورد بصيغ متعددة بين التخييل والتسجيل، في ثلاثة نصوص كتبت ما بين 1812 و1817 بالترتيب الآتي: الرحلة أولاً، ثم المسرحية ثانياً، وأخيراً الدستور. وقد نمت وتبلورت فكرة حدث سياسي ضمن هذا السياق، ولعل الأصل كان في مرحلة سابقة، مرحلة اللاكتابة ما بين سنوات 1801 - 1803 و1805 التي عاش فيها التجربة وحلم بتنفيذ الأفكار. ثم تأتي المرحلة الثانية، مرحلة

14 - نص الدستور الذي كتبه علي باي إلى الشعب المغربي ملحق بكتاب مسرحية علي باي في المغرب، مرجع سابق.

15 - نفسه.

الكتابة، التي سببوا فيها، ودائماً ضمن الشخصية التنكيرية، بكل رغباته، كأنها خارطة طريق نهائية تفسر ما كان، وتؤكد ما سيكون.

ونحن هنا، نقدم المسرحية التي تُترجم لأول مرة إلى اللغة العربية، بعدما ظلت نسياً، وشبه مجهولة في مسودّتها الأصلية.

### • تواريخ مهمة

- 1767 : (1 أبريل) ولادة ضومنكو ليليش بادياً برشلونة.  
1800: ترجمته لمعجم عجائب الطبيعة لجوزيف ايكنان سيكو من الفرنسية إلى الإسبانية .  
1801: كتابته لمذكرته الأولى المتضمنة لخطته في السفر والمغامرة .  
1803: (29 يونيو) وصوله إلى ميناء طنجة، قادماً إليها من ميناء قانس .  
1804: (15 فبراير) يتنبا بالكسوف .  
1805: (13 أكتوبر) يغادر المغرب، بعدما لم يعد مرغوباً في وجوده، على سفينة من ميناء العرائش .  
1806: وصوله إلى الإسكندرية بمصر .  
1808: (يوليوز) يصدر مطبوعاً عن حياته وموجزاً لرحلاته .  
1814: نشره لرحلته الكاملة بفرنسا. ويُفترض أنه حررها ما بين 1812 و1814 .  
1815: تحريره مسودة باللغة الفرنسية لمسرحية (علي باي في المغرب) دون أن ينشرها. وهي النسخة التي ضاعت وبقيت النسخة التي كتبها أيضاً باللغة الإسبانية  
1817: كتابته مسودة الدستور الموجه للمغرب دون أن ينشر .  
1818: (نهاية غشت) مات علي باي ودفن على الطريقة الإسلامية في قلعة البلقاء، جنوب شرق الأردن وهو في طريقه إلى الحج خلال المهمة الموكلة إليه بدعم من فرنسا.

### بيليوغرافيا

#### عربية

– باديا، ضومينكو، علي باي في المغرب (مسرحية تراجميدية من خمسة فصول)، ترجمة عبد المنعم بونو وأحمد برمضان، تقديم شعيب حليفي، جامعة الحسن الثاني المحمدية الدار البيضاء، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن مسيك الدار البيضاء، منشورات المختبرات، مختبر السرديات، 2012.

– شاتوبريان، الطريق من باريس إلى القدس، ترجمة مي عبد الكريم محمود، سوريا دار المدى، دمشق، 2008.

#### أجنبية

- Almarcegui, Patricia, *Ali Bey y los viajeros europeos a Oriente*, Barcelone, Bellaterra, 2007.
- BADIA DE LEBLICH, Domingo, *Les voyages d'Ali Bey en Afrique et en Asie*, Paris, Imprimerie de P. Didot l'ainé, 1811.
- Chateaubriand, *François-René de Itinéraire de Paris à Jérusalem et de Jérusalem à Paris, suivi du journal de Julien*, édition présentée, établie et annotée par Jean Claude Berchet, Paris, Gallimard, folio classique, 2005.
- Godoy, Manuel de, *Memoirs of Don Manuel de Godoy, Prince of the Peace, Duke del Alcudia, Count d'Everamonte, &c.* London: R. Bentley, 1836.
- *La mission du capitaine Burel au Maroc en 1808*, document publié par Jacques Caillé, Paris, Arts et métiers graphiques, 1953.
- *La quimera constitucional de Ali Bey* (la chimère constitutionnelle d'Ali Bey), Tanger, edition khbar bladna, Maroc, 2010 (65 pages).

#### للاستئناس

- باي، علي العباسي، رحالة اسباني في الجزيرة العربية (رحلة دومينجو باديدا علي باي العباسي) إلى مكة المكرمة سنة 1331هـ / 1807م، ترجمه ودرسه وعلق عليه صالح بن محمد السنيدي، الرياض، دار الملك عبد العزيز، 2008.
- باي، علي، رحلات عبر المغرب، ترجمة مزوار الإدريسي، المغرب، منشورات ليطوغراف، طنجة ط. 1، 2008.
- باي، علي، رحلة علي بك باي العباسي إلى سوريا، من 12 تموز إلى 20 أيلول 1807، ترجمة مع المقدمة والحواشي، حليم كنعان، رسالة مرقونة قدمت إلى دائرة التاريخ في الجامعة الأمريكية ببيروت 1952.
- دستور للمملكة المغربية قام بصياغته علي باي حوالي سنة 1817، بعد عشر سنوات من خروجه من المغرب. وتوجد نسخة منه في أرشيف برشلونة ضمن ما تركه طودا: AHCB, col,toda,Ms B ,162-II.
- رايون مايراتا، علي باي العباسي، مسيحي في مكة، ترجمة رفعت عطفة، الأردن، دار ورد للطباعة، 1999.

# عَلِي بَايُ فِي الْمَغْرِبِ

مسرحية تراجمية من خمسة فصول  
(خريف 1815)

تأليف: علي باي (ضومينكو باديا)

ترجمة: عبد المنعم بونو<sup>16</sup> – أحمد بن رمضان<sup>17</sup>

## الشخصيات

علي باي؛ الأمير العربي.  
السلطان مولاي سليمان؛ إمبراطور المغرب.  
الأمير مولاي عبد السلام؛ الأعمى والأخ الأكبر لسليمان.  
الأمير مولاي عبد المالك؛ رئيس الحرس وابن عم سليمان.  
محمد السلاوي؛ الوزير الأول (الأعظم).  
عمر بوستة؛ باشا المغرب.  
سيدي [سيدي؟] جنان؛ العالم الفلكي الأول بالإمبراطورية.  
محمد بن الجليلي؛ الشيخ الكبير لجبال الأطلس.  
سيدي عصمان؛ أخو سيدي العربي، الولي الأكبر للأطلس.  
مولاي أحمد؛ الحاجب الخاص لعلي باي.  
أم هاني؛ وصيفة حريم الإمبراطور.  
تيغمو؛ خادمة الحريم السوداء.  
حليمة؛ المسؤولة عن حريم مولاي عبد السلام.

16 – عبد المنعم بونو: أستاذ التعليم العالي بجامعة محمد الخامس – أكادال. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. حاصل على دكتوراه السلك الثالث بتولوز بفرنسا (1987) دكتوراه الدولة بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس (1993). له عدة مؤلفات بالعربية والإسبانية والفرنسية والبرتغالية منها: فاس الاندلسية للكاتب الكواديمالي انريكي كوميث كريبو (2009).

17 – أحمد بن رمضان: أستاذ التعليم العالي، سابقا، بشعبة الدراسات الإسبانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس منذ سنة 1982. حائز على دكتوراه الدولة في الأدب المقارن له مجموعة من المؤلفات العلمية في الأدب الإسباني وفي اللسانيات. وبالإضافة إلى اهتماماته الأدبية واللسانية، يهتم الأستاذ بن رمضان بتاريخ الأندلس وبالترجمة. وقد سبق له أن نشر كتابين في الترجمة: تدريس الترجمة التلخيصية (الرياض، 2006) والترجمة الأدبية من الإسبانية إلى العربية والعكس: صعوبات ومقترحات (الرياض، 2007).

ندماء وجلساء الملك - نساء - جنود - خدم - سود - إمام المسجد  
ومساعداه.

## الفصل الأول

### المشهد الأول: عبد المالك والسلاوي المنظر: فناء سرايا الملك

• عبد المالك: لا، أيها السلاوي، أنا لن أسمح، لفترة طويلة، بإهانات هذا الأجنبي الدخيل.

• السلاوي: إنني، يا سيدي، أتعجب لمعاناتكم. لقد بدأتُ أعتقد أن هناك مخططاً خفياً لتوقعاتكم حول الوضعية السياسية يجبركم على هذا التستر باتفاق مع علي باي نفسه، وأن...

• عبد المالك: أنا أتفق مع علي باي!، ربما أنت تجهل مخططات هذا الطُمُوح وما هي مخططاتي أنا؟.

• السلاوي: أعرف، فقط، أن هذا الرجل تلقى تكوينه، خلال جزء من حياته، في بلاد المسيحيين، وروى من مذاهب أولئك الكفار، ويدّعي إدخال تعديلات جديدة على مذاهبنا. إنه يتحدث عن إعداد دستور يقول إنه سوف يُسعد العاهل والوطن، لكن، بما أنني لا أحظى بثقته التي لا يمنحها بسرعة، فإنني أجهل ما يوجد خلف أفكاره بالرغم من أنني، وكيفما كانت تلك الأفكار، لا أشك في أن هدفه قد يكون الاستيلاء على الحكم، وبما أن هذا الشيء قد يكون باتفاق معكم، فإنني كنت أحترم شجاعته وأحترم فيكم معاناتكم التي أعتقد أنكم تخفونها.

• عبد المالك: إنك، أيها الوزير، لا تعرف الأزمة السياسية التي كنت أوجد فيها عندما حكمت عليّ، لفترة، بالاتفاق مع علي باي. ألا تعلم، ربما، أنه لا يوجد أي قانون يحدد خلافة العرش في هذه الإمبراطورية، وبما أنني

أوجد على رأس الجيش، بصفتي رئيسا للحرس وابن عم السلطان، فإنني أكثر من أي شخص آخر، وكل الحق معي في أن أخلف سليمان؟.

إذن، فلتعلم، منذ الآن، أن علي باي اتخذ قراره الجريء والشجاع بأن يجعل السلطان يقتنع بضرورة وضع دستور بحجة ضمان الملكية الخاصة، من أجل تمكين أبناء وأحفاد سليمان غير المؤهلين للحكم ولكي أبقى أنا، في الأخير، بعيدا، بصفة نهائية عن الحكم بالرغم مما أسديته من خدمات وبالرغم من اهتماماتي التي تجعلني مُهيئًا لذلك، في كثير من الأحيان.

• السلاوي: لكن، أليس من السهل تحطيم هذا العملاق، حديث النشأة، الواقف على أرجل من طين؟. منذ أشهر قليلة، ظهر هذا الشخص المشؤوم في ميناء طنجة، قادمًا من أوربا على باخرة صغيرة بدون خدم ولا أمتعة، واستقبله باشا المدينة كشخص عاد، دون أن يوليه أي اهتمام، لكن هذا الأخير، بنفاقه وسخائه، جعل الرأي العام يُغيّر من موقفه، كما أنه استمال إليه القاضي وأئمة المساجد وغيرهم من الموظفين العموميين. وبعد تأكده من كل هذا، أمر بأن يأتوه بأمتعته الكبيرة والهائلة من أوربا ونشر تمثيلته والموكب المرافق له الذي كان أكبر من مواكب أمرائنا. إن هذا التصرف الذي كان من شأنه أن يفتح عيون الباشا وبالتالي عيون السلطان حول تطلعات ونوايا هذا الشخص الطموح، فإنه عكس ذلك، كان في مصلحته أن حظي بعطف المولى سليمان. لكن، في نهاية الأمر، فإنه أجنبي بدون دعم، ومزداد بحلب، أي أنه من الجانب الآخر للبحر الأبيض المتوسط، وليس له، هنا، لا أهل ولا أصدقاء يمكن الاعتماد عليهم. إذن، لماذا لا تهاجمه، سيدي، سواء في السر أو العلانية؟. إنك تعلم جيدا أنه لا يوجد في المغرب شخص أو قبيلة لها الحق في المطالبة بالتأثر له.

• عبد المالك: إنها الحقيقة، لكنك، ربما، تجهل إلى أي حد عرف هذا الرجل الماكر كيف يستولي على السلطان وينال عطفه وإعجاب أخيه مولاي عبد السلام. وهكذا، يمكنك أن ترى في الأخير كيف أغدقوا عليه الخير الكثير ووهبوه قصر ابن جامع الدكالي؛ الموجود بهذه العاصمة، عاصمة الإمبراطورية المغربية وكذلك المقر الملكي في السملالية الذي يبعد بحوالي نصف فرسخ من هنا. وكما تعلم، كان المكان المفضل عند أبيه، السلطان سيدي محمد.

لقد وثقت به كل القرى ووصفوه بكونه صاحب روح وطاقة أكبر من طاقة البشر ولا زلت أشك، لحد الآن، في أن معلوماته في مجال السحر هي التي تسهل عليه قراءة الغيب، كما أكدته لنا التجارب السابقة، بل إنها تقضحه عند



كل متابعة أو مطاردة.

أيها الأمير، حتى في هذه الحالة، فإننا نملك الوسائل للقضاء على علي باي ونضمن لكم خلافة العرش الذي أنتم أهل له، نظرا لكفاءاتكم المتعددة. فلنستعمل ضد علي باي نفس الأسلحة التي استعملها هو لاستمالة الشعب والسلطان إليه. فالسيد الجنان، أول عالم في الإمبراطورية، لا يعترف بعلم ومعلومات علي باي ولا يصدقها، وهو في نفس الوقت، يخضع كلياً لكم ولشخص سُمُوكم. ويجب علينا أن نمنحه ثقتم ونطلعه على مخططاتكم التي سوف يدعمها بكل حيوية، ويجد الوسائل لتحقيقها والقضاء على علي باي الذي هو سبب جحود الجنان نفسه.

لكن، لئنخفي أمرنا هذا، إنني أرى الباشا عمر بوسته قادما نحونا والذي، نظرا لجهله، يعشق شخصية علي باي عشق الآلهة تقريبا، وخصوصا عندما وضعه السلطان تحت إمرة هذا الشريف الطموح.

## المشهد الثاني

### نفس الشخصيات بالإضافة إلى عمر بوسته

- عمر: أيها الأمير، لم يقع أي شيء مهم هذا النهار. إن العصاة الصغيرة التي تجرأت ونهبت القرى، قد تمت معاقبتها كلياً. ولقد قبل السيد علي باي العظيم، بعرفان كبير، هدايا السلطان وكلفني بأن أشكركم، سيدي الوزير، على ما جاء من إضافات في المرسوم الإمبراطوري.
- عبد المالك: حسنا، أيها الوزير، اتبعني، إذن، لقد حان الوقت أن ندخل لنهنئ السلطان بالعيد.

## المشهد الثالث

عمر بوسته ومولاي عبد السلام، الأعمى، مُتَكَيٌّ  
على كتف فتى أسود بمعية مجموعة من العبيد والخدم

- عمر: ليباركك الله، أيها الأمير العظيم.
- عبد السلام: أهدأ أنت يا عمر بوسته؟ أعطني، أعطني أخبار علي باي.
- عمر: سيدي، في الوقت الذي قدم له كاتب الدولة، الذي كان برفقتي، المرسوم الإمبراطوري، وقف ووضع على رأسه وبعد أن قبله، وضعه على قلبه. لكن، لقد فوجئ بشيء لم يكن منتظرا ومنعه تأثره، لوقت طويل، أن ينطق ولو بكلمة واحدة. وفي النهاية، فتح فمه وقال بصوت مرتفع، ماذا تظنون أن يكون قد قال؟.
- يا سليمان العظيم، أنت تعلم كم من البؤساء ستواسيهم هبتك هذه. وبسرعة، أمر أن تُوزَّع محاصيل التمر والزيتون بين المستشفى الكبير لسيدي بلعباس وحي المساكين المصابين بالجذام والمهمشين الذين يعيشون خارج المجتمع. كما أمر، في نفس الوقت، ألا يباع أي شيء أبدا من السمالية، بحيث إن كل مُنتجاتها كانت موجهة لإغاثة التعماء.
- عبد السلام: إنني لا أشك، إذا لم يؤثر أحد الأشرار في السلطان، فإن هذا الأخير سوف يحقق رغبات علي باي. لكنني أخشى أن يقضي أعداؤه، وهم كثر في الإمبراطورية، على مصلحة ومنفعة الجميع.
- عمر: بالفعل، سيدي، إنني لا أدري كيف يمكن لعلي باي أن يكون له أعداء. هذا الشخص الملاك والذي منذ نزوله طنجة إلى يومنا هذا، لم يقم إلا بمصلحة كل الذين حظوا بالقرب منه، كل القرى والمساجد والمستشفيات والسجون، استفادوا من كرم هذا الأمير، سليل العباسيين.
- كما أنه لا يوجد في المغرب كله شخص واحد بإمكانه أن يرفع، ولو شكوى بسيطة، ضد هذا الشريف الذي، في نفس الوقت، يغطي بمزاياه على أولئك الذين يحطمون شريعتنا المقدسة وينير بعلمه أكبر علماء الإسلام وهذا ما يجعلهم يعتبرونه واحدا من أبرز علماء المدارس الدينية بفاس.

• عبد السلام: بالرغم من هذا كله، أيها الباشا، هذا هو الحسد، إذ لا أصل علي باي ولا مكانته العالية ولا مزاياه ولا موهبته يمكنها أن تعفيه من المتابعة التي تلاحقه وتهدهه بسبب مشروع دستور الإمبراطورية الذي أوحى به قلبه النبيل. لكن، إنني أعرف جيدا الخونة ولا تخفى عليّ المصلحة والمنفعة التي تدفعهم لذلك. إن الشيء الوحيد الذي يهمني هو تخويفهم وأن أكون الحاجب والحارس الأمين لعلي باي.

انصرف يا عمر، وصاحبه لحضور الحفل العظيم للعيد، فأنت تعلم أن السلطان وضعك تحت إمرته.

## المشهد الرابع

### السيد عصمان ومحمد ابن الجيلالي

• عصمان: لا يخامرك الشك، يا ابن الجيلالي، أن قبائلنا كلها سوف ترحب، في اعتزاز وابتهاج، بخطط علي باي ومشاريعه.

• ابن الجيلالي: بالرغم من ذلك، فأنا غير مرتاح لأنهم يستطيعون إنجاز تغييرات وتعديلات جد سريعة في أمة غير مستعدة لذلك، ولا سيما من قبل قائد أجنبي.

• عصمان: إذا كان هذا القائد شريفا عاديا، فمن المبالغة الاعتقاد بأنه يستطيع أن يعطي دفعة جديدة لحضارتنا، لكن هذا الأمير الرفيع الشأن، والجدير بكونه من بيت العباسيين العظيم ولمدة سبعة قرون، حقق الانتصارات، وهو سليل خلافة ملوك بغداد ومصر. هذا الشريف، بفضل مزاياه جعل الكفار المتعصبين يحترمون شريعتنا المقدسة ويلجئون مدارسنا وقصورنا. باختصار، إن هذا العالم بامتياز والذي انحنى له علماؤنا الذين طلبوا منه أن يكون قدوة لهم، هل تظن أنه لا يتوفر على القدرات التي تمكنه من التغلب على كثير من الصعاب التي قد تعترض سبيله من أجل إدخال التجديد على قبائل المغرب؟

• ابن الجيلالي: إنني أرى هذا جيدا، أما الأسباب التي أعطيتها فتجعلني أثق بك أكثر، خصوصا عندما أراها مدعمة برغبة أخيك المحترم وعزمه، وكذا رغبة القبائل التي سئمت من جبروت سليمان وسوف تتمرد عليه، وتضع علي

باي على رأسها إذا أعطى موافقته لكي يقدم للوطن الدستور العظيم الذي سمعنا به.

• عصمان: فلتنمى أن ينحاز علي باي إلى جانبنا وأن نعيش نحن وأبناؤنا أياما أكثر سعادة.

## المشهد الخامس القاعة الكبرى بسرايا السلطان

يظهر السلطان متكئا على أريكة في وسط قبة العرش. عبد السلام جالس على فراش صغير وبيساره عبد المالك جالس على سجادة وبيمينه السلاوي واقف ومجموعة من كبار القوم وجنديان بباب القاعة وخادمان أسودان، في الجهة المقابلة.

• السلطان: الحمد لله الذي سمع ولبى دعواتنا ان المسيحيين المنشغلين بابتلاع و أكل بعضهم البعض كالحیوانات المفترسة لم يعودوا يفكرون في أن يقلقوا المؤمنين التابعين لأعظم الرسل، وبفضل حماقاتهم ونزاعاتهم التي تفرقهم وتنهك قواهم، استطعت، خلال هذه السنة، تقوية وتدعيم المعاهدات التي تضمن لي استخلاص الضرائب المفروضة على البلدان المسيحية الضعيفة؛ وتوجد هناك دولة واحدة استغلت المسافة الطويلة التي تفرقنا معها للهروب من ضغط المسلمين، وأعني بها سويسرا، لكن القبض على سفينة كبيرة، والتي توجد عندي في طنجة، جعلها تعود الى رشدها بسرعة. لقد ضاعفت حصتها من الضرائب، لكنني احتفظ بالسفينة التي يطالبون بها، بدون جدوى.

• كلهم: فليبارك الله السلطان مولاي سليمان.

• السلطان: إن اسبانيا التي تخشى أن تضيع منها معاقبتها، تعطيني كل ما أفرضه عليها. ذات مرة، رفض القنصل الإسباني طلبي، فعاقبته أشد العقاب، بحيث أمرت بقطع رأس مترجمه، كما قطعته يده وأمرت بلفها وتعليقها فوق باب مقر القنصل نفسه، وبفضل هذا الدرس تعلم، وإلى الأبد، كيف يقوم بواجبه.

• كلهم: ليبارك الله السلطان مولاي سليمان

• السلطان: إن إنجلترا هي أفضل حليف لي كونها تعطيني كل الأسلحة والذخائر التي أحتاج إليها مقابل ما تحتاج هيَ إليه من منتوجات بلدي، لتموين جبل طارق. كما أنها ترغب في أن أزعج وأخلق المتاعب للدول الأخرى التي تنافسها في التجارة، في البحر الأبيض المتوسط. إن فرنسا، الدولة المتكبرة، لا تتعامل بهذا الشكل. فهؤلاء الفرنسيون الذين أحرزوا انتصارات ظرفية على كلاب وكفار آخرين مثلهم، اعتقدوا أن بإمكانهم فرض قوانينهم على المدافعين عن الدين الإسلامي والذين لا ينهزمون أبدا. لكن، سوف يأتي اليوم الذي نعلمهم فيه كيف يخفتون أصواتهم التي حاولوا رفعها في الشرق على الإمبراطورية الإسلامية، لولا تدخل دشيزار باشا العظيم الذي وضع حدا لعجرفتهم وكبريائهم.

• كلهم: ليبارك الله السلطان العظيم مولاي سليمان .

• السلطان: فلنشكر الله ونطلب منه أن يستمر في حماية شعبه الوفي كما فعل إلى غاية هذا العيد.

رفع الكل أكفه متجمعة كما لو أن شيئا سيسقط من الأعلى، ولبعض الوقت دعوا في صمت. بعد ذلك مرّروا بيدهم اليمنى على جبينهم وصاحوا بأعلى صوتهم: الحمد لله رب العالمين.

• عبد السلام: أخي العزيز، يعتبر مجيء علي باي إلى بلدنا من الأشياء العظيمة التي أكرمنا بها الله عز وجل.

• السلطان: هل تم تنفيذ أمري؟

• السلاوي: نعم سيدي لقد نشرت، بنفسني، المرسوم الذي وُضع عليه خاتمكم الإمبراطوري وتم تنفيذه.

• عبد السلام: هذا شرف لسليل بني العباس العظام، والذي تصدّق بكل المنتوجات لإغاثة الفقراء. هل هذا ممكن، إنه واقع يدل على الرغبة الخالصة لهذا الرجل الذي اقترح عليكم مخططاته، قصد التجديد والتي من شأنها رفع هذه الإمبراطورية إلى قمة النصر والمجد.

• السلطان: ياله من رجل متواضع!

• عبد المالك: بالرغم من ذلك، فإن فكرة إعطاء رعاياك ضمانات بالحرية والملكية الخاصة، ومنحهم التمثيلية على مستوى الوطن تخيفني وتجعلني ارتعش .

• السلاوي: في رأيي، إن كل تجديد يُعتبر خطيراً، وخصوصاً عندما يتعلق الأمر بالتخفيف من خضوع أناس غير قادرين على تقنين حقوقهم وواجباتهم. ثق بي سيدي، إن الله قد أعطاكم عرش المغرب لكي تنعموا بالراحة، دون أن تقلقوا على مصير الستة ملايين من الخلق الذين قُدِّر لهم أن يكونوا في خدمتكم وتلبية رغباتكم.

وأنا بدوري، أعترف وأشهد أنه حتى البذلة التي أرتديها ليست لي. الكل ملك للسلطان. إننا لم نجد هذه المؤسسة القوية والموجودة منذ عدة قرون.

## المشهد السادس

يدخل بوسنة ويعلن قدوم علي باي.

ينتصب السلطان، فيقف الأمراء والحراس بالتحية عند دخول علي باي مع مرافقيه الذين انسحبوا. بعد ذلك يتوجه علي باي مباشرة إلى السلطان ويعانقه. ويأمر السلطان الإتيان بفراشين من الصوف الأسود ووسادة وضعت على يمينه يستند عليها علي باي.

• علي باي: فليبارك الله في عمر السلطان مولاي سليمان. (ثم يقبل يده).

• السلطان: مرحبا بك، يا عزيزي علي باي (يعانقه)

• علي باي: سيدي، إن أياديكم البيضاء وما تغدقون به علي لا أجد الكلام المناسب لكي أعبر لكم عن عرفاني و تشكراتي.

• السلطان: (يشير إليه بالجلوس) هل تعتقد أنني لا أعلم ما فعلت؟! إن عدم مبالاةك بما تقوم به، يفوق ما قد أفعله أنا تجاهك!. فحوريات الجنة هن اللواتي يستطعن جزاءك بسبب خصالك وفضائلك.

• علي باي: سيدي إنني مجرد خادمكم الصغير ولتفضلوا بقبول خدماتي البسيطة.

• السلطان: لا يا علي باي، إنك لست بخادمي، فمنذ اليوم أعترف أنك ابني، ولتسد إلي نصائحك بالمقابل.

• علي باي: سيدي!

يقف علي باي لتقبيل يد السلطان، مرة أخرى، فيعانقه هذا الأخير ويخلع سلهامه والمنديل الأخضر الذي كان يضعه فوق عمامته ويلبسه لعلي باي قائلاً له:

• السلطان: حيّوا ابني علي باي.

• الجميع: ليبارك الله في حياة السلطان.

• عبد المالك: (في قرارة نفسه يقول) يا للغضب!.

• السلاوي: يا له من شريف طماع! لن تجني أبدا ثمار مكائلك

ودسائسك.

• علي باي: (متكئاً من جديد) بما أنكم تشجعونني علي التعبير لكم بصراحة عما يخالجنني، فاسمحوا لي سيدي أن أخبركم بأن الأيام لا تكون سعيدة إلا بحسب ما نفضل به علي المستضعفين والبؤساء.

إن هناك سفينة سويدية تم احتجازها ظلماً، كما جرى القبض على كل طاقمها وسجنه في طنجة. وأن باشا منطقة دكالة الذي تم إعفاؤه بسبب وشاية ما يزال يئن في سجنه المظلم بالرغم من أن هذه الوشاية قد افتضحت، أما حاخام المعبد اليهودي فإنه لا يزال يُجلدُ أربعين جلدة كل يوم لأنه نسي أن يزيل حذاءه عند مروره بالقرب من أحد المساجد. لتفضلوا سيدي بتحرير السفينة والباشا والحاخام اليهودي، وليبارك جميع العارفين عملكم في هذا اليوم السعيد.

• عبد المالك: هناك أحكام أخرى ضد الباشا.

• السلاوي: إن القنصل السويدي لم يسدد بعد الضريبة المضاعفة، وبخصوص الحاخام فإن تهمة السب تعتبر خطيرة وتستحق على الأقل ضعف ما حكم به عليه.

• علي باي: سيدي إن القوانين المتشددة والمبنية على العنف الدموي تجعل الأشخاص يتمادون...

• السلطان: أيها الوزير اعطِ الأوامر بإطلاق سراح هؤلاء البؤساء.

• الجميع: ليبارك الله السلطان مولاي سليمان .

• السلطان: كم الساعة يا علي باي؟

- علي باي: (ينظر إلى الساعة) لقد اقترب موعد صلاة الظهر.
- السلطان: (يتأهب للوقوف) فلنتوضأ إذن لإقامة الصلاة . (ثم يخرج لوحده عبر باب الحریم).
- عبد السلام: عانقني يا علي باي (يعانقه). فأنت الوحيد الذي تجرأ على طلب عدالة السلطان في الأمور التي يقوم بها باسم العفو. قبل دخولك ببعض الوقت صرح بأنه سوف يستولي إلى الأبد على السفينة والكل صفق له .
- علي باي: إنني لم أتصرف أبداً بشكل آخر. وفي نظري، يعتبر ملوك الأرض ملائكة وأوصياء على البلدان وليست لديهم أية نية ولا أية مصلحة في إيذاء الآخرين. وعندما يؤذونهم، فإن ذلك يكون نتيجة لنصائح واستشارات خاطئة وخادعة. فلنغير هذا السلوك لأن الخير كل الخير يأتي من أيديهم.
- عبد السلام: (يحاول إغراءه) يا علي باي العظيم، ما أسعد العيون التي تتمكن من رؤيتك. إن عيني بالرغم من أنهما فاقدتا النور، أحس كأنهما تسترجعانه في كل مرة أستمع فيها إلى كلامك. فلنستعد لإقامة الصلاة .  
(ويذهب من جهة الباب الرئيسي).
- عبد المالك: (يعانقه) تقبل يا علي باي تهنئتي .
- السلاوي: (مقبلاً يده) اسمحوا سيدي لحديثكم بالتعبير عن رضا بسبب عطفكم الذي حظي به.
- علي باي: إن السلطان هو من يستحق كل هذا الامتنان، فمزاجه الرائق هو ما شجعني على الطلب، ولم أكن سوى الترجمان والمعبر عن مشاعر قلبه التي كنت أراها مرسومة على محياه الجليل.
- (ويمشي صحبة الوفد المرافق خلف مولاي عبد السلام).

## المشهد السابع

### عبد المالك والسلاوي والجنان

- عبد المالك: يا للغضب! هل من الممكن أن يسيطر هذا الدخيل على عقل سليمان؟! .



• السلاوي: لا يجب علينا تضييع الوقت في مواجهة هذا الرجل والهجوم عليه؛ سوف يفوت الأوان لو أضعنا يوماً آخر. أنت يا الجنان المحترم، الذي علمه في علم الفلك يفوق علم علي باي، حاول أن تجدد، وبسرعة، الوسيلة الملائمة للقضاء على هذا المغامر الطموح .

• الجنان: سيدي، إن السماء تُساعدنا على بلوغ أهدافنا. فقريب جداً سوف تختفي الشمس وتفقد ضوءها تماماً حسب ما علمت من مُقرب موثوق به من علي باي، هذا الأخير الذي يخفي هذا الأمر ولم يرد نشره. لا يخفى عليكم سيدي الرعب الذي تشكله هذه الظاهرة؛ إنني كأول عالم فلكي في البلاد، وحسب توقعاتي سوف أحطم كل مخططات هذا الشريف الطموح وأتوج مخططاتكم بالنجاح.

• عبد المالك: احك يا جنان، سوف أعترف لك مدى حياتي بهذا العمل.

## المشهد الثامن

بداخل الجامع الكبير صفوف المصلين ومكان مُخوف للإمام على اليمين (المحراب) وآخر من أجل المؤذن أو مساعده.

تخرج الحاشية الملكية في أبهة رفقة السلطان والأمراء وعلي باي، بينما يقف الإمام في المكان المخصص له صوب المصلين وبجانبه المؤذن الأول أو مساعده. ويقف السلطان وخلفه الأمراء فوق سجاد صغير. وخلفهم يقف المرافقون في صفوف، وكلهم في وجهة مكان الإمام (المحراب)، بينما يقف مؤذن ثان على المنصة.

- المؤذن الأول: (بصوت معتدل) الله أكبر الله أكبر!
- المؤذن الثاني: (يصيح بصوت مرتفع)، الله أكبر، الله أكبر!
- المؤذن الأول: (بصوت معتدل) أشهد أن لا إله إلا الله.
- المؤذن الثاني: (يعيد وبصوت عال) أشهد أن لا إله إلا الله.
- المؤذن الأول: أشهد أن محمداً رسول الله.

- المؤذن الثاني: (يعيد) [ أشهد أن محمدا رسول الله ].
- المؤذن الأول: حيّ على الصلاة.
- المؤذن الثاني: (يعيد) حيّ على الصلاة.
- المؤذن الأول: حيّ على الفلاح.
- المؤذن الثاني: (يعيد) حيّ على الفلاح.
- المؤذن الأول: الله أكبر، الله أكبر!
- المؤذن الثاني: (يعيد) الله أكبر، الله أكبر!
- المؤذن الأول: لا إله إلا الله!
- المؤذن الثاني: لا إله إلا الله!
- يدبر الإمام ظهره للمصلين ويرفع يديه إلى حدود أذنيه ويقول:
- الإمام: الله أكبر! (وينزل يديه).
- المؤذن الأول: الله أكبر!
- المؤذن الثاني: الله أكبر!
- الجميع: (يرفعون أياديهم) الله أكبر! (ينزلون أياديهم ويتركونها مستقيمة).
- الإمام: الحمد لله رب العالمين، الرحمان الرحيم، مالك يوم الدين. إياك نعبد وإياك نستعين. اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.
- الجميع: آمين.
- الإمام: قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين.
- الإمام: (يركع) الله أكبر!
- المؤذن الأول: (يركع) الله أكبر!
- المؤذن الثاني: (يركع) الله أكبر!

- الجميع: (يركعون) الله أكبر!
- الإمام: (يستقيم) سمع الله لمن حمده.
- المؤذن الأول: (يستقيم) ربنا ولك الحمد.
- المؤذن الثاني: (يستقيم) ربنا ولك الحمد.
- الجميع: (يستقيمون ويعيدون) ربنا ولك الحمد.
- الإمام: (يسجد) الله أكبر!
- المؤذن الأول: (يسجد) الله أكبر!
- المؤذن الثاني: (يسجد) الله أكبر!
- الجميع: (يسجدون ويعيدون) الله أكبر!
- الإمام: (يجلس على قدميه) الله أكبر!
- المؤذن الأول: (يجلس على قدميه) الله أكبر!
- المؤذن الثاني: (يجلس على قدميه) الله أكبر!
- الجميع: (يجلسون على أقدامهم) الله أكبر!
- الإمام: (يسجد ثانية) الله أكبر!
- المؤذن الأول: (يسجد ثانية) الله أكبر!
- المؤذن الثاني: (يسجد ثانية) الله أكبر!
- الجميع: (يسجدون ثانية) الله أكبر!
- الإمام: (يقف) الله أكبر!
- المؤذن الأول: (يقف) الله أكبر!
- المؤذن الثاني: (يقف) الله أكبر!
- الجميع: (يقفون) الله أكبر!
- الإمام: الحمد لله رب العالمين، الرحمان الرحيم، مالك يوم الدين.
- إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

- الجميع: آمين.
- الإمام: قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

- الإمام: (يركع) الله أكبر!
- المؤذن الأول: (يركع) الله أكبر!
- المؤذن الثاني: (يركع) الله أكبر!
- الجميع: (يركعون) الله أكبر!
- الإمام: (يستقيم) سمع الله لمن حمده.
- المؤذن الأول: (يستقيم) ربنا ولك الحمد.
- المؤذن الثاني: (يستقيم) ربنا ولك الحمد.
- الجميع: (يستقيمون ويعيدون) ربنا ولك الحمد.
- الإمام: (يسجد) الله أكبر!
- المؤذن الأول: (يسجد) الله أكبر!
- المؤذن الثاني: (يسجد) الله أكبر!
- الجميع: (يسجدون ويعيدون) الله أكبر!
- الإمام: (يجلس على قدميه) الله أكبر!
- المؤذن الأول: (يجلس على قدميه) الله أكبر!
- المؤذن الثاني: (يجلس على قدميه) الله أكبر!
- الجميع: (يجلسون على أقدامهم) الله أكبر!
- الإمام: (يسجد ثانية) الله أكبر!
- المؤذن الأول: (يسجد ثانية) الله أكبر!
- المؤذن الثاني: (يسجد ثانية) الله أكبر!
- الجميع: (يسجدون ثانية) الله أكبر!
- الإمام: (يجلس) الله أكبر!

المؤذن الأول: (يجلس) الله أكبر!

المؤذن الثاني: (يجلس) الله أكبر!

الجميع: (يجلسون) الله أكبر!

يظلون جالسين لدقيقة وكأنهم يصلون في صوت خافت، ثم بعد ذلك:

(يديرون وجههم جهة اليمين) السلام عليكم.

(يديرون وجههم جهة الشمال) السلام عليكم.

كلا المؤذنين وجميع المصلين يعيدون، في نفس الوقت تقريبا، هذه التحية المزدوجة يمينا وشمالا، مثل الإمام، ثم يرفعون، كلهم، أكفهم، مثلما فعلوا في المشهد الخامس، وبعد الصلاة الصغيرة في السر، يقولون جميعا وبصوت مرتفع: الحمد لله رب العالمين.

• جنان: (يقف مخاطبا الجميع بصوت مرتبك فيه شهيق) مولاي سليمان، أيها الأمراء عظماء هذه الإمبراطورية لقد حان الوقت لكي أخبركم بالكارثة التي تهدد المغرب. إن أياد مرعبة وأجنبية تهبُّ لحرب أهلية وإن لم تتدخلوا في الوقت المناسب لإطفاء هذا الحريق واقتلاع هذا الأذى من الجذور فإنكم كلكم سوف تكونون ضحايا المغامر الذي يُذكي نار الحرب. لقد لبست السماء ثوب الحداد والشمس سوف تختفي عنا وتتركنا في الظلمات خلال الثلاثة أيام المقبلة. والله العظيم رب محمد شاهد على هذه الحقائق.

• الجميع: (يصيحون ويقفون في فوضى) يا إله، يا عظيم، يا إله، يا عظيم.

• علي باي: يا سليمان العظيم ويا قبائل المغرب! عليكم ألا تعطوا أية أهمية لتوقعات علمائكم المغفلين في الفلك. أنت يا جنان، أيها المغامر، كيف تجرؤ على سب الرجل الصالح، صاحب المزايا والخصال الحسنة وتشهد الله على الأخطاء التي اختلقها عقلك؟

لتعلموا جميعا أن هذه الأشياء الغامضة التي أعلن عنها الجنان هي مجرد كسوف للشمس، والذي لن يقع خلال الأيام الثلاثة المقبلة كما يعتقد هو خاطئا، بل يوم غد وبعد مرور بعض الوقت يسترجع الفلك شكله وبهائه دون أن يؤثر على نفوس الناس كما حدث عدة مرات مع اختفاءات سابقة للشمس. وخلال أربع وعشرين ساعة سوف تتأكدون بأعينكم من هذه الحقيقة.

• عبد السلام: يا علي باي، أيها العظيم .  
ويُسدلُ الستار

## الفصل الثاني

### المشهد الأول الديكور: رواق السرايا عصمان وابن الجيلاي

• عصمان: إن رعب السلطان من وقوع الكسوف كبير جدا، والتوقعات المخيفة والمرعبة تشغل باله .

• ابن الجيلاي: أعتقد أنه لن تكون هناك أية فرصة مناسبة لكشف الطاغية وقد أصبح مهزوما بالرعب الذي يستحوذ عليه .

• عصمان: لتعلم يا ابن الجيلاي، أن سليمان لما استولى على العرش، بعد أن هزم كل الطامحين إلى ذلك، تنبأ أخوه بأن ملكه سوف يدوم فقط أربع عشرة سنة. وهذا التنبؤ من طرف أخيه أكده جميع أولياء الإمبراطورية. والآن وقد استوفت المدة فإن سليمان مهدد بأربع كسوفات للشمس وخسوف للقمر، سوف تحدث كلها في آن واحد. وإذا ما اعتمدنا على هذه الظواهر الطبيعية التي يجب تفسيرها بأنها علامات الغضب الإلهي ضد السلطان، فإنها تهيب منذ الآن الأمة للتمرد .

• ابن الجيلاي: إن علي باي يشاظرنا نفس الرأي ... إنه آت .

## المشهد الثاني

### نفس الشخصيات وعلي باي مع مرافقيه

• عصمان: (يقبل حايك علي باي) لبارك الله حياة الأمير العظيم، فخر دار أبي العباس .

• علي باي: هل توصلتم بأخبار عن سيدي العربي؟

• عصمان: إننا ننتظر رسائله من حين لآخر .

• علي باي: يا له من ولي صالح ومحترم .

• عصمان: سيدي، لقد حان الوقت لكي نعبر لك بكل صراحة عن مهمتنا إذا تفضلتم بسماعنا في جلسة خصوصية .

(يشير علي باي إلى رفقته بالانسحاب).

عندما اعتلى مولاي سليمان عرش المغرب أخبره أخي، سيدي العربي، حتى يخيفه لكي يتراجع عن رذائله أن ملكه لن يدوم أكثر من أربعة عشر سنة إلا إذا استجابت القدرة الإلهية لتوسلات الشعوب الممتنة لفضائله لتمتد المدة أكثر من ذلك. إن هذا التنبؤ تم تأكيده من طرف جميع أولياء المغرب. لكن سليمان، بمجرد ما أمسك بالصولجان، لم يعر أي اهتمام لنصائح الأشخاص الطيبين وبدأ يسلك كل مسالك الشر. بدأ بإغلاق أبواب المتاجر لكي يبقى هو المالك الوحيد لهذا القطاع. وأعطى أوامره بإتلاف وإحراق جميع الأغراس التي هي في ملكية بعض الخواص، قصد الرفع من شأن أولئك الذين يجعل منهم خدامه وعبيده. هذه الحماقات أضيف إليها الرعب الذي خلفته المجاعة في المناطق كلها والتي يعد ساكنوها بالآلاف. وأصبح ضحاياها، وهم رجال طيبون، مذنبين، جرمهم الوحيد أنهم أخلصوا له النصح بكل جرأة وتجرد.

أنت، ياسيدي، أول من قام باحترامه. كما أنه لا توجد أية امرأة لا تعرف همجية ووحشية هذا الرجل الشرس الذي يستولي على نساء الآخرين محتقرا بذلك شريعتنا السمحة؛ وبلغ به تهوره الإقدام على معاشرة أختين معا علانية، وشرب الخمر في الحریم. ومؤخرا، جنى ذنبا كبيرا بتحويل مسجد، كان قد أمر أخي ببنائه، إلى إسطنبول. ونتيجة لهذه الأعمال المشينة، والتي دفعت بالشعب كله إلى حد اليأس وأذكت الكراهية في العلماء والعارفين بالشریعة، قررت قبائل

جبال الأطلس والصحراء الكبرى، القوية بموقع أراضيها الاستراتيجية وبطبع سكانها، التمرد والقضاء على الاستبداد الذي يمارسه عليها بجوره وطغيانه وتحرير المناطق الموجودة في السهول الخصبة والتي سوف تتحرك، كذلك، من أجل نفس الهدف، بفضل الولي الكبير لوزان سيدي علي بن أحمد. ولهذا الغرض، فإننا، أنا والشيخ محمد بن الجيلالي، مرسلون من لدن القبائل التي منحنا كل الصلاحيات لنطلب منكم، سيدي، بأن تفضلوا بحماية هدفنا الشريف، وذلك بقبول هذا الصولجان الذي نضعه بين أيديكم باسم الوطن؛ أيديكم التي تستحق أن تمسكه عوض أيادي ذلك المستبد، مفترس شعبنا.

• علي باي: كل الشكر للقبائل التي أعطت رأيها المهم جدا لصالحنا وأرجو منكم أن تقدموا لهم عرفاني. قولوا لهم، كذلك، بأنني، نظرا لعدالة قضيتهم وللأضرار التي قد يلحقونها بإمبراطورية المغرب، قررت أن أحمل على عاتقي المهمة الشاقة في إقناع السلطان باعتماد الدستور الذي سوف يحد من نفوذ السلطان ويضمن الخير للقبائل. لكن، قولوا لهم، كذلك، أنه مادام هناك أمل في أن يرجع إلى الصواب، فإنني لن أتركه وسوف يكون علي باي الذراع الأول الذي يدافع عنه وعن حكمه.

• عصمان: أيها الأمير، لا تظنوا بأن سليمان سوف يحد من جبروته الفاحش ومن رغباته وشهواته.

• ابن الجيلالي: إن مجيئك، سيدي، لم يكن هباء بل كان بمشيئة الله.

• عصمان: إن الملكوت نفسه ملء من جبروت سليمان. وقد قدر لك الله أن تأتي في هذا الوقت الذي انتهت فيه المدة التي تنبأ بها الجميع وازداد خوفه بسبب علامات الغضب الإلهي المتجلية في الكسوفات الأربع المتتالية. إن هذه الظروف التي حطمت حماس سليمان وجعلته غير قادر على المقاومة هي الضامنة لانتصارنا.

• ابن الجيلالي: اغتموا، سيدي، هذه الظروف واعملوا على إسعاد الشعوب التي تترجاكم وتطلبكم. إن هناك عشرة آلاف فارس في أودية الجبل على كامل الاستعداد والتأهب. إن كلمة منكم تكفي لتغيير وتجديد قوانين الإمبراطورية.

• علي باي: أصدقائي، أعترف أن الحق بجانب قضيتكم واعتمدوا عليّ لحمايتهم. لكن، سوف أقوم بهذا لإقناع سليمان كي يعتمد الدستور المقترح.



إن الذي يخلق سعادة المغرب ويؤمن بها ليس شخص هذا الملك أو آخر، بل إن المؤسسات هي التي تقرر مصير الإمبراطوريات. لكن، في الأخير، إذا ما تبين أن مولاي سليمان هو عدو الشعب، لكونه يرفض اعتماد الدستور، فإن كفة ميزان العدالة سوف تطغى على مصالح الطاغية المستبد بستة ملايين من الضحايا و أجيالهم المتعاقبة. وفي هذه الحالة، من الممكن أن أقرر وضع نفسي على رأس القبائل.

(يخرج السلاوي خلفه وهو يسمع هذه الكلمات الأخيرة).

## المشهد الثالث السلاوي وبعده جنان

• السلاوي: يا له من طموح. إنني أملك الخيط الذي يوصلني إلى مؤامراته .

• جنان: أيها الوزير، هل رأيت السلطان اليوم؟

• السلاوي: لقد جئت من عنده الآن. إن الرعب الذي يشعر به ليس له علاج، في الحقيقة إن مشهد الكسوف كان جد مرعب.

• جنان: إن علي باي اللعين قد أوقعني في ورطة. لقد تنبأت بالكسوف عن طريق الخطأ لأنني سمعته من علي باي نفسه.

• السلاوي: لا يجب علينا أن نتراجع، إنني أعرف جيدا مخططات هذا المغامر. (وباهتمام) هل تعلم أنني سمعته يصرح لسيدي عصمان ولاين الجيلاي بأنه هو الذي سوف يكون على رأس قبائل الأطلس إذا ثارت ضد السلطان.

• جنان: (بنشوة) يا له من اكتشاف سعيد.

• السلاوي: لكن، علينا أن نتفق. إذا كشفت هذا السر للسلطان تكون أنت شاهدا لإقناعه بإعفاء الاثني من مهامهما.

• جنان: اعتمد دائما علي .

## المشهد الرابع

السلطان و مولاي عبد السلام و مولاي عبد المالك و عمر بوسته

### الصالة الكبرى في السرايا

- عبد السلام: وأخيرا الحمد لله، لقد انتهت هذه الظاهرة المؤلمة.
- السلطان: (بقلق) نعم، ولكن من يؤكد لنا أن عواقبها لن تكون وخيمة؟.
- عبد السلام: ليس هناك أي شيء نخشاه. هل تأكدت، أخي، من حقيقة ما تنبأ به علي باي؟ لقد شاهدنا، وللمرة الرابعة، ما تنبأ به هذا الشريف العالم، وهو من يؤكد لنا عدم وجود أي تأثير لهذه الظواهر على معنوياتنا. لماذا إذن نشك في علمه؟
- السلطان: آه، يا عبد السلام. كيف أنك لم تنتبه إلى الصدفة الموجودة بين علامات غضب السماء هذه، والنبوءة التي...
- عبد السلام: ألا تتذكر يا سليمان غباء أولئك الذين يستغلون سهولة التصديق عند الشعب ليزرعوا الرعب في الإمبراطورية؟.
- السلطان(بقلق): إنني شقي.
- عبد السلام: لست كذلك. لا تهتم، أخي، بتلك المخاوف التي يذكيها المحتال والخداع الجنان.
- بوسته: مولاي، اسمحوا لي أن أخبركم أن الشعب الذي لم تخدعه هذه التنبؤات الخاطئة لهذا الفلكي، يلعن اسمه في الوقت الذي يبارك اسم علي باي .
- عبد المالك: إن الشعب غير عادل لأنه بالرغم من أن الجنان خاطئ في حساباته بخصوص يوم الكسوف، فإنه في الأخير، هو الذي تنبأ به قبل علي باي. وفي ما يخص تأثير هذه الظاهرة، فمن ذا الذي في استطاعته أن يقول العكس؟
- عبد السلام: لقد كذب الجنان عندما اعتبر أنه هو من أعلن الكسوف. ولكنه توصل بإشارات من علي باي الذي لم يشأ أن يعطيه توضيحات لكي لا

يبالغ في الأمر، ومن هو الفلكي في المغرب الذي تنبأ بهذه الظاهرة السماوية قبل مجيء هذا العالم و الأمير العباسي؟ من الواضح أنه هو الذي كذب وأخطأ كلياً في ما يخص الجزء المتعلق بفيزياء الظاهرة، فمن المستحيل أن يقول الحقيقة أو ينجح في التنبؤ بعواقب هذه الظاهرة.

•السلطان: ( يعانق عبد السلام) إن كلامك هذا يخفف عني . إن الله العظيم قد حرمك من نعمة البصر، لكنه عوضك عن ذلك بنعمة نور البصيرة. أنت محق في أن علي باي هو العالم الذي يجب علينا استشارته، إنه الرجل الفاضل الذي يقول الحقيقة. لكن، قل لي يا عبد السلام، ماذا علي أن أفعل لكي أقنع هذا الرجل بالبقاء عندنا في المغرب؟ فلا الثروات ولا الجوائز بإمكانها أن تؤثر على روحه العالية. ماذا علي أن أقوم به تجاهه لكي يبقى بجانبني؟

## المشهد الخامس

### نفس الشخصيات وعلي باي

• علي باي: ليبارك الله يا مولاي شخصك الشريف (يقبل يد السلطان الذي يعانقه بدوره). أتمنى يا سيدي أنك مرتاح في ما يخص هذه الظاهرة التي رسمها لكم الأغبياء والمخادعون كونها ظاهرة كارثية. بإمكانكم، ونظراً لروحكم العالية، أن تنكبوا على الاستمرار في المناقشات التي من شأنها أن تدخل التجديد على الإمبراطورية .

•السلطان: إنني أعتز، يا علي باي، بأن ظاهرة الكسوف قد أزعجتني، لكن، في نفس الوقت، فإن ما توصلت إليه، بفضل علمك وكذا المزاي التي تتحلى بها، جعلتني أحاول نسيانها.

• علي باي: لا تخش أي شيء لأن سحابة كثيفة حجبت الشمس. فلماذا نخاف إذا وقع نفس الشيء مع القمر؟ أما في ما يتعلق بالتنبؤات المؤثرة التي استنتجها علماء الفلكيون، يكفيكم أن تعلموا أن الأمر يتعلق بالحساب، إذ على هؤلاء أن يعرفوا الرقم والمسافة ووضعية كل الأفلاك التي تكون نظامنا الفلكي. والآن، إنني أعرف ويمكنني أن أريك بواسطة مرصدي، تسعة عشر كوكباً والتي لا يوجد من بينها أي كوكب بإمكانه القيام بأي تأثير على كوكبنا الأرضي. إذا اعتبرنا أن لكل هذه الكواكب تأثيراً، فكيف درس علماء كوكب حركة

هذه الأجسام التي لا وجود لها؟ وإذا اعتبرنا أن كوكبا واحدا هو المؤثر فما هي الغاية من علم الفلك؟

• السلطان: إن حجتك قوية، وقد أصبحت مقتنعا تماما.  
• عبد السلام: دعنا من التفكير في هذا الأمر ولنحاول أن نكون سعداء بالقيام بأعمال الخير لصالح أبناء جلدتنا.

• علي باي: آه، يا أيها الأمير، إن روحكم العالية ترفع من شأني. ولا أشك في أن سليمان العظيم، المقتنع تماما بصحة نيتنا، سوف يأخذ في الحسبان المصلحة التي تنادي بها، بقوة، العائلة والدولة.

• السلطان: في الحقيقة، إنني بدأت أعتزف بأن اقتراحكم ممكن أن يعود بالفائدة إذا كان شعبنا معتدلا مثل المسيحيين.

لكن قبائلنا سريعة التوتر وذلك بسبب ارتفاع حرارة الطقس. وإذا ما حطموا القيود التي تربطهم، في يوم من الأيام، فمن ذا الذي يستطيع أن يُخضعهم.

• عبد المالك: حتى الشعوب الأكثر اعتدالا، في هذه الحالة، ترضخ للضغوطات والمبالغات التي ترعب الناس كلهم. انظروا إلى هذا الشعب الذي يعتبر نفسه الأكثر حضارة في الأرض وسترونه يتحول إلى مجموعة من الوحوش، وفي الوقت الذي يريد فيه السلطان، السلطان الطيب، بفضل جوده وكرمه، أن يأتي الخير على يد الشعب نفسه، يستغل هذا الأخير قوته الهمجية لوضع الضحية الطيبة في غياهب السجن، أي العاهل الذي قام بأعمال الخير لصالح الجميع. إن على كل سلطان أن يفتح بصره على هذا المثل المخيف ويعلمه ألا يفك الرباط الحديدي الذي وضعه في عنق الشعب.

ثقوا بي، مولاي، إن الإنسان يتحول إلى حيوان عندما لا توجد سلطة تردع حماقاته. واسمحوا لي أن أقول لكم إنكم سوف تكونون أول ضحية إذا ما اعتمدتم دستوراً في بلاد المغرب.

• علي باي: أيها الأمير، إنني عاجز عن مكافأتك وجزائك لما تقومون به لصالح السلطان لكن هل تظنون أننا أغبياء وبأننا لم نستفد من هذه المواعظ التي تذكر الآن؟ إن هناك أكثر من وسيلة لمصلحة الجميع. ومن الواضح أن التجربة أكدت لنا استحالة القيام بهذا الخير. وسوف يكون من الحماسة الرجوع إلى

استعمال آلة التخريب والتدمير. لكن، عندما يتعلق الأمر بمصلحة الجميع، هل يمكننا التنبؤ، على التو، بالطريقة الصحيحة التي يجب علينا اتباعها؟ فكروا في هذا جيدا. أيها الأمير، وسوف ترون أن ما بين الاستبداد والفوضى توجد آلاف الوسائل والطرق للدفع بالشعب إلى قبول الملكية المعتدلة.

• السلطان: هذا صحيح، يا علي باي، لكنني مرتاح لوضعيتي، فلماذا علي أن أقوم بالتجديد الذي يمكن أن يشكل خطرا؟

• علي باي: هل أنتم راضون، سيدي، على وضعيتكم؟. هل تظنون، سيدي، أنكم في وضعية جيدة؟ أستم أبا لأبنائكم وأبا لقبائلكم كذلك؟ ألا يزعجكم المصير الذي ينتظرهم عندما يأتيكم ملك الموت لتلتحقوا بالرسول الكريم؟ إنكم تعلمون جيدا، بفضل تجربتكم، أنه بسبب غياب دستور في المغرب يضمن الخلافة على العرش، كم من آلاف اضطروا إلى التضحية بأنفسهم من أجل أن تتمكنوا من مسك الصولجان الملطخ بالدم الغالي. إنه نفس المصير الذي ينتظر عائلتكم في الوقت الذي سوف تنعمون فيه بالحدائق الغناء وعذارى جنة عدن. هل يظل قلبكم بدون إحساس عند رؤية أبنائكم يتلع الواحد منهم الآخر وكذلك الطامعين الذين يرغبون في الجلوس على عرشكم؟.

وحتى في حياتكم، ألا يحزنكم مشهد الملايين من سكان أحد البلدان السعيدة على الأرض يئنون ويتوجعون في شلل مشين، ويعانون من الشقاء والبؤس لعدم إعطائهم الحرية والملكية الخاصة وضمانيها لهم؟ آه. يا سيدي، لا تخشون أي شيء لأنكم صاحب الفضل والمجد لشعبكم. اجعلوهم يسعدون إلى الأبد. اجعلوا الأجيال القادمة تحبكم مثل السلطان سليمان العظيم بالنسبة للأتراك عندما منحهم المجلس التشريعي. وفي الأخير، مولاي، اضمنا العرش لمن يخلفونك، وتقادوا، إلى الأبد، كل تفرقة في الإمبراطورية، ولتؤمنوا بالقدر الإلهي.

• السلطان: إن قلبي يتوجع من شدة هذه الاختلافات في الرأي، لكن مهما يكن، فإن قراري النهائي هو، يا علي باي العظيم، أنني سوف أعمل دائما بنصائحك وبما تدفعني إليه روحك الطيبة.

## المشهد السادس

### القاعة الكبيرة في قصر علي باي ذات الأعمدة المتفرقة في الخلف سيدي عصمان وابن الجيلالي

- ابن الجيلالي: لا يزال علي باي مع السلطان .
- عصمان: إن هذا الأمير ضحية لقلبه الكبير، لأنه يعتقد أن المتجبر الذي يحكمنا قادر على أن تكون لديه مشاعر وأحاسيس نبيلة.
- ابن الجيلالي: أخشى أن يكون الثمن الذي سوف يؤديه علي باي، جراء كرمه، غاليا. لكن أقسم لك أنه إذا ما حاول سليمان الوحش الاعتداء على هذا الأمير العباسي الوقور فسوف أكون أول من يترأس قبائلي لكي أحو أثر الجريمة الوحشية لهذا الطاغية.
- عصمان: أتمنى أن يؤثر فيه خطاب أخي ويجعله يفترق عن سليمان. يا رب، استجب لدعواتنا. وأنقذ أميرنا واجعله، بدعمننا له، يُسعد قبائل المغرب.
- ابن الجيلالي: علي باي قادم.

## المشهد السابع

### نفس الشخصيات إضافة إلى علي باي

- علي باي: السلام عليكم.
- عصمان: (يقبل لباس علي باي من الجانب) ليبارك الله أميرنا.
- ابن الجيلالي: فليغمرك الله بالخير كله.
- عصمان: إن أخي، يا مولاي، بعث لكم بهذه الرسالة، مؤكدا علينا أن نقدمها لك مع أعلى تحياته واحترامه.
- علي باي: (يقرأ بصوت خافت ويقول بعد ذلك) أصدقائي، اكتبوا عاجلا إلى سيدي العربي بأن يوقف تحرك القبائل. إنني على وشك إقناع

السلطان. وإذا استطعت أن أقنعه، تماما، بميثاق دستوري للإمبراطورية فإننا سوف نحصل على ما كنا نتمناه دون إراقة المؤمنين والمسلمين لدماء بعضهم بعضا.

• عصمان: سيدي، إن كل القبائل مقتنعة مثلنا أيضا، أن سليمان لن يعيد أبدا عن جبروته واستبداده.

• علي باي: بالرغم من ذلك علينا أن ننتظر قراره النهائي، إنني لازلت أثق بالخطة التي اقترحتها عليه، وإذا ما وافق سليمان عليها فبأي حق تحاولون نزع الصولجان من يده؟ إنه ابن السلطان محمد.

• ابن الجيلالي: بالتأكيد. لكن، لكي يتربع على العرش الذي يحتله كان قد ضحى بإخوانه الكبار وبمائة ألف من الأرامل واليتامى في المغرب، ممن لا يزالوا يكون على ما فعل بهم. إذا كانت القوة هي التي تحكم وتعطي الحق، فهل نحن غير قادرين على اختيار العاهل المناسب لمصلحة الوطن؟. اتخذوا القرار، سيدي، للقيام بكل ما من شأنه أن يعود بالنفع على المغرب، ومادام أن سكان الأطلس الشجعان وبدو الصحراء ينادونكم ويبياعونكم كعاهل، لا تخشوا أي شيء، فأنا وسيدي عصمان سوف نؤثر في القبائل، ونقسم لكم بأننا سوف نظل أوفياء لكم.

• الإثنان: (يقفان) يعيش علي باي، سلطان المغرب.

• علي باي: (الكل يقف متأثرا) لا يا أبنائي، إن هذا التصريح سابق لأوانه، لأن مصلحة الوطن لا يجب أن تقام على الجريمة. فلننتظر إذا مال مولاي سليمان لمصلحته ومصلحة الوطن فإنه سيقبل الدستور الذي اقترحتته عليه ويعيش ويهنأ في حكمه بالسعادة لسنين طويلة على شعب المغرب الكريم.

• عصمان: عليكم ألا تنخدعوا، سيدي، إن روحك الكريمة تحس وتعتقد أن للآخرين نفس المشاعر. إن سليمان لا يتوفر على مثل هذا الكرم.

• ابن الجيلالي: فلتعلموا، سيدي، أن في السياسة فرصا ثمينة يجب اغتنامها. إن هناك عشرة آلاف فارس ينتظرون في كل مضيق من جبال الأطلس أوامري. وإن صدري بكل قوة سوف يكون الدرع الواقى لكم في مواجهة رماح الأعداء.

• علي باي: (يعانقه ابن الجيلالي) أيها الشجاع، كم أنا سعيد ومعجب

بهذه الروح الكبيرة، إنك محط ثقة القبائل، ولن أنسى أبدا هذه الالتفاتة وهذا الشأن الذي أعطيتني. لكن، لنجعل هذه الأحاسيس وهذا الشعور شريفاً، وذلك بتفادينا للجريمة التي من الممكن أن تلتطخه وتدنسها. لنترجو من سليمان أن يجعل الشعب سعيداً وذلك بقبوله وإعداده لمؤسسة قانون الإمبراطورية الذي اقترحه عليه.

• عصمان: وبكل تأكيد، هذا ما لم يقم به.

• علي باي: آه، يا عصمان إن سؤالك هذا وضعني أمام تجربة قاسية. ففي هذه الحالة القصوى هل يمكن نسيان مصلحة الستة ملايين من الرجال والأجيال القادمة في سبيل مصلحة متجبر ومستبد، والذي لا حق له سوى السلاح الذي حكم عليهم به إلى الأبد، وجعلهم يئنون تحت وطأة العبودية البؤس؟.

• عصمان و ابن الجيلالي: يا الله، يا عظيم، استجب لدعواتنا.

## المشهد الثامن

### نفس الشخصيات مع مولاي أحمد

• أحمد: سيدي، جئت مسرعاً وكلي نشوة لأخبركم بأن السلطان أرسل إليكم الآن امرأتين.

• علي باي: لا يا مولاي أحمد، لا يجب عليك أن تؤمن بهذا. إن السلطان يعرف حق المعرفة أنني لا أريد أن أكلف نفسي عناء الحریم.

• أحمد: أيها الأمير، هذا شيء حقيقي لأن أحد خدام السلطان أخبرني مسبقاً بالأمر. إن إحدى المرأتين، بيضاء البشرة، وتسمى أم هانئ، يقولون عنها إنها فائقة الجمال، وبعد أن تم إرسالها لمولاي موسى؛ الأخ الأصغر للسلطان، قرر هذا الأخير أن يرسلها إليك بصحبة امرأة أخرى سوداء البشرة، تسمى تينغو، وهي جوهرة مثل الفحم الحجري اللامع. عمر الاثنتين ست عشرة سنة، وكلاهما عذراء مثل حور الجنة لم يسبق أن مسهما أحد. فلتسعد، سيدي، بهما.

• علي باي: منفعلاً، هل هذا ممكن؟



• أحمد: هذا ما حدث بالفعل. لقد سبق أن دخل الموكب إلى الشارع.

• علي باي: (منفعلا أكثر) اذهب، بكل سرعة، مولاي أحمد. أسرع لإيقاف هؤلاء الناس. وقل لهم بأن ينتظروا، لبعض الوقت، إلى أن تنتهي من الاستعدادات. (ينصرف مولاي أحمد). أنت يا ابن الجيلاي، اذهب، بسرعة، وأخبر، من قبلي، الأمير مولاي عبد السلام بهذا الخبر، وقل له إنني لا أريد أن أكون مسؤولاً عن الحریم إلى أن يتخذ السلطان القرار باعتماد الدستور المقترح، ونتيجة لهذا، أرجو أن يعطي أوامره لكي ترجع المرأتان إلى القصر. (يذهب ابن الجيلاي). إنك ترى يا عصمان أنني لا أستطيع فعل أي شيء آخر سوى المصلحة العامة.

• عصمان: إنني أتعجب سيدي مما أرى. إنني أخاف عليكم من العواقب التي قد تحدث بسببكم.

• علي باي: إنني أعني جيدا ما سوف أتعرض له بمواجهتي لسليمان. لكن، أرى أنه من الضروري أن أوضح له مهما كان الثمن أن علي باي لا يباع.

• عصمان: إذن، سيدي، مادام أنكم تتمسكون برأيكم، أليس أضمن لكم أن تذهبوا معنا؟ إن يوما واحدا من السير يكفي لجعلكم في مأمن.

• علي باي: لا يا عصمان، لن أعطي أبدا ظهري للخطر. لقد سبق لي أن قلت لكم إنني أريد أن أفرض على سليمان جوابا نهائيا وحاسما. إنني لن أحميد أبدا عن هذا المبدأ. وعندما أتوصل بالجواب سوف أتصرف. وفي انتظار ذلك، اكتب لسيدي العربي، حول ما ترى وأرجوه أن يوقف حراك القبائل فلا وال هناك.

## المشهد التاسع

### علي باي وعصمان وعمر بوستة

• عمر: (منفعلا) ما هذا أيها الأمير؟ لقد كنت آتيا بالنساء اللواتي أرسلهن لكم السلطان، وإذا بحاجبكم مولاي أحمد يبلغني في الشارع أمركم بتوقيف السير وأن تنتظر حتى إشعار آخر. هل هذا صحيح؟

• علي باي: نعم بالتأكيد. لا يمكنني قبول هاتين المرأتين.

- عمر: (مرتبكا) لكن، تعلمون جيدا، سيدي، أن المرأة التي تخرج من قصر السلطان لا يمكنها أن تدخل إليه مرة أخرى.
- علي باي: أعرف، لكنني لا أستطيع قبولهما .
- عمر: في هذه الحالة، سيدي، ماذا علي أن أفعل؟
- علي باي: إنك تعرف أيها الباشا أنني لا أتكلم بلغتين. لتنتظروا جميعا، أنت وهن، إلي حين القرار الجديد.

## المشهد العاشر

### علي باي وعصمان والسلاوي والجنان

- السلاوي: (يقبل لباس علي باي) لتسعد، سيدي، بالعفو الذي أصدره السلطان، مرة أخرى.
- جنان: (يقبل لباس علي باي). إن ذرية كبيرة سوف تضمن استمرار دار أبي العباس العتيقة.
- علي باي: أشكركم على عباراتكم الرقيقة. لكن، أحيطكم علما أنني لا أرى من المناسب في الوقت الراهن قبول هبة السلطان هاته .
- السلاوي: (بكل إعجاب) بما أن النساء خرجن من القصر فإنهن لا يستطعن أن يعدن إليه، مرة أخرى.
- علي باي: يفعل الله ما يريد .
- جنان: هذا فال سيء، لقد أحسن سيدي علي باي عندما عبر عن رفضه.
- علي باي: (في قرارة نفسه) أيها الخونة أتظنون أنني قد أروض
- السلاوي: (متهكما) إنني لا أشك في أنه لو لجأتم إلى سيدي، مولاي سليمان، لسمح للنسوة بالدخول حتى ولو كلفه ذلك خرق قوانين القصر.

## المشهد الحادي عشر

### نفس الشخصيات إضافة إلى ابن الجيلالي ومولاي أحمد

• ابن الجيلالي: سيدي، لقد حظيت بلقاء الأمير في وسط الطريق المؤدي إلى منزله . نزلت من الفرس وأخبرته سرا بقراركم. تعجب من الأمر و أرسل، في الحين، خادمة إلى المسؤولة عن الحریم يأمرها أن تقبل المرأتين وتأويهما. وجاء بصحبتني ضابط أعطى أوامره للباشا عمر بوسنة لكي يذهب بهن إلى قصر مولاي.

• عبد السلام: لقد تم إنجاز كل شيء وعاد الموكب من حيث أتى.

• علي باي: آه، أيها الأمير الطيب، في كل يوم يزداد احترامي لك. فليبارك الله وجودك. وأنت يا ابن الجيلالي، يجب أن ترجع مع مولاي أحمد إلى قصر مولاي عبد السلام وتعبّر له عن شكري الكبير بما قام به تجاهي. وسوف أهتم أنا بالأمر مكانه.

خرج علي باي صحبة عصمان من جهة، وذهب كل من ابن الجيلالي ومولاي أحمد من جهة أخرى.

## المشهد الثاني عشر

### السلوي وجنان

• السلوي: لقد سقط هذا العملاق .

• جنان: منذ الآن، لا يجب علينا أن نضيع الوقت. فلنخبر مولاي عبد المالك بكل شيء لكي يدعم عمليتنا.

• السلوي: لا تنس أن تشهد بما سمعته من علي باي ومن ابن الجيلالي عندما أخبر السلطان.

• جنان: اطمئن، لكن، إن أكبر ما يوجد ضد علي باي هو عدم احترامه للنساء واحتقاره المدهش لهن وذلك برفضهن.

- السلاوي: كل شيء في صالحنا لأن هذا الشريف الدخيل حاول أن يشوش على مصالحنا المرتبطة، بكل إخلاص، بمخطط مولاي عبد المالك. فليهلك علي باي.
- جنان: الهلاك والموت للشريير والغادر الذي حاول تحطيم الوجود السياسي لعلماء الفلك المحترمين بالمغرب.

يسدل الستار

## الفصل الثالث

### المشهد الأول: القاعة الكبرى في القصر مولاي عبد السلام وعلي باي

- علي باي: لن أنس أبدا هذه الطيبة وهذا اللطف.
- عبد السلام: لكن، يا صديقي علي باي، إنني أرتعش من شدة خوفي أن يعرف السلطان ما جرى ويطلق العنان لغضبه.
- علي باي: إذا كان رفضي بسبب نزوة، فإن السلطان علي صواب. لكن سليمان وأنتم تعلمون أنني قد أعلنت عن قرار عدم العيش في هذا البلد بدون ضمانات، إذا لم يعتمد الدستور. وفي هذه الحالة، فإنني سوف أذهب إلى الشرق. وهذا هو ما يمنعني من تحمل مسؤولية أولئك النسوة.
- عبد السلام: أنت محق. إذا وقع مكروه من هذا القبيل، فإنني سأفعل مثلك، لكنني محروم من البصر وتعس، فماذا أستطيع أن أفعل؟
- علي باي: أيها الأمير التعس، إنني أشاطرك قولك. لكن، إذا غاب سليمان، كيف سيكون مصيرك، وأنت لا حول لك ولا قوة يا مسكين وسط مجموعة من الطامعين الذين سوف يستعملون السلاح من أجل السيطرة على العرش؟
- عبد السلام: أليست تعاسة صديقك هي السبب لتبني وطننا يناديك؟
- علي باي: في هذه الحالة، إذا كان بإمكانني أن أفيد صديقي، فإنني على كامل الاستعداد، وكلني نشوة للتضحية من أجله. لكن، بما أنه ليست هناك أية ضمانات فما هو النفع من وجودي غير المرغوب فيه والمكروه من طرف رؤساء الأحزاب لعلمهم بأفكاري، فقد أكون أول ضحية.
- عبد السلام: لا، يا علي باي، لن يحدث هذا. لنضع ثقتنا في الله كي يفتح عيون سليمان وينير طريقه.
- علي باي: حسنا. لكن مادام الشك يُخالجني، فإنه لا يجب علي أن أعطي وعودا تضطرني إلى الإقامة في المغرب. ولهذا، لا يمكنني قبول المرأتين.

• عبد السلام: لكن قبولك تلك النسوة لا يغير في شيء من وضعيتك السياسية، وأعتقد أنه حتى في حال ذهابك فإن القانون يسمح لك بأن تحتفظ بهن بإرادتك.

• علي باي: أيها الأمير، هناك قانون آخر ليس أقل قوة من الأول يوجد في قلبي، إنه قانون الشرف الذي يحتم علي ألا أستغل أبدا الأشخاص الضعفاء. إذا ما قدر لي، وهذا شيء محزن، أن أفترق عن صديقي العزيز على قلبي، فهذه النسوة تحلن دون قيامي بالسفر. فهل آخذهن معي بالقوة وضد إرادتي؟ أو أتركهن في المغرب مشردات وضائعات بسبب ارتباطهن بي، هذا الرباط الوحيد الذي يجعلهن يحظين بالتقدير من طرف كل مسلم والذي قد يكون عائقا أمام سعادتهن. لا، يا عبد السلام، لا يمكنني أن ألتزم تجاه أولئك النسوة. احتفظ بهن؟ من الممكن أن يسعدن في يوم من الأيام مع مسلم آخر، أكثر حظا مني.

• عبد السلام: لتعلم أن قرار السلطان بإرسال المرأتين إليك جاء بعد أن استشار عبد المالك واستشارني بعده. فعارض عبد المالك بكل قواه، كونه يخشى أن تقوي وجودك هنا، الشيء الذي يربعه ويسقط مخططاته الشريرة التي نجهلها. أما أنا فعمد ذلك، لقد حاربت اعتراض عبد المالك، وما دام السلطان يتمنى، بكل صدق، الاحتفاظ بك إلى جانبه، أكدت عليه بأن يصدر قرارا أو مرسوما بشأن إقامتك في بلدنا. اعتبر، منذ الآن، أن موقفي المساند لك سيصبح أكثر خطورة إذا ما استغل عبد المالك هذا الحدث وأشار للسلطان بأنني قد نصحته كي يرسل إليك النسوة من أجل أن أحتفظ بهن لنفسني.

• علي باي: ياله من اتفاق فظيع.

• عبد السلام: ارضخ يا علي باي لرغبة صديقك. لا تعرضه للكراهة التي يمكن أن ينتج عنها فهم خاطئ لتصرفك وكأن ذلك ضعف منك .

• علي باي: آه، إنه فهم خاطئ.

• عبد السلام: نعم، فهم خاطئ، لأن شريعتنا لا تفرض عليك قبول ما لا تعتقده وما لا ترضاه. أنقذني، عزيزي علي باي، من العذاب الذي يهددني فعلا بسبب هذا التصرف. اترك الدموع تسيل من هاته العيون المحرومة من نور البصر (بيكي).

• علي باي: (يأخذه من يده) لا، يا عزيزي عبد السلام، لا تعذب قلبي الحساس. أنت تعرف موقفني ومشاعري. قل ما تريدني فعله مني واعتبر ما سوف تقوله قد تم تنفيذه. لكن، فكر في الأمر جيدا.

• عبد السلام: يأخذ يد علي باي ويضعها فوق صدره. (يفكر لبعض الوقت ثم يقول): لتقبل النساء في بيتك حالا.

• علي باي: (يقوم بمجهود) ليأتين إذن .

• عبد السلام: (يعانقه وكله نشوة) آه، يا علي باي العظيم.

• علي باي: لكن، عليك أن تعلم أيها الأمير بأن عيوني لن تر النسوة حتى يتخذ السلطان قراره في ما يتعلق بالدستور. فإن اعتمد الدستور، فسأعتبرهن من نصيبي وأتخذ إقامتي في المغرب، لكن إذا ما رفض سليمان مصلحة الإمبراطورية ومصالحة عائلته فلن يفرض علي الإقامة في بلد ليست فيه ضمانات. لذا، سوف أرحل إلى الشرق قبل أن أرى تلك النسوة وبعدها تكون لهن حرية الاختيار بين البقاء هنا أو الذهاب معي حسب رغبتهن وإرادتهن. فلن يخسرن أي شيء .

• عبد السلام: (محاو لا إقناعه) يا علي باي العظيم!

• علي باي: في هذه الحال، ها أنتم ترون أنه لا داعي للقيام بالاحتفالات لنقلهن كما جرت العادة في هذا البلد. جيئوا بهن هذه الليلة ولكن بأقل ضجيج ممكن.

• عبد السلام: حسنا.

• علي باي: أنا ذاهب الآن لإعطاء أوامري لكي يُعدّوا لهن مكان إيوائهن. إلى اللقاء أيها الأمير العظيم.

• عبد السلام: (يعانقه) إلى اللقاء، عزيزي علي باي. إنني جد متأثر بمشاعرك النبيلة .

## المشهد الثاني: السلطان وعبد المالك

• عبد المالك: إنني لا أشك في فضائلك وسخائك الفريد الذي سوف يجعل علي باي يستقر بالمغرب .

• السلطان: أتمنى أن أتفوق وأحصل على هذه النتيجة. فمن يستطيع، مثل علي باي، أن يسدي النصائح لي فيما يخص علاقاتنا مع السلاطين المسيحيين؟ فنظر الإقامة الطويلة بأوروبا والسمعة الكبيرة التي يحظى بها بفضل تصرفه ونبوغه استطاع أن يتعمق ويطلع على خبايا السياسة الأوروبية. إنك ترى يا عبد المالك أنه نظراً لهذا الاحترام فإنني أضحي وأفعل كل شيء بإرادتي لكي يبقى هذا الشريف العالم بجانبني .

• عبد المالك: إذا ما اكتفى علي باي بتأثيره على العلاقات الأجنبية، فإنني أرى أنه من الممكن أن يكون نافعا جدا في إدارة الأعمال. لكنني، أرى بكل حسرة أن روحه الخلاقة توحى له بأشياء جديدة تشكل خطرا على بلدنا.

• السلطان: قد يكون علي باي نفسه فكر في الوسائل التي يمكن بها تحقيق برامجه دون أن يكون هناك أدنى خطر، ولا أشك في أنني إذا ما فزت بضمان خلافة العرش وتجنبت، وللأبد، الحروب الدموية التي تحزن الإمبراطورية عند وفاة كل سلطان، فإن ذلك سوف يعود بالنفع العميم. لكن، إذا كان هذا الأمر سوف يحتّم علي التضحية بجزء من سلطتي، أعترف أنني لن أوافق أبدا على هذه التضحية .

• عبد المالك: سوف يكون هذا الأمر أكثر صعوبة حسب رأيي إذا قبلتم الدستور المقترح من طرف علي باي، وسيكون كما لو نزعتم الصولجان ووضعتموه في يدي هذا الأجنبي .

• السلطان: لا، يا عبد المالك. إن نية علي باي صافية. فلدينا الكثير من الحجج والبراهين على صدق مشاعره. قد يخطئ في الوسائل التي يستعملها من أجل مصلحتي ومصلحة الشعب، لكنه يبحث بصدق وبحسن نية .

• عبد المالك: (بشيء من التهكم) بالتأكيد...

## **المشهد الثالث: نفس الشخصيات والسلاوي وجنان وفي ما بعد مولاي عبد السلام**

• الاثنان: (يقبلان أهداب لباس السلطان) ليبارك الله حياة سيدنا.  
• السلطان: مرحبا بكما. هل رأيتما علي باي؟



• السلأوي: (كأنه مضطرب) آسف سيدي لكلامكم لي عن هذا الأجنبي، لكن ما يفرضه علي القيام بواجبي وخدمتكم، في المقام الأول. هي أهم من أي شيء آخر.

• السلطان: ماذا هناك إذن؟

• السلأوي: (يبدو منهكا) فلتقطع رؤوسنا، سيدي، إذا لم يرقك كلامنا. إن علي باي خائن.....

• السلطان: (متوترا ومسرعا) أين الدليل؟

• السلأوي: أنا بنفسني سمعته يعرض علي سيدي عصمان وابن الجيلاي إذا ما قررت قبائل جبال الأطلس أن تثور ضدك، فهو من سوف يكون علي رأس المتمردين.

• السلطان: هذا شيء مستحيل.

• السلأوي: أعيد وأكرر يا مولاي أنني مستعد لأقول الحقيقة، وإن جنان كان حاضرا وبإمكانه أن يشهد علي ذلك.

• السلطان: (يغضب في وجه الجنان) هل سمعت أنت ما قاله علي باي؟

• جنان: سيدي لقد سمعت ما قال وبقيت مستغربا من غدر وخيانة هذا المغامر.

• السلطان: لمن قال ذلك؟

• جنان: لسيدي عصمان وابن الجيلاي.

• السلطان: هل أنتما متأكدان؟

• الاثنان: نعم سيدي.

يتجول السلطان وهو جد متوتر ويتعجب بدون توقف ويقول في قرارة نفسه.

• السلطان: هل هذا ممكن؟.. لا... لا يمكن لعلي باي أن يفعل هذا... لكن، إذا كان طموح هذا الشريف... لكن، من الممكن كذلك أن يكون اتهامها خادعا...

ينفرد السلطان بجنان ويقول له:

• السلطان: قل لي يا جنان، أين سمعت علي باي يقول هذا الكلام.  
• جنان: ( يبدو منزعجا بشدة ) إنني يا سيدي... سمعت هذا الكلام بنفسني .

• السلطان: أعرف ذلك جيداً، لكن قل لي أين سمعته.

• جنان: لقد سمعته... نعم يا سيدي... في بيته.

يترك السلطان جنان ويأخذ السلاوي فيبتعد قليلاً.

• السلطان: ( يسقط الظلام شيئاً فشيئاً ) أيها الوزير، لقد ارتكب علي باي خطأ جسيماً. وسيكون عقابه شديداً. قل لي: أين سمعت علي باي يقول هذا الكلام؟

• السلاوي: داخل فناء قصركم هذا .

• السلطان: ( يصرخ بقوة ويسقط السلاوي على الأرض ) أيها المحتلان!  
يا حراس، القوا القبض حالاً على هذين الشريرين.

يسرع الحراس ويلقون القبض على الاثنين.

• عبد المالك: انتظروا يا سيدي قليلاً، لا تسرعوا بالزج بهما فقد يكونا بريئين. ألا تفضلوا يا سيدي بالاستماع إليهما.

• السلطان: ماذا يمكنكما القول أيها البئسان؟ تكلموا.

يدخل مولاي عبد السلام

• السلاوي: سيدي، لكي ترون إلى أي حد يحتقر علي باي شخصكم الجليل، عليكم أن تعرفوا أنه قد رفض قبول الفتاتين اللتين تكرمتم بإهدائه إياهما وتركهما في الشارع عرضة للضياع.

• عبد السلام: ( بقوة ) هذا غير صحيح، لقد رفض علي باي قبولهن في الحال لأنه تفاجأ بطيبوبة السلطان، حيث لم يكن قد هياً ما يتطلبه ذلك الاستقبال: لقد طلب مني أن أتكلف بإسكانهن فترة في حريمي، وعندما انتهى بسرعة من تحضير ما يجب تحضيره، اتفق معي على أن تأتين إلى قصره خلال هذا المساء نفسه.

• السلطان: خذوا هذين المنافقين.

## المشهد الرابع: علي باي وعمر وبوستة وعصمان وابن الجيلاي

في صالون علي باي مساء. يظهر من جهة باب الحريم الرئيسي خلف السواري، يحرسه حارسان أسودان، كما يظهر كذلك باب آخر قريب كمدخل للصالون.

• بوستة: كل شيء جاهز. كل ما يمكن تحضيره في أسرع وقت لاستقبال عظيم يليق بالآنسات السعيدات. زينت غرف الحريم وتم تأنيثها بزراي فاخرة وأفرشة من الصوف. يظهر البذخ والترف في أشكال وألوان الأثاث والأثاث الفاخر والسرير المخصص لسيدتنا أم هانئ. لقد جرى تحضير الحمام كذلك، كما ملئت إحدى الغرف بمختلف المشروبات غير المخمرة وبالحلويات والشاي والقهوة والعطور وأشياء أخرى ضرورية لتليق بعوالم الحريم. وتظل الأبواب والنوافذ مغلقة بإحكام حتى لا يستطيع أي شخص معرفة ما يدور في الداخل. كما ترون يا سيدي أن الحراس المخصيين السود يحرسون باب الحريم الخارجي. أما الصندوق المغلق الذي أرسلته فلقد تم وضعه بجانب السرير.

• علي باي: (يظهر حزينا) أشكرك يا باشا على مجهوداتك الكبيرة. في الحقيقة لم أكن أعتقد أنك ستتمكن من ترتيب كل هذا خلال ساعات قليلة.

• عمر: عندما يقودنا الحظ لخدمة أمير مثلك، لا ندخر جهدا.

• علي باي: آه، يا عمر الطيب! لقد خانتني قواي في الحالة الراهنة. كما أن لي إحساسا بحدوث شيء سيء عما قريب.

• ابن الجيلاي: (بسرعة) لا يا أمير. طالما أنتم متأكدون من خدمكم، فلا مجال للخوف بتاتا من تقلبات الزمن.

• عصمان: كونوا على يقين أن أخي سيدي العربي مثل سيدي علي بن جامع ومثل الشرفاء الآخرين في الإمبراطورية، لا يمرّ يوم إلا ويرفعون أكفهم إلى السماء يدعون لكم بالنعمة الإلهية. وكونوا على يقين أن تلك الدعوات سوف تأتي أكلها في المستقبل.

• علي باي: لو استمعت لنداء العدالة الذي يسكنني ولروحي، فانه لا داعي للخوف، لكن بما أن الظروف قد بدأت تتعقد، وبما أن العواطف أخذت مكان العقل، من يستطيع أن يتنبأ بالنتائج؟

- ابن الجيلاي: على كل حال، دعوا عنكم في هاته الليلة كل الأمور الكبيرة التي تقض مضجعكم، فستكونون بين ذراعي الحبيبة...
- علي باي: إنك لا تعرف يا ابن الجيلاي الحالة التي توجد عليها روجي.

## المشهد الخامس: نفس الأشخاص بجانب مولاي أحمد

- مولاي أحمد: سيدي، لقد وصل الموكب. جاءت أيضا الزوجات المفضلات لدى الأمير مولاي عبد السلام رفقة حليلة المسؤولة عن الحرير. كما أن سيدتنا أم هانئ جيء بها على متن هودج فخم.
- علي باي: قُدهن إلى الحرير.

خلف السواري في أقصى المسرح، يمرّ حرس مصطفى. يأتي بعد ذلك رجلان بشموع مضيئة بينما يحمل رجل عصا ومجموعة من الأطواق التي تتدلى منها فناجين صغيرة ملونة بالأنوار. يتبعه الهودج مغطى محمولا على أكتاف أربعة من الرجال السود. في الخلف، هناك رجال آخرون بعصي وبأطواق من الفناجين الصغيرة وشمعتين تتبعهم ست أو ثمان نساء مجللات، وأربعة حراس سود فضلا عن حراس وجنود آخرين.

لم يدخل على الحرير إلا الهودج والنساء. كل الرجال السود يتجمعون حول الباب. بعد ذلك، ينصرف الحراس والرجال. وعند مرور الموكب، تسمع في الداخل موسيقى خفيفة مصدرها آلات موسيقية هوائية، بينما تصدح النساء بزغاريد حادة ومسترسلة احتفالا بالوصول.

يدير علي باي ظهره لما يقع محاولا عدم رؤية ما يجري. أما الآخرون فينظرون باحترام.

يعود مولاي أحمد.

- أحمد: سيدي إنهن الآن مع الحرير.
- علي باي: قل لحليمة إنني أرجو أن تفضل فتأتي عندينا.
- يذهب أحمد للمناداة عليها عبر باب الحرير دون أن يدخل فتخرج إليه.

## المشهد السادس: نفس الأشخاص وحليمة المججلة بخمارها

• حليمة: (تنحني خضوعاً) يحفظ الله حياة الأمير الشريف العظيم الجليل علي باي وليكن سعيداً مع الآنسة الطاهرة كأبكار جنة عدن والجميلة مثل جمال فاطمة اللؤلؤة؛ ابنة أفضل الأنبياء والتي سوف تخلف أبناء كثيرين يزدان بهم منزل أبي العباس الجليل. هنا توجد سيدي عبدتكم حليمة المشرفة على حریم الأمير الكبير مولاي عبد السلام.

• علي باي: السيدة حليمة. أتقدم إليك بالشكر على اعتنائك بنسائي. وأرجو أن تقبلي هذه الهدية تعبيراً عن امتناني (يعطيها ساعة).

أخبروا أم هانئ أنني أكنّ لها كل الاحترام وذلك بفضل التقارير التي أتوفر عليها، ولكونها كذلك فيض من بين يدي السلطان المقدستين وهبة من مولاي عبد السلام. لكن قولوا لها في نفس الوقت، أن بعض الظروف السياسية تضطرنني ألا أراها بعض الأحيان. على كل حال، بلغوها كامل احترامي وأعطوها هذا المفتاح (يعطيها مفتاحاً) وأخبروها أن كل ما سوف تجده بفضل هذا المفتاح فهو ملك لها ويمكن أن تتصرف فيه كما تشاء. أخبروها أنني ذاهب في هذا الوقت إلى السملالية. لكنني أترك حاجبي الشريف مولاي أحمد مرفوقاً بما يكفي من الخدم لخدمتها كما لو كان الأمر يتعلق بي، وأخبروها ألا تتوانى عن طلب ما تريد، فهي حرة كي تحكم كما تشاء أيضاً، حيث كل ما يوجد في القصر هو رهن إشارتها. مثلما أنني كلفت تيغمو بحراستها. وقدموا احتراماتي وتشكراتي البالغة إلى كبير الشرفاء سيدكم الأمير مولاي عبد السلام. إلى اللقاء.

تذهب حليمة إلى الحریم.

• ابن الجليلي: هل ممكن سيدي أنكم ستضحون، إلى هذا الحد، بكل هذه المشاعر الصحيحة؟ في ما يتعلق بهذه النقطة، أروح لكم أنني لن أفعل ذلك...

• علي باي: يا مولاي أحمد، هل كل شيء جاهز؟

• أحمد: إن الخيول والمصاييح والحرس تنتظركم. وبالرغم من أن الوقت

هو منتصف الليل، سيكون باب المدينة مفتوحا وذلك لأنني قمت بإخبار الحرس بذلك.

• علي باي: حذار يا مولاي أحمد مما سأتركه لك. فهذا الأمر الذي أكلفك به هو ذو أهمية قصوى. سأنتظر كل اثني عشرة ساعة تقريراً ترسله لي رفقة خادمي. كما أن كل ما يمكن أن يقع في القصر من خير أو شر، مرتبط بخدمتك لسيدتك أم هانئ. فأنت شريف وأعتمد على وفائك وغيرتك. لنذهب إذن.

(يذهبون جميعاً).

## المشهد السابع:

يسمع فتح قفل باب الحريم الداخلي. تخرج من الباب كل النساء مكشوفات الوجه. ترافقهن أم هانئ حزينة ويجلسانها فوق الفراش.

• حليلة: (وهي تخرج) لقد ذهب الأمير.

• تيغمو: (فرحة) لكن يا سيدتي يبدو أن المفتاح السري يفتح كل أبواب وصناديق وخزائن القصر، إنه لأمر جميل!

• أم هانئ: (تجلس فوق الفراش وتجلس النساء الأخريات فوق الطنافس بينما تبقى تيغمو واقفة). آه، كم أنا شقية .

• حليلة: سيدتي لا تحزني. لقد رأيت علي باي خلال مدة قصيرة فقط، وأنا متأكدة أن هذا الأمير غير قادر على الإساءة إليك.

• أم هانئ: لقد أكد لي الكل سموّ روح هذا الأمير، كما أن طريقة استقباله لي تؤكد ذلك. لكن، إذا كان، كما قال لكم هذا الرجل المحترم، مضطراً كي لا يراني بسبب الظروف. لمن أنا إذن؟ وإلى متى سيستمر هذا الترميل الحزين؟

• تيغمو: سيدتي. لا تبالي بأي شيء، فنحن بخير هنا. انظري، انظري إلى هذا الثوب الجميل الذي يكسو هذا الفراش. إنه بدون شك من صنع إفرنجي. كم هو مفرح، خصوصاً، أن تتجول وترى كل ما يوجد بالقصر. سأذهب لأرى إلى حيث يؤدي هذا الباب.

تدخل المفتاح في القفل ولا تتمكن من فتحه بالرغم من محاولتها بشدة  
وتقول وهي حزينة وغير خجولة.

آه، تبال هذا الباب. كم أنا غبية!

• حليلة: يا أيتها المغفلة، إنه لمن الواضح أن هذا المفتاح يصلح فقط  
للغرف التابعة للحريم وللممر الداخلي لغرفة الأمير. أما الباقي، فيجب أن  
يكون مغلقا أمام فضولك. (لأم هانئ) لا تكوني حزينة يا سيدتي. فعلي باي  
رجل همام لا يرضى أن تكوني غير سعيدة.

• أم هانئ: أنتن تعرفن منذ فترة من الزمن أن السلطان كان قد أرسلني  
إلى أخيه مولاي موسى الذي يوجد في تافيلالت. وكنت أعتبر نفسي مستقرة،  
لكن عندما وصلتنا في منتصف الطريق رسالة من مولاي سليمان، وبعد أن  
اطلع عليها السائق، عدنا إلى هذه العاصمة تنفيذًا لأمر السلطان. وها أنا ذا من  
جديد سجينة في سجن الحريم. والآن ها أنت ترين ما يقع لي بعد أن تلقيت  
التهاني من رفيقاتي على ما قدر لي. فلقد سلموني لرجل يهرب مني مثلما يفعل  
الظل، حتى قبل أن يعرفني. ولا أعلم ماذا ستكون نهاية وضعيتي الصعبة هذه؟.

• حليلة: عليك أن تثقي سيدتي في المشاعر النبيلة التي تحرك أميرك.

• أم هانئ: آه! أميرى لو كانت لي ولو فكرة حول مشاعر قلبه نحوي...!  
لو كنت أستحق تقديره كما أقدر أنا فضائله...! آنذاك سوف أتباهى بهذا  
اللقب. لكن في هذه الظلمة...!

• حليلة: إن قلب علي باي لا يمكن أن يكف عن تقديرك. فرقة وحلاوة  
ملامح هذا الشريف المحترم، وشكله الرقيق والجذاب، كل شيء يؤكد لي أنه  
يملك قلبا رهيفا. وجمالك ومحاسنك ورقتك تجعلك تستحقين حبه بكل تأكيد.  
فهل تشكين في حظك منه في الوقت الذي ستسمح له الظروف بالتعرف  
عليك.

• أم هانئ: آه يا حليلة...!

• حليلة: اطردى، إذن، هذه الأفكار الحزينة. أما أنتن فافرحن بالنهاية  
السعيدة لأم هانئ. غثي أنت يا سميرة.

• أم هانئ: أنتن ترين كآبة روجي. أرجوكن ألا يكون غناؤكن مخالفا  
للمشاعر التي تحزني.

تغني إحدى النساء وتعزف أخرى على مزمار. موسيقى بيانو حزينة.  
بينما يستمر الغناء، تأتي تيغمو بصينية عليها فناجين من القهوة بدون  
أطباق. فتتناول كل واحدة منهن فناجانا.

واحدة تغني

إن اليمامة الصغيرة الحزينة.

عندما يغيب عنها حبيبها

تغني دائما وباستمرار

حبها التعس

هكذا أنا تعيسة

حزينة ودون مواساة

أشكو في كل لحظة

غيابك القوي.

المجموعة: لا تقلقي يا أم هانئ فأحزانك

ستحصل على تيجان رائعة

من الرياحان والزهور مع علي باي العظيم.

تغني واحدة أنت تعرف جيدا يا مولاي

الحب الصادق

لزوجتك العربية الوفية مدى الحياة

وسوف تحبك دائما

لكن إذا لم أحقق رغبتني

كن متيقنا

أن تلك التي تمن الآن

ستقتل نفسها.

يسقط فناجان أم هانئ أرضا، فتتقدم النساء لحمله.



• أم هانى: آه! كم هي حزينه هذه التنبؤات التي تسيطر على قلبي بسبب هذه الكلمات وبسبب سقوط فنجاني في هذه اللحظة.

• حليلة: لا تكثرثي يا سيدتي بتلك الحوادث التي ليست لها علاقة بما ينتظرك في المستقبل من سعادة.

• أم هانى: سعادة...!

تقوم تيغمو بجمع الفناجين وتأتي بعد ذلك بقنينة عطر في يدها اليمنى، وفي يدها اليسرى تحمل مجمره تفوح رائحة. تضحك بقطرات العطر كل واحدة منهن وكلهن يلوحن بأياديهن موجهاً خيوط الدخان في اتجاه الوجه.

نعم سيدتي سنكون سعيدات نحن الاثنتين برفقة شريف طيب جيداً، طيب جيداً! آه! غنين أيتها الفتيات، فنحن الآن بخير.

المجموعة الصوتية: لا تقلقي يا أم هانى فأحزانك ستزهر تيجانا رائعة من الريحان والزهور

مع علي باي العظيم

• أم هانى: كفى من الغناء يا صديقاتي. إنني أشكركن على عنايتكن الرقيقة. لكنني في الحقيقة أحس بأن قلبي منقبض، فهو متعطش للبكاء مع البؤساء أكثر من الغناء على إيقاع السعداء.

• حليلة: من جهتي أنا، أظن أنه من الضروري أن أقوم بتسليتك. عليك أن تعرفي أن هذه الظروف الصعبة التي تمرين بها ما هي إلا ظروف مؤقتة. ونتمنى أن تصبحي سعيدة في أقرب وقت ممكن.

• أم هانى: إن الله يفعل ما يشاء. هيا، أحضروا لي الصندوق الصغير.

تأتي تيغمو بصندوق صغير وتسلمه إلى أم هانى، حيث تضعه هذه الأخيرة فوق الفراش وتأخذ منه مجموعة من الحلبي ثم توزعها عليهن.

• أم هانى: يا صديقاتي العزيزات. إنني أريد مكافأة كل واحدة منكن بما تستحقه، لكن بما أن إمكانياتي هي دون رغبتني، فإنني أدعوكن، على الأقل، لتقبل هذه الهدية، بما يحفظ الذكرى وكرمز على امتناني لكنّ ثانية.

• كلهن: شكراً يا أم هانى الجميلة.

• حليلة: يؤلمنا أن ننسحب يا سيدتي، لكن علينا أن ندعك تستريحين وسنعود في يوم آخر إن سمحت لنا بذلك.

• أم هانئ: لا تحرميني رؤيتكن يا صديقاتي. إنكن تعرفن جيدا أنني في هذه الحالة من الوحدة والعزلة التي أنا فيها، أجد في رفقتكن أحسن مواساة. وقدمن إلي الأمير الجليل مولاي عبد السلام فائق احتراماتي.  
يعانقن أم هانئ ويذهبن.

## المشهد الثامن: أم هانئ، تيغمو ولاحقا مولاي أحمد

• أم هانئ: نادي يا تيغمو على مولاي أحمد.  
(تذهب تيغمو وهي تغطي وجهها).  
إنني الآن وحيدة يا إلهي. ماذا سيكون قدري الذي ينتظرنني. لقد ضاع أمني مرتين وأصبحت براءتي تتألم من المرارة التي تصاحب الجريمة. هناك تبوءات مشؤومة لا تترك روعي تهدأ...  
تخرج تيغمو مغطاة مع مولاي أحمد ثم ينحنيان طاعة وولاء. تغطي أم هانئ نفسها.

• مولاي أحمد: اللهم احفظ دائما زوجة سيدي الطاهرة.  
• أم هانئ: انهض يا مولاي أحمد. (ينهض مولاي أحمد). ألا أستحق أن تخبرني بكل صراحة عن الأوامر التي أعطاها الأمير بشأني؟  
• أحمد: سيدتي، هناك أمر واحد فقط وهو أن تُلبّي جميع رغباتك بدون قيد أو شرط.  
• أم هانئ: هل لي أن أصدق أن الأمير خوّلني سلطا واسعة، دون أن يعرفني من قبل؟

• أحمد: ليس هناك أدنى شك يا سيدتي. أقسم بالله العظيم.  
• أم هانئ: كيف لي أن أوفق بين هذه الثقة الواسعة وبين ذلك الحقد، أعني تلك اللامبالاة التي توجد وراء هروبه مني قبل أن يتعرف عليّ؟  
• أحمد: إنني متأكد أن قلب سيدي خال تماما من الحقد وأنه بعيد كل البعد عن أي لامبالاة تجاهك.

• أم هانئ: (متأثرة) قل لي يا مولاي أحمد. على ماذا تعتمد حين تقول ذلك؟

• أحمد: على ما يقوم به نحوك. عندما ذهب، طلب مني، وهو متأثر، أن أبعث إليه كل اثني عشرة ساعة بخطاب عن أحوالك الصحية وظروفك اليومية، وذلك بواسطة خادم، كما أنه أمرني فور رجوع كل خادم من السملالية أن أسلمك باقة من الورود التي سيأتي بها أحد الخدم.

• أم هانئ: (فرحة). يا إلهي! ها أنتم قد بدأتم تخففون عني أحزاني.

• أم هانئ: أنت على صواب. لكن كيف توفق بين كل هذه الطيبوبة وتلك القسوة التي جعلته يتعد عني ويتركني أعيش في هذا الارتياب القاسي؟

• أحمد: سيدتي، لن أتجرأ لأحكم في هذه النقطة على سيرة الأمير. فيما أنه قد قام بفعل ذلك، أعتقد بدون شك، أن له أسبابه التي تفسرها.

• أم هانئ: (قلقة) أسباب جعلته يهجرني... لا يا مولاي أحمد. أنت لا تريد أن تخبرني بما تعرف. أطلب منك لوجه الله، أن تحرر روحي من عذابها القاسي والبطيء الذي يقلقني. لماذا يهرب مني علي باي؟

• أحمد: لقد تأثرت لحيرتكم وسأقول لكم، سيدتي، ما أظنه، لكن دون تأكيد لصحة ما سأقول. يبدو أن الأمير يوجد في نقاش ساخن مع السلطان حول وضع دستور للإمبراطورية. إن مولاي عبد السلام وأكبر الباشوات وكبار الشخصيات المغربية وكذلك أغلبية القبائل يساندون أفكار علي باي، لكن مولاي عبد المالك والوزير السلاوي وبعض أفراد القبيلة يعارضون ذلك. أما السلطان فهو متردد بين هذه الآراء التي تقض مضجعه. يود التوفيق بين الجميع دون التخلي عن سلطته المطلقة التي يتمتع بها. لقد قال علي باي إنه لا يريد أن يعيش في بلد بدون ضمانات وسيذهب إلى الشرق إذا لم يتم وضع الدستور. والسلطان يود أن يبقى، إلى جانبه، هذا الرجل العظيم، لكي يستفيد كثيرا من خبرته. وحتى يتمكن من إبقائه، فهو يغدق عليه من الكرم والخيرات وجعل منك أكبر هدية قيمة له. لكن الأمير قرر ألا يلتقي بك حتى يقرر السلطان في شأن الموضوع السالف الذكر. هذا يا سيدتي هو ما يمكن أن يفسر ذلك الغموض. ويبدو أن الأمر سيعرف حلا عما قريب. ومهما كانت النتيجة فليس لدي أدنى شك في أن ذلك سيفرحك.

- أم هانئ: آه، يا مولاي أحمد! إن كلماتك تعتبر مرهما يرطب جروح قلبي. ليست لي سلطة كبيرة حتى أتمكن من تعويضك يا أيها الشريف على ما قمت به. لكن على الأقل خذ واحتفظ بهذه الذكرى الصغيرة كشهادة على امتناني (تعطيه ساعة)، وطمن الخدم أنهم سيجدون في شخصي امرأة تحميهم. وزع عليهم غدا هذه النقود (تعطيه صرة) واذهب لترتاح.
- أحمد: اللهم أغدق على زوجة سيدي بالنعم والخيرات. (يذهب).

## المشهد التاسع: أم هانئ وتيغمو تكشفان عن وجهيهما

- أم هانئ: الآن يا تيغمو، سوف أرتاح مطمئنة على الأقل، إن انسحاب علي باي يرتبط بأسباب سياسية وليس له علاقة بي. وقد بدأت أشعر بالسرور من كون قلبه لن يكون لا مباليا نحوي.
- تيغمو: لقد كنت أعرف ذلك. فعيونك عيون الغزلان ونهديك...
- أم هانئ: اسكتي يا حمقاء، إذا كان علي باي لم يَرنا بعد.. كيف تظنين ذلك؟
- تيغمو: أنا لا أظن شيئا، إنني أكاد أسقط فقط، لأنني أريد أن أنام. اقترب الصباح ونحن لم نذهب بعد إلى النوم.
- أم هانئ: لنذهب إذن.
- يذهبن إلى الحريم ويغلقن الباب.
- يسدل الستار

## الفصل الرابع

### المشهد الأول: في صالون السلطان السلطان وعبد السلام وعبد المالك وبوستة

• عبد السلام: كل ما يتطلبه الديكور وحتى الكماليات الصغيرة، لم يتوان علي باي في إحضارها لاستقبال النساء بحفاوة وكرم. إن زوجاتي اللاتي رافقتهن جئن منبهرات. وقد كان بجانب السرير الفاتن، المخصص لأم هانئ خصوصا، صندوق كبير سلم لها مفتاحه، وعندما فتحتة وجدته مليئا بكثرة المجوهرات والأثواب وقدر من النقود الذهبية. باختصار، لقد جاءت زوجاتي منبهرات لما رأأت عيونهن.

• عبد المالك: إنني متأكد أن هذا الشريف غني جدا.

• عبد السلام: ما هو جميل بالنسبة للإنسانية أن مجموع هذه الثروة توجد بيدي رجل لا يستمتع إلا وهو يوزع خيراته على الفقراء. منذ وصوله إلى الغرب أظنه لم يمرّ يوم واحد بدون أن تواسي يده كثيرا من البؤساء.

• السلطان: سأتأسف كثيرا إن فقدت هذا الرجل المهم. وسأضحى بكل الأشياء كي يعيش معنا في أرضنا هذه.

• عبد السلام: إنه يود ذلك أيضا، لكن رأيه صحيح جدا فهو لا يريد أن يعيش في بلد بدون ضمانات.

• عبد المالك: لماذا عليه ألا يعيش كما نعيش نحن كلنا؟.

• عبد السلام: الجواب سهل للغاية. فيما أن كل ممتلكاتنا ومصدر أرزاقنا يوجد على هذه الأرض التي نسكنها، جيدة كانت أم سيئة، فنحن لا يمكننا الخروج من أرضنا. أما بالنسبة لعلي باي، فإن أمواله مودعة في أوروبا وهو حر في أن يستمتع بما يجنيه من أرباح في أي بلد شاء. ومن الواضح أنه في هذه الحالة سيكون من البلاد أن يأتي المرء ليستقر في بلد تبقى فيه الحرية وحرية الملكية حبرا على ورق.

• السلطان: لكن، هل يخطر على بال علي باي أنني سأستحوذ على حريته أو أمواله؟

• عبد السلام: إن علي باي يثق بنا ثقة عمياء. لكن، بما أنه لا يوجد هناك ولي للعهد وإذا ما شاء الله وجاءكم ملاك الموت وأخذكم من بيننا، من يمكنه أن يتكهن بما يمكن أن يقع لنا؟ هذا يا أخي هو السبب الذي يجعل علي باي يؤكّد على وضع قانون للإمبراطورية.

• عبد المالك: أدعو الله ألا يتبع السلطان نصائح علي باي.

## المشهد الثاني: نفس الأشخاص ومعهم علي باي

• علي باي: (يقبل يد السلطان؛ هذا الأخير يعانقه). اللهم بارك في عمرك.

• السلطان: كيف حالك يا علي باي؟

• علي باي: إن إحسانكم الدائم يجعلني مدينا لكم بالكثير.

• عبد السلام: أنا أعتقد، يا علي باي، بأنك سوف تكتشف أن مقامك بيننا لن يكون سيئا كما يخيل إليك.

• علي باي: إن أي مكان في العالم يصبح جميلا عندما أكون بجواركم.

• السلطان: إذن، فلماذا لا تقرر أن تعيش هنا؟

• علي باي: مولاي، لو كان باستطاعتي أن أضحي بعمرى في سبيل تمديد عمركم لما توانيت لحظة. لكننا فانون. ولو كان حظي سيئا وعشت بعدكم ...

• عبد السلام: لا تخف يا علي باي.

• علي باي: لستُ خائفا بتاتا، لكنني جئت أتوسل إليكم سيدي (إلى السلطان) بطلب جديد.

• السلطان: اطلب يا علي باي فطلبك مقبول .

• علي باي: لقد أخبروني أن الوزير السللاوي والمنجم جنان قد تم القبض عليهما.

• السلطان: بالفعل. لكن، لا حرج عليك. سأطبق القانون على هذين البئسين، وستؤدي رؤوسهما ثمن خديعتهما، وبدون أن تطلب مني ذلك.

• علي باي: آه، يا سيدي لا تغضبوا كثيرا؛ إن طلبي إليكم هو في الاتجاه المعاكس. هل ستكرمون بالعفو عنهما.

• السلطان: ماذا تقول علي باي؟

• علي باي: أن تفضلوا بالعفو عنهما. لقد أصابهما الضعف فغارا من رجل أجنبي انتزع منهما فضلكم. إنني لست مندعشا من غضبكم. لكنهما قد نالا عقابهما، وعلينا أن ننتظر رجوعهما إلى الصواب.

• السلطان: لا، يا علي باي. لن أترك أبدا أحدا ينتهك عرضك الطاهر.

• علي باي: لكنكم سيدي، كنتم قد تفضلتم فوعدتموني بقبول طلبي.

• السلطان: لم أكن أتصور قط أن تأتي عندي تطلب فضلا من أجل ألد أعدائك.

• علي باي: لكنني ها أنا سيدي أطلب منكم ذلك. وقد وعدتموني أن تحققوا لي طلبي بدون قيد أو شرط.

• السلطان: إنني أخاف أن يتحول كرمكم هذا إلى شر ضدكم.

• علي باي: لقد قلت لكم سيدي إنه ليس هناك ما يجعلني أخاف. فهل تفضلوا بعفوكم عليهما.

• السلطان: فليكن ما تقول... لقد سمحتهما. اذهب يا عمر بوسته واطلق سراحهما.

(يذهب بوسته)

• علي باي: (يرتمي عند رجليه. يوقفه سليمان ويعانقه) الله ينصرك يا سليمان العظيم على أعدائك دائما.

• عبد السلام: ما أكرمك يا علي باي.

• السلطان: ها أنت ترى أنني لا أتخلى عن تحقيق رغباتك. ولقد وافقت على ما أكرهه بشدة، حيث سمحت عدوك. فليكن ذلك أساس يقين علمك بما يمكنك أن تنتظره مني.

• علي باي: إنني لخبول من كرمكم الحاقمي يا سيدي، ولا أعرف كيف أعبر لكم عن امتناني. لكن، اسمحوا لي كي أدلي بملاحظة: هل صحيح أنكم أقل كرما عندما يتعلق الأمر بأبنائكم، أنتم ترون يا سيدي أنه في اليوم الذي سيصبح هؤلاء الأمراء محرومين للأسف من حمايتكم، فوجودهم نفسه مهدد بالطوائف التي تقسم الإمبراطورية بسبب ولاية العهد، وسيجدون أنفسهم غرقى في واد من دماء المسلمين وذلك لأنهم سيضطرون للتسلح بعضهم ضد بعض ولصد المتطلعين والطامحين للوصول إلى السلطة.

• عبد المالك: لا خوف على أبناء مولاي سليمان طالما أنا حي.

• علي باي: أيها الأمير، إن المؤسسات هي التي تنقذ الأنظمة الملكية.

• عبد السلام: إن علي باي على حق. سوف لن يكون لجهودنا جدوى في غياب قانون منظم للإمبراطورية توافق عليه الأمة، ويجنبها الغرق في الفوضى إلى أن تأتي الظروف بعاهل جديد يعتلى العرش.

• السلطان: إذا كان وضع دستور لا يتطلب أن تجتمع الأمة حوله لتقول كلمتها، وأن تمنح حقوقا تجهلها هي نفسها، فسوف أوافق على ذلك. لكن هذا الاجتماع وهذه الحقوق التي سوف تمنح لها، تشكل بالنسبة لي عائقا لا أستطيع تجاوزه.

• علي باي: اسمحوا لي يا سيدي أن أخبركم بأن هذه الحقوق غير قابلة لأن تتصرف فيها الأمة كما السلطان. وإن كل سلطان لا يستند في وجوده على ضمان الحرية فهو يحرم نفسه في نفس الوقت من كل حقوق تستند عليها مشروعية حكمه. وليس هناك وسيلة أخرى لتثبيت مشروعية حكمكم هذا سوى اتخاذ قانون أو دستور للإمبراطورية. انهوا هذا الأمر، يا سيدي، وامنحوا هذا الدستور واضمنوا العرش لأبنائكم والسعادة للأجيال القادمة من إمبراطورية الشرق. إن مشروعية واستقرار دولة ما من الدول هي أول ضامن للسلم والاستقرار العام.

• السلطان: لكن هل من الممكن أن أتأكد من ولاية العهد بدون أن ألتزم بضمان الحرية والملكية الفردية لرعاياي؟



- علي باي: (بحماسة) سيدي، إن هذا تناقض ومستحيل. إذا لم تضمّنوا ممتلكاتهم فلاّي سبب سيقومون هم بضمان ممتلكاتكم.
- السلطان: سري ذلك، هيا يا عبد المالك.

## المشهد الثالث: عبد السلام وعلي باي

• عبد السلام: يا علي باي العظيم. إنك الوحيد الذي يمكنه أن ينقذ المغرب من ذلك النظام السيئ المتسلط. فلا أخي ولا أي شريف من تافيلالت يمكنه أن يُشرع أو حتى أن يفهم هذا العمل العظيم...! آه، لا أستطيع أن أتحمّل كل هذه الأمور...!

• علي باي: (متأثراً) يجب عليكم سيدي أن تقنعوا أخاكم وترسموا له لوحة فظيعة عن أبنائه وهم ممزقون بسبب أولئك الذين سيطمحون إلى الفوز بالعرش. وأنتم كذلك يا أيها الأمير! أنتم كذلك إذا حرمتهم من النور وإذا استطعتم الهروب فسوف تكون الحياة... يا لها من فظاعة...! سوف تصبحون متسولين من أجل العيش فقط كأبي بيليساريو. أما بالنسبة لي (بحزم) يجب أن أخبركم في النهاية، ولو كان ما سأقوله يؤلمني، أنه إذا لم يطبق السلطان أفكاره، فسأغادر المغرب توا. اذهبوا عنده أيها الأمير، وأقنعوه بذلك. فأنا لا أستطيع أن أستمّر على هذه الحال، وسأنتظر جوابكم في هذا اليوم.

## المشهد الرابع: عمر بوستة والسلاوي وجنان

- السلاوي: ماذا؟ هل يمكننا أن نعرف سبب إطلاق سراحنا الذي لم نكن ننتظره.
- عمر: سيخبركم السلطان بذلك.
- السلاوي: لكنكم تعرفون شيئاً ما. أخبروني باسم الصداقة التي بيننا.
- عمر: إن علي باي قد نجح في إقناع السلطان بأن يعفو عنكما.

- السلاوي: علي باي...!
- جنان: هذا مستحيل .
- عمر: إنه أمرٌ قد حضرته كشاهد.
- السلاوي: (بشيء من السخرية) ولأبي سبب أصبح علي باي يحمينا؟
- عمر: لقد علم بسجنكما وبأسبابه، وبسرعة ذهب لطلب العفو عنكما فنجح في ذلك. كل هذا لكرمه وطيبوته.
- السلاوي: إننا نشكره .
- عمر: انتظرا سأخبر السلطان بوجودكما.

## المشهد الخامس: السلاوي وجنان

- السلاوي: إنني أكرهه. هذا الدخيل يريد أن يطعننا بحمايته لنا بعد أن تسبب في تعاستنا.
- جنان: سوف يندم على ذلك. لن أدخر جهدا حتى أوقع به.
- السلاوي: إن أسهل شيء هو قتله، وأنا بنفسى...
- يخرج عمر مُناديا عليهما، ويدخل الجميع عند السلطان.
- المشهد السادس: في صالون علي باي
- علي باي ومولاي أحمد وابن الجيلالي وعصمان
- علي باي: كيف هو حال سيدتك؟
- مولاي أحمد: إنها حزينة وحائرة لأنها لا تعرف ماذا ينتظرها.
- علي باي: وتيغمو؟
- أحمد: إن تيغمو يا سيدي أقل حساسية تجاه وضعيتها.
- يذهب مولاي أحمد.

• علي باي: (متوجها إلى عمر وابن الجيلالي) هكذا فهي على الأقل ستواسي أم هانئ. إن قلبي متأسف على ما يقع لهاتين الفتاتين الشابتين، لكنكما تعرفان كم عملت من أجل التخفيف عنهما. وتعرفان جيدا أنني لا أستطيع أن أفعل أكثر مما قمت به من أجل هذه الأمة، ومن الممكن في هذه اللحظات أن يكون سليمان قد اتخذ قراره في هذا الموضوع المهم المتعلق بالدستور، حيث إن مولاي عبد السلام عاد حازما من أجل انتزاع جواب نهائي.

• عصمان: وفي هذا الوقت بالضبط من الممكن أيضا أن المقاتلين البواسل قد بدأوا في استخدام السلاح.

• علي باي: ستكون مصيبة. أما إذا قرر سليمان وضع الدستور، وحقق للشعب رغبته.. فما الفائدة من التعرض لثأر حركة ستصبح في عيون الناس جانحة؟ وإذا رفض السلطان أن يضع الدستور فستكون هذه الحركة عائقا أمام اجتماعي بالقبائل. إن اجتماعي هذا، يجب أن يكون الخطوة الأولى حتى نتجنب سقوط المقاتلين أمام الأعداد الكثيرة من جيوش سليمان وحنكتهم العسكرية.

• ابن الجيلالي: في هذه الحالة، لا تخف يا سيدي فلو انهزم مقاتلونا الشجعان لن يكون هناك عائق يمكنه أن يمنع اجتماعكم .

• علي باي: إن الحذر يا أصدقائي الأعزاء هو أول سلاح يجب أن يستعمل في المعركة ضد عدو غير عادل. ولن يسمح باستعمال السلاح إلا في أقصى الحالات، عندما ينتفي حل الخروج من العبودية.  
يخرج مولاي أحمد ثم ينادي عن مولاي عبد السلام.

## المشهد السابع: مولاي عبد السلام وعلي باي

• علي باي: (يعانق عبد السلام) مرحبا بالأمير الجليل أكرمه الله بالنعم.  
• عبد السلام: آه، يا صديقي العزيز! إن الله لن يستجيب لدعائنا. لقد صار قلب سليمان متحجرا بسبب نصائح عبد المالك الشاذة، فقاوم كل حججي وأعلن بصفة نهائية أنه لا يريد وضع دستور.  
• علي باي: هل هذا صحيح؟

- عبد السلام: للأسف، إنه صحيح جدا .
  - علي باي: لكن ما هي الأسباب التي اعتمد عليها لكي يرفض؟.
  - عبد السلام: لقد رأى الخطورة في كل جديد. كما أنه غير مقتنع بجدوى الدستور، خاصة إذا ما كان والده سيدي محمد وجدّه مولاي عبد الله، وهما من أكبر السلاطين، لم يضعوا دستورا للبلاد.
  - علي باي: ما أتعس هؤلاء الأمراء! وما أتعس هذه الأمة...!
  - عبد السلام: إنني أعرف جيدا أسباب مقاومة سليمان؟ فهو لا يريد التخلي عن سلطته الجائرة التي يستمتع بها. ولهذا، فإن وضع قانون مكتوب ومؤسسات للدولة تسهر على حمايته هو في الواقع أمر يرهبه.
  - علي باي: وهل يعقل أن يميل قلب سليمان إلى التلذذ بلحظة عوض الاطمئنان على مصير عائلته وسعادة شعبه؟.
  - عبد السلام: إنني متأكد من أن هذه هي الوسيلة التي جعلت عبد المالك، ذلك الخائن، يتحرك ليجعل سليمان لا يهتم بتاتا بعائلته وبشعبه، فيضع لهم دستورا يؤمن دائما الخير للجميع. ما أسعد الأمم التي تستمتع بربح كهذا! كما أن ملوكها سيكونون معبودين مثل ملائكة السماء، جعلهم الله فوق عروش الأرض لإسعاد الناس.
  - علي باي: (يقوم بمجهود) لقد حان الوقت يا عزيزي عبد السلام لأن أتخلى عن رفقتكم الجميلة.
  - عبد السلام: لا يا صديقي علي باي أنت لن تتخلى عني. ربما في زمن آخر...
  - علي باي: إن وجودي هنا يعرضني كثيرا للخطر. وديننا الحنيف يفرض على كل مسلم أن يحج إلى بيت الله مرة واحدة على الأقل. لقد كان بوسعي ألا ألتزم بهذه الفريضة حتى أقوم بخدمتكم وخدمة الإمبراطورية. ذلك أن شريعتنا لا تسمح لنا بأن نتدب شخصا آخر ليقوم بهذه الفريضة عوضنا. لكن، بما أنني لست صالحا لأي شيء هنا، وبما أنني لا أتوفر على سبب يعفيني من هذه الفريضة فسأذهب حالا إلى مكة.
- (يدخل مولاي أحمد)

اجمع الخدم وعد إلى هنا مع الجميع  
(يذهب مولاي أحمد).

- عبد السلام: بالله عليك أن توقف سفرك هذا. لا تستسلم يا عزيزي علي باي لهذا الحل السريع. ولا تتخل عن صديقك.
- علي باي: ثق بي يا أميري العزيز، يجب علي ألا أمكث هنا في هذه الظروف ولو للحظة. إن عبد المالك ينظر إلي برعب. وكن على يقين أنه لن يدخر جهدا في سبيل الإيقاع بي وهلاكه وذلك لأنه يخاف من أنني سوف أعود للتأكيد على موضوع الدستور، وفي تلك الحالة، سأصبح أنا الضحية والعنصر غير المتعارض مع مصلحتكم ومصلحة البلاد.
- عبد السلام: أليس من الأفضل أن تتأكد...؟ (يفكر). ربما. إلى اللقاء. سأعود لرؤية السلطان.

## المشهد الثامن: علي باي وعصمان و ابن الجيلاي

- علي باي: أيها الأصدقاء الأعزاء. لقد بات الأمر واضحا. رفض سليمان أن يمنح دستورا لشعبه، وها أنا قد قررت الذهاب.
- ابن الجيلاي: إذا أردتم سيدي أن تذهبوا معي، فلنذهب بسرعة نحن الاثنين وقبل أربع وعشرين ساعة ستكونون وسط جيوشي.
- علي باي: هل يسرك يا ابن جيلاي أن أنجو لوحدي وأترك أحبائي وخدمي الأوفياء معرضين لانتقام سليمان؟ لا يا أصدقائي الأعزاء. سوف تجدونني دائما إلى جانبكم في الشدة.
- عصمان: يالك من رجل كريم! إذن، ماذا سنفعل؟
- علي باي: أنت يا عصمان، ابعث بسرعة رسالة إلى سيدي العربي وأخبره بخروجي إلى فاس وقل له إنني أنتظر خروجه للقاء علي ضفاف وادي أم الربيع. هناك سوف نتكلم ونقرر ما يناسب.

وأنت يا ابن الجيلاي أخبر جيوشك أن تمر الآن فتنضم إلى جيوش سيدي العربي بمنطقة تادلة. لكن هذه الحركة يجب أن تتم بحذر في المناطق الجبلية وألا تنزل للسهول حتى لا يشك في أمرها قبل الأوان.

أما أنا فسأخرج بعد ثلاثة أيام، ولن أقوم بشيء حتى أقابل سيدي العربي. الاثنان: يمكنكم، سيدي، الاعتماد على خدمكم. ينحنيان، ويقوم علي باي بإيقاف حركتهما ثم يذهبان.

## المشهد التاسع: علي باي، عمر، السلاوي، جنان، وخدم علي باي

• عمر: لقد بعثني السلطان يا سيدي كي أقدم لكم السلاوي وجنان ليشكروكم على الوساطة التي تفضلتم بها من أجلهما.

• السلاوي: لكم سيدي كل احتراماتنا وتشكراتنا.

يستعدان للانحناء فيوقفهما علي باي.

• علي باي: لقد قمت بواجبي فقط وعليكما أن تشكرا السلطان.

• أحمد: سيدي ها هم الخدم الموجودون بالقصر في هذه اللحظة. أما الباقي فيوجد في السملالية.

• علي باي: إنني مرتاح لخدمتكم يا أبنائي الأعزاء، وأتمنى أن تكونوا أنتم كذلك. لقد حان الوقت الذي اضطررتني فيه الظروف للذهاب إلى الشرق. ومن لا يريد أن يتبعني فهو حر في التعبير عن ذلك.

يصمت الجميع.

يجب على من يريد أن يتبعني أن يُعبر عن ذلك.

• الجميع: كلنا يا سيدي.

• أحمد: سيدي في هذه اللحظة أخبركم باسم الجميع، وأؤكد لكم أنه لا يوجد من بين خدمكم من ليس مستعدا للتضحية بنفسه من أجلكم.

- علي باي: شكرا يا أبنائي الأعزاء، وأنا أيضا لن أتخلي عنكم.
- الجميع: الله يبارك في عمر سيدنا علي باي.
- (يهتمون بالذهاب).

• علي باي: انتظروا فإنني محتاج إليكم. مولاي أحمد، ناد سيدتك.  
(يذهب مولاي أحمد). إن قلبي لمسرور جدا عندما أرى أن قراركم ما هو إلا دليل على سعادتكم بجانبي.

• عمر: وهل هناك شخص يمكنه أن لا يكون سعيدا بجوار أمير مثلكم؟

• علي باي: (يحدق في السلاوي وجنان) آه يا عمر الطيب! أنت فريد في تفكيرك.

## المشهد العاشر: نفس الأشخاص، أم هانئ، تيغمو وخادمتان غير مكشوفتين

• أم هانئ: سيدي...

تهم بالانحناء، فيوقفها علي باي وتستند إلى تيغمو.

• علي باي: لقد جاء اليوم، يا أيتها السيدة المحترمة أم هانئ، الذي تُقرري فيه بنفسك ماذا تريدين. إنني مضطر، بسبب الظروف، للسفر إلى الشرق. وإذا كان ذلك يُسبب لك إحراجا أو لا تريدين القيام بهذا السفر فأنت حرة. أنت تعرفين، كما مثيلتك في الحريم أن هذه هي المرة الأولى التي أراك فيها، وبما أنك قد حافظت على براءتك فأنت مستعدة لأن تتزوجي بمسلم آخر أكثر سعادة مني. كما أنه في هذه الحالة، ونظرا لقيمتك الشخصية، سيجد زوجك نفسه مسنودا بما تمتلكينه وما سأهبك إياه بالسملالية أيضا. وبالمقابل، إذا أردت أن تضعي يدك في يدي وتستمرين بجانبي فإنني سأقبل بك مسرورا، وأقسم لك برب النبي العظيم أنني لن أتخلي عنك وأنتي سوف أحترمك كما فعلت لحد الآن.

تكلمي إذن.

- أم هانئ: (تتلعثم) أنا... سيدي... أتجراً...
- علي باي: تكلمي بدون حرج. لا تخافي من أن تعبري بكل حرية عن وجهة نظرك. واعلمي أنه مهما يكن قرارك فلن ينقص شيئاً من احترامي لك.
- أم هانئ: سيدي لو كان بودي... أن أخصص حياتي لخدمتك... أمير... مثلكم.
- علي باي: أخبريني بصراحة، ما هي كلمتك الأخيرة؟ عليك مراعاة مصلحتك ولا تكثرني بشيء. فأنت حرة.
- أم هانئ: إنني مسلمة وفيه وأحب أن أحيى وأموت بجوار سيدي علي باي.
- علي باي: فكري يا أم هانئ في ما تقولين. وضعي في الحسبان أني سأخوض رحلة شاقة لا بد لنا فيها أن نحرم من عدة أشياء. واعتبري أن ما ستقررينه الآن سيكون من المستحيل التراجع عنه.
- أم هانئ: سيدي، إذا تفضلتم بحمايتي فإنني أقسم ببقائي وفيه لكم حتى الموت.
- (تهم بالانحناء فيوقفها، ويجلسها على الفراش).
- علي باي: لن أتخلى عنك يا أم هانئ الفاضلة. وأنتم شاهدون على هذا القرار الذي اتخذته أم هانئ.
- الجميع: اللهم بارك في عمر زوجة سيدنا.
- علي باي: (متوجها بالحديث إلى عمر بوسته) جهزوا يا باشا ما هو ضروري، سنذهب غداً إلى السملالية ومنها سننطلق بعد ثلاثة أيام.

## **المشهد الحادي عشر: علي باي والنساء يسفرن وجوههن إلا أم هانئ**

- علي باي: (بلا مبالاة) إن قرارك يا أم هانئ الفاضلة، قد جعلك أكثر شموخاً في عيني.



• أم هانئ: (متأثرة) سيدي، إن طيبوبتكم تفوق كل اعترافاتي بجميل صنعكم معي .

• علي باي: إن مشقة السفر مضنية، وأتمنى أن تسرك الأشياء المختلفة التي سنصادفها. كما أنني مسرور أن رفيقتك العزيزة، تيغمو، واهتماماتي بك سوف تخفف عنك شيئاً ما.

• أم هانئ: أنتم سيدي! ستخدمون عبدتكم...!

(تهم بالانحناء، وفي هذا الوقت، تزيل عنها تيغمو الحجاب، ويراهما علي باي وجها لوجه بعد أن كان يهيم بإيقافها).

يقف مندهشاً ويصرخ: آه! (ويجلسها بكل رقة فوق الفراش. يقوم بحركات تُظهر إعجابه ويقول مندهشاً).

• علي باي: (يخاطب نفسه) يا له من جمال إلهي! كيف أستطيع تحمّل سحر هذا الجمال؟! وهل سأستطيع الاحتفاظ بقلب مثلج عندما يهاجمني هذا الجمال الخارق الذي أنظر إليه.

يا إله أجدادي! كم هو عسير هذا الامتحان الذي يجب على علي باي التعس أن يتجاوزه. لكنني أقسمت على حمايتها واحترامها... وكيف لي أن أستصغر روعي لتسقط في ضعف وهوان الحب، بينما أنا محتاج إلى تركيز كل جهودي لكسب المجد والعلالذين ينتظراني. (يتوجه إليها) يا أم هانئ الرائعة. لقد كانت لحظة واحدة كافية لتسليبي مني روعي. إنني أحبك. لكن كوني على يقين أنني لن أستغل سلطتي التي يخولني إياها القانون ضدك. وستكوني أنت وحدك، لا غير، مسؤولة عن أفعالك وأفعالي، وملكة حقيقية على كل ما يدور حولك. ولو تجرأ أي شخص مهما كان، حتى ولو كنت أنا، على إزعاجك ولو قليلاً، فسيندم على ذلك.

• أم هانئ: أنتم يا سيدي سترعجونني! إنكم لا تعرفون مشاعر روعي.

• علي باي: إن كمالك الإلهي يدلني على مشاعرك النبيلة التي تزين روحك الجميلة. آه يا أم هانئ الإلهية! إنك لا تعلمين مشاعري وسوف تستطيعين اكتشافها شيئاً فشيئاً عندما ستشرعين في معرفة الأسرار الكبيرة التي لم يحن الوقت بعد لأخبرك بها. لكن في انتظار ذلك يجب أن تعيشي، وأنت متأكدة، بأن علي باي قد سلب منه عقله بفضائلك ورقتك وسيفتخر دائماً

بكونه قد نال عطفك وودك. لنهبي أنفسنا إذن للذهاب إلى السمالية. إلى اللقاء يا أم هانئ الجميلة (يقبل يدها).

• أم هانئ: ما أجملك يا علي باي! إن المشاعر الشهمة التي توجد في روحك تمتص روحي. ليس هناك شريف آخر يتوفر على هذه الرقة النبيلة. إنه لواضح يا تيغمو أن هذا الشريف الجليل قد عرف كيف يستفيد من دروس حضارة الشعوب المسيحية، فعوض أن تعيش النساء في الذل والاحتقار بسبب العبودية التي نخزننا، فهن رفيقات حميمات للرجل.

• تيغمو: أرايت سيدتي ما كنت قد قلته لك؟ كيف يستطيع علي باي رؤيتكم دون أن يسقط في حبكم؟

• أم هانئ: آه يا تيغمو العزيزة!

(تنصرف).

## المشهد الثاني عشر: تيغمو ومولاي أحمد ثم جنان

• أحمد: انتظري يا تيغمو. إن سيدي جنان أكبر منجمي البلاط يود أن يكلمكم.

تغطي وجهها.

• تيغمو: قل له أن يدخل.

يذهب أحمد ويظهر جنان.

• جنان: اللهم بارك في حياة تيغمو الجميلة.

• تيغمو: ماذا تريد مني يا سيدي.

• جنان: إنك قد رأيت قرار الأمير. وبما أن السفر قد تم الاتفاق عليه فلقد جئتك أطلب شيئاً لن يتطلب منك جهداً كبيراً، ولكنه سيكون ذا أهمية كبيرة بالنسبة لي.

• تيغمو: أخبرني يا سيدي ويمكنك أن تعتمد على ما أستطيع القيام به.

• جنان: تعرفين أن الشريف يقوم باستمرار بدراسات حول النجوم. فهو يكتب تلك الملاحظات ويقوم بعمليات حسابية لمعرفة ما سوف يقع في المستقبل، ثم يرمي بتلك الأوراق التي لم تعد بتاتا صالحة. إن تلك الأوراق التي لم تعد صالحة لعلي باي هي مهمة جدا بالنسبة لي كي أقارن بين ملاحظاته ولأصحح في ضوءها ملاحظاتي. هكذا أطلب منك يا تيغمو أن تدخلني إلى مكتب علي باي وتقومين بجمع الأوراق التي تستطيعين جمعها فتعطني إياها. إنني لم أرد التحدث إلى الخدم عن هذا الأمر لأنهم جهلة وينظرون إلي نظرة سيئة منذ أن حصلت مشاجرة صغيرة بيني وبين مولاي أحمد، لكنك أنت فتاة طيبة، ولن تتواني عن القيام بما أطلبه منك.

• تيغمو: (تشك) لكن إذا عرف سيدي بهذا فسيغضب.

• جنان: لا تقلقي، إنه العكس تماما. وعندما سيعرف في يوم من الأيام أنني استفدت من الأوراق التي يرمي بها، سيكون فرحا حيث سيقول إنه أكبر علما مني. لكن لا تقولي شيئا. اذهبي إذن بسرعة.

• تيغمو: لن أتجرأ على ذلك.

• جنان: ساعديني يا تيغمو العزيزة بهذا الطلب الصغير وهذه السلسلة الذهبية ستصبح من نصيبك.

• تيغمو: (تأخذ السلسلة وتقلبها) ما أجملها!

• جنان: أسرع، سأنتظرك هنا.

(تذهب تيغمو).

أتمنى يا إلهي أن تلبي رغبتني!

(تخرج تيغمو وهي تجري حاملة مجموعة من الأوراق المبعثرة).

• تيغمو: خذ، ولا تقل إنني سلمتك إياها.

• جنان: شكرا يا تيغمو العزيزة.

(يأخذ الأوراق ويغطيها ثم يذهب).

ستار.

## الفصل الخامس

### المشهد الأول

حديقة السملالية، من دون تماثيل. يبدو من أحد الجوانب جزء من قصر علي باي. على الجانب الآخر عريش به أريكة وحاجز مشبك يخترق عمق الخشبة وتظهر من بعيد جبال الأطلس المتوجة بالثلج.

يدخل كل من علي باي والنساء، أما أم هانئ فيحملها أربعة من العبيد على هودج وتتبعهما الحاشية. وتبدو كل النساء متدثرات. تنزل أم هانئ وسط الخشبة ويعطي علي باي إشارة فينسحب الرجال جميعهم وتسفر النساء عن وجوههن.

• علي باي: انظري يا أم هانئ الرائعة هنا، إلى الملك الذي كان سيصير لك لو أنك كنت قررت البقاء في المغرب.

• أم هانئ: وهل هناك مُلك أئمن بالنسبة لي من امتلاك قلب علي باي الكبير؟

• علي باي: يا أم هانئ الإلهية، إن شاء الله سوف أتمكن يوماً من مكافأة كل هذه الفضائل.

• أم هانئ: يا أميرى الرائع، أستحقُّ كل هذا؟ هل هناك مكافأة أعظم من شرف العيش والموت إلى جانبكم؟

• تيغمو: لكن، يا سيدي، لم تريدون الذهاب وهجر بيت رائع بهذا الشكل؟ لو كان بودي لما غادرت هذا المكان أبداً.

• علي باي: ظروف لا تعرفانها بعد، تُجبرني على هذا. إني آسف من كل قلبي لترك هذا المكان الساحر الذي كان منزلاً ممتعاً ومفضلاً عند السلطان محمد، لكنني أتمنى من الله أن يمن بالتعويض عن هذه التضحية.

(يدخل خادم ويعلن):

• الخادم: مولاي عبد السلام.

تدخل النساء إلى القصر.

## المشهد الثاني: مولاي عبد السلام وعلي باي

• علي باي: مرحبا بالأمر الجليل، مفخرة أمراء المغرب.

• عبد السلام: (يتعانقان) ليحفظك الله يا عزيزي علي باي. أظن أنك قد أصبحت مطمئنا .

• علي باي: كيف يمكنني أن أكون كذلك ما دمت سأفقد رفقتكم؟

• عبد السلام: إذن، قطعاً تريد تركنا؟

• علي باي: أنا لا أريد. إن الله يعلم جيداً أنني لا أريد.. لكن الظروف تجبرني على ذلك.

• عبد السلام: اسمع يا علي باي، لقد تأثر كثيراً مولاي سليمان بعد أن أخبرته بذهابك وسيحضر شخصياً ليطلب منك أن تتراجع عن قرارك.

• علي باي: إن طيبوبته الكبيرة معي تجعلني لا أفهم قسوة قلبه التي تجعله يقاوم فعل الخير من أجل عائلته ومن أجل شعبه.

(ثم يلتفت نحو مولاي أحمد!)

• أحمد: سيدي.

• علي باي: سيأتي السلطان حالاً لتشريف منزلنا، فقم بما يليق بجنابه الشريف.

(ينصرف أحمد).

• عبد السلام: أنا لا أشك أنه سائس عبد الملك وعصابته الغادرة لكان السلطان وافق على مخططك.

• علي باي: لكن، ربما يفتقر لمنطق يجعله لا يعرف مصلحته الحقيقية ومصلحة أبنائه؟

• عبد السلام: لقد قضى سليمان شبابه بمدارس فاس، وهناك نَهَلَ من مذاهب القضاء والقدر والجبرية المطلقة. إنه مثلك عالم شريعة، لكن على عكس أسلوبك هذا الذي يساعدك على تصحيح الأخطاء، فهو عنيد ولا يحب تصحيح أخطائه، بل إنه يتمادى في ذلك. أتعرف يا علي باي، إنه عيب علمائنا الرئيسي وهذا سبب قوي كان له تأثير إلى جانب نصائح عبد المالك المغرصة وأهوائه الخاصة.

• علي باي: آه أيتها الأمة الشقية!

## المشهد الثالث

نفس الشخصيات. يدخل السلطان رفقة كل من عبد المالك والسلاوي والحاشية من باب الحاجز المشبك ويحيي الجميع. يحمل أحد الخدم شمسية كبيرة تظلل السلطان.

• الجميع: ليبارك الله مولانا السلطان.

• علي باي: ليبارك الله حياة سيدنا مولاي سليمان، سلطان المغرب.

(يعطي السلطان إشارة فتتسحب الحاشية إلى خلف الحاجز المشبك ويجلس هو على أريكة العريش.)

• السلطان: ليحفظك الله يا علي باي.

• علي باي: تقبلوا سيدي تحية شكر على لطفكم الفريد الذي غمرتمونا به وتشريف بيت خادمكم.

• السلطان: أظنها لن تكون المرة الأخيرة، فبالرغم من أن عبد السلام قد أخبرني أنك تريد الذهاب، أتمنى أن تفكر في ذلك بشكل أفضل.

• علي باي: (يتم تقديم صينية بها كؤوس من الليمونادة) إنكم تعرفون يا سيدي الواجب الذي تفرضه علينا شريعتنا المقدسة، فبما أن تواجدي هنا لم يعد ضروريا، ليس هناك ما يمنعني من إتمام الواجب. إذن، لماذا أعفي نفسي من أداء فريضة الحج والاستجابة للأوامر الإلهية؟

• السلطان: كنتَ ستكون على صواب لو أن تواجدك هنا لم يكن ضروريا مثلما تفترض، لكن عندما أقول لك إن تواجدك هنا ضروري وأنتي أتمنى الاحتفاظ بك إلى جانبي فلكي أستغل نصائحك لصالح قبائلي، أو ليس هذا الدافع كافيا حتى أجعلك تغير قرارك؟ وأنت تعلم جيدا أن الشريعة نفسها تعفيك، في هذه الحالة، من السفر وتجزئ لك إتمام الواجب عن طريق حاج منتدب.

• علي باي: إني، يا سيدي أشكر لطفكم، لكن تجربة تعيسة قد جعلتني أرى أن نصائحي ليست دوما بالسديدة، وهذا يجب أن يفتح عيني كي لا أحمل على عاتقي مخاطر مسؤولية إسداء النصائح.

• عبد السلام: لا أظن يا علي باي، رغم ذلك، فأنت لا تحسن صنعا برغبة ترك أصدقائك.

(يخرج خادم بطست وجرة، والآخر بفوطة ويتقدمان إلى السلطان ومن ثم إلى البقية بالتتابع فيغسلون أيديهم. يسحب الخدم بعد ذلك طاولة صغيرة فوقها بساط ملون ويضعونها أمام السلطان ثم يبسطون القماش ويمدّون بساطا آخر أكبر مماثلا وسط الخشبية. يضع عدة خدم على الطاولة الصغيرة، الخاصة بالسلطان وفوق بساط الخشبية، نوعا من منخل أو إطار من خشب بحافة أو إطار مرفوع بأربعة أصابع ومنبع في الوسط به أكل والطبق محاط بلفافات صغيرة، والمنخل مغطى بغطاء مقعر ملون ينزعونه عنه عند وضعه. يأكل السلطان وعبد السلام وعلي باي في العريش معا بأيديهم من نفس الطبق، أما عبد المالك والسلاوي وبوستة فيأكلون من طبق آخر وهم يجلسون على البساط وسط الصالة. يحمل الخدم المناخل فوق الرأس وعندما يقدمونها وينزعون غطاءها، ينتظرون حتى يضع الذين يأكلون اليد ثلاث أو أربع مرات وبعدها يغطونها مرة أخرى ويحملونها ثم يتركونها للحاشية التي تجلس على الأرض خلف الحاجز المشبك لتبدأ بالأكل. يجب على الأقل أن يكون هناك اثنتا عشر أو أربعة عشر منخلا متشابها يقدمها الخدم بالتتابع، واحدا تلو الآخر من دون توقف. توجد في العريش صينية بها أكواب من حليب وماء وأخرى مشابهة من أجل الضيوف الذين يتوسطون الخشبية: لا يجب أن يظهر الخمر، وهم يشربون وسط الأكل، وفي كل مرة عندما يضع أحد الكوب في فمه يقول باسم الله وعند الانتهاء يقول الحمد لله. عند إنهاء الأكل يعود الخدم بالطست والجرة والفوطة ويعاد غسل اليدين والفم، بعدها يتم تقديم القهوة في فناجين

من دون صحون. عندما تنتهي الحاشية من الأكل خلف الحاجز المشبك يقومون كلهم مرة واحدة ويهتفون: ليحفظ الله سيدنا. يتم الحديث أحيانا خلال الأكل ومولاي حامد يحكم ويوجه الخدمة).

• السلطان: علي باي، هل توصلت بأخبار تهمة أحوال بلاد المسيحيين؟

• علي باي: الظاهر أن السلطان الإسباني الساخط على الإنجليز الذين استولوا، في عز السلم، على بعض الفرقاطات قد قرر في النهاية إعلان الحرب عليهم.

• السلطان: إن فعل الإنجليز هذا، هو في الواقع خطيئة كبرى مثلما كان كذلك هجومهم على سلطان الدانمارك في عز السلم. إن الله يعمي هؤلاء الكفار حتى يدمروا بعضهم بعضا.

• عبد السلام: نعم، لكنك ترى جيدا، يا أخي، أننا نسعى لفعل الشيء ذاته.

• السلطان: أنا لا أحارب أي سلطان مسلم.

• عبد السلام: هذا أكيد، لكن غياب دستور وقوانين مكتوبة سيعرض عند وفاة كل سلطان للمغرب أزيد من مائة ألف حياة للهلاك، وهذا التراجع السكاني هو بحجم ما تخلفه حروب المسيحيين من قتلى.

• عبد المالك: إذن، علي باي فعلا لا يريد البقاء في المغرب؟

• السلاوي: (بسخرية) إن أرضنا صغيرة أكثر من اللازم بالنسبة لرجل عظيم بهذا القدر.

• عبد المالك: نحن في المغرب نتوفر على ما يكفي من الرجال.

• عمر: هذا صحيح يا سيدي، لكنه فعلا أمر مؤسف أن يغادر هذا الشريف.

• السلاوي: إني أشفق عليك يا عمر.

• علي باي: رأيت للتو في جرائد أوروبا أن الإنجليز أخذوا محمد الباي من لندن إلى الإسكندرية في فرقاطة محملة بالثروات والهدايا التي قدموها إليه.

• عبد السلام: توصلت بأخبار بأن السلطان الإنجليزي يصير كثيرا على أن يمنح حكم مصر لمحمد الباي، كما أنهم مازالوا يقولون بأن سفيره في



القسطنطينية يقوم بمساع حثيثة من أجل أن يمنح السلطان التركي منصب شيخ البلاد أو ينصب أمير مصر الإقطاعي محمد الباي.

• السلطان: لن يكون السلطان التركي مغفلا بهذا الشكل حتى يضع ذلك البلد بين يدي الإنجليز بهذه الوسيلة غير المباشرة.

• عبد السلام: رغم ذلك فهم يؤكّدون أن السفير، بكثرة المال والدسائس، سينال مبتغاه.

• علي باي: حتى في هذه الحالة فإنه من البديهي أن فرنسا التي تنافس الإنجليز في التجارة الشرقية، لن تدخر أية وسيلة من أجل إحباط مكيدة تهاجم مصالحها بهذه القوة.

• السلطان: إن ما قدّر كان، مثله مثل كل شيء، مكتوب في كتاب القدر الكبير.

• عمر: إذن، في النهاية، السلطان لم يتفاهم مع سيدي العربي؟

• عبد المالك: كان ذلك مستحيلا لأن إقليم تادلة أصر على المطالبة بامتيازات تتعارض وكرامة السلطان.

• السلاوي: إن سيدنا مولاي سليمان طيب أكثر من اللازم، وعلى الرغم من أن سيدي العربي هو ولي المغرب الأكثر احتراما عندما يؤدي الصلاة، فإنه يمكن اعتباره عكس ذلك حينما يبذل قصارى جهده في دعم ادعاءات شاذة.

• عمر: لا يا أيها الوزير، من البديهي أن الله يلهم سيدي العربي عندما يتكلم عن أي صفقة. ومحاولة الحكم عليه بمعارفنا الإنسانية الضعيفة ستكون جراءة أكبر منا.

• السلاوي: الله أعلم.

عند الانتهاء من الأكل وبعد غسل الأيدي وشرب القهوة يدخل خادمان فيقدمان للسلطان رسالة عربية.

• السلطان: اقرأ يا السلاوي.

ينصرفون.

• السلاوي: (يقرأ) ”إلى إمبراطور المغرب الرفيع والعظيم؛ سلطان المغرب وفاس ومكناس، شريف تافيلالت العظيم،... سيدي، خديمكم باشا إقليم دكالة الدليل تحت التراب الذي يدوسه خُفَاكم المبارك، يتجرأ على رفع صوته إلى شخصكم المقدس لإخباركم بأن سكان إقليم تادلة تعاملوا عن النعمة الإلهية حدَّ رفع راية التمرد على سلطانهم اللطيف. وبما أُنِي تلقيت هذا النبأ بشكل غامض فإنني لا أستطيع يا سيدي أن أحدد لكم ظروف هذا الحدث السيئ، كما أُنِي لا أشك أن المرابط سيدي العربي قد يكون وافق على هذه الحركة إذ إن كلمته هي الشريعة بالنسبة لسكان الأطلس، لكن في كل الأحوال إذا تجرأ المتمردون على النزول من الجبال فاعتمدوا يا سيدي على إخلاصنا وبسالتنا. أنعم الله عليكم بالهناء.“

• السلطان: (غاضبا) أيها التادلويون المنحرفون! سوف يكون دمكم شرابا لخيوبي. عبد المالك؛ اتخذ فوراً التدابير الضرورية: ليهجم ثلاثة آلاف فارس على أراضي هؤلاء المتمردين وليكن تدمير بلدهم وسفك دمائهم وحرقتهم عقابا ومثالا للجميع.  
(يذهب عبد المالك).

• عبد السلام: هدى من روعك يا أخي، فهذه الحركات الشعبية عند سكان الأطلس الشرسين إنما هي دوما من دون نتيجة، ذلك أنهم يفتقرون لعقل مدبر يعرف كيف ينظمهم ويستغل الأماكن المميزة لبلدكم.

• السلطان: (للسلاوي) أيها الوزير، قم بالإجراءات اللازمة من أجل قطع كل اتصال بين الأقاليم المتمردة ومخلصيهم.  
(يعطي السلاوي أوامره خفية بالتتابع لضابطين ثم ينصرفان).

• السلطان: هل رأيت يا علي باي كيف أن السلطان بحاجة، في كل وقت، لأصدقاء أوفياء؟

• علي باي: وهل ترون يا سيدي سلبيات بلد يفتقر لقانون مكتوب فيجد نفسه في كل وقت عرضة للفوضى التي يحدثها غياب ضمان بين الحاكم والمحكوم؟

• السلطان: ثق بي يا علي باي ولا تثر هذه المسألة أبدا، ابق في المغرب واعتمد عليّ دوما.

• علي باي: آه يا سيدي! كان بودي ذلك، لكنه غير ممكن. فأنا لم يعد بإمكانني مقاومة دوافع القدر الذي يجزني. اسمعوا يا سيدي صوتي للمرة الأخيرة. (بحزم) امنحوا رعاياكم دستوراً يجعلهم سعداء. آمنوا في أسرّتكم التعاقب على العرش وفق ترتيب البُكورية وتجنبوا بهذا سفك دماء المسلمين التي تراق في كل فترة بين مُلكين. أشفقوا يا سيدي على أبنائكم والشعوب التي تكرمت العناية الإلهية وعهدت لكم بها. (عبد السلام بيكي) إن الله نفسه يكلمكم بلساني أيها السلطان. إن والدكم وأخاكم وابنكم الأكثر حُباً لن يستطيع أن يحدثكم بكل هذا الصدق. (سليمان مضطرب) إنه ما يزال وقت للشروع في هذا العمل العظيم يا سيدي، وإن وافقتم على ذلك فاعتمدوا عليّ يا سيدي. قولوا كلمة يا سيدي، والشعب بأكمله ونحن معه سنكون عند أقدامكم وتذكروا أنه غدا حينما يكون الأوان قد فات. (بلا مبالاة) إذا لم تقبلوا فسأنصرف غداً.

• عبد السلام: لا يا سليمان، لا تستخف بنصائح علي باي. هو يكلمك بصراحة قلبه ويمكن القول إن الله هو الذي جاء به إلى أرضنا كي ينبهنا لما فيه خير لهذه الأمة.

• سليمان: (بتردد) ليته كان ممكناً... لكن لا... علّه كان بمقدوري التوفيق... لا، هذا غير ممكن. (بحزم) لا تكلموني بهذا الشأن مرة أخرى.

• علي باي: آه أيها الأمراء البائسون!

• السلطان: (باستياء) هيا بنا إذا.

(يذهبون كلهم ما عدا السلاوي ومولاي أحمد).

## المشهد الرابع: السلاوي، مولاي أحمد ولاحقا أم هاني وتيغمو

• السلاوي: أخير يا مولاي أحمد سيدتك أم هاني أني بحاجة إلى التحدث إليها.

(يذهب مولاي أحمد).

يا إلهي ساعدني في مخططي كي أنتقم وليخسر هذا المغامر.

(تخرج أم هانئ وتيغمو غير سافرتين).

• السلاوي: ليحفظ الله حياتك يا أم هانئ الصالحة.

• أم هانئ: صباح الخير أيها الوزير. ماذا تريدون؟

• السلاوي: إن الأمير مولاي عبد المالك يحييكم، ولقد أرسلني لأبلغكم أنه لم يستطع أن يصدق أنكم قد قررتم اتباع ذلك المغامر. محض إرادتكم. ولهذا فقد أعدّ العدة وسيأتي في منتصف الليل مرفقا بالدعم الكافي حتى ينتزعكم من بين يديه، أنتم تعرفون جيدا كم يحبكم الأمير.

• أم هانئ: إن مولاي عبد المالك يخطئ بافتراضه أني مُكرهة، فليست هناك من امرأة أكثر حرية مني في الإمبراطورية كلها. إن علي باي العظيم لا يؤسس مجده على تعنيف أو استعباد نسائه. وأنتم تختبرون ذلك الآن ولا شهود بيننا. لقد ربطت مصيري بمصير سيدي الأمير الجليل. محض إرادتي وأنا شغوفة بشيمة المنقوشة في أعماق روعي، ولو وضعوا عرش المغرب بين يدي لما استطعت اقتلاعه من قلبي.

• السلاوي: إن هذه المشاعر-يا أم هانئ- لصالح ذلك الوصولي هي غير مناسبة وبذيئة. كيف لا تستطيعين الاختيار بين الأمير الكبير مولاي عبد المالك وذلك الشريف الطموح؟ إذن، كوني متأكدة أنك ستختطفين هذه الليلة نفسها، فامثلي واسكتي.

• أم هانئ: (بحزم) بأي حق يسعى عبد المالك لانتزاعي من السيد الذي منحني إياه العناية الإلهية والذي يعشقه قلبي؟ اعلموا أيها الوزير أنكم ستنتزعون روعي بسهولة أكثر.

• السلاوي: (ساخطا) اعلمي أيتها المرأة الحمقاء، بما أن عماك قد أوصلك إلى ذلك الحد من الجنون وأنك إذا أردت أن تتجنبي أن تصبحي، هذه الليلة، ضحية أشنع انتقام فإنه ليس لديك حل آخر سوى أن تضحي أنت بنفسك وأن تغرزي هذا الخنجر في صدر تمثالك المقيت ذاك.

(يرمي بالخنجر تحت قدميها فتضع يدها على وجهها من شدة الخوف).  
- فكري في هذا جيدا ووداعا حتى المساء.

## المشهد الخامس: أم هانئ وتيغمو سافرتان

• أم هانئ: يا إله محمد الأكبر! ما هذا؟ ما الجرائم التي اقترفتها التعيسة أم هانئ حتى تُنزلوا بها غضبكم بهذا الشكل؟ ذلك الخنجر... يا للهول... مُوجّه إلى قلب الرجل الأكثر لطفًا والذي عرفته القرون... يا حبيبي علي باي (متأثرة) إن أم هانئك لن تخونك... هي نفسها ستضحى بروحها بكل سرور... عزيزتي تيغمو (تذهب نحو الخنجر وتمنعها تيغمو بهلع) ما هذا؟ إنه برد مميت يجمد عروقي... اسديني يا صديقتي.

• تيغمو: قد يكون هذا كله يا سيدتي إحدى مكائد السلاوي ليجعلكم وسيلة انتقامه من سيدي الأمير.

• أم هانئ: (تعود لوعيتها وتقبّل تيغمو) أيتها الروح الملائكية، لقد وضعت بلسما على قلبي. تقولين خيرا... كيف قد يستطيع عبد المالك أو أي أحد آخر السعي إلى فعل بهذه الشناعة والذي قد يغري به السلطان وكل قبائل المغرب؟ (بفزع مرة أخرى) لكن ذاك الخنجر...

• تيغمو: (تأخذ تيغمو الخنجر وتخبيئه تحت شجيرة ورد) ذلك الخنجر غير موجود فهدؤوا من روعكم.

• أم هانئ: شجيرة ورد غادرة، إنك تخفين الصلّ الذي يلتهم قلبي منذ أول وهلة هُدد فيها علي باي الرائع.

• تيغمو: لن ننس بكلمة عما وقع. وبما أنها مكيدة مدبرة من طرف السلاوي، فبماذا يفيد تعكير هذه الهنّيات القليلة المتبقية للاستمتاع بهذا المنزل الساحر؟ هيا بنا إذن.

## المشهد السادس: علي باي لوحده

• علي باي: لقد قُضي الأمر. لم تُصر يا سليمان الشقي أن تكون حاكما غير عادل؟ لم تصم أذنك عن نصائح صديق كان يتنازل لك بكل سرور عن شرف تجديد المغرب؟ لكن، هل سيكون بإمكانني اتخاذ قرار التصرف ضد

سليمان الذي عاملني كابن له؟ وهل أستطيع الاقتصار على النظر إلى الرجل الذي استعاض عن صداقته لي بإبداء العداوة؟ وهل بمقدور مصلحة ذلك الطاغية أن تغير ما بقلبي نحو مصلحة ملايين الضحايا الشقية ممن يرفعون أيديهم ويتوسلون مسانديتي؟ مهما كانت الهدايا التي لم أرفضها، والتي تجنبت الاستمتاع بها، فلن أعتز باعتبارها هدايا خالصة، لأنها مجرد مطية لمساعدتي إياه على حكمه المستبد، فيحجم دوري كي أصبح شاهدا يلتزم الصمت أمام فعل إجرامي؟ من جانب آخر، كيف سيحكم علي الرجال والتاريخ إذا انهزمت في هذه المعركة؟ أحكام كثيرا ما تكون غير عادلة، ولا يمكن لتائجها أن تنسحب - بإطلاق- على كافة بني الإنسان .

حركة القبائل، تلك السابقة لأوانها، التي تورطنا قبل حلول الوقت المناسب. يا إلهي، يا وطني الغالي، أنا لن أخونكما، سأتم مراسيم القدر... لكن دعني أكون دائم الشكر لسليمان.

## المشهد السابع: صالون السلطان السلطان وعبد المالك وبوستة

- السلطان: إنني في الواقع لا أستطيع أن أنكر أن علي باي شخص فريد.
- عبد المالك: فعلا، لكن إصراره على دعم آرائه...
- بوستة: عندما تبدو هذه الآراء مبنية بشكل جيد لا أظن أنه من الصواب مؤاخذته على إصراره.
- السلطان: هكذا هو الحال عندما يتعلق الأمر بأشخاص من ذوي قوة متساوية، لكن حينما يكون الجدل بين شخص بسيط وسلطان بمقدوره، بإشارة واحدة، قطع رأسه فأنا لا أعرف كيف أسميه.
- بوستة: كون هذا الشخص أميرا شريفا من بيت أبي العباس الجليل...
- السلطان: (بحدة) وما علاقة نسبه بلومه الجريء؟

## المشهد الثامن: نفس الشخصيات - يدخل جنان نائرا ثم السلواوي

• جنان: (ينحنى وهو نائرا) اعدروا يا سيدي جُرأتِي على تعكير راحتكم، لكن استعجال وخطورة الوضع يدفعاني لهذا.

• السلطان: قل يا جنان، ما هذا؟

• جنان: من بين أوراق علي باي التي وقعت بين يدي، وجدت هذه الرسالة الموجهة إليه من طرف المرابط سيدي العربي، وبما أنها تُهمُّ، بشكل كبير، شخصكم الموقر لم أضيع لحظة واحدة لتقديمها إليكم يا سيدي.

• السلطان: لَنَر.

يأخذ الرسالة ويقرأ.

”إلى الأمير الرفيع العظيم علي باي، أمير العباسيين. سيدي: إن إهانات مولاي سليمان المتواصلة لقبائل الأطلس الباسلة قد استنفدت صبرهم، هذا في الوقت نفسه الذي علمنا بميل عواطفكم النبيلة لصالح القبائل التي تحبكم كثيرا وذلك لفضائلكم وذكائكم. إن سكان الأطلس قد عبروا بكل وضوح عن رغبتهم في أن تحكموهم أيها الشريف العظيم أنتم بواسطة الدستور والقوانين التي لطالما تكرمتم بالإعلان عنها. إنني اعتبر نفسي سعيدا كوني صلة وصل بين القبائل التي تجد نفسها قريبة من رفع الراية لصوتكم فتبايعكم كسلطان. لن أطيل عليكم، ذلك أن شقيقي عصمان والشيخ ابن الجيلالي اللذين لهما رفيع الشرف ليقدموا لكم هذه الرسالة، لهما كامل الصلاحية للتعامل معكم. تفضلوا سيدي بقبول رجائنا وكسر السلاسل الثقيلة التي أنقلنا بها منذ زمن طويل، شرفاء تافيلالت المتوحشون.

اعتمدوا سيدي على فرسانكم البواسل كما هم يعتمدون على كرمكم وضمائناكم ولا تشكوا في كون باقي إمبراطورية المغرب بكاملها قد تحركت فيها العواطف ذاتها.

أتمنى سيدي استحقاق أن أكون في عداد مماليكهم الأكثر وفاء وأن يغمركم الله بالنعم التي نتمناها لكم من أجل خير الجميع.

خادمكم ومرابطكم العديم الاستحقاق العربي بن المعطي التدلأوي.  
تأدلة.“

• السلطان: يا لها من خيانة! وعلي باي كان يخفي عني هذا السر  
الغادر...!

• عبد المالك: ها هي يا سيدي أصل الجرأة التي كانت تدهشكم فتبدو  
لكم كبطولة عند علي باي.

• السلطان: نعم، لكن...

يدخل السلاوي.

• السلاوي: سيدي، تبعا لإجراءاتي من أجل قطع الاتصالات بين  
المتمردين، أخذ رجالي هذه الرسالة الهامة جدا حتى أسارع لوضعها بين يديكم  
(يسلم الرسالة).

• السلطان: لنشرب السم كاملا.

يقرأ تأثرا.

”إلى المرابط المقدس سيدي العربي بن المعطي التدلأوي، ترجمان  
الإرادة الإلهية.

أخي العزيز: لدي فقط الوقت لإخبارك بأن أميرنا علي باي سيمضي  
نحو فاس خلال ثلاثة أيام وهو يكلفني أن أتوسل إليك للخروج لملاقاتنا على  
ضفة أم الربيع، ورغم أنه لم يقدم شرحا واضحا لرسالتك إلا أنني لا أشك في  
انضمامه إلى مخططنا، ذلك أنه حذر ابن الجيلالي من إرسال جنوده للانضمام إلى  
جيشك. انتظرنا، إذن، على ضفة النهر ولينعم عليك الله بالخيرات مثلما يتمنى  
لك أخوك عصمان. المغرب.“

• السلطان: (باحترام شديد) أسرع يا عبد المالك، خذ هذه الرسائل  
واعرضها أمام عيني علي باي، وبطعنات، أرسل روح ذلك الخبيث إلى جهنم.  
(يهم بالذهاب ثم يتوقف) لكن لا... أتوا به إلى حضرتي ولأشبع انتقامي بنفسي  
بشرب دمه حتى آخر قطرة... انتظر (كان يهم بالذهاب ثم توقف). إن موته  
بمفرده ليس كافيا، أحضروا نساءه أيضا لتمديد آلام هذا اللئيم. انصبوا محرقة  
أمام باب القصر. وأحضروا هذا الخائن ونساءه وليشرح في تعذيبهن بحضوره،  
وابدؤوا باقتلاع أوصالهن جزءا جزءا بكلابتين حارقتين. ثم لتطبق العقوبة



ذاتها على ذلك الخبيث. وليهلك اللثام في المحرقة وليُثَرَّ رماد رفاتهم في الهواء عيرة وتهويلا للعصور المقبلة. (يضحك بازدراء) إنني أستمتع بتفاصيل مشاهد هذا التعذيب، لكن، لا تشرعوا في ذلك حتى أعطي إشارة البدء بنفسي. أريد أن أنتشي في انتقامي وأن أحضر وأحتفل رسميا بالقصاص من هؤلاء. كما سيتم رمي رأسي عصمان وابن الجيلالي في النار. انطلقوا وأخبروني عن دقة تنفيذ أمري. آه يا علي باي اللئيم!

## المشهد التاسع: مولاي عبد السلام وعمر بوستة

• عمر: علي باي أيها الشقي! لقد جرفك قلبك النبيل إلى الهاوية لفعلك الخير تجاه قبائل المغرب وحتى بالنسبة لسليمان نفسه. آه أيها البلد الشقي!

يدخل عبد السلام.

سيدي، لقد حلت البلية بالشقي علي باي. فالسلاوي وجنان قدما للسلطان رسالتين تورطان هذا الشريف بشكل كبير ولقد بعث عبد الملك لإحضاره هو ونساؤه لإهلاكهم في محرقة أمام القصر بعد جعل أجسامهم أشلاء بواسطة كماشات.

• عبد السلام: يا إلهي! لكن هل الرسائل موقعة من طرف علي باي؟

• عمر: لا يا سيدي، إنها ليست من طرفه؛ واحدة هي من سيدي العربي إلى هذا الأمير والأخرى من سيدي عصمان إلى سيدي العربي.

• عبد السلام: لقد فَرَّجْتُ عني يا عمر. اركض فلئن وصلت في الوقت المناسب فأخبر علي باي بأن لا يخاف، ذلك أنني سأتوسط له عند السلطان، وأخبره أيضا أنني جد واثق من اقتداري على التخفيف من توجسات سليمان ومن نار قسوته، لنول صفحه. اركض بسرعة (ينصرف عمر) آه يا علي باي الشقي! روحك الكريمة هي التي أوقعتك في هذا الموقف القاسي.

## المشهد العاشر: حديقة السمالية

(علي باي والنساء وعدة خدم وعبيد ينقلون رُزما فوق الخشبة. ويدير الأشغال مولاي أحمد).

- علي باي: لقد حان الوقت يا عزيزتي أم هانئ لبدء رحلتنا.
- أم هانئ: (حزينة) عسى يا سيدي أن نتقابل خارج هذا المكان.
- علي باي: غدا سنكون بعيدين عن هذا المكان.
- أم هانئ: إن اللحظات تبدو لي قرونا.
- علي باي: لم هذا القلق؟
- أم هانئ: لا أدري يا سيدي، لكن قلبي يحدثني بشيء سيء على وشك الحدوث وهو ما يجعلني أمقت هذا البيت.
- أحمد: (للخدم) سننطلق قريبا، فالجمال تنتظر والبُدو على أحر من الجمر للذهاب إلى المعسكر.
- الخدم: حسنا، حسنا (يتابعون نقل الرُزَم).
- علي باي: كوني مطمئنة يا أم هانئ الفاضلة، فرغم أن سفرنا محفوف بالمخاطر نوعا ما، إلا أن روحينا يجب أن تكونا معراجا يعلو على كل حادث طارئ.
- أم هانئ: لا يا أميري المحبوب، فليس لأنكم رأيتموني حزينة تخالون أن الأخطار تخيفني. إن هذا الحزن إنما مرده إلى حركة طالعة من قلبي، فلا أجد لها من مبرر.
- علي باي: لا تبالي بهذا...

## المشهد الحادي عشر: نفس الشخصيات وعصمان وابن الجيلالي

- أحمد: سيدي عصمان والشيخ ابن الجيلالي.
- علي باي: تفضلوا (تحتجب النساء).
- عصمان: سيدي: أنا وابن الجيلالي فكرنا بأن مغامرتكم، ولعدة أيام، بالسير على طريق السهول إنما هي محاولة محفوفة جدا بالمخاطر، لا سيما في الحالة الراهنة وحيث إنكم مُعرضون من حين لآخر، للإهانة من طرف سليمان المتقلب. لذا، أَلن يكون من الأفضل السير عبر طرق الجبال؟
- علي باي: لا أظن أنه عَلَيَّ أن أخاف بَعْدُ من سليمان، لأنني لم أفعل شيئاً يستوجب مثل هذا الحذر.
- عصمان: لكن من يمكنه أن يعتمد على طاغية مثله؟
- علي باي: لقد تم إعلام سيدي العربي باتجاه مسيرنا وعلينا ألا نغير الطريق.
- ابن الجيلالي: لنخرج من هنا يا سيدي ولنذهب إلى حيث تقرر.
- علي باي: انظروا يا أصدقائي إلى الخطأ الذي ارتكبت القبائل برفعها راية العصيان قبل الأوان، لقد ورطونا وعرضونا كما عرضوا أنفسهم لكافة المخاطر.
- ابن الجيلالي: حينما أتمكن من إخراجكم إلى ميدان منبسط. جمعية موكبي الصغير، عندها لن أخاف شيئاً.
- علي باي: أيها الشجاع يا ابن الجيلالي، بما أن سليمان يستهين بصيحات وصولات العمالقة البواسل، وبما أنه يغلق عينيه دون منفذ النور ويرفض نصائحي، وبما أنه يتمادى في التضحية بأرواح وسعادة الملايين إرواءً لعطش استبداده... (بحزم) سأمنحكم دستوراً، سأحمي قضيتكم؛ لكن في الوقت ذاته سأحمي أيضاً حياة سليمان نفسه. وبل للرجل الذي سوف يتجرأ على الاعتداء على حياته الشريفة. فأنا بنفسني سأقطع المجرم الذي قد يقترف هذا السوء.
- (يرتمي عصمان وابن الجيلالي عند قدمي علي باي).
- عصمان: أيها الشريف الباسل! تقبلوا سيدي بلساننا احترام وإجلال رعياكم...

## المشهد الثاني عشر

(يدخل، فجأة، عبد المالك بمعية بعض الجنود ويَرْتَمُونَ على علي باي وعصمان وابن الجيلاي طارحين الاثني ارضا. تراه أم هانئ وتصرخ).

• أم هانئ: آه، يا أ الله!

• عبد المالك: أيها الخونة، هيا لتدفعوا ثمن جريمتكم.

(السللاوي يحاصر النساء رفقة فوج آخر من الجنود ويقول):

• السللاوي: أم هانئ، أنت أسيرتي.

(تكسر أم هانئ الحاجز، محاولة الذهاب نحو علي باي الذي يسلم سيفه

ليشلق لنفسه طريقا نحوها هاتفا):

• علي باي: لَنَمْتُ يا أم هانئ.

(يطرح الجنود، علي باي، ارضا وينتزعون سلاحه وتركض أم هانئ إلى

شجيرة الورد وتمسك الخنجر هاتفة):

• أم هانئ: آه أيها السللاوي الغادر!

(تذهب ناحيته وترفع يدها هاتفة):

فَلَتَمْتُ أيها الخبيث.

عند توجيهها الطعنة له، يعترضها جنان الذي يتلقاها ويسقط قائلا:

• جنان: واحسرتي!

(أم هانئ تقول للسللاوي):

• أم هانئ: استطعت أيها الشنيع إنقاذ هذه الحياة البغيضة لكنكم لن

تستطيعوا استعباد حياتي.

(تصيب نفسها وتسقط قائلة):

• أم هانئ: الله أكبر.

• عبد المالك: أيتها المرأة الرائعة، إنك تستحقين حياة أفضل!

يسدل الستار

النهاية

- Charles de Foucauld, *Reconnaissance au Maroc*, 1883-1884, Éd. CHALLAMEL ET a", ÉDITEURS, LIBRAIRIE COLONIALE.Paris,1888. In<https://gallica.bnf.fr/ark:/12148/bpt6k200835s.r=Reconnaissance%20au%20Maroc%2C%201883-1884%20%20Vte%20Ch.%20de%20Foucauld?rk=21459;2>
- Edward W, Saïd, *Culture et impérialisme*, Éd. Fayard Le Monde diplomatique. Paris, 2000.
- Gauvin Lise, Van den Avenne Cécile, et All, *Littératures francophones. Parodies, pastiches, réécritures*, Éd. ENS Lyon. Lyon, 2013.
- Gérard Genette, *Palimpsestes La littérature au second degré*. Éd. Seuil «Poétique», Paris,1982.
- Henri Duveyrier, « Rapport fait à la société de géographie de Paris, dans la séance générale du 24 Avril,1885 ». Paris,1885 précède le la présentation de la version numérique de « Reconnaissance au Maroc » In<https://gallica.bnf.fr/ark:/12148/bpt6k200835s.r=Reconnaissance%20au%20Maroc%2C%201883-1884%20%20Vte%20Ch.%20de%20Foucauld?rk=21459;2>.
- Kébir-Mustapha Ammi, *Mardochée*, Éd. Gallimard, Paris, 2011.
- René Bazin, *Charles De Foucauld Explorateur Du Maroc Ermite Du Sahara*, LIBRAIRIE PLON, Paris, 1921.

c'est-à-dire cette opération «d'ordre axiologique, portant sur la valeur explicitement ou implicitement attribuée à une action ou à un ensemble d'actions...] d'attitudes et de sentiments qui caractérisent un «personnage» (Genette: 1982, 393).

### **Conclusion**

On ne peut pas aborder les textes de Kébir Mustapha Ammi, sans esquisser en même temps les liens, affichés ou sous-jacents, autour desquels s'organise sa fiction. S'ils s'inscrivent d'entrée de jeu dans une remise en question de quelques versions établies de l'Histoire, ils permettent tout autant de ressusciter des figures occultées ou mises à la marge de la mémoire maghrébine. Se réappropriier ces figures, les rapatrier dans leur paysage culturel d'origine, leur donner une nouvelle consistance romanesque est à plusieurs égards une entreprise commune à plusieurs de ses romans.

Qu'elle emprunte la démarche du biographe ou qu'elle se fait historienne, son écriture est investie par le désir de connaissance et de déchiffrement du monde. Si ses romans attestent d'une porosité épistémologique -permettant de faire cohabiter plusieurs modes de connaissances - c'est que Kébir Mustapha Ammi reconnaît à ce genre des potentialités heuristiques et cognitives indéniables. Pour lui, le roman n'est pas seulement une expérience de divertissement, mais il est aussi et surtout un moyen d'intelligence du présent, un instrument de connaissance du réel.

Envisager le roman dans une telle optique, c'est inévitablement lui attribuer des pouvoirs d'incidence sur le monde, des capacités d'agir sur les mentalités et de faire surgir des sens empêchés ou mis à l'écart. Kébir Mustapha Ammi semble emprunter, le tournant éthique pour penser le contemporain dans ses aspects dissensuels et paradoxaux. Le roman est de ce fait n'est plus exclusivement le récit de son propre fonctionnement, encore moins un espace de spéculation du monde, il est surtout le lieu où s'amorce sa transformation politique.

Le réinvestissement des versions établies et canoniques de L'Histoire qui caractérise son travail impose d'appréhender chacun de ses romans à travers le lorgnon de celui qui l'a inspiré ou provoqué. Ce mécanisme parodique ne tient pas uniquement à des aspects formels, mais il s'inscrit dans une transformation critique qui implique le dialogue et la contestation, l'imitation et la transformation, partant il informe sur la circulation des savoirs et des imaginaires ainsi que sur les stratégies de réappropriation mobilisées par un écrivain postcolonial de sa condition.

### **Bibliographie**

- Antoine Duclercq, *Les Métamorphoses de Soi*. Éd. The Book Edition. Saily-sur-la-Lys, 2013.

- Auguste Beaumier, « Lettre adressée à la Société de géographie en 1870 ». In *Bulletin de la Société de géographie*. Éd. Société de géographie. Paris, 1870.

Que sais-je! Ils continueront de soutenir que ce pays leur appartient et que la vocation de la France est de triompher aux quatre coins du monde. (p.246)

Conscient du pouvoir du récit, *Mardochée* conteste le monopole narratif dont jouit de Foucauld, d'autant plus que le récit de son adversaire devient peu fiable, lorsqu'on comprend que «Son ouvrage se garde de dire les choses comme elles se sont déroulées, il n'y consigne que ce qui peut le grandir. Il a le souci constant d'omettre ce qui ne va pas dans ce sens» (p. 51) en effet, à la lecture de son récit, l'exemplarité du Maître se trouve remise en doute et sujet à plusieurs déconstructions. Le compagnon de voyage évoque différentes situations à l'issue desquelles l'éthos de la vertu se trouve entaché et perd de sa crédibilité, que ce soit à travers l'ambiguïté qui caractérise les mœurs du personnage ou le courage qu'il lui fait parfois défaut ou par le mensonge fondamental de sa mission.

Il faudrait peut-être rappeler qu'en plus du succès retentissant de *Reconnaissance au Maroc* et de la gloire réservée à son auteur, le Vatican déclare, par décret pontifical le 13 novembre 2005, Charles de Foucauld, béatifié. Ce statut le hisse au rang des saints de l'église et le distingue comme l'incarnation de la vertu exemplaire et l'illustration de l'héroïsme. À cette canonisation fait face l'abomination de *Mardochée*, qui se trouve ou oublié de l'histoire ou tenu pour un lâche et un traître aux yeux des siens.

Son récit testamentaire se veut une mise en garde adressée aux générations à venir des dangers qui les guettent, incriminant de ce fait les discours de la mission civilisatrice.

Je me suis décidé, après de longues hésitations, à écrire ce livre, j'ai accepté à franchir le pas, même si de toutes parts une clameur soutenait que je ne devais en aucun cas me livrer à cette confession impudique, et que j'étais un imposteur et que mes explications ne serviraient à rien qu'à salir un peu plus notre nom. Je devais une explication franche et directe à ceux qui viendront après moi.(p.245)

Par la mise en fiction de son récit, Kébir Mustapha Ammi rétablit une iniquité historique, et engage par la réhabilitation de ce personnage clé, un nouveau regard sur l'événement colonial et son appréhension. Cette réécriture lui permet donc de s'engouffrer, par les voies de l'imaginaire dans les brèches interstitielles de l'Histoire afin de combler ses blancs, mettre des mots sur ses silences et offrir ainsi un «contrepoint local aux histoires monumentales des puissances occidentales, à leurs discours officiels, à leurs points de vue panoptique quasi scientifique».(Saïd: 2000, 308)

En tant que roman dérivé de *Reconnaissance au Maroc*, Mardochée (Ammi, 2011) implique une modification fondamentale de l'image des deux protagonistes ainsi que les versions de l'histoire que présentent leurs écrits respectifs. Il est évident que «l'hypertexte devient un contre-modèle, rejoignant par-là la définition fondamentale de la parodie comme «pratique de déviation»»(Gauvin, Cécile, et All: 2013, 17) et laissant place à travers cette imitation transformatrice à ce que Gérard Genette appelle la transvalorisation:

d'un sujet vis-à-vis du pouvoir, il nous offre aussi l'occasion de déchiffrer le fonctionnement de celui-ci, notamment à travers le couple savoir-pouvoir. En fait, au subalterne qui cherche ardemment à accéder à la place du Maître fait pendant une appropriation, qui ne dit pas son nom, subtile et silencieuse. C'est celle du Maître qui s'empare de la connaissance du dominé pour arriver à le mettre sous le joug. En effet, les compétences linguistiques, la ruse, la bravoure ainsi que la connaissance minutieuse du terrain du guide furent toutes mises au service de Charles de Foucauld et ceux qui se cachent derrière lui à savoir l'Empire. Cette rétrospection dans le Maroc précolonial retrace les différentes péripéties de cette époque et renseigne sur les prémices d'un grand changement que va constituer la colonisation, mais elle se veut aussi le rétablissement d'une certaine vérité historique.

### 2-3-Un contre récit

Dans ce roman, Kébir Ammi investit *Mardochée* du droit à la parole qui lui a été ravi dans le récit foucauldien. En bravant cette condamnation au silence, le personnage accède à une nouvelle existence. Il arrive à se dire, à s'écrire et à s'énoncer en tant qu'entité autonome. En se réalisant au-delà du discours du dominant qui le réduit à un simple objet discursif. Le personnage se dégage de l'emprise hégémonique et se présente comme le propre acteur de sa destinée; ce qui n'est pas sans conférer à sa parole une dimension performative.

En livrant sa propre version des faits, *Mardochée* fait vaciller le point de vue univoque et dominant qui a primé jusque-là, donnant naissance à un contre récit qui s'évertue à démasquer les artifices rhétoriques déployés par Charles de Foucauld et à divulguer les objectifs politico-militaires occultés par la prétention scientifique de sa mission:

L'histoire ne s'empressera sûrement pas de retenir ma version des faits, elle est l'œuvre d'un misérable, juif de surcroît peu doué, au surplus, pour enjoliver les choses comme ce diable d'Aleman qui sait donner de l'allure à sa prose et tourner à son avantage ce qui, a priori, pourrait le desservir.(p. 51)

Il est significatif de constater que le changement de l'instance narrative défocalise le point de vue foucauldien et déstabilise les soubassements de son récit. En s'emparant de l'espace énonciatif, *Mardochée* s'efforce d'analyser, d'éclairer et d'identifier l'imposture inhérente au projet de l'explorateur. Ce faisant, il perturbe les certitudes de l'Histoire et dévoile l'autorité sur laquelle elle s'adosse. La mise à nu qu'entreprend le sujet écrivain s'appuie, à la fois sur une volonté de rachat, puisque Mardochée signe par ce texte son mea culpa, mais également s'inscrit dans une perspective de riposte, une contre-attaque de la marge.

Avec ce livre, je veux demander pardon aux miens. Pardon de cette trahison. Pardon d'avoir ouvert leurs pays à de souffrances à venir. Car les malheurs vont s'abattre sur le pays qui m'a vu naître et qui a accueilli les miens. Des hommes vont venir pour le soumettre, à l'instar de cette pauvre Algérie. Il y aura comme ici des hommes qui diront qu'ils apportent la civilisation, le savoir, le progrès...



ses compétences au service de la *Société de Géographe de Paris*, passant par son retour au Maroc et son départ à Alger et sa rencontre avec Mac Carthy.

Il est clair qu'en sujet écrivant, *Mardochée* se reconstruit. La nouvelle image, qu'il donne de lui, tranche catégoriquement avec celle qu'esquissent les lignes de Charles de Foucauld. De même que le portrait qu'il brosse de celui-ci est loin de l'exemplarité qui lui est réservée. *Mardochée* réproouve l'attitude de l'explorateur. Pour ce faire, il ne cessera d'opposer ses discours à ses conduites et exposer quelques zones obscures de sa personnalité. Par ce discours sur soi, *Mardochée* engage sa propre plaidoirie, pour décaper les tares qui lui collent comme une seconde peau. Dans ce sens, il ne manque pas de mettre en avant à la fois son goût prononcé pour l'aventure, son courage à toute épreuve, mais également son abomination de la trahison. À titre d'exemple, on peut évoquer le jour où celui-ci se trouve sollicité pour espionner les Arabes d'Alger au profit de la France, il n'hésite pas à affirmer son refus catégorique:

Ils estimèrent qu'ils avaient trouvé le meilleur client qui soit pour espionner les Arabes [...] Je n'étais pas en état, croyaient-ils, de refuser leur offre.

-Non, dis-je, je ne trahirai jamais. Et qui plus est un frère!

-Mais Slimane est un Arabe, *Mardochée*! Et les Arabes, quoi qu'ils disent, n'ont jamais porté les Juifs dans leur cœur!

[...]

-Non, monsieur, dis-je, je suis certes un homme aux abois, mais je peux me rendre coupable de ce que vous me demandez. Autant mourir. (Ibid, 33- 34)

*Mardochée* fait un retour sur ses splendeurs et ses misères, afin de permettre au lecteur de saisir l'évolution de son destin, et par là même mettre la lumière sur la situation des juifs marocains de cette époque. Tirailés entre le désir d'une certaine émancipation miroitée par le pouvoir colonial, notamment à travers le décret de Crémieux<sup>2</sup> déjà adopté à Alger, et l'attachement à une terre, une culture et une nation qui les a vus naître. Cette adhésion ambiguë profite au pouvoir colonial qui cherchait activement à effiloche le tissu social marocain. D'abord en isolant ses composantes ethniques, tribales et confessionnelles ou en faisant attiser les velléités de dissidence et précipiter les désirs de sécession ou d'affrontement pour arriver à les administrer séparément.

Le cas *Mardochée* reste un exemple emblématique, du fait qu'il donne à voir comment les aléas de l'histoire individuelle peuvent converger avec celle de la destinée collective. Il nous permet de comprendre les agissements

---

- La promotion de statut d'indigène à celui de citoyen français fut décidée par la promulgation d'un décret qui accorde aux israélites indigènes de l'Algérie le statut de citoyen français. Le 24 Octobre 1870 «Le gouvernement de la Défense nationale décrète: les israélites indigènes des départements de l'Algérie sont déclarés citoyens français; en conséquence, leur statut réel et leur statut personnel seront, à compter de la promulgation du présent décret, réglés par la loi française, tous droits acquis jusqu'à ce jour restant inviolables. Toute disposition législative, tout sénatus-consulte, décret, règlement ou ordonnances contraires, sont abolis.» Fait à Tours, le 24 Octobre 1870.

chercher non seulement à rétablir sa réputation, mais il va dévoiler certaines vérités, demeurées cachées dans le récit foucauldien. Son projet s'annonce dès lors comme une entreprise imitative de *Reconnaissance au Maroc*. Le périple foucauldien est retracé presque à l'identique, mais à travers le regard du compagnon de voyage. Un regard critique et sans concessions sur les événements relatés, combien même nuisent-ils à la réputation du sujet écrivant. Car contrairement à Charles de Foucauld, qui excelle dans l'art de tromper, en ne restituant que ce qui pourrait le glorifier, Mardochée, en revanche, décide d'avouer la vérité, quel que soit son prix. On peut lire dans ce sens:

Cette aventure que d'aucuns ont qualifiée de tous les noms, j'ai convenu, cloué dans ce lit et armé de ma seule bonne fois, d'en retracer fidèlement le parcours, bien moins glorieux que Joseph Aleman ne le laisse croire. Je ne tairai aucun épisode susceptible de me nuire ou de ternir un peu plus ma réputation. (Ammi: 2011, 51)

Il est significatif de souligner que *Mardochée* se livre à la confession dès les premières lignes du roman: «Je m'appelle Mardochée. J'ai décidé, ce 29 novembre 1886, de consacrer le peu de forces qu'il me reste à dire pourquoi j'ai accepté de servir Joseph Aleman» (Ibid, 15) La mise en récit de sa propre vie introduit un nouveau rapport à l'Histoire et permet d'instituer le lecteur en arbitre, invité à comparer et à étudier les paroles de *Mardochée* et ceux que Joseph Aleman: «J'avais un pied dans la tombe, écrit-il, dans des notes qui ont, depuis, été rendues publiques et que le lecteur peut consulter à loisir pour comparer, s'il le souhaite, mes propos et ceux de Joseph Aleman» (Ibid, 40).

## **2-2- Postures historiques et impostures coloniales**

Cette incitation à confronter les deux récits et à examiner leurs fondements, traverse le roman de bout en bout, et renseigne sur une volonté de remettre sur un pied d'égalité deux versions d'un même événement : l'une fictive et l'autre factuelle. L'expérience de Mardochée et celle de Charles de Foucauld sont renvoyées dos à dos. Ils acquièrent par cette mise en fiction le même bénéfice du doute, et c'est au lecteur qu'incombe le devoir de discerner la vérité du mensonge. Comparer la version du maître à celle du subalterne équivaut, à certains égards, à les faire comparaître devant le tribunal de l'Histoire qui prend le lecteur comme juge.

La contiguïté de ces deux récits de l'expérience impériale dans le roman de Kébir Ammi entame un processus d'élucidation de ce passé qui ne passe pas. Tenu pour coupable dans l'incursion coloniale, puisque par son entremise Charles de Foucauld a pu réussir sa mission d'espionnage, Mardochée laisse saillir les tenants et les aboutissants de son implication à ses côtés, partant il tente de se disculper, de redire et de contredire le récit officiel.

Mais avant de passer en revue les différents détails de sa rencontre avec Joseph Aleman, il revient sur le parcours qui l'a ramené de la gloire à la déchéance, retraçant les différents périples et aventures qui le poussent à mettre

C'est le même constat qui se dégage de *Reconnaissance au Maroc*. Si dans sa page de remerciement, Charles de Foucauld omet, volontairement, de référer à son guide, il ne lui réserve, en revanche, que quelques mentions épisodiques dans le corps du texte; des mentions, somme toute, dénuées de tout sentiment de reconnaissance ou volonté de valorisation. Un tel traitement intrigue, compte tenu du rôle décisif joué par Mardochée dans cette expédition. En s'arrogeant tous les mérites de cet exploit, le récit foucauldien réaffirme un certain mépris racial et condescendance culturelle. C'est-à-dire que la supériorité du maître se confirme au détriment de la minorisation du subalterne de même que l'omniprésence de l'un va de pair avec l'invisibilisation préméditée de l'autre, traduisant ainsi ce qu'on peut attribuer à la suite d'Edward Saïd à «une structure d'attitudes et de références» (Saïd: 2000, 26).

Pour Antoine Duclercq:

L'homme occulté par de Foucauld est donc tel qu'il fallait qu'il soit. Sans quoi il aurait manqué à cette Reconnaissance au Maroc un pan caché de sa personnalité. Du côté du réel, le Rabbin Mardochée masque le voyageur de Foucauld. Du côté du récit, l'ethnographe de Foucauld escamote le Rabin.

Indifférence, sentiment de supériorité? La passion de soi fait passer à côté de l'autre et empêche la rencontre.(Duclercq: 2013, 103)

En revenant sur ce silence de l'explorateur, René Bazin explique que «Si la *Reconnaissance au Maroc* est presque muette sur le compte de Mardochée, les lettres intimes écrites par l'explorateur ne le sont pas» (Bazin: 1921, 44 ) il précise que celles-ci: «parlent du rabbin sans grand ménagement». (Ibid)

Le mystère d'un tel traitement, demeure irrésolu d'autant plus que Mardochée n'a jamais eu l'occasion de répondre à son accusateur, encore moins la possibilité de se défendre ou de représenter sa propre version des faits. De ce fait, vouloir débusquer le pourquoi d'une telle occultation, chercher à expliciter ce qui pourrait justifier que le guide juif n'a pas eu voix au chapitre, devient le nœud gordien que le roman de Mustapha Kébir Ammi va tenter de trancher, l'énigme que le récit du personnage va essayer d'éclairer. À travers cette mise en fiction, l'auteur livre ici une réinterprétation de l'expérience de domination en lien avec la représentation et nous convie à voir à travers la figure *Mardochée* comment «l'indigène autrefois muet prend la parole et agit sur un territoire repris à l'empire» (Saïd: 2000, 71- 72).

## **2- Mardochée contre-attaque par l'écriture**

### **2-1- Une confession qui dévoile**

Dans ce roman écrit à la première personne du singulier, Kébir-Mustapha Ammi donne la voix à Mardochée Aby Serour, resté muet et privé du droit à la parole. Il fait ici un retour sur sa fameuse expédition aux côtés de Charles de Foucauld et transcrit sa propre version de son déroulement. Par cet écrit, il va

Selon René Bazin «*La Reconnaissance au Maroc* est, avant tout, une œuvre scientifique, à la fois géographique, militaire et politique. » (Bazin: 1921, 45) Par les informations qu'elle présente, relatives aussi bien à l'économie qu'au pouvoir militaire, au territoire qu'aux populations, aux mœurs qu'aux pratiques culturelles et culturelles, aux conduites sociales qu'aux agissements politiques, aux alliances qu'aux mésalliances tribales, aux rapports interethniques et interconfessionnels, *Reconnaissance au Maroc* facilite le déchiffrement du Maroc de l'époque, un territoire en pleine ébullition et de surcroît rétif à toute présence étrangère. «C'est une sorte de guide que les chefs des troupes françaises opérant au Maroc consulteront encore longtemps » (Duclercq: 2013, 99).

À l'issue de son exploration, Charles de Foucauld connaîtra un grand succès, une médaille d'or lui sera décernée, à ce titre, par la société des Géographes de Paris, permettant ainsi, à sa renommée de grand explorateur, de prendre son plein essor. Cependant au regard de ce triomphe, le sort réservé à son guide, Mordekhâï Aby Serour, sans qui cette aventure n'aurait probablement pas eu lieu, reste inexplicable. À l'exception de quelques évocations rudimentaires, celui-ci sera couvert d'un voile opaque lorsque sa réputation ne sera pas ternie.

On s'étonne encore davantage lorsqu'on consulte les rapports le concernant, antérieurs à cette expérience, ils ne tarissent pas d'éloges. À l'instar de cette lettre datée de 1870, c'est-à-dire treize ans avant le voyage de Charles de Foucauld, adressée à *la Société de Géographe* de la part de Auguste Beaumier Consul de France à Mogador où on peut lire :

Je vous envoie le portrait-carte de mon héros Mardochée, en costume de Timbouktou, et dans son costume de juif marocain. C'est un gaillard solide, très dévoué à ses amis, mais peu commode pour ses adversaires et qui m'a paru doué par-dessus tout, d'un intrépide mépris de la vie [...] Décidément, Mardochée est bien ce que je vous ai dit, un correspondant actif et dévoué, un hôte sur et un excellent guide pour le Sahara et le Soudan ( Beaumier: 1870).

À l'inverse du dithyrambe qu'il réserve à Charles de Foucauld, le rapport de Henri Duveyrier ne soulève à propos du guide Mardochée que les aspects négatifs. En insistant sur la rapacité et le caractère désagréable du personnage, il confère à Charles de Foucauld des qualités supplémentaires du simple fait qu'il a pu supporter et gérer un personnage de cet acabit. On peut lire:

Ajoutons tout de suite que le rabbin Mardokhaï Abi Souroûr, celui-là même dont vous connaissez déjà l'histoire et les travaux, a été le compagnon constant du vicomte de Foucauld. Cette association, qui dans l'espèce était un passe-partout nécessaire, a coûté à l'explorateur bien autre chose que les 270 francs de gages mensuels convenus ; les défauts de caractère prennent des proportions inouïes quand on se trouve dans l'isolement, et vous permettrez à votre rapporteur de déclarer, à la louange de M. de Foucauld, expérience faite en Seine-et-Oise, que le rabbin Mardochée n'est pas toujours un auxiliaire agréable et commode. (Duveyrier, 8).

rétablir sa réputation, mais il va dévoiler certaines vérités, demeurées, cachées dans le récit foucauldien.

Son projet s'annonce dès lors comme une entreprise imitative de *Reconnaissance au Maroc* (de Foucauld 1888). Le périple foucauldien est retracé presque à l'identique, mais à travers le regard du compagnon de voyage. Un regard critique et sans concession sur les événements relatés, combien même nuisent-ils à la réputation du sujet écrivain. Car contrairement à Charles de Foucauld, qui excelle dans l'art de tromper, en ne restituant que ce qui pourrait le glorifier, Mardochée, en revanche, décide d'avouer la vérité, quel que soit son prix.

Notre propos se propose de lever le masque des différentes impostures qui agencent le récit de Charles de Foucauld et examiner de près comment Kébir Mustapha Ammi en réhabilitant la voix de Mardochée propose une relecture de l'histoire. Notre démarche s'inspire des études postcoloniales et tente de saisir toutes les implications poétiques, éthiques et politiques du dévoilement que propose le récit de Mardochée.

### **1-Sur les pas de Charles de Foucauld**

Dans son rapport adressé à la société de Géographe de Paris, sur le voyage de Charles de Foucauld au Maroc, Henri Duveyrier relève le caractère exceptionnel de l'exploration entreprise par le vicomte. C'est avec les mots suivants que celui-ci commence son rapport: «Il est un état, limitrophe d'un département français, où le voyageur européen en général, et le voyageur français en particulier, n'a jamais été très bien vu. Cet état est le Maroc» (Duveyrier: 1885, 7) Charles de Foucauld s'aventure donc dans un territoire hostile à la présence européenne, surtout si celle-ci est française. Mais au-delà des risques que cette aventure semble avoir bravé, ce qui attire l'attention c'est que:

En onze mois, du 20 juin [1883] au 23 mai 1884, un seul homme, M. le vicomte de Foucauld, a doublé pour le moins la longueur des itinéraires soigneusement levés au Maroc. Il a repris, en le perfectionnant, 689 kilomètres des travaux de ses devanciers, et il y a ajouté 2230 kilomètres nouveaux. (Ibid)

Les travaux de Charles de Foucauld ouvrent une nouvelle perspective dans les études qui se consacrent au Maroc et à l'arpentage de son territoire, les renseignements inédits, riches et précis qu'ils fournissent «renouvellent littéralement la connaissance géographique et politique presque tout entière du Maroc.» (Ibid) Grâce à son ouvrage, la puissance coloniale, impatiente d'avoir la main mise sur le royaume chérifien, acquiert un avantage stratégique de taille. C'est «une ère nouvelle qui s'ouvre, [...] dans la connaissance géographique du Maroc, et on ne sait ce qu'il faut le plus admirer, ou de ces résultats si beaux et si utiles, ou du dévouement, du courage et de l'abnégation ascétique grâce auxquels ce jeune officier français les a obtenus » (Ibid) souligne Henri Duveyrier.

### **Abstract:**

*Charles de Foucault remains probably one of the most famous explorers who travelled through pre-colonial Morocco. His achievement continues to be considered today as a milestone in colonial historiography. However, surprisingly enough, the success and fame of this explorer considerably hides the essential role and the fundamental contribution of his travelling companion Mardochee AbySerour. This article examines, through Mustapha Kébir Ammi's novel "Mardochee", the guide's position regarding the mission in which he undertook together with Charles de Foucault, alias Youssef Aleman.*

*In "Mardochee" (2011), Kébir-Mustapha Ammi gives voice to the eponymous character who remained silent and deprived of the right to speak. The author revisits Mardochee's famous expedition alongside Charles de Foucault, and transcribes his own version of its unfolding. In his work, Mustapha Ammi will not only seek to restore Mardochee's reputation, but also he will reveal certain truths that have remained hidden in the history of Charles de Foucault.*

*It should be noted, However, that the events of the journey are narrated almost identically, but through the eyes of the traveling companion, and with a critical gaze to the narrated events, even if this affects the reputation of the author. Because, unlike Charles de Foucault, who excels in trickery while recovering only what he could glorify, Mardochee, on the other hand, decides to tell the truth at any cost.*

**Keywords :** *Mardochee, Charles de Foucault, mask, imposture, investigation, conquest.*

De tous les explorateurs qui ont arpenté le Maroc précolonial, le nom de Charles de Foucault est probablement l'un des plus retentissants. Son exploit continue aujourd'hui encore à passer pour une référence incontournable dans l'historiographie coloniale. Son livre *Reconnaissance au Maroc* est l'œuvre d'un lauréat de la prestigieuse école militaire de Saint- Cyrqui cherchait ardemment à servir son pays. Ils 'y mêlent, au point de se confondre, quête spirituelle, enquête ethnographique et conquête militaire.

Le futur ermite ne manque pas de laisser transparaître son désir de livrer à Jésus et à la France le royaume chérifien, territoire de toutes les convoitises. Son expédition, résolument exceptionnelle, compte tenu des risques qu'elle a pu braver, doit beaucoup à l'aide du guide Mardochee. Il est non seulement à l'origine du déguisement qui a permis au jeune vicomte de contourner tous les soupçons en passant pour un israélite, mais grâce à sa connaissance et sa ruse, cette mission a pu se dérouler en toute sécurité. Ce rôle décisif qu'occupe Mardochee, le récit foucauldien l'occulte. Le guide sera tenu aux yeux des siens pour un traître qui a ouvert la porte du royaume aux puissances étrangères.

Dans *Mardochee*, (Ammi 2011), Kébir-Mustapha Ammi donne la voix au personnage éponyme, resté muet et privé du droit à la parole, il fait ici un retour sur sa fameuse expédition aux côtés de Charles de Foucault et transcrit sa propre version de son déroulement. Par cet écrit, il va chercher non seulement à

## Démasquage de l'imposture coloniale où quand Mardochee contre-attaque par l'écriture le récit de Charles de Foucauld

Ahmed Aziz Houdzi<sup>1</sup>

ملخص:

يعد شارل دو فوكو من أشهر المستكشفين الذين جابوا أرض المغرب قبل الاستعمار، إذ ما يزال يُنظر إلى إنجازته التعرف على المغرب (1883-1884) كمرجع أساسي في التأريخ الاستعماري. إلا أن النجاح والشهرة اللذين حظي بهما هذا الكاتب المستكشف يخفيان، بشكل يثير الاستغراب، الدور الأساسي والمساهمة الكبيرة لرفيقه في السفر "مردوشي أبي السرور".

تتناول هذه المقالة، من خلال رواية مردوشي لكاتبها "مصطفى كبير عمي"، موقف المرشد من المهمة التي شارك فيها إلى جانب "شارل دي فوكو"، الملقب "بيوسف علمان". حيث يعطي "مصطفى كبير عمي" الحق في الكلام لهاته الشخصية، بعدما حرمها منها التاريخ. ليعود مردوشي ويسلط الضوء على رحلته الشهيرة، إلى جانب "شارل دي فوكو" ويعيد كتابة أطوارها، ليس سعياً وراء استعادة سمعته فقط وإنما رغبة في الكشف عن حقائق ظلت خفية في تاريخ دي فوكو. حري بالذكر أن أحداث الرحلة تسرد بشكل متطابق تقريباً، ولكن من خلال عيون رفيق السفر، وبمنظرة نقدية ثابتة للأحداث المسرودة، ولو مست بسمعة كاتبها. لأنه وعلى عكس "شارل دي فوكو"، الذي يتفوق في فن الخداع، واستعادة ما يمكن أن يمجده فقط، يقرر "مردوشي" الاعتراف بالحقيقة مهما كان الثمن.

الكلمات المفتاحية: مردوشي، شارل دو فوكو، قناع، خداع، تحقيق، غزو.

1 - Ahmed Aziz Houdzi professeur de langue et littérature françaises au secondaire et doctorant à l'Université Chouaib Doukkali d'El Jadida (Maroc). Ses recherches portent principalement sur l'hybridation culturelle et axiologique dans le roman marocain francophone contemporain.





#### 4- Conclusión

Siempre que se porta un disfraz se es otro. Las “mascaras” narrativas de Patroni confieren una dimensión de cientificidad a su viaje por Marruecos, buscando un conocimiento verosímil, que deconstruye la larga tradición orientalista responsable de un distorsionado conocimiento de nuestra realidad. Pero su labor queda atrapada por el espectro de la representación orientalista basada en un complejo sistema de clisés, tópicos y estereotipos, cuya mayoría numérica hace de ellos los sostenes de su auténtica representación. Patroni, por lo tanto, es un autor que continúa, a su modo, aquella tradición de autores disfrazados que llegan a las tierras marruecas encubriendo su identidad real.

#### Bibliografía

- Bhabha, H. K. *El lugar de la cultura*, (C. Aíra, Trad.) Argentina, Manantial, Buenos Aires, 2007.

- Caramés Lage, J. L., García Martínez, I., Escobedo de Tapia, C., Bueno Alonso, J. L., Taboada Ferrero, C., & Herminio, J. G.-R. *Literatura post-colonial en inglés: India, África y Caribe: teoría y práctica*. España, Publicaciones de la Universidad de Oviedo, Oviedo, 1997.

- Darío, R. *Tierras Solares*, España, Leonardo Williams Editor, Madrid, 1904.

- Dolgopol, D. G., La Década Infame en la Argentina: 1930-1943. *Revista de Claseshistoria*, 7(1). Recuperado el 12 diciembre de 2019, de <https://dialnet.unirioja.es/descarga/articulo/5171591.pdf>, 2012

- Foucault, M. *Microfísica del poder*, (2ª. ed.). (J. Varela, & F. Álvarez-Uría, Trads.), España: La Piqueta, Madrid, 1980.

- González Alcantud, J. A., (ed.), *El orientalismo desde el Sur*, España, Anthropos, Barcelona, 2006.

- Jauss, H. R., *La historia de la literatura como provocación*, España, Gredos, Madrid, 2013.

- Maupassant, G. D. *La madre de los monstruos y otros cuentos de locura y muerte*, España, Valdemar, Madrid, 2001.

- Montenegro, S. Prólogo, En A. Patroni, *De la Argentina a Marruecos: amplio recorrido por las zonas del protectorado de España y Francia*, (pp. 9-17), Argentina, UNR Editora & IEHL, Rosario, 2016.

- Patroni, A., *De la Argentina a Marruecos: amplio recorrido por las zonas del protectorado de España y Francia*. Argentina, UNR Editora & IEHL, Rosario, 2016.

- Said, E. W., *Orientalismo* (2ª. ed.), (M. L. Fernández, Trad.), España, Debolsillo, Barcelona, 2008.

- Todorov, T., *Nosotros y los otros: reflexión sobre la diversidad humana*, (M. M. Ubasart, Trad.), México, Siglo XXI, México, 1991.

es menos femenina, porque en su afán de querer mostrarnos todo, olvida lo que al hombre más le atrae, es precisamente lo que la morisca oculta” (p.73.)

La mujer, en este orden de ideas, se convierte en la piedra angular que representa toda su cultura, que ha podido conservar su originalidad, diferente a una sociedad occidental degenerada y que ha perdido su esencia. He aquí una de las importantes conclusiones del canon exótico: Oriente es una copia en tiempos modernos de lo que fue Occidente, y volver a él es de cierta manera una vuelta a aquellos valores que se han perdido en las sociedades actuales modernas, laicas y materialistas.

En síntesis, el modo de representación de la mujer marroquí, la caracterización de nuestro acervo cultural y nuestro entorno natural, son algunos aspectos que demuestran que el discurso del autor argentino se ahonda en el amplio repertorio de la visión exótica del paradigma clásico del orientalismo y hacen de él “un orientalista total”. A estas alturas una pregunta clave se impone: ¿Cómo se explica la aparente paradoja en el discurso del autor argentino?

Para González Alcántud (2006) el orientalismo en general es un discurso “más rizomático que arbóreo” (p.18.), en el sentido de que es de orden complejo, ambiguo y muchas veces antitético. Patroni en este sentido es un reflejo fiel y una “parte rizomática de la esquizofrenia (colonialista)” (p.18.) y su manifestación discursiva. El periodista argentino, aunque pertenece a una cultura que no mantenía vínculos directos con los ideales colonialistas europeos que se fijaban en la mirada en las tierras orientales, forma parte de una cultura y una macroestructura llamada el orientalismo. En esta matriz, muchas de las propiedades del paradigma euroamericano han emigrado con el bagaje que el continente latinoamericano había absorbido de su modelo progenitor. Sin el trasfondo colonialista directo característico de éste, el paradigma hispanoamericano, por las conocidas circunstancias epistémico-culturales, participa en la configuración de la naturaleza compleja del conjunto del sistema orientalista y en el arraigo de sus modos de representación de su alteridad.

Y precisamente uno de los modos típicos del modelo clásico es la dualidad presente en el trabajo del escritor argentino, que Bhabha (2007), inspirándose en las nociones freudianas, llama “ambivalencia”. Para el intelectual indio el discurso colonial sobre el nativo colonizado –oriental en el caso de Patroni– es de naturaleza antitética, oscilando entre el deseo y el desprecio. Esta dualidad se traduce en el caso del autor argentino en un proceso simultáneo de negación y de identificación con el otro. La consigna de la primera vertiente es un discurso consciente y disciplinado y la segunda otro fantasmagórico inconsciente que vehicula un abanico de imágenes y representaciones relevantes, muchas veces, del mundo de la imaginación y del inconsciente colectivo occidental. Podemos decir en conclusión que las primeras son, como dice la formulación del título, “mascaras traslucidas” que, al encubrir las segundas, las dejan ver, y las ponen de manifiesto porque son las “caras elocuentes” del discurso del autor argentino; su auténtica representación de nuestra realidad.

indiferente, abstraído, fumando tranquilamente en su larga pipa, aspirando rapé que coloca en pequeña cantidad en el dorso de su mano.[...] Grupos de mujeres sentadas en cuclillas, recostadas a las paredes, frente a las enormes pilas de pan casero. Envueltas, como todas las de su sexo en sus mantos que fueron blancos. Otros mil detalles pintorescos despiertan la atención del extranjero.” (p.69-70.).

Se multiplican y se suceden los espectáculos que refuerzan la sensación de un Marruecos cromático: la teatralidad del *halqa* (p.155. y p.199.), las rítmicas actuaciones musicales que acompañan los cortejos nupciales (p.99.) y las cofradías en los santuarios (p.130.) todos se presentan en el mismo molde. Su esencia se resume en su dimensión exótica.

Una situación parecida se observa en los modos de representación del hombre marroquí que adquiere también una funcionalidad de estética visual. Como toda la tradición orientalista, la figura femenina en este caso se convierte en un momento clave de la representación de Marruecos. Podemos decir que DLaM es una prolongación del amplio repertorio de aquellas imágenes que asocian la femineidad con el mundo de la voluptuosidad. El discurso canónico del orientalismo observaba a las féminas desde el estrecho ángulo sexual: son representadas con las típicas odaliscas, esclavas heroínas del típico mundo del harem. El periodista argentino, de igual modo, deja entrever tal concepción, ya que para él la mujer marroquí encarna la noción del amor fácil y su existencia se reduce a la satisfacción sexual de un hombre occidental que busca aventuras al puro estilo decimonónico:

“Entre otros pasajeros, que subieron después, [...] nos llamó poderosamente la atención una mujer que, empaquetada de pies a cabeza, con el tradicional jaique blanco, cubriendo sus facciones, dejando ver únicamente sus ojos, por cierto, de ardiente mirada [...]. La pudimos observar minuciosamente, porque se sentó frente a nosotros [...]. Al volver a observarla, no pudimos disimular nuestra sorpresa; había descubierto su rostro, hermoso ciertamente. [...] Como había separado un poco el manto blanco que la cubría, mostró parte de las relucientes prendas, de delicado bordado. [...] Como quiera que estas impresiones las anotamos después de tener un conocimiento mayor del que poseíamos en aquel momento, acerca de las modalidades femeninas, comprendemos la finalidad que aquella hija de Alah (sic).” (p.62.)

Otro de los mitos orientalistas relacionados con la femineidad oriental que encuentran sus ecos en el trabajo del periodista argentino es el que celebra sus encantos físicos, que en muchos casos se reducen a determinados aspectos como lo son sus modos de vestimenta. Un caso elocuente de ello es el especial énfasis que se hace en la descripción del atractivo ocular de la mujer, y sobre todo su velo tradicional que, ocultando sus facciones y la geografía de su cuerpo, la tiñe de un aura de magia, la embellece hasta límites irracionales y la sitúa en posiciones superiores a los modales de las féminas occidentales: “(la mujer marroquí es) Mil veces más interesante que la mujer moderna, pues ésta

“Resultó aquel trecho uno de los más pintorescos [...]. Antes de iniciar el descenso apareció ante nosotros la parte del de Xauen, donde se han levantado las construcciones militares, de estilo marroquí. El escenario es amplio y majestuoso. [...] Allí la carretera toma la forma de una ese. Al final del ensanche tuvimos recién la visión de Xauen. Se presentó casi escondida en la parte alta de aquí las montañas, semejando una fortaleza inexpugnable. [...] Escenario imponente. Las cumbres de las montañas las encontramos cubiertas de nieve, la primera que habíamos visto hasta entonces. La primera sensación fue una mezcla de asombro y de misterio. Confesamos que jamás habíamos visto nada tan extraño que aquel imponente espectáculo que nos deparó Xauen.” (p.112.).

Antes de concluir que para los que “va(n) en pos de un viaje pintoresco, Marruecos es, en ese sentido, un escenario insuperado, desde el doble punto de vista de naturaleza y costumbres” (p. 62). Precisamente éstas son también objeto de una presentación idealizada que enfatiza aquellos “espectáculos” habituales que llaman la atención de la mayoría de los cronistas que llegan a nuestro país. Son elementos del acervo cultural ancestral marroquí, pero que una vez integrados en el sistema representativo orientalista adquieren una función estética, en el sentido que se convierten en meros tópicos para resaltar el cromatismo exótico. Son aspectos casi obligatorios que cualquier cronista o viajero “debería” reflejar siguiendo parámetros determinados. Patroni en esta línea de ideas actualiza a su modo estos “espectáculos” dando la imagen de un Marruecos atemporal, sumergido en una vida medieval y “miliunochesca”. Son característicos de esta visión el énfasis en la diversidad de colores étnicos en los zocos, el mundo maravilloso de la *ħalqa*, lo pintoresco de los rituales religiosos, y los antiguos modos de organización sociopolítica. Un ejemplo del cautivo que ejercen tales espectáculos–clisés en el ánimo del autor su representación del mercado callejero del casco histórico de la ciudad de Tetuán:

“Desde la Plaza España nos dirigimos a la calle del Comercio, otra de las notas típicas de Tetuán, pues en un trayecto no mayor de 400 metros, funcionan centenares de pequeños comercios, única arteria donde conviven en perfecta armonía, negociantes europeos, judíos y musulmanes. Es de imaginar lo reducido de los mencionados locales, por más que resultan amplios en relación a los de la morería.” (p.69.)

La representación fílmica de la realidad hace de la escritura un ejercicio mimético que abunda en el realismo captando los colores que confirman a Marruecos como un, parafraseando una expresión del nicaragüense Darío (1904), un museo natural de etnias:

“La atención del turista es asediada por un sinnúmero de detalles. Los vistosos uniformes de los policías indígenas, la variedad de vestimentas en los moros; el contraste en aquella calle de acceso a los barrios musulmanes; el hebreo siempre atento y solícito al cliente que se acerca, extrema su amabilidad; mientras observa al moro, tendido o sentado en su tenducha [...] silencioso,

Tal intención tomó forma definitiva después de ver una película propagandista de las autoridades coloniales francesas estrenada en la capital argentina para mostrar los progresos alcanzados en el Marruecos colonial:

“Una de las películas que más vivamente despertó nuestra curiosidad, fue *Los halcones del desierto* (sic), film preparado por el Gobierno francés y dedicado a poner de realce los progresos alcanzados en la zona del protectorado en Marruecos. Harto raro parecerá que un film de esta naturaleza interese al público. Empero, confesamos con sinceridad que nos cautivó.” (p.22.)

Esta atracción inicial condicionó su viaje por Marruecos especialmente para visitar aquellas explotaciones agrarias de los colonos. Y también para conocer de cerca un modelo por donde las políticas agropecuarias argentinas tendrían que mirar: “Al abandonar el cine, se arraigó tan definitivamente el propósito de llevar a cabo el viaje a Marruecos, que al día siguiente, después de informados del medio más económico, optamos por tomar pasaje en el primer vapor de clase única que partía para Cádiz” (p.24.). De modo que las dos circunstancias confirman que su, empleando una expresión de Jauss (2013), “horizonte de expectativas” viene marcado por una serie de imágenes, y lugares comunes que entretejen el discurso orientalista. El viaje a Marruecos para él es sobre todo, como lo apunta el título del primer capítulo, experiencia fantástica e imaginaria, y el resultado de los “Deseos de conocer Marruecos” (p.21.).

Esta realidad se traduce a nivel textual en la abundancia de las imágenes y tópicos propios a la tradición literaria orientalista. Patroni en su representación de aspectos como el medio natural, el acervo cultural y el propio hombre marroquí deja ver una red importante de clisés. El primero de los tres, evidentemente el más abundante, pinta el cuadro de un Marruecos idealizado que llega a los límites de la sublimación. Los ecos colonialistas en su discurso son palpables a la hora de describir el suelo marroquí rico en potenciales y descuidado a causa de los arcaicos modos de explotación indígena. Tal actitud la puede ejemplificar el siguiente pasaje donde el autor se deshace en elogios del territorio marroquí:

“Habríamos visto, también, algunas huertas, tierras roturadas, y diversas notas de color indígena. Empero, al desarrollar el plan de viaje que trae [...] le sobrará tiempo para admirar múltiples escenas camperas que llamaron poderosamente su atención. [...] Encontrará paisajes de montaña, de llanuras ligeramente onduladas, hermosas colinas verdeantes e inmensas llanuras, muchas de ellas entregadas a explotaciones agrícolas-ganaderas, donde la colonización es abundante; en tal forma que los caseríos se encuentran cercanos los unos a los otros. Atravesar frondosos bosques. Para que nada falte al cuadro marroquí, siempre desde el punto de vista de Naturaleza (sic), quedará sorprendido en recorridos durante horas enteras por campos totalmente desiertos, especialmente en regiones en que no hay vestigio de vida.” (p.61–62.)

Las riquezas naturales, en muchos contextos adquieren tonos “pintorescos” que agradan la vista del autor. El medio natural es en este caso el soporte donde el socialista argentino proyecta su fascinación:

de escribir una crónica de orden científico que ahonde en el análisis y estudio positivista de nuestra realidad. El socialista porteño se ha diluido en la alquimia atractiva de Oriente que tanto ha fascinado a otros viajeros llevando su relato por senderos inesperados: es, empleando su metáfora, una realidad que “hiere los ojos” (p.68.).

Las manifestaciones que hacen de su discurso una muestra concreta del sentido completo del orientalismo son múltiples. En su mayoría son imágenes representativas de la visión exótica, que según Todorov (1991) es:

“un relativismo, tanto como lo es el nacionalismo, pero de manera simétricamente opuesta: en ambos casos, lo que se valora no es un contenido estable, sino un país y una cultura definidos exclusivamente merced a la relación que guardan con el observador. Es el país al que pertenezco, el que posee los valores más altos, cualesquiera que éstos sean, afirma el nacionalista; no, lo posee un país cuya única característica pertinente es que no sea el mío, dirá aquel que profese el exotismo. Se trata, pues, en ambos casos, de un relativismo que en el último instante ha quedado atrapado por un juicio de valor (nosotros somos mejores que los otros; los otros son mejores que nosotros), pero en el que la definición de las entidades que se comparan, “nosotros” y “los otros”, permanece puramente relativa.” (p. 305.)

En el plano literario este relativismo adquiere la forma de una serie de imágenes y lugares comunes que la mayoría de los autores y escritores van vehiculando en sus escritos sobre las alteridades y las otras culturas que toman como meta escritural. En el caso concreto de Patroni el cuerpo de estas imágenes lo constituye una, prestando una expresión saidiana, “biblioteca de ideas” que le sirve para caracterizar la realidad marroquí y supeditan su trabajo a la escritura canónica exótica. El repórter argentino prolonga de este modo el interés por un Oriente fantástico, idealizado; en definitiva, “miliunochesco” que fascina el espíritu de cualquier escritor. Patroni, cierto como lo reconoce Montenegro (2016), no es un lector ávido de la literatura orientalista decimonona y modernista, pero su llegada a Marruecos viene motivada por los mismos móviles que determinan el discurso exótico: búsqueda de un mundo imaginario lleno de cuadros y de espectáculos que corresponden más a la fantasía occidental que a la realidad oriental. El autor argentino reconoce que la idea de visitar Marruecos surgió paulatinamente, gracias primero a su familiarización con una serie de chispas artísticas orientalistas en una exposición arquitectónica en suelo español. Luego, la visita de las ciudades del sur español alimentó la idea de viajar a Marruecos:

“fue tanta la inspiración que nos causó la arquitectura morisca –sobre todo en Granada, Sevilla y Córdoba [...]— que despertó en nuestro espíritu, siempre ávido de emociones plásticas, el más vivo deseo de ambular algún día por Marruecos, convencidos de que si los que durante su dominio en el Sur (sic) de España habían dejado esas maravillas, con más razón deberán poseerlas en su país en número y belleza.” (p.21.)

“Volvieron los músicos a tañer sus instrumentos y al unísono corearon otra canción, entonada a maravillas. [...] Aquellos acordes, profundamente melancólico, fuéronse (sic) adentrando en nuestra alma, dulce y lentamente; cual sacro cántico monacal, cual mística plegaria exaltaba nuestro espíritu, embargado por la emoción”. (p.142.)

Probablemente la causa de la infiltración “casi mística” de la música andalusí en el alma del autor argentino se debe a su predisposición de identificarse con aquellos elementos que más relación guardan con su propia idiosincrasia. El periodista argentino se engancha a la casida y a la actuación de este grupo improvisado de músicos gracias a las vinculaciones de este género musical con el legado andalusí que la cultura americana había heredado del mundo ibérico:

“Una noche en que nos encaminábamos hacia el Zoco Chico, y a la sazón o pensando en lo que con relación con la música morisca nos había sugerido el maestro Bustelo, en Tetuán. [...] Nos había asegurado que la música morisca conserva afín reminiscencias de la de Andalucía, por más que resulta tímica, originalísima, producto del temperamento y que posee modulaciones muy interesantes, que sólo son capaces de advertir oídos muy educados.” (p.139.)

En síntesis, gracias a todos estos recursos–disfraces, Patroni logra pintar la apariencia de un discurso antiorientalista que subvierte las normas del canon eurocéntrico. Con su énfasis en la científicidad de su aproximación, diferente de los postulados exóticos de otros viajeros –europeos en su mayoría– y la homogeneización de lo propio argentino y lo otro marroquí, el autor rioplatense se puede considerar como un escritor antiorientalista. No obstante, en el mismo discurso, como veremos en las siguientes páginas, aparecen destellos de la percepción exótica que el autor busca deconstruir. El periodista porteño se sitúa a la altura de aquellos autores, militares y simples viajeros que exploran Marruecos disfrazados de buhoneros, mendigos, o simples musulmanes de otras regiones ocultando su identidad real. Patroni llega a Marruecos con su identidad real como periodista y cronista de un viaje que busca un conocimiento científico de nuestra realidad pero que termina arrasado por la hegemonía y la iluminación de Oriente. Una situación que le encamina a la reproducción de los mismos tópicos orientalista habituales en todas las producciones orientalistas clásicas: Patroni es también un “orientalista total”.

### **3-Adrián Patroni el orientalista total: destellos de cromatismo exótico en De la Argentina a Marruecos**

Junto a estas “máscaras narrativas” que el autor emplea reiteradamente en su trabajo, DIAaM hace uso de un amplio número de imágenes, estereotipos y de lugares comunes característicos de cualquier representación exótica de nuestra realidad. Su importancia numérica y su reiteración desdibujan toda la intención subversiva del autor argentino anunciada desde el principio del viaje. Podríamos decir que la realidad puede más que el deseo; en el sentido de que su llegada y su contacto con el Oriente real ha sorprendido sus planes iniciales

instalaciones de material, con todas las comodidades y en condiciones de afrontar la elevadísima temperatura de los meses de verano, encontramos los implementos más adelantados.” (pp. 177–178.)

El mismo sentimiento de similitud experimenta el autor argentino durante su visita al protectorado francés, donde la sucesión de las explotaciones agrarias organizadas y los modos de operar modernos en el campo marroquí le hacen recordar las prácticas agrícolas de su tierra natal:

“Al salir de nuestro ensimismamiento, experimentamos la sensación que, en vez de ambular por Marruecos, lo hacíamos por la provincia de Buenos Aires, por las líneas del Central Argentino, Pacífico, u Oeste. Es que avanzamos por llanuras que ofrecen la misma configuración. Grandes extensiones destinadas a cultivos de trigo con la peculiaridad que, de desfilas las viviendas precarias de los colonos arrendatarios de la campiña argentina.” (p.190.)

Las analogías entre ambos territorios tocan también las dimensiones psicológicas que el medio natural imprime en el autor. Un ejemplo ilustrador son los sentimientos de desolación y de tortura que experimenta Patroni ante las manifestaciones desérticas con sus vientos fuertes en la región de Marrakech y que le recuerdan la “extraordinaria violencia y persistencia de los vientos huracanados de la Patagonia” (p.196.).

El hombre marroquí y su cultura son otros elementos que el autor asocia con su cultura y su realidad. Esta constatación, Patroni la recoge en el parecido físico de ciertas personas que en ambas culturas llevan el mismo atuendo, con las mismas características físicas –los vendedores de agua (p.136.)– y el atavío de las mujeres nortenas en las calles tangerinas casi idéntico al de las argentinas en algunas provincias del norte (pp.70–71.).

Estos parentescos en los modales de las personas son la cristalización de otros vínculos más sólidos que revelan del mundo de la cultura y el arte que el periodista argentino considera como una manifestación de un cierto tronco común que une indirectamente las dos culturas. Son prácticas heredadas de la época andalusí y tienen que ver, por ejemplo, con las huellas ibéricas en el repertorio musical marroquí. Asistiendo a un espectáculo de música andalusí –*aṭ-ṭarab al-andalusī*– en Tetuán, Patroni descubre tal género musical y lo considera como un elemento artístico que guarda correspondencias con su cultura de origen y sus formas artísticas heredadas del antepasado ibérico. Se refiere aquí a la actuación de un grupo de músicos “indígenas” cantando la canción “Ya asafi” –en árabe, se refiere a la casida *Yā ‘saḥī ‘la mā maḍā* atribuida al poeta granadino Lisān al-Dīn ibn al-Jaṭīb– que cautivó la admiración del autor. A diferencias de varios estilos musicales que el autor argentino ha venido escuchando en los espacios públicos –música gnawi en Marrakech, berberisca en la *ḥalqa* de Tánger y la más típica de los cortejos nupciales– el espectáculo de la música andalusí, y más precisamente esta canción del repertorio għarnāṭī muy difundido en Marruecos ha embrujado sus sentidos:



de una asimilación sistemática de la realidad marroquí y la argentina. Las comparaciones corresponden al afán de referirse a una realidad que el lector argentino desconoce, pero se pueden interpretar también como un intento de homogeneización de la alteridad marroquí y la mismidad argentina. En esta línea los dos países comparten su condición de países subdesarrollados que buscan expectativas para progresar. Su estatuto político es muy diferente: el uno está sumergido en un agudo proceso de colonización que parecía llegar a sus niveles más altos después de la pacificación consumida en los finales de los años veinte, y el otro estaba en pleno proceso de descolonización con contrastes y serios problemas políticos y económicos y un horizonte gris<sup>7</sup>. Un contexto como este favorecía de cierta manera una posible homogeneización del país observado con la realidad argentina del momento. De tal modo DIAaM contribuye a una desalterización del oriental-marroquí y su cultura que paulatinamente empieza a abandonar los marcos exóticos y accede a ser un ser humano sumergido en una situación deplorable, fruto de la explotación y del arcaísmo.

Los niveles de esta homogeneización americano-marroquí son múltiples y se dan casi en todos los aspectos abordados por el socialista argentino. El que predomina más y se da con frecuencia son los parecidos naturales y culturales que unen Argentina y Marruecos. Es también palpable en el modo de caracterización de los marroquíes, sus comportamientos, y su mundo que guarda correspondencia con algunas de las propiedades del hombre americano. Una de las manifestaciones del primero de estos niveles es el símil geográfico del suelo marroquí con el americano. Tanto en la ciudad como en el campo el espacio general marroquí se asemeja al americano. Las calles de Marshan en Tánger, por ejemplo, son idénticas a los modos de organización urbana de la capital porteña, su diseño y su disposición en el espacio se asemejan a la planificación urbana de Buenos Aires: “Del cerro a colina, donde más extendido está Tánger, al enfrentarnos al del Marchan (sic), [...] de igual configuración de las que tanto abundan en la provincia de Buenos Aires, de la Línea de Constitución a La Plata” (p.161.).

Los parecidos del medio natural se dejan sentir más en el campo marroquí donde los sistemas de explotación del campo, la organización de la actividad agraria y el modo de operar de los colonos españoles en Larache, *verbi gracia*, son parecidos a lo que se observa en las campañas argentinas:

“Con uno de los agrónomos de esa empresa (Luccus) visitamos parte de las explotaciones agrícolas, [...] Durante ese recorrido, creemos encontramos en un gran establecimiento agrícola-ganadero de la Argentina. Además de amplísimas

---

7 - Argentina en la época de la llegada de Patroni a Marruecos atravesaba un proceso de continuas crisis que afectaban varios niveles del sistema social y económico. La manifestación de tal situación es, además de la famosa crisis económica de 1929 y sus prolongadas sombras en los países subdesarrollados, la inestabilidad política y económica conocida en la historia argentina como la “Década Infame” (1930–1943) caracterizada, entre otras cosas, por el retroceso de la actividad agropecuaria que se considera uno de los pilares de la economía del país (Dolgopol, 2012).

agrarias del valle de “Luccus” (p.179.), los modelos más eficaces de irrigación en las fincas de colonos franceses (p.249.), los métodos usados y que deberían ser aprovechados para la producción pecuaria argentina (p.251.), etc.

Patroni emplea el arte de la objetividad periodística para llevar a buen término su empresa de “desentrañar la realidad marroquí”. Pero también esta objetividad fue uno de los primeros recursos subversivos que el autor emplea para invertir el orden estático del discurso orientalista. Las implicaciones subjetivas en la estética orientalista ceden lugar a una reproducción casi fiel de nuestra realidad. El tono general, por lo tanto, se asemeja más a un tratado descriptivo que a una crónica de impresiones de viaje. En esta composición la alteridad marroquí parece dejar de ser la encarnación de lo exótico, pintoresco e inusual, para acercarse a una representación afín a la mismidad argentina. De hecho, la importancia de la descripción científica radica en su afán de reproducir una imagen más consideradora de este oriental o marroquí que abandona parcialmente los registros estéticos de un Marruecos exótico para convertirse en un campo de comprobación de teorías, de estudio y, en definitiva, de cotejo de modos y sistemas económicos y sociales. En última instancia este procedimiento contribuye a una “desalterización” de la otredad oriental, y su homogeneización con la mismidad argentina.

En efecto, tal “desalterización” se puede considerar como otro de los “disfraces” presentes en la dialéctica subversiva del discurso del autor latinoamericano. Con tal expresión nos referimos al constante modo de representación de la alteridad marroquí en términos de familiaridad que la acercan a los propios límites ontológicos de la mismidad del autor: es decir, en DIAaM asistimos a una constante homogeneización de lo oriental–marroquí y lo americano–argentino, perceptible primero en la elección intencionada del Marruecos colonial como horizonte de reflexión para la comprobación de las prácticas modélicas de la producción agropecuaria que Argentina debería tomar como ejemplo. Es sabido que, por varias razones histórico–económicas, el modelo a imitar hasta la mitad del pasado siglo era el continente europeo –y el americano a partir de la segunda mitad del XX–. Pero en el caso particular de Patroni, este modelo lo había que buscar en un contexto geográfico, cultural y político parecido a la situación de la argentina posterior a la crisis mundial de 1929. Su llegada a Marruecos, un país sumergido en un sistema de tutela económica y política, pero con una situación ambiental y una diversidad natural parecidas a la de Argentina va en este sentido. De allí la intención de documentar las “buenas prácticas” que Argentina debería aplicar para conseguir su despegue económico.

Como consecuencia, y si exceptuamos los pasajes donde el autor argentino critica los modos de explotación casi primitivos de la población indígena, los demás aspectos de la realidad marroquí se convierten en motivo de elogio, y de reconocimiento de la labor de inversión que están llevando las autoridades del protectorado tanto español como francés. Los elogios adquieren la forma

“interesa más observar a los espectadores, viéndole (sic) cómo escuchan, con una atención casi religiosa al narrador. No se les mueve un solo músculo de sus caras. Con los ojos fijos en quien le dirige la palabra. Como si esas leyendas constituyeran verdaderas revelaciones. [...] Algunos son cuentos picarescos. Entonces los ojos centellean de placer. Se dibujan en sus labios un rictus de satisfacción sensual.” (p.155.)

En la muestra que acabamos de citar es fácil advertir el predominio de una serie de propiedades estilísticas y lingüísticas que dotan el texto de efecto realista y neutral: predominio de lo visual expresado en forma de frases cortas, eclipse de la interpretación y predominio de la reproducción verosímil. El narrador adopta una actitud estática frente a un mundo en bullicio: se desplaza mediante la mirada, reflejando fílmicamente los episodios del espectáculo. Abundan las pinceladas del realismo mediante el movimiento de vaivén desde el “romancero” al coro de espectadores, con una discriminatoria concentración en el público.

Se refuerza la sensación objetiva en el discurso del autor argentino, también mediante la proliferación del uso de una serie de datos, cifras y estadísticas que asemejan su trabajo a un informe científico: el mostrador de la tienda del moro “tiene de 50 a 70 centímetros” (p.70.), la ciudad de Safi tiene “26.914 habitantes [...], 21.317 de ellos musulmanes” (p.168.), la superficie destinada a la producción de cereales es de “tres millones y medio de hectáreas” (p.169.), en 1929 se recogieron “8.644.842 quintales de trigo, cerca de un millón y medio de quintales de maíz” (p. 257.). La superficie cultivada es distribuida entre colonos franceses con “610 105.328 hectáreas” y “1.017.009 hectáreas, mal cultivadas, en manos indígenas” (p. 252.). El tono del texto se convierte abiertamente en muchas partes en un trabajo técnico con detalles harto específicos<sup>6</sup>.

En otros pasajes el autor argentino abunda en comentarios tecnicistas, mostrando sus conocimientos específicos relacionados con el mundo agrario: los sistemas de plantación, la composición orgánica del suelo en las explotaciones

---

6 - Para ejemplificar tal tono citaremos las palabras del autor argentino hablando de la producción pecuaria en las zonas controladas por las autoridades francesas: “La exportación de animales en pie ha comenzado en 1924. Se embarcaron más de 30.000 y si bien la cifra no fue igual en los últimos años, la superaría bien pronto, como consecuencia del cruce que se está efectuando. Es un detalle que debe interesar en la Argentina, como país exportador de carne en gran escala. Verdad que está afín (sic) lejos de ser competidor, pero esa parte de Marruecos podrá, dentro de algunos años, proveer a Francia de carne, sin que necesite comprarla fuera de sus colonias. Según las últimas estadísticas correspondientes a los años 1926-1927, los bovinos censados alcanzaron a 1.808.000; lanares, 7.591.000; caprinos, 2.662.000; porcino, 47.000; caballares, 264.000; asnales, 505.000 y dromedarios, 111.000. De las cifras mencionadas se desprende que los bovinos o lanares representa un renglón importante en la ganadería marroquí, destinado a tener gran desarrollo, pues esa riqueza está aún en manos de los indígenas, los que no le prestan toda la debida atención. En cuanto a los caprinos, conocida es la reputación que gozan las razas indígenas. En 1927 se exportaron 348.109 bovinos. Las lanas enviadas a Francia en 1927 alcanzaron a 7.787.500 kilos, por valor de 70 millones de francos. (Patroni: 2016, 257)

anotábamos lo que nos parecía que pudiera sernos de interés. [...] El azar, al que siempre le hemos prestado preferente atención, en esas circunstancias nos fué (sic) propicio”. (p. 239.)

Este afán científico le permite adentrarse en las profundidades de la realidad marroquí en el momento de su visita, incluso sus observaciones han ido más allá del estricto marco de lo agropecuario, para abarcar todas las manifestaciones de la realidad marrueca: el hombre y sus tradiciones, las estructuras económicas e industriales indígenas, la situación educativa de los marroquíes, las condiciones laborales y familiares de la mujer y de los niños, contrastes del Marruecos colonial versus indígena, la organización administrativa de los dos protectorados, etc. Una variabilidad temática requiere otra sensitiva, predominando en la mayoría de los casos la adjetivación, y las expresiones con significación visual. Una muestra de la actitud “objetiva” es el modo de representación del Zoco Grande de Tánger:

“Seguíamos calle arriba, ansiosos de llegar al Zoco Grande. Aquél era día de mercado. Reparamos que parte de los comercios de artículos para turistas, tenían sus letreros en idiomas extranjeros, preferentemente en inglés [...]. La noche anterior al regresar al hotel, habíamos presenciado en aquellas calles el desfile de una cofradía musulmana, en la que cada miembro llevaba un hachón encendido. *Anotamos* este hecho, pues dio la coincidencia que aquella mañana pasó por el mismo sitio, un acompañamiento fúnebre judío; los que lo integraban, entonaban los cantos rituales. Esos dos hechos constituyen una demostración del espíritu de tolerancia, una de las grandes conquistas de la civilización.” (p. 153, énfasis mío)

La elección de este fragmento es significativa no solo por el modo con que el autor dibuja el espacio exterior de una manera más “objetiva” y distanciada siguiendo los criterios de la observación imparcial del repórter periodístico, sino por su afán de distanciarse de los llamativos cromáticos y de los contrastes pintorescos. Formalmente tales efectos se logran mediante el empleo de expresiones que denotan la supuesta autoridad testimonial: “reparamos”, “habíamos presenciado”, “anotamos este hecho”, etc. En otras circunstancias la serenidad de la descripción y la fluidez de la observación cobran una dimensión casi fílmica:

“Nos ocuparemos en este caso de los romanceros o narradores de cuentos, que son los que más abundan y los que a la vez rodeados de un auditorio más nutrido. [...] Basta observarlos —aun desconociendo el idioma— para percatarse que son muy hábiles. De ingenio agudo y a la vez psicólogos. De fácil palabra. Para recalcar más cada frase, dan un golpe a un pequeño pandero, que siempre tienen en su mano izquierda.” (p.155.)

Cambiar la focalización de la descripción del cuentero al espectador no altera el orden y la naturaleza de la observación. La constatación ocular sigue siendo el criterio imperante en la representación de la realidad marrueca:

una serie de estrategias que posibilitan, tímidamente, un desligamiento de la matriz eurocéntrica, empleando una serie de estrategias narrativas sintomáticas del cambio en los modos de percepción de la alteridad oriental<sup>5</sup>.

Los niveles de la subversión del discurso orientalista en DIAaM son múltiples. Patroni a diferencia de varios autores occidentales, acude a Oriente-Marruecos buscando una realidad donde puede documentarse, aprender nuevos conocimientos e informarse: “Lo externo está al alcance de todas las miradas” (Patroni: 2016, 251), por eso lo que intenta hacer es “llevar una impresión de conjunto, bastante completa”, “ahondar sus investigaciones” (p. 21.) e ir más allá de la percepción de turistas que buscan en Marruecos cuadros pintorescos de un mundo “miliunochesco”:

“Para los turistas que ambulan arrastrando un tedio considerable, indiferentes a todo lo que desfila ante sus ojos, interesados únicamente en las notas exóticas, no han de prestar mayor atención a estos detalles, no obstante, todo el interés que los mismos ofrecen, para quienes, viajando se instruyen”. (p. 252.)

Y estos “detalles” tienen que ver precisamente, para él, con los experimentos coloniales en el campo agropecuario. Esta finalidad indagatoria le lleva por senderos bastante diferentes para el reflejo de la realidad marroquí. Su trabajo abandona –aunque no siempre tuvo éxito– las vías de la representación pintoresca de la realidad, abogando por un modo que se asemeja al escrutinio científico, donde la subjetividad del observador es supeditada al testimonio del periodista “imparcial” y “objetivo”.

Las fuentes de su representación científica de nuestra realidad son múltiples y variadas, y van desde el testimonio ocular del propio autor, sus intuiciones y su interpretación de los hechos y de la realidad marroquí, al empleo de los estudios y de la documentación oficial que le ayudan a comprender mejor varios aspectos de Marruecos en la época colonial. Son también una fuente de documentación los testimonios ajenos de personas que el azar le ha deparado. Éstos son los mayores en cantidad y generalmente suelen ser marroquíes o extranjeros residentes en nuestro país:

“Mientras demoramos en la zona española anduvimos a la pesca de personas que por sus años de residencia o vinculaciones con los indígenas pudieran asesorarnos ampliamente. [...] En esas entrevistas acribillábamos a preguntas a nuestros entrevistados, pero con la prudencia que las circunstancias aconsejaban. Cuando aquéllas terminaban, volvíamos a nuestra habitación y

5 - La “subversión” viene a significar aquí el intento de invertir tal orden, de contestar las verdades universales del discurso hegemónico orientalista y una continua transgresión de “las normas” impuestas por tal discurso. La “resistencia” se produce cuando el sujeto enunciador orientalista empieza a ser consciente de la falacia de las “verdades” del discurso orientalista y rechaza las premisas de un discurso que más que verdades, vehicula una serie de concepciones producidas dentro de un contexto y un marco cultural, histórico y epistemológico determinado (Caramés Lage, y otros, 1997).

este entramado intertextual cada autor, al mismo tiempo que recibe influencias de otros, ejerce él también de artífice y promulga en otros las mismas consignas. De este modo se perpetúa la cadena de valores y de representaciones que adquieren una fuerza vital casi imposible de romper<sup>3</sup>.

Las señas del canon orientalista para Said (2008) vienen a ser la homogeneización de lo heterogéneo, la fijación atemporal y ahistórica de la realidad oriental y la recreación fantasiosa del mismo, asociándolo con aquellos elementos negados para la mismidad occidental. En su citado trabajo el autor palestino llega a establecer tales criterios, partiendo de lo que él llama “la localización estratégica” y “la formación estratégica” del discurso occidental sobre la alteridad oriental. Con la primera se refiere a la “manera de describir la posición que el autor de un texto adopta con respecto al material oriental sobre el que escribe” (p. 43.) y con la segunda “una forma de analizar la relación entre los textos y el modo en que los grupos, los tipos e incluso los géneros de textos adquieren entidad, densidad y poder referencial entre ellos mismos y, [...] dentro de toda la cultura” (p. 44).<sup>4</sup> La subversión de las dos “estrategias” es precisamente el punto de arranque de cualquier tentativa de desmarque de la aprehensión “dedálica” y “rizomática” del discurso orientalista. Patroni en este caso podría ser un ejemplo de los intentos de desestabilización de la localización y la “formación estratégica” clásicas en los escritos sobre Oriente, de su hegemonía y su poder coercitivo. Desde las márgenes de Occidente, favorecido por el contexto y las características de la coyuntura, este autor ensaya

---

3 - Se parece en este caso el canon orientalista a la noción de “hegemonía del poder” en la filosofía foucaultiana. Para el filósofo francés (1980) “no se trata de concebir al individuo como una especie de núcleo elemental, átomo primitivo, materia múltiple e inerte sobre la que se aplicaría o en contra de la que golpearía el poder. En la práctica, lo que hace que un cuerpo, unos gestos, unos discursos, unos deseos sean identificados y constituidos como individuos, es en sí uno de los primeros efectos del poder, El individuo no es el vis-a-vis del poder; es, pienso, uno de sus primeros efectos. El individuo es un efecto del poder, y al mismo tiempo, o justamente en la medida en que es un efecto, el elemento de conexión. El poder circula a través del individuo que ha constituido” (p. 144. ).

4 - Para Said (2008) ambas “estrategias” remiten al “problema al que todo escritor sobre Oriente tiene que enfrentarse: cómo abarcarlo, cómo aproximarse a él, cómo evitar ser vencido o aplastado por su sublimidad, su extensión y sus terribles dimensiones. Todo el que escribe sobre Oriente debe definir su posición con respecto a él; trasladada al texto, esta posición presupone el tipo de tono narrativo que él adopta, la clase de estructura que construye y el género de imágenes, temas y motivos que utiliza en su texto; a esto se le añaden las maneras deliberadas de dirigirse al lector, de abarcar Oriente y, finalmente, de representarlo o de hablar en su nombre. Sin embargo, nada de esto sucede en la esfera de lo abstracto. Cualquier escritor que trate de Oriente (y esto es válido incluso para Homero) asume algún precedente oriental, algunos conocimientos previos de Oriente, conocimientos a los que hace referencia y en los que se apoya. Además, toda obra sobre Oriente se asocia a otras obras, a determinados públicos e instituciones y al propio Oriente. El conjunto de relaciones entre las obras, los públicos y algunos aspectos particulares de Oriente constituye, por tanto, una formación que se puede analizar [...] y cuya presencia en el tiempo, en el discurso y en las instituciones (escuelas, bibliotecas y organismos de asuntos exteriores) le da fuerza y autoridad” (p. 44.).

persa y en Francia René Caillé recorrió muchas zonas del norte de África disfrazándose como un musulmán oriental. Todos estos autores y muchos otros contribuyeron a la aparición de una tradición que se hizo práctica recurrente desde el siglo XVIII y se prolongó hasta ya entrado el XX.

Adrián Patroni (1867–1950) objeto del presente trabajo, aunque es de origen argentino, y había llegado a Marruecos en 1932, actualiza a su modo el empleo del disfraz como recurso para su representación de nuestra realidad. Su trabajo *De la Argentina a Marruecos: amplio recorrido por las zonas del protectorado de España y Francia* (de aquí en adelante DIAaM) es representativo del orientalismo hispanoamericano, y una de las crónicas que inician el estudio científico de Marruecos. Antes de él, predominaba un modelo de escritura impregnado de exotismo y que celebraba la imagen de un Marruecos idealizado, una especie de “jardín de delicias” que sirve para embriagarse y para el éxtasis sensitivo del espíritu del hombre latinoamericano. Una representación prejuiciosa que reducía la realidad a imágenes y estereotipos del típico y distorsionado discurso orientalista decimonónico. El experimento narrativo del autor argentino extrapola una orientación orientalista europea a la literatura latinoamericana de su época: el viaje científico, entendido éste como la búsqueda de conocimientos y de datos concretos para fines económicos, políticos, militares o culturales. Pero es también paradigmático del “poder” del sistema canónico del exotismo que determina coercitivamente el modo de representación de la alteridad oriental. De allí la dualidad antitética que marca su discurso: Patroni, usando un oxímoron, es un “orientalista antiorientalista”.

## **2- Adrián Patroni el antiorientalista: crítica y subversión del canon orientalista**

Para entender el alcance de la actitud antiorientalista de Patroni, hay que tomar en consideración la naturaleza del discurso orientalista en general. Según Said (2008), el orientalismo, mediante la intertextualidad sobre todo, ha llegado a perennizar una serie de imágenes y tropos petrificados que configuran un canon discursivo con una fuerza que dirige representaciones diferentes y anula la misma realidad circundante de Oriente: “Oriente es una idea que tiene una historia, una tradición de pensamiento, unas imágenes y un vocabulario que le han dado una realidad y una presencia en y para Occidente” (p. 24.). El canon se asemeja en este caso a la noción de “poder” en el discurso “foucaultiano”.<sup>2</sup> En

---

2 - Cabe recordar que para el autor francés: “[el poder no es] un fenómeno de dominación masiva y homogénea de un individuo sobre los otros, de un grupo sobre los otros, de una clase sobre las otras; sino tener bien presente que el poder, si no se lo contempla desde demasiado lejos, no es algo dividido entre los que lo poseen, los que lo detentan exclusivamente y los que no lo tienen y lo soportan. El poder tiene que ser analizado como algo que circula, o más bien, como algo que no funciona sino en cadena. No está nunca localizado aquí o allí, no está nunca en las manos de algunos, no es un atributo como la riqueza o un bien. El poder funciona, se ejercita a través de una organización reticular. Y en sus redes no sólo circulan los individuos, sino que además están siempre en situación de sufrir o de ejercitar ese poder, no son nunca el blanco inerte o consintiente del poder ni son siempre los elementos de conexión. En otros términos, el poder transita transversalmente, no está quieto en los individuos” (Foucault: 1980, 144).



## **Abstract:**

*This paper tries to study the representation of Morocco in De la Argentina a Marruecos of Adrián Patroni. It aims to determine the discursive bipolarity in the work of the Argentine author who oscillates between a manifest critical attitude towards the canonical postulates of Orientalist discourse and a subjective assessment of Moroccan culture with flashes that reproduce the same premises that the author tries to deconstruct. Through an analytical approach of eclectic nature, the study shows the scope of the use of a series of narrative strategies for the subversion of the classical system of the representation of Eastern otherness. For example, the author deploys a scientific approach, the postures of the exotic of other authors and an eagerness to present a faithful image to the complexity of the situation of colonial Morocco. Such levels of fiction operate as a narrative disguise that conceals another antagonistic position, where other textual elements prolong a writing model replete with exotic chromatism, sublimations of Eastern otherness, stereotypical images of Moroccans and their surroundings. These can be considered as the real motives of representing the Moroccan reality.*

**Keywords:** *orientalism, representation, exoticism, subversion, disguise.*

## **1-Introducción.**

“Siempre las máscaras me dieron miedo. Sin duda sentí en la infancia que si alguien usaba una máscara estaba ocultando algo horrible. A veces (estas son mis pesadillas más terribles) me veo reflejado en un espejo, pero me veo reflejado con una máscara. Tengo miedo de arrancar la máscara porque tengo miedo de ver mi verdadero rostro, que imagino atroz.” Jorge Luis Borges, *Siete Noches*.

Si creemos la teoría de Bajtín, literaturizar ha sido desde sus orígenes una reproducción en dimensiones diferentes de la teatralidad carnavalesca. Hoy más que nunca el hecho literario guarda sinonimias con los juegos de enmascaramiento. El autor que escribe ficciones se desdobra en sus “personajes” –en latín “persona” significa máscara– y sus *alter ego*. Como identidades ficticias, las figuras novelescas, decía Maupassant (2001), recogen fragmentos de la personalidad real de su creador, y funcionan a modo de múltiples disfraces: leer a cualquier autor consiste entonces en ir disipando la opacidad de sus personajes, desvelando sus disfraces y recomponiendo su retrato esparcido a través de sus personajes–caretas. En ciertos géneros como la literatura de viajes orientalista, las implicaciones de la dualidad máscara–literatura adquiere dimensiones “reales”, en el sentido de que varios escritores, militares y viajeros llegaban a tierras orientales disfrazados en personajes–máscaras para esquivar males, peligros o cualquier cosa inoportuna, Sobran los nombres y los ejemplos: en España son conocidos los casos de Domingo Badía, Joaquín Gatell Folch y José María de Murga y Mugártegui que se hicieron pasar por personajes orientales llamados respectivamente Ali Bey, Kaid Ismail y Hajj Mohammed el-Bagdadi. En Inglaterra Sir Richard Burton llegó a la Meca como mendigo



## **Máscaras traslúcidas, caras elocuentes: Adrián Patroni un (anti)orientalista en Marruecos. Translucent masks, eloquent faces: Adrián Patroni an (anti)orientalist in Morocco.**

Ahmed Balghzal<sup>1</sup>

### **ملخص:**

يحاول المقال مقارنة أشكال تمثل الواقع المغربي في الخطاب الأميركيكولائيني عبر دراسة عمل للكاتب الأرجنتيني أدريان باتروني الموسوم De la Argentina a Marruecos وتحديد القطبية الخطابية في هذا العمل الذي يتأرجح بين نظرة نقدية لبعض الفرضيات الأساس للخطاب الاستشراقي وأخرى تنهل من تمثل مغرق في الذاتية للثقافة المغربية يعيد إنتاج نفس الظواهر الخطابية التي يحاول المؤلف تفكيكها. من خلال نهج تحليلي انتقائي تحاول الدراسة تبين أثر الاستخدام القناعي لمجموعة من الاستراتيجيات السردية بغرض تفكيك بنية الكتابة الاستشراقية الكلاسيكية مثل اعتماد نهج علمي لوصف الواقع المغربي، ونقد النزعة الغرائبية في كتابات مؤلفين آخرين والحرص على تقديم صورة على درجة من التجرد الموضوعي تقارب تشعبات وضعية المغرب خلال فترة الاحتلال الاستعماري. لكن أيضا تعمل هذه الوسائل النصية كقناع خطابي - سردي يواري نظرة أخرى تنهل من السردية الغرائبية وتعتمد في تمثلها على إعادة إنتاج صور نمطية مستهلكة للمغاربة وبيئتهم والتي يمكن اعتبارها ركائز تصور الكاتب الأرجنتيني للمغرب.

**الكلمات المفتاح:** الاستشراق، التمثل، الغرائبية، التفكيك، التنكر.

1 - Ahmed Balghzal doctorando de la Universidad Mohamed V Rabat. Obtuve mi Diploma de Estudios Profundizados por la Universidad Sidi Mohamed Ben Abdellah. Investigador especializado en temas relacionados con el mundo iberoamericano. Autor de dos artículos científicos publicados por Espacios y Miscelánea de Estudios Árabes y Hebraicos.

Cervera Baviera, J., *Expedición geográfico-militar al interior y costas de Marruecos*. Barcelona: Establecimiento tipográfico de Fidel Giró, 1885.

Gómez Benedito, V., “Julio Cervera Y Baviera. Vanguardia de una época”. *Boletín del Instituto de Cultura Alto Palancia*, Núm. 1, 1995, 97-116

Marín, M., “Un encuentro colonial: Viajeros españoles en Marruecos (1860-1912). *Hispania*, Vol. 56, Núm. 192, 1996, 93-114.

Asimismo le llamó la atención la manera de saludar de los marroquíes, que consistía en tender las manos y llevar después los dedos al pecho y a la boca, cosa que sigue existiendo en algunas regiones del país.

## **6- Conclusiones finales de la expedición**

Al final de su obra, Julio recoge todos los datos adquiridos y se dirige al Estado español que lo mandó para realizar dicha expedición dando unos consejos y recomendaciones para una futura ocupación del país. Una ocupación que no cesa de insistir en que debería ser “pacífica”. El militar español afirma que la ruta recorrida en su expedición es la más importante del imperio, y propone tomar ciertas medidas y realizar proyectos en Marruecos para introducir el carácter español y hacer que los marroquíes se acostumbren a su presencia mediante instituciones militares, sanitarias y educativas. Insiste en que se debe proponer misiones militares para ofrecer sus servicios al gobierno marroquí para instruir las tropas del askar “oficiales españoles de todas las armas, en corto número primero, que iría poco a poco aumentando sin llamar la atención, llegarían a influir en el ejército del sultán, estudiarían el país, el idioma, las costumbres, escribirían memorias y de seguro serían queridos y respetados por los indígenas” (1885,178) e insiste en que estos comisionados militares no deberían cobrar sueldos del gobierno marroquí. Propone también mandar médicos formales, amables, serviciales para asistir a los enfermos sin exigir retribución exorbitante, para hacer captar la simpatía del país “se introducirían en la alta sociedad marroquí y hasta en la corte del sultán, hallándose en condiciones de prestar señalados servicios y de merecer bien de la patria” (1885: 180); y establecer escuelas gratuitas de medicina sin imprimir el viso religioso, sino respetar las creencias de los naturales del país. Asimismo recomienda establecer centros para enseñar el español.

## **7- Conclusión**

Hemos podido conocer de cerca a una persona de doble perfiles: uno militar y otro santo. Julio Cervera Baviera pudo introducirse en Marruecos, fue bien recibido por la mayoría de los bachas y gobernadores de las provincias y karias que visitó, presentándose como amigo español del sultán. En Fez tuvo que disfrazarse como santo tunecino con el nombre de Omar Scherif, dicha santidad escondía el verdadero perfil que vino a Marruecos para examinar el territorio marroquí, sobre todo la capital del imperio y así detectar los puntos fuertes y débiles del ejército marroquí, del entorno geográfico y de la organización administrativa y militar del país, para luego planificar una ocupación que él denomina “pacífica”.

## **Bibliografía**

Abeigón Vidal, T. M.), “Julio Cervera Baviera (1854.1927). Primer radio-experimentador español en 1899”. *Radioaficionados*, 2016, 70-75.

Yo era un español amigo de Ben-Suchrón, cuya amistad era el único móvil de mi viaje a Fez; todo lo pagaba en los aduanares del tránsito; no hacía daño a nadie; no llevaba máquinas; no obtenía fotografías; no tomaba apuntes; no preguntaba nada referente al país ni me cuidaba siquiera de saber el nombre de los ríos; en Tánger no vi al embajador español; mi nombre era Omar y solo me cuidaba de hacer preguntas sobre puntos de la religión del Profeta, y esto con mucho respeto; en Fez paseaba las calles, comía con Ben-Suchrón, compraba objetos del país, y pronto me iría a España derechito por el mismo camino que había venido (Cervera Baviera: 1885, 119).

A lo largo de la obra no se menciona que los acompañantes marroquíes del militar español estaban al tanto del objetivo de su presencia en Marruecos, ni siquiera sabían su verdadero nombre, creían que de verdad se llamaba Omar. Tampoco se nota que su amigo Hamet estaba informado, porque Julio salía todas las mañanas cuando sus amigos en Fez estaban en el trabajo y volvía a casa para después pasar la tarde con ellos. Aprovechaba su compañía para hacerles preguntas indirectas que le ayudasen a completar sus notas:

Desde aquel día costóme maña el desprenderme de mis amigos moros, que a ninguna hora me dejaban solo. Únicamente por las mañanas, muy temprano, lograba salir a caballo sin compañía, guardando el secreto de mis matinales paseos. Por las tardes salgo con mis amigos, y dirigiendo preguntas indiferentes y sencillas, completo mis datos. (Cervera Baviera: 1885, 120)

### **5- La sociedad marroquí en la obra de Cervera Baviera**

Julio C. Baviera pudo sumergirse en la sociedad marroquí y descubrir ciertos rasgos tradicionales. Pudo conocer de cerca y asistir a las bodas de la hacha Aissa el Hetiba, hija única del difunto Hetib, ministro del sultán en Tánger, con el Scherif Abdeslam el Seguir Berreisol. Julio C. Baviera pudo asistir a la tradición de la llegada del novio en un caballo blanco y en su ropaje blanco y a la celebración “corros de montañeses, cornetas, tambores, gaitas, tiros, gritería y el iiiiuiuu de alegría de las moras” (Cervera Baviera: 1885, 25). Le llamó la atención también los vestidos que lucían las mujeres marroquíes “ricos trajes de seda y oro, collares de perlas, brazaletes y pendientes de brillantes, cadenas, medallitas y abalorios” (Cervera Baviera: 1885, 25). Asimismo tuvo la ocasión de probar los platos que se preparan en tales ceremonias, precisamente la tradición en aquel entonces de servir el té marroquí de tres maneras distintas:

...las tres reglamentarias tazas de té: la primera puro, la segunda con yerba buena y la tercera con ámbar; dulces, pastas y cena: carnero con huevos duros de colores y miel, gallinas rellenas con almíbar, ternera con almendra, canela y dulce (Cervera Baviera: 1885, 25).

Dicha ceremonia e invitación le enseñó a Julio una característica del pueblo marroquí que es la hospitalidad, que descubriría a lo largo de todo su itinerario por las zonas que atravesaría, ya que en muchas zonas estaría bien alojado y recibido por los kaidas y “bachas” de las provincias y de las “karias”.

esconde el objetivo militar de la presencia vulnerable en Fez. Cada mañana salía a examinar el terreno, describir las limitaciones de la capital del imperio (los montes, las llanuras, los valles, los fuertes y las líneas cañoneras), las limitaciones y profundidades del río Fas, la división de la población en dos partes: Fas el-Balia (Fez Viejo) y Fas el-Yedida (Nuevo Fez), el número de los habitantes (100.000 almas), el número de mezquitas, el palacio del sultán, el desarrollo del comercio en la capital y la industria que como postula en su libro: “se reduce a la fabricación de telas de lana, chilabas, alquiceles, gorros colorados, curtidos de pieles, loza basta, finas esteras de junco y paja muy bien trabajados, sillas de montar, pólvora y objetos de cobre” (Cervera Baviera: 1885, 94). Su examen del territorio lo llevó a varias conclusiones:

- Fez no resulta ser una plaza fuerte “su situación, obras de defensa y topografía del terreno que la rodea, facilitarían a un ejército bien organizado y mediatamente dirigido la inmediata posesión de la capital de Marruecos” (1885, 94).

- Los puntos más importantes para la defensa de la plaza son: las alturas de Dyebel Zalag, colinas de Dar-Bu-Amork, el dyebel-Tgat, Dyebel Mherez, el palacio imperial y Gbeb-Beni Merín.

- La invasión de la capital del imperio debe intentarse a partir de la llanura del Uad Fas.

Julio debe mucho a sus tres amigos que le sirvieron en Fez: Hamet Ben-Schucrón, Abdeslam el-Fasi y Mohamet Schedadi, pero más especialmente a Hamet que incluso le ayudó a redactar sus notas “señalando los defectos de la sociedad y organización político administrativa de su país” (Cervera Baviera: 1885, 115). Julio Cervera Baviera solía salir todas las mañanas a caballo para recorrer los alrededores de Fez, trazar los croquis, examinar los puntos estratégicos y tácticos de la comarca, calcular la importancia militar de los campamentos militares. Su presencia no pasó desapercibida, y al tercer día de su llegada a Fez, el jefe de policía ordenó a Hach Mohamet que lo acompañase para presentarse en la casa del ministro, éste le preguntó quién era Julio Cervera Baviera:

...qué buscaba en Marruecos; por dónde había ido a Fez; qué hacía en los aduares del campo; si llevaba máquinas pequeñas con anteojos; se medía los caminos, la anchura y profundidad de los ríos, las murallas de las poblaciones; si obtenía fotografías; si tomaba apuntes; si el embajador español de Tánger había hablado conmigo antes de emprender el viaje; si asistía a los ejercicios del askar; qué hacía en Fez a cada una de las horas del día y de la noche; cuándo pensaba regresar a España; por qué caminos; objetos que componían mi viaje (Cervera Baviera: 1885, 119).

El hach Mohamet respondió a las preguntas del ministro siguiendo las instrucciones de Julio, y sería mejor citar la respuesta tal como aparece en el libro para percibir el disimulo en la tarea de Julio:



Julio Cervera Baviera disfrazado en Omar Scherif  
(Julio Cervera Baviera, 1885, 93)

Fue recibido en la casa del bacha Sidi Abd-Allah-ben-Hamet-Kukari que “puso a su servicio un soldado y un moro” para acompañarle a la casa propiedad del sultán. Por fin se encontró con su amigo marroquí Hamet Ben-Schucrón, con el que estudió en la Academia Militar de Guadalajara. Hamet le fue de gran ayuda durante su estadía en Fez, junto a otros dos amigos marroquíes de la misma Academia. Pudo recorrer las calles de la capital en compañía de sus antiguos compañeros, visitar los monumentos y examinar los puentes construidos sobre el río Fez. Su presencia en Fez pudo llamar la atención de los conocidos de Hamet Ben-Schucrón. Éste les dijo que es un Scherif de Túnez:

Mi traje marroquí, mi fisonomía y mi lenguaje llama la atención de muchas personas notables que saludan a Hamet Ben-Schucrón y le preguntan quién soy yo. –Un Scherif de Túnez,- contesta mi amigo; y bien pronto corre de boca en boca mi nombre. Omar Scherif inspira respeto y veneración a los moros y desde aquel día constantemente se acercan grandes y chicos, ancianos y mujeres, a tocar mi albornoz con la mano, que llevan después a sus labios (Cervera Baviera: 1885, 91).

Se puede notar la ingenuidad de los marroquíes y su creencia arraigada en los santos. En pocos días de su llegada a Fez, y debido también a repartir limosna cada día entre los pobres, creció la fama del tunecino Omar Scherif como uno de los más santos y más queridos en Fez. La apariencia santa del llamado Omar

Marruecos sin la ayuda de dos personajes que encabezaron su expedición y le ayudaron a evitar serios problemas en la ruta, nos referimos a Hamido Laambre, un joven de 22 años y Hach Mohamet el Tzlemizani, califa de Tetuán y bacha de otras provincias en tiempo anterior.

La obra de Cervera Baviera presenta un abanico de información sobre el imperio marroquí de aquel entonces. Es un conjunto técnico-informativo de los datos más importantes de la sociedad marroquí, de la organización político administrativa del imperio que se divide en varias provincias, cada provincia está gobernada por un bacha mientras que los pequeños distritos del campo son gobernados por kaidis unos independientes y otros kalifas o subgobernadores; la administración de justicia está a cargo de los kadís, acompañados de sus adules o escribanos. Asimismo el militar español pudo observar que el ejército marroquí se constituye de:

- El askar o tropas organizadas a la europea
- Los bokaris (bujaris)
- Los contingentes del makkisén
- El gum o masa general del país, armado en caso de guerra
- La artillería de campaña y costa

Su expedición de carácter secreto no le impidió intervenir en serios casos presentándose como amigo del sultán y que está en camino a Fez para su encuentro. A modo de ejemplo citamos su intervención para detener el maltrato de un anciano y sus hijos por parte de los soldados marroquíes “Yo soy un español y voy a Fez a ver al sultán, que es muy amigo mío y lo quiero mucho y quiero mucho a todos los moros, y por eso no puedo consentir que en mi presencia se les maltrate” (Cervera Baviera: 1885, 37). Hay que precisar que durante su recorrido desde Ceuta y antes de llegar a Fez, Julio Cervera Baviera se presenta de dos formas: ante los moros, los soldados, y la gente que encuentra en el camino y preguntan por quién es, les dice que es un español y que es un amigo del sultán como acabamos de señalar; cuando se halla en una casa del gobierno, como en el Fondak (Dar-el-Majisen), el Hach Mohamet que lo acompaña contesta que es “un coronel cristiano al servicio del sultán, que, después de recorrer el teatro de la guerra de las tribus insurrectas, regresa a Fez para dar cuenta al emperador del resultado de la campaña” (Cervera Baviera: 1885, 49-50). En Fez estaremos ante otra figura de Julio Cervera Baviera.

#### **4- El santo “Omar Scherif” en Fez**

Antes de entrar a Fez, Julio Cervera Baviera llevó el traje tradicional marroquí para no llamar la atención,

Para no llamar la atención en la capital del imperio, antes de llegar a la ciudad adopté la chilaba, el tarbux y demás prendas usadas en el país. De esta manera podía obrar con más libertad, así como inspeccionar detenidamente ciertos detalles sin infundir sospechas(1885, 85).

- En Fez
- Fez (Faz)
- Organización política administrativa del imperio
- El imperio y el ejército marroquí
- Los ingenieros militares del sultán
- De Fez al Uad Mkis
- Del Uad Mkis al Uad Rdom
- En la llanura de los Beni Hassén
- Sigo en Beni Hassén y llevo a Rabat
- En Rabat
- A Mehedia
- De Mehedia a Larache por Bu Selam
- De Larache a Arzila
- Tánger
- Diversas consideraciones

El texto se caracteriza por un estilo descriptivo que no deja pasar ningún detalle precisamente geográfico-militar sin mencionarlo. Se describen todas las ciudades y “kábilas” visitadas: las limitaciones geográficas, los muros, las alcazabas, los barrios, los ríos, los mercados, la mercancía, la economía y el comercio en cada zona, la industria; y además se dibujan croquis y mapas de las regiones más importantes. Parece que estamos ante una cámara, un autor personaje y testigo a la vez, porque captura los mínimos detalles. Es la cámara espía del colonizador. El estilo del libro es muy sencillo, ya que prevalece la recopilación de un gran número de informaciones y datos. Es una obra más técnica que literaria. Abunda el léxico del dialecto marroquí como “bacha”, “Karia”, “mjasnia”, “askar”, “suk-el-Yemis”, “aamel hach”, “bel flús”, “kaiton”, “laua”, “la”...etc.

Durante su expedición se interesó, sobre todo, por describir los panoramas del campamento del ejército marroquí en varias zonas, señalando así los grupos de tiendas, el número de soldados, su arma y su vestimenta. Pudo introducirse dentro del campamento imperial en Anghera para examinar el lugar de cerca. Asimismo tuvo la ocasión de presenciar las sublevaciones de unas tribus contra el sultán y las campañas contra ellos, como la sublevación de Haim-El-Hamra. Cervera Baviera estudió el lugar estratégicamente a nivel militar para medir la importancia de las milicias armadas en una guerra:

Y yo acariciaba la idea de estudiar con detenimiento una de aquellas agrupaciones de familias militares, indagando los detalles de su organización, su manera de ser, sus privilegios, sus costumbres, su fuerza, para deducir su importancia en influencia como milicias armadas en una guerra” (Cervera Baviera: 1885, 53).

Julio Cervera Baviera no hubiera podido realizar su viaje dentro de



de capitán en 1885, y viajó de nuevo a África, para una nueva expedición al Sáhara, como resultado publicó en 1887 su libro Viaje de exploración por el Sáhara Occidental: Estudios geográficos. Dicha expedición dio como fruto la firma de unos tratados comerciales y “el incremento de la influencia española en la zona, por lo cual fue nombrado comandante del Ejército” (Abeigón Vidal: 2016, 70).

### **3- El viaje de Cervera Baviera a través de su obra**

El libro de Cervera Baviera Expedición geográfico-militar al interior y costas de Marruecos refleja la experiencia vivida en un país del norte de África. Es un diario ya que el autor no deja pasar ningún día sin anotar lo vivido, descubierto y sentido en todas las zonas recorridas. Es un relato organizado cronológicamente durante cuatro meses de estadía en Marruecos. Se suma a las publicaciones en esa época de obras de viaje escritas por militares, como bien lo afirma Marín: “A partir, sobre todo, de la guerra de 1859-60, la producción bibliográfica sobre Marruecos conoce una expansión enorme y una buena parte de esta producción está, precisamente, escrita por militares (1996,96).

Cervera Baviera describe las zonas recorridas mediante las informaciones estratégicas, los mapas y los croquis del país. Cuando llega a Fez, la capital del imperio marroquí, hace una serie de observaciones sobre los puntos estratégicos y los campamentos del ejército, proporcionando las medidas a tomar para la invasión del país. Se nota una ideología colonial, ya que para Cervera Baviera Marruecos debe ser modernizado y desarrollado, y para ello debe ser colonizado. De modo que estamos ante una superioridad moral del viajero, que se considera superior a los marroquíes, intelectual, modernizado y originario de un país desarrollado.

Aparte del aspecto militar de la expedición, el libro presenta una descripción fecunda del paisaje y las costumbres de las zonas visitadas. La obra se ordena en 28 capítulos, que constituyen el itinerario del viaje:

- Mi viaje
- A Tetuán
- En Tetuán
- Al Mehhalla de Busfejar
- El Scherif de Uassán y las kábilas de Anghera
- Un ejército marroquí en campaña
- Fin de lo de Anghera
- El camino de Fondak
- Colonia militar de Ain-Dalia
- El Gharbia –Jolot- Alkázar-Kebir
- El Gharb
- De Karia el Habbasi al Uarghat
- A Fez

military occupation. The details of the expedition are described in *Expedición geográfico-militar al interior y costas de Marruecos*, written by himself and published in Barcelona in 1885. This book presents the geographical description of the area for military aims. It also describes the landscape and the customs of the visited regions. The expedition of Julio Cervera Baviera left from Ceuta and arrived in Fez, Morocco to Morocco. From the beginning of the journey he disguised as a Moroccan and changed his name to Omar Sherif. This study pretends to shed light on this adventurous and polemical explorer, who was able to disguise in order to fulfill an expedition with military purposes, through the unique book of his journey in the above-mentioned work.

**Key words:** *disguise, adventure, exploration, Moroccan society, peaceful occupation.*

### 1- Introducción

Dedicamos las siguientes páginas a echar un poco de luz sobre la figura viajera del español Julio Cervera Baviera, que fue enviado a Marruecos en 1884 para realizar una expedición geográfico-militar de las costas y del interior del país. El ingeniero militar pudo examinar durante cuatro meses el territorio marroquí desde Ceuta hasta Fez para una futura ocupación militar, como bien señala Gómez Benedito “la hipótesis más razonable se basa en la exploración de la región para facilitar una futura ocupación militar y valorar las ventajas económicas que podría reportar a nuestro país” (Gómez Benedito: 1995,100). Todas las observaciones y los comentarios fueron recopilados en una obra suya publicada un año más tarde después de su expedición. Su obra es un testigo de su viaje lleno de aventura y de descubrimiento.

### 2- Julio Cervera Baviera (1854-1927)

Es de suma importancia arrancar este trabajodando unas informaciones acerca de nuestro viajero. Ingeniero militar, uno de los precursores de la telegrafía y telefonía sin hilos. Hizo sus estudios en la Escuela Militar de Caballería de Valladolid, después fue admitido en la Academia de Ingenieros del Ejército en Guadalajara, donde se graduó en 1882 como teniente, allí pudo conocer a tres amigos de Fez, que le serían de gran ayuda durante su estadía en esta ciudad. En 1884 viajó a Marruecos con “el objeto de ampliar sus estudios geográficos militares, escribiendo más tarde las crónicas de este viaje en un libro titulado *Expedición geográfico-militar al interior y costas de Marruecos*” (Abeigón Vidal: 2016, 70). Al volver a España fue ascendido a rango



Julio Cervera Baviera

# Marruecos visto por el colonizador A través del viaje de Julio Cervera Baviera

Nadia BALINE<sup>1</sup>

## ملخص:

خوليو ثيربيرا باييرا عالم وسياسي ومغامر مولع بكل ما له علاقة بإفريقيا، تم إرساله إلى المغرب سنة 1884 في مهمة استكشافية دامت أربعة أشهر داخل البلد بهدف احتلال عسكري لاحق. هذا الرحالة الإسباني تحدث عن جل تفاصيل رحلته في كتاب يحمل عنوان رحلة جغرافية عسكرية إلى داخل المغرب وسواحلها، نشر في مدينة برشلونة سنة 1885. يقدم هذا الكتاب وصفا جغرافيا للمناطق التي زارها الرحالة وكذا لتقاليد أهلها. انطلقت رحلة خوليو من مدينة سبتة مروراً بتطوان إلى أن وصل إلى مدينة فاس، متسلحاً بذكائه ووفاء "المورين" الذين ساعدوه على تفادي هجوم قطاع الطرق وريبة المكلفين بالسلطة في البلد. منذ بداية الرحلة تنكر خوليو ثيربيرا بزى مغربي واستعار اسم عمر الشريف وقدم نفسه على أنه قادم من تونس حتى يقوم بمهمته على أكمل وجه. تسلط هذه الدراسة الضوء على هذه الشخصية المثيرة للجدل من خلال دراسة الشاهد الأكبر على توأجدها بالمغرب وعلى كل ما عاينته أثناء القيام بمهمتها.

**الكلمات المفتاح:** التنكر، المغامرة، الاستكشاف، المجتمع المغربي، الاحتلال السلمي.

## Abstract:

*Julio Cervera Baviera is a scientist, a politician and adventurer. He is passionate about everything related to Africa. He was sent to Morocco in 1884 in an exploration mission of the empire looking forward to a future*

<sup>1</sup> - Nadia Baline, doctora en Estudios Hispánicos de la Universidad Hassan II de Casablanca, especialidad Traducción e Interculturalidad, profesora de español en secundaria pública y traductora.



self, and juxtaposition of several elements of an entire creative world, where the writer- whether an autonym, orthonym or heteronym- can read, write, review, criticize, comment, analyze, translate, speak more than one language, and establish different literary relationships at the same time.

It is worth noting that Charles Robert Anon and Alexander Search are not listed in this chart, simply because they are addressed by Maria Colom Jiménez in a separate chapter. In Jiménez view, “Charles Robert Anon and Alexander Search are not only the authors of young Fernando Pessoa’s more serious poetic experimentations in English language, but they are also responsible for signing most of the poems written during the author’s adolescence and youth” (Thesis, p. 2727). These “literary characters take part in the beginning of the pre-heteronymic literary scheme created by the young Portuguese author, but they are both, especially Alexander Search, closer to being pre-heteronyms or even heteronyms than simply literary characters when compared to all the other English literary characters of Pessoa’s youth” (Thesis, p. 272). The following chart reveals the principal characters of both heteronyms:

<b>Heteronym</b>	<b>Date of creation</b>	<b>notes</b>
Charles Robert Anon	1903- 1910	British heteronym who played an active role in Pessoa’s pre-heteronymic period; author of Pessoa’s personal diary, notebook, documents, two unpublished prose fragments(the idea of infinity, theory of perception); used for sending letters; previously attributed some poems, but were later signed by Alexander Search; author of biographical information...
Alexander Search	1906	Pessoa’s most significant youth heteronym. A multilingual poet who signed a large literary production (more than 20 books in English, French and Portuguese): Mostly poems, poetic anthologies, notebooks, criticism, commentaries, reviews, essays, journeys, etc. His writings are mostly about the unknown, fear of madness, the inner voyage, fear of death, nostalgia to childhood, dream and fragmented self...

Finally, through the essential features of these fictional personalities, Jiménez introduces the concept of heteronymy as division, multiplication and depersonalization, but also as an enrichment of the writer’s self. The process of creating imaginary characters contributes not only to producing several texts, but also to bringing to being a diversified modern literary project. Pessoa’s heteronymy allowed therefore a very rich corpus written in several languages (Portuguese, English, Spanish, French...), encompassing poetry, short story, biography, drama, essay, fragment, etc. and engaged in conceptualization, design, creation, translation, analysis, criticism, correspondence... Within this scope, each character adopts and plays a role in the fictional world, which turns into a real one thanks to its literary production. Owing to such a diversity of heteronyms, Pessoa was given total freedom to produce various texts, which may appear contradictory when compared. In addition, this heteronymic diversity reflects the Pessoaan multi-faceted fiction, the depersonalization of the

Faber		
(Dr.) William Jinks	1904	Portraitist, protagonist of short fictional narratives, Pessoa's fictional collaborator and author of letters.
Efbedee Pasha	1922	Short story writer, good at Scottish dialect and writer of fictional press notices and humoristic texts.
Master Musician	No date is mentioned	Author and protagonist of a possible unfinished short narrative.
Charles James Search	1908	Brother of Alexander Search, translator and author of a draft letter.
Sher Henay	1916	Translator and author of a preface for <i>Sensationist Anthology</i> .
Herr Prosit	1907	Author, protagonist and translator.
Carlos Otto Miguel Otto	1909	Author of poems, translator and collaborator in <i>Ibis</i> journal
Vicente Guedes	1909	Bilingual translator and first author of <i>The Book of Disquiet</i> , which was attributed later on to Bernardo Soares. Author of poems and short stories.
Navas	1910	Translator of short stories from English to Portuguese
Thomas Crosse	1914	Multilingual literary translator, author of prefaces, articles and fragments.
James L. Mason	No date is mentioned	Bilingual translator from Portuguese to English.
A.L.R.	//	Few signatures on loose documents, no text attributed to him.
Tito Vencchi	//	Few signatures on loose documents, no text attributed to him.
Augustus	//	Few signatures on loose documents, no text attributed to him.
AR	//	Few signatures on loose documents, no text attributed to him.
Beyson	//	Few signatures on loose documents, no text attributed to him.

W. Fasnacht	No date is mentioned	Graphologist.
Pantaleão	1907	Co-author of <i>The Transformation Book or Book of Tasks</i> .
Usquebaugh V. Bangem	1907	Author of doctoral thesis.
Frederick Wyatt and all the other Wyatts	1913	Author of descriptive narration, a preface of a poetry anthology, and poems.
James Bodenham	1913	Author of fragmented and unfinished essay <i>The Psychological Laws of Problem Solving</i> .
Olga Baker Charles Baker or just Baker	No date is mentioned	Author of three books planned 'to earn money,' author of a system of telegraphic coding, and draft ideas.
I.I. Crosse	//	Author of two unfinished articles.
A.A. Crosse	//	Contributor to word quizzes in English weekly journals, author of some letters and of a completed text.
Dr. Abílio Quaresma	1913	Author and protagonist of some detective stories, planned to be author of a text about Shakespeare.
Adolf Moscow, Marvell Kisch, Gabriel Keene and Sebastian Kay	No date is mentioned	Collaborators in <i>O Palrador</i> .
Raphael Baldaya	1915	Bilingual astrologer, planned to write <i>The Foundations of Astrology and Mundane Astrology</i> .
Astral Spirits: Henry More, Wardour, Voodooist, Henry Lovell, Marnoco e Sousa, and George Henry Morse	1916	Authors of English and Portuguese texts.
Lucas Merrick	1904	Brother of David Merrick, short story writer, author of a notebook, planned to write other projects.
Sidney Parkinson Stool	1904	Author of short stories. His signatures found on a loose document.
Horace James	1904	Author of <i>The Case of the Science Master</i> .



		plays.
Karl P. Effield	1903	Author of a poem and a book of travel narratives. He signed several correspondences. He planned to write the beginning of an essay.
Tagus	1903	He contributed to riddles, sometimes in the form of short poems.
Gaveston, Martin Gaveston, Anton Gaveston, Jerome Gaveston, Piers Gaveston and Ed. Gaveston	1904- 1908	This fictional character, which adopts several names, appears in numerous documents (notebooks, caricature, margins, loose signatures on papers, etc.).
Dr. Pancrácio	1902	Collaborator in <i>O Palrador</i> journal, author of poems, epigrams and essays for the journal.
W. W. Austin	1903	Author of correspondences, in which he explains some poems and short stories.
J. G. Henderson Carr	1903	Author of riddles and contributor to <i>The Natal Mercury</i> . He is thought to be the author of an essay on reason.
Dr. Gaudêncio Nabos	1902- 1915	Bilingual character, contributor to <i>O Palrador</i> and author of a humoristic text.
Ginkel, David Ginkel, David Denton and David Alexander	1904	He signed some notes and notebooks. He is the author of two fragments about Nirvana in Buddhism
Professor Trochee	1904	Second author of Pessoa's <i>Essay on Poetry</i> , he signed some other documents.
Professor Jones or Dr. William Jones	1905	Last fictional author of Pessoa's <i>Essay on Poetry</i> , author of fictional correspondences, author and protagonist of a short story. He also signed some notes.
Anthony Harris	1906	His signature found in one handwritten text.
Dr. Faustino Antunes	1906	Trilingual character, author of correspondences to Clifford Geerdts. Some other signatures found in numerous lose documents.
A. Moreira	1907	Bilingual character and possible author of <i>Essay on Intuition</i> .
Friar Maurice	1907	Author of <i>The Book of Friar Maurice</i> .

peers or masks of other writers, such as Shakespeare and Whitman, Pessoa wants to convert himself, as Jiménez puts it, into an ‘ultr-Shakespearian’ or ‘ultra-Whitmanian.’ In fact, through these heteronyms, Pessoa was able to read and review the English literary heritage. He could also interact, salute, praise, debate, transcend such a legacy and create a modern poetic aesthetics. Hence, he succeeded to become the pioneer of modern Portuguese poetry.

The following chart provides an assessment of Pessoa’s English fictional characters. They are presented here according to the order set by Jiménez:

<b>Heteronyms</b>	<b>Date of Creation</b>	<b>Notes</b>
David Merrick	1903	Pessoa’s first English fictional author. He is bilingual. He is the author of an unfinished poetry anthology and 2 short stories, planned to be the writer of two

chart later). They are poets, novelists, short story writers, narrators, critics, playwrights, translators, astrologers... They know each other; some of them are friends or relatives. They read, dialogue, interact, review, criticize, write to each other, etc. In order to bring this world together, Pessoa created what he called 'drama-em-gente' (drama-in-people/ theatre of being), where the different heteronyms can freely live, write, interact and even intervene in Pessoa's life<sup>9</sup>. Within such a 'drama-in-people,' not only Portuguese and English<sup>10</sup> coexist, but also universal classical and modern ideas, philosophies, cultures and literatures interact. It allows, in this case, an open access to world literature. Pessoa kept therefore in line with the new literary tendencies and was able to revolutionize the Portuguese literature.

The fictional world, where these heteronyms were born, wrote and coexisted, looks like theater. These heteronyms are like characters on a Shakespearian stage, where they carry out real literary roles, produce real artistic and creative works, and seek to understand life without any heavenly or earthly directives. For instance, they read, write and dedicate books for readers. Pessoa was also able to read different books through heteronyms; for example, he read Walt Whitman through Alexander Search. The latter is the most important of his English literary personalities, despite his poetry does not initiate any experimentation- only in content as we will see later-, as is the case with other heteronyms, such as Alvaro de Campos. As far as Search is concerned, Jiménez says:

“[I]t proves attention-grabbing to note how Alexander Search is more significant in Pessoa's overall heteronymic process than one should think. Alexander Search, given exactly the same birth date as his creator, is also the owner of numerous books in Fernando Pessoa's personal library, a detail which did not occur with many of Pessoa's literary characters or even heteronyms. When examining Alexander Search's copy of *Leaves of Grass*, one of the first things that calls our attention is the consistent underlining of verses surrounding the themes of self, self-awareness, individual and diversity, individual and his surroundings already, alluding to the concerns which are later also found in Pessoa's poetry.” (Thesis, p. 104)

Search's poetic experience shows Pessoa's move from a romantic poetry that is classical in form into a different one which is modern only in content. In contrast to Search, Pessoa experiments with his other English heteronyms, as Jiménez explains, distinct modern aesthetics that allows some language fluidity, as English, Portuguese and sometimes French are brought together in one text. In such aesthetics, feelings flow, expression takes place freely and the beauty of poetry is highlighted. In addition, by transforming these heteronyms into

---

9 - It is not surprising that Pessoa considers Alberto Caeiro his master.

10 - Jiménez alludes to the fact that the use of English may be considered at the same time a mask and a pre-heteronymic conception (Thesis, p. 31).

narrative, dramatic), deal with distinct issues (literature, politics, society, culture...), answer controversial questions (modernity, writing, existence...), etc. Heteronymy is associated with the following questions: Who is the author? Is he/ she a writing self or a subject for writing? Is he/ she objective or subjective? Is he/ she consistent or fragmented? Is he/ she unrivalled or multifold? Pessoa is, according to Jiménez, a poet with multiple characters, whose uniqueness embraces plurality, or whose plurality is outlined by his singularity. Heteronymy is, therefore, manifested as a very complex literary reality, in which several literary imaginary characters/ personalities match and rival, or even surpass, their creator.

Pessoa's English heteronyms were, as Jiménez reveals, created early in his childhood; that is, during his early years of learning English in Durban. Pessoa realized that heteronymy could spur his creativity and motivate his literary life. His literary world was greatly influenced by such a choice. His literary identity was essentially determined by depersonalizing the self and creating fictional and imaginary characters, which undertake various literary projects (in poetry, short stories, articles, prefaces, correspondences...). Though some heteronyms have not signed any text, they are active participants, loyal friends or intellectual associates and colleagues.

Heteronymy did not turn into an 'aesthetic' choice only after Pessoa had found himself confronted with the questions of modernity in the Portuguese literary writing. Within such a choice, Pessoa was not only able to create heteronyms, but also attributed skillfully special and unique characteristics to each one of them. Not only did Pessoa seem a complex and composite personality, but also his heteronyms do appear intricate and interconnected with interwoven literary, artistic and linguistic dimensions that are not easily understood.<sup>7</sup> In addition to their literary functionality, such intricate heteronyms have to do with the divergent ideas that the writer sought to discuss or the positions he wanted to express. Consequently, the different metaphysical positions, ideas and beliefs cannot be reflected, at once, only through varied personalities or characters.<sup>8</sup>

In Pessoa's case, there are 106 heteronyms, according to Jiménez' count. Some 48 have written different texts in English (I will present them in a detailed

---

7 - In fact, the difficulty lies not only in the very intricate combination of several personality qualities, or in the hardship of distinguishing the personalities' attributes, values, identities and competences, but also in the fact that they have extra-attributes to their heteronymy (they are either orthonyms, autonoms, pseudonyms, aliases, or semi, para, proto, meta, draft heteronyms, as already mentioned) and that they can be identified with Pessoa himself or other writers, in this case with: Shakespeare, Johnson, Marlowe, Milton, Goldsworth, Coleridge, Shelley, Keats, Emerson, Whitman, Dickens, Stevenson, Hegel, Schopenhauer, etc.).

8 - Jiménez shows, for example, that Alberto Caeiro does not believe in divinity, but seeks to know what the metaphysics is about. Ricardo Reis does believe in divinity, but cannot explain what it is about. Alvaro de Campos, however, is unable to understand what is beyond, though he painstakingly and relentlessly tries to do so.

Before proceeding to Jiménez' investigation, I would like to present Pessoa's backgrounds for assuming a heteronym while writing:

How do I write in the name of these three? Caeiro, through sheer and unexpected inspiration, without knowing or even suspecting that I'm going to write in his name. Ricardo Reis, after an abstract meditation that suddenly takes concrete shape in an ode. Campos, when I feel a sudden impulse to write and don't know what. (My semi-heteronym Bernardo Soares, who in many ways resembles Álvaro de Campos, always appears when I'm sleepy or drowsy, such that my qualities of inhibition and logical reasoning are suspended; his prose is an endless reverie. He's a semi-heteronym because his personality, although not my own, doesn't differ from my own but is a mere mutilation of it. He's me without my logical reasoning and emotion...)<sup>5</sup>.

This quote illustrates some reasons behind the use of heteronyms. Qualities such as 'sheer,' 'inspiration,' 'impulse,' 'inhibition,' 'reasoning,' 'reverie,' etc. are, according to Pessoa, the point of departure to create an entire world of orthonyms, autonoms, heteronyms, semi-heteronyms, para-heteronyms, proto-heteronyms, meta-heteronyms, draft heteronyms, literary characters, literary personalities, aliases and pseudonyms. But the starting point in creating these imaginary friends and companions lies, in Jiménez' view, in the fact that Pessoa desired that they could, on the one hand, assume and contribute to his prolific literary creation which encompasses poetry, prose, criticism, philosophy, mysticism, astrology, philology, morals, aesthetics, articles for newspapers and journals, etc.<sup>6</sup> On the other hand, they could serve as a means for either writing in or translating to-and-fro Portuguese, English, Spanish and French (probably, this is why Jiménez has devoted the first chapters to studying his multi-lingualism; namely his early learning of English in Durban).

Jiménez' thesis seeks to highlight Pessoa's English heteronyms which are still unknown inside and outside Portuguese academic arena, and to define their literary identities, tasks and achievements. In her view, these heteronyms were essentially "created to carry out the author's various literary projects in English language" (Thesis, p. 269). Such a diligent and painstaking literary endeavor started earlier in his life, for "he was, from a very young age, already inclined towards literary depersonalization and the creation of literary characters with whose help he planned to embrace 'a whole literature'" (Thesis, p. 270).

Pessoa's heteronyms are not pseudonyms, as it may be thought, but rather imaginary personalities with special entities and identities, having dates of birth, various formations, private lives, etc. Pessoa is assimilated to manifold selves having different characters, which may speak many languages (Portuguese, English, French, Spanish...), use varied literary genres (poetic,

---

5 - Pessoa, Fernando (2002). *Letter to Adolfo Casais Monteiro*, 13.01.1935, in *The Book of Disquiet*. (London: Penguin Classics) p. 474.

6 - Jiménez reports that Pessoa's literary archive includes some 543 documents in total.

## ملخص:

تروم هذه الورقة التعريف بمضامين الأطروحة، التي قدمتها الباحثة البرتغالية 'ماريا كولوم خيمينيث' لنيل الدكتوراه بجامعة 'كومبلوتانس' بمدريد سنة 2016، في موضوع "الشخصيات الأدبية الإنجليزية عند فرناندو بيسوا". تتناول هذه الأطروحة، في أربعة فصول، نظرية هذا الشاعر البرتغالي في الكتابة، بما يسميه 'الشخصيات' أو 'الشخوص' الأدبية، لا باعتبارها أسماء مستعارة، وإنما بوصفها شخصيات متخيلة تتولى، إلى جانب الكاتب أو نيابة عنه، مهمة التخطيط والتفكير والتأليف والإبداع. تقدم 'خيمينيث' هذا العالم التخيلي باعتباره الفضاء الأول الذي سمح لبيسوا بوضع نظريته العامة حول 'الشخوص الأدبية'، أو ما يسميه بـ'دراما الناس'. ظهرت تجلياته الأولى في كتاباته بالإنجليزية، قبل أن تشمل إيداعاته بلغته الأصل. إذ أتاح هذا الاختيار بتعظيم الذات الكاتب وتعددتها أثناء الكتابة، حتى تنتج نصوصا متنوعة وغنية ومختلفة، من حيث لغاتها ومواضيعها وأسئلتها وبنياتها وأشكالها... تظهر هذه الشخوص، داخل هذا العالم، متجاوزة ومتعايشة، البعض منها منخرط في مشاريع متكاملة، مثل 'الكسندر سورتش' و'تشارلز روبرت أنون'، والبعض الآخر مكتف بتأليف الشذرات والرسائل والمراجعات، فيما يتخذ البعض صفة الأصدقاء والأرفاق.

**الكلمات المفاتيح:** الشخصيات/ الشخوص الأدبية، دراما الناس، الكتابة، الذات، نظرية بيسوا.

"The Penguin Dictionary of Literary Terms and Literary Theory" defines the concept of 'heteronym' as a "term invented by the Portuguese poet Fernando Pessoa (1888- 1935) to denote a kind of creative alter ego: a separate character and personality who produced poetry and prose."<sup>4</sup> Such a definition introduces this concept in the same way as in Maria Colom Jiménez' thesis: Pessoa's English Literary Characters; that is, in so far as the heteronym represents the multi-faceted literary personality, expression and existence. It also engages in an entire rich, interwoven and complex creative process that makes use of four different languages in writing and invests in different literary genres. In this respect, Jiménez examines these heteronyms, determines their identities, characters, personalities and prolific literary contributions and explores the fields of their creativity.

4 - Cuddon, J. A. (1997). *The Penguin Dictionary of Literary Terms and Literary Theory*. (London: Pneguin Books), p. 409.

# Who are Pessoa' English Heteronyms?

## A Review of Maria Colom Jiménez' Thesis Fernando Pessoa's English Literary Characters<sup>1</sup>

---

Mohamed Jalid<sup>2</sup>

### Abstract:

*This paper aims at introducing Maria Colom Jiménez<sup>3</sup> thesis Fernando Pessoa's English Literary Characters: A critical Study and Assessment of Personalities and Texts, which was presented in 2016 at Universidad Complutense de Madrid in partial fulfillment of the requirements for the doctorate degree. Pessoa's heteronyms (literary characters/ personalities) are presented herein not as pseudonyms, but rather as fictional characters that undertake, alongside or on behalf of him, the task of planning, thinking, creating and writing. Such an imaginary world is, according to Jiménez, the first literary endeavor that allowed him to develop what he called 'drama em gente' (drama in people). Pessoa elaborated heteronymy first in English before he tried it in all other writings. This choice permitted the multiplication of the writer's self, in order to produce different, rich and diverse, not only in terms of their languages, structures and forms, but also in terms of their topics and questions.*

**Key words:** *Literary characters/ personalities, drama em gente, writing, self, Pessoa's theory.*

---

1 - The full title of this dissertation is "Fernando Pessoa's English Literary Characters: A Critical Study and Assessment of Personalities and Text". This thesis was performed at the Facultad de Filología, Universidad Complutense de Madrid, under the supervision of Prof. Dámaso López García, and was discussed in 2016. References to her text will be made inside the review as 'Thesis.'

2 - Mohamed Jalid is a researcher, translator and journalist. He is interested in culture. He published several literary and intellectual translations, including: International Criminal Justice at the Crossroads (Hans Kockler), Le souffle du jasmin and Le cri des pierres (Gilbert Sinoué, Pnine (Vladimir Nabokov), etc. He also published a study entitled Western Discourse on Political Islam.

3 - María Colom Jiménez is an Associate Professor (Portuguese Language and Literature) at the Department of Romanic Philology, Slavic Philology and General Linguistics (Faculty of Philology, University Complutense of Madrid), and a European Mention Ph.D Candidate in Literary Studies (Department of English Philology II, University Complutense of Madrid). Maria is also Professor of the English Department at ESNE, centro asociado de la Universidad Rey Juan Carlos.

doctors, clerics, painters and intellectuals, whose mission was to spy through infiltration and disguise in order to collect information about the land, the people, the mentalities, the cultures, the languages, the nature of regimes and their statuses. So, their mission was an adventure fraught with the dangers of revealing their real identities. To hide their identities, these explorers went through trainings in various schemes. They also read and acquired their predecessors' reports to become ready to create and foster a new persona that could be accepted in the hosting place. These trainings enabled the disguised Self to become well prepared to lies, trickery and cunningness. Moreover, they deployed modern knowledge about natural sciences, medicine, engineering, weaponry and military organizations for persuasion and intrusion into places of decision making.

The discourse of masking and disguise has witnessed a remarkable diversity in terms of forms of expression that are inherently expressive masks. These are bestowed with unique aesthetics as is the case of some travel narratives and memoirs, or as the case of masking in theatrical forms with Domencko Badia (Ali Bay Abbasi) through a text wherein the expression of an obsessive passion for adventure embraces the ambitions of European colonialism. We have included this text as a representation of the genre chosen by Ali Bey. However, on the creative and intellectual levels, and in another cultural context, some writers, critics and thinkers would find in disguising themselves through fake names a way to conceal their real identities from the oppressive ruler, as did Mikhail Bakhtin, or a playful poetic and cultural way to construct multiple identities from within one single identity, as did the Portuguese poet Fernando Pessoa through the multiple masks he adopts in the cultural and philosophical issues he purports to convey.



## **Foreword**

---

The idea of the fifth issue of Soroud Journal revolves around the deconstruction of the discourse of masking (disguise) adopted by a number of European writers from France, Spain, Germany, the UK, Italy and other countries. These writers produced their texts in fake and disguised identities by adopting pseudonyms from the countries to which they travelled. They visited most of the Arab, African and Asian countries and documented their experiences in texts of varying value; a fact that turned into a phenomenon that established cultural and symbolic patterns related to history, culture, and politics. In so doing, they produced discourses on otherness at various levels but leading to common purposes.

The representations prevailing in these texts of “disguised identities” are replete with rich facets of consciousness and intricate forms of image layers within a context saturated with European knowledge that ranges from the sixteenth century up to now as a result of a constructed collective consciousness resulting from historical accumulation and an emerging individual consciousness. These works are informed by an array of representations, both latent and manifest, that sometimes clash and create ambivalences between the real and the masked, the Self and the Other, and raise various issues that vary from one text to another according to the traveller’s culture together with the private and public contexts.

In this issue, individual adventures and European colonial projects intersect and coalesce together in travel writing, memoirs, reports, correspondences, studies, press writings, plays and poems. These genres document the European colonial Self in its quest for the Other and its environment and cultural symbols. They lay bare the other face of a Europe in ardent desire to dominate an entire continent through knowledge and espionage operations. By doing this, the number of writings with documentation purposes multiplied in early years.

After the discovery of the new world, the European political and economic mindset paid considerable attention to the necessity of coming back to the old world, the southern part, which represents otherness with its human power and natural and mineral resources. Hence, a legal framework was established with religious, political and ideological references driven by zealous explorations that are ostensibly monitored by geographical associations or scientific expeditions. These are managed, financed, and coordinated by the highest authorities and agencies in the European countries. The explorations involved the military as well as geographers, botanists,

*“Soroud”* is a biannual journal that publishes articles in French, English and Arabic. Articles sent to the journal go through a rigorous peer-reviewing process by specialists in accordance with academic standards. It publishes critical studies in literary criticism. Submissions are considered for publication on the understanding that the paper was not published before in any electronic or paper formats, and that it is not currently under consideration for publication elsewhere. Papers must be scientifically documented and adhere to research methodology.

- Authors are required to submit an abstract about the key issues explored in the article (200 words), and the keywords (Arabic, French and English). A brief biography of the author should include full name, research focus, occupation, and his/her recent literary or critical production (100 words).

- Each study must include sub-titles.

- Articles must be sent to the following e-mail address:  
**soroudmaroc@gmail.com**

**Previous issues:**

Issue 1, Spring 2018: Modern narratives

Issue 2, Spring 2019: The culture of travel narrative

Issue 3, winter 2019: Intentionality in the Humanities

Issue 4, Spring 2020: Narrating Passion(s)

Issue 5, Winter 2020: Disguise representation(s)

**Forthcoming Issues:**

Scientific research in literature, languages and the humanities

Fictions and non-fictions biographies

Ecological criticism

## Table of Contents

<b>Studies in English, Spanish and French</b> .....	5
<b>Mohamed Jalid:</b> Who are Pessoa' English Heteronyms? A Review of Maria Colom Jiménez' Thesis Fernando Pessoa's English Literary Characters .....	7
<b>Nadia BALINE:</b> Marruecos visto por el colonizador A través del viaje de Julio Cervera Baviera .....	19
<b>Ahmed Balghzal:</b> Máscaras traslúcidas, caras elocuentes: Adrián Patroni un (anti) orientalista en Marruecos Translucentmasks, eloquentfaces: Adrián Patroni an (anti) orientalist in Morocco .....	29
<b>Ahmed Aziz Houdzi:</b> Démasquage de l'imposture coloniale où quand Mardochéé contre-attaque par l'écriture le récit de Charles de Foucauld .....	47
 <b>Studies in Arabic</b>	
<b>Aisha al-Maati:</b> Secret explorations in Africa: explorers, spies and travelers in forbidden regions .....	7
<b>Abd el-Wahid Akamir:</b> The enemy always comes from the south .....	35
<b>Adel Jahil:</b> between knowledge and disguise The Atlantic desert with Spanish eyes .....	45
<b>Abdel Moneim Bouno:</b> Three Spanish spies in the Maghreb of the century The Nineteenth .....	71
<b>Zahra Ibrahim:</b> The Metaphorical Narrative Vision in Al-Tahir Jean Walis Padovani .....	79
<b>Filamona Ioo:</b> The Heteronomy of Fernando Pessoa, translated by Farida Samadi .....	101
<b>Antoine Ishii:</b> The traveller and his masks: the example of Pierre-Jean Grosley's Swedes translated by Mohamed Elafia Elaroussi .....	123
<b>Chouaib Halifi:</b> The most amazing masks for Ali Bey! .....	145
<b>Ali Bey</b> in Morocco, a five-act tragedy (autumn 1815), Written by Ali Bey (Domingo Badia), translated by: Abdel Moneim Bouno and Ahmed .....	165

*Soroud*, is a peer-reviewed journal of literary criticism, launched by the Laboratoire de Narratologie in Casablanca, FLSH Ben M'Sik and published by of Qalam al-Maghribi. The journal publishes research in Arabic, French, English and Spanish, following the peer-review standards adopted by international academic journals.

## **Editorial Board**

### **Editor in Chief: Chouaib Halifi**

**Editorial Secretary:** Bouchaib Saouri

### **Editorial Board**

Abdelfattahe **lahjomri** (Arabization Coordination Office, Rabat)

Idriss **Kassouri** (Hassan II University, Casablanca)

Elmiloud **Othmani** (Hassan II University, Casablanca)

Ahmed **Jilali** (Hassan I University, Settat)

Hassan **Elmouden** (Cadi Ayyad University, Marrakech)

Jamal **Bendahman** (Hassan II University, Casablanca)

Abdelouahed **Lamrabet** (Cadi Ayyad University, Marrakech)

Samir **Alazhar** (Hassan II University, Casablanca)

### **Scientific Advisory Board**

Ahmed **Bouhsane** (Mohammed v University of Rabat) - Che **Xue Yi** (Northwest Normal University, Gansu-China) - Hamid **Lahmidani** (Usmba University of Fès) - Gonzalo **Fernández Parrilla** (Universidad Autónoma de Madrid) - Abd el Wahid **Agmir** (Mohammed v University of Rabat) - Christiane **Achour** (Lsh.u-cergy-Pontoise - France) - Abdullah Alaoui **Al-Madaghri** (Mohammed V University of Rabat) - Nieves **Paradela Alonso** (Universidad Autónoma de Madrid) - Mourad **Yelles** (Inalco de Paris) - Carmelo **Perez Beltrán** (Universidad de Granada) - Dan **Paraka** (K.S.V- USA) - Nina **Morgan** (K.S.V- USA) - Jacqueline **Jondot** (U.mireille Toulouse) - Mohamed **Eid** (U.Doha- Qatar) - Abdelkader **Sabil** (U.H2 Casablanca).

**Editorial Assistants:** Brahim Azough - Salem Elfayda - Lhoussain Simour-Aicha Elmaaté - Mohamed Mohyidine - Abdelhak Najih - Chouraichi Lamaachi - Said Ghassan.

**One third of the editorial staff and assistant editors is renewed on a three-year basis  
Editorial board members and Assistants do not publish in the journal**

**Contributors to the preparation of this issue:** Abdelmajid ouziane (Morocco) Francisco Moscoso García (Spain), Salih Howaidi (Iraq), Waheed Ben Bouaziz (Algeria), Mohamed Tenfou (Morocco), Abdullah Sadik (Morocco), Desirée López Bernal (Spain), Souad Al-Anzi (Kuwait), Mohammed el-Massoudi (Morocco), María Dolores Rodríguez Gómez (Spain), Nizar Tajaditi (Morocco), Miloud Ghourafi (France), Noura Boukaftan (Morocco), Daniel Gil-Benumeya Flores (Spain).

**Artistic design:** the plastic artist B. Khaldoun

**Legal advisor:** Mr. Jalal taher, lawyer at the Casablanca Bar Association.

**Publisher:** Al Qalam al-Maghribi, Casablanca

**Editions:** Dar Al Karraouine / **Distributor:** SOCHEPRESS

Issue 4, Spring 2020, 300 p. / All rights reserved

**Legal deposit n°:** 2018 PE 0027 / **Press file:** 06/2018

**International Standard Serial Number (ISSN):** 6771-2605

**E-mail:** soroudmaroc@gmail.com

**Website:** www.soroud.ma / **Address:** 18, Rue 14, Riad El Ali, 20550, Casablanca, Morocco

**Price:** 50DH/10€

**Soroud**  
**The Journal of Literary Criticism**

**Disguise representations**

**Issue 5, Winter 2020**

The Journal of Literary Criticism published by Laboratory of Narratives, Faculty of Letters and Humanities, FLSH Ben M'sik, Casablanca

**soroud**  
The Journal of Literary Criticism

soroud

**Disguise representations(s)**

soroud

Issue 5  
Winter 2020

الثمن 50 درهما